مكتبة مدبولي
Madbouly Bookshop

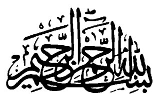
الدار العربية للعلوم ـ ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

قَبل أن يُغادِرنا التاريخ

الفريق الركن
رَعْد مَجيد الحَمَداني
قائد فيلق الحرس الجمهوري العراقي الثاني (الفتح المبين)



قبل أن يغادرنا
التـاريـخ


بسم الله الرحمن الرحيم

قبل أن يغادرنا التاريخ

تأليف الفريق الركن
رعد مجيد الحمداني



الدار العربية للعلوم ـ ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

الطبعة الأولى

1428 هـ - 2007 م

ردمك 9953-29-772-X



الدار العربية للعلوم ـ ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL
عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961)
ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (9611)

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (9611)

المحتويات

إهداء ..

إليك يا جيش العراق العظيم جيش الأمة الباسل بكل ما احتويت من معاني البطولة والتضحيات أهدي إليك هذا العمل المتواضع.. ستبقى رمزاً شامخاً من رموز الوحدة الوطنية الصادقة مهما حاول عبثاً أعداء العراق إلغاء تاريخك الماجد فهو جزء من تاريخ العراق العظيم

تقديم الدكتور عبد الوهاب القصاب

"المرء بأصغريه قلبه ولسانه"

حديث شريف

في حـــياة الإنسان محطات تترك بصماتها على مسيرة حياته ترفعه.. تعوقه.. تغربه.. إلاّ أن الحياة في الغالب تتحكم بالإنسان ومساره،كثيرون منا نحن المؤمنون ندعو ذلك بالقدر. ونحن مأمورون بالإيمان به، بخيره وشره... إلا أن أحداثاً تطرأ علـــى قدر الإنسان، وأنا أعني بالإنسان هنا الشعوب. تجعله في لحظة من لحظات حياته مسهماً في بناء قدره، ومسهماً في ترتيب الظروف الداعية للمرحلة أو المحطة القدريـــة لتأخذ مداها ومجالها، وهنا يأتي دور كاتب هذه المذكرات، فكان مساهماً في صـــياغة قدره منذ اللحظة التي اختار فيها الجندية مهنة وشرفاً وما أليق الشرف بالجـــندية، والجـــندية العراقية جندية مميزة، فهي وريثة مجد، بل أمجاد موغلة بالقدم يبدو وكأنها هي الأخرى أسهمت بصياغة شخصية العراقي المميزة والمعروفة بأنفها وإبائهـــا اللـــذان يـــنمان عن تواضع نبيل، وهذه سمات يكاد كل العراقيين بكل مشاربهم وتنوعاتهم يشتركون فيها.

هـــذه الـــصفات نجـــدها موسومة في شخصية كاتب هذه المذكرات، لقد استمدها من عراقيته أولاً، ثم من بيئته البغدادية التي اختزلت كل صفات العراقيين، ثم وجـــدها ماثلـــة أمامه في مؤسسة الجيش. لقد بدأ من الكلية العسكرية التي قُبِل بـــدورتها التاســـعة والأربعين، وأكملها متفوقاً، فضابطاً في صنف الدروع فارس صـــنوف القوات المسلحة العراقية، وتدرج في فرق الجيش العريقة كالفرقة المدرعة الثالثة والفرقة المدرعة العاشرة، وأخيراً حطّت به عصا الترحال جندياً مشرداً حين قـــضت ســـلطة الاحتلال الأميركي بتفكيك وإلغاء الجيش العراقي تلك المؤسسة السيادية العملاقة التي كتب عليها القتال المتواصل منذ أن واجهت قوات الاحتلال

البريطاني بكل جبروتها في الحرب العالمية الثانية، إلى قتال الصهاينة في فلسطين إلى جانب الأخوة العرب الذين هبوا لنجدة أهل فلسطين، إلى نجدة مصر من العدوان المشترك الذي شنه الفرنسيون والبريطانيون عام 1956 إلى القتال في حربي 1967 و 1973.

وعندما اندفع الجار الشرقي للعراق إثر عنفوان ثورته الإسلامية وقبل أن تحقق هذه الثورة أهدافها في إيران نحو العراق بوابة الوطن العربي الشرقية لتصدير ثورته عنوة، وقفت القوات المسلحة العراقية الوطنية سداً منيعاً عن العراق ومَنْ خلفه، وخاضت غمار حرب ضروس طويلة، وسطّر رجالها مآثر عظيمة ومنهم كاتب هذه المذكرات الذي شارك فيها بعدد من مناصب القيادة والركن، وقد اختير ليكون واحداً من قوات النخبة (قوات الحرس الجمهوري).. وهي قوات قتالية معدة ومسلحة جيداً، وهنا لا بد من وقفة مع هذه القوات (الحرس)، لننصفها أولاً، ولنبيّن حقيقتها ثانياً، ولننحني لبطولتها ولتضحياتها ثالثاً. فقوات الحرس الجمهوري لم تكن حرس حماية للرئيس، فحرس الرئيس كان يسمى الحماية الخاصة تارة وقوة الطوارئ تارة أخرى، إن للحرس الجمهوري مهامه وتقاليده الخاصة. إذاً الحرس الجمهوري العراقي هو جزء أساسي من الجيش العراقي وشكّل دائماً قوات الضربة الرئيسية فيه أي الاحتياط الاستراتيجي للقيادة العامة للقوات المسلحة العراقية خلال الحروب المتتالية منذ عام 1982، وخاصة بعد نكسة احتلال الفاو عام 1986 حيث توسع كثيراً، ومنتسبو الحرس الجمهوري هم من جميع وحدات الجيش العراقي بكل تنوعاته العرقية والطائفية، وممن تأكدت كفاءتهم في الجيش. ولا يغيب عن البال أن لكل قاعدة شواذها. في هذه القوات وجد كاتب المذكرات مجاله ليبدع فيه، وهو مبدع بطبعه، وقد كان في هذا متميّزاً. وساعده إيمانه بالله والتزامه الإسلامي بأن يكون صادقاً مع نفسه أولاً، فأبدع وبدأ يجتذب الانتباه، انتباه مشوب بالحذر، فقد كان المبدع بين الآخرين (شيء ينبغي الحذر منه وفق طبيعة الأمور في عالمنا الشرقي). وكان المثقف القارئ وسط بيئة تملّ من القراءة سريعاً أو تخشى نتائجها البعيدة من وجهة النظر السياسية مما يسهّل على الآخرين إلصاق التهم الظالمة به، ومنها ما كادت تودي بصاحبنا إلى تهلكة أكيدة جهلاً أو

حسداً وكيداً. لقد التحق بقوات الحرس الجمهوري حين بدأت موجات الاندفاع العراقــي بالتلاشــي عام 1982، ثم بالتراجع فتحمّلت هذه القوات ثقل الهجمات المقابلــة لإيقاف اندفاعات العدو المستمرة في خطوطنا الدفاعية الطويلة. وضريبة ذلك المزيد من التضحيات ومزيداً من الإعداد لتشمل العراقيين جميعاً. لقد اقتربت المعارك منهم بأكثر مما يجب، ودُكّت بغداد بالصواريخ بعدما انحسرت عنها غارات الطيران الإيراني كثيراً ولعل أبشعها حين دك صاروخ إيراني مدرسة بلاط الشهداء للأطفال صباح أحد الأيام.

لعــل أهم ما يميّز مذكرات الفريق الحمداني هو وجدانيتها التي تنمّ عن درجة عالــية من الشفافية والإخلاص اللذين تجيش بهما نفس كاتبها، فأنت حيث تقرأ تــرى صــدقاً ماثلاً أمام ناظريك، وأينما تتصفّح تجد تجارب رجل عايش المراحل الــصعبة من تاريخنا المعاصر بل إن ما تراه فيها يؤرّخ لتنامي العسكرية العراقية في حقــبة البحث. لقد دخل الحمداني القوات المسلحة العراقية وهي ست فرق قتالية، وغادرهــا وهي نيف وعشرون فرقة، بعد أن مرّت بأوج اتساعها إبان الحرب مع إيران حين قاربت الستين فرقة، وقد عمل في هذه القوات بمختلف قدماتها القيادية والركن من آمر لرعيل يتألّف من ثلاث دبابات، إلى قائد لفيلق الحرس الجمهوري تألّــف من فرقتين مدرعتين وأخرتين من المشاة في الحرب الأخيرة. لقد ألــمّ من كل مراحل مسؤولياته بخبرة وحكمة، وقد أضفت ثقافته العسكرية والعامة الكثير على شخصيته بل على معيته أيضاً. ولعل ما يلفت الانتباه نجاحه في إعداد وتدريب فــيلقه لنمط ملائم للحرب الأخيرة بالرغم من المعارضة الشديدة للقيادة العليا لمن يخرج عن مسلماتها شبه المقدسة.

لقــد حالفني الحظ أن أعايش الفترة عينها التي غطتها المذكرات، وأشهد علــى درجة علمي واطلاعي بأنّ ما جاء فيها كان صحيحاً وإن كانت هنالك بعــض الملاحظــات التي قد يكون اختلاف الظروف والمشاهد سبباً فيها فمنها مــثلاً الإشارة إلى أن الرئيس صدام حسين قد بادر رئيس أركان الجيش الفريق أول نــزار الخزرجي معتذراً بعدم إعلامه عن التخطيط لمعركة تحرير الفاو عام 1988.

وهـــنا بودي أن أشير إلى أن قرار توقيت معركة تحرير الفاو كان قد قُرّر خلال معارك شميران (حلبجة) بالاتفاق ما بين الرئيس، ووزير الدفاع، ورئيس أركان الجيش باستدعاء الأخيرين بالطائرة إلى بغداد يوم 1988/4/15. وكان التخطيط الفعلي لمعارك التحرير يتمّ بإشراف المومأ إليه كما لمسته بنفسي عند اشتغالي في رئاسة أركان الجيش آنــذاك، وقد خوّل رئيس أركان الجيش آنذاك ووزير الدفاع قيادة الحرس الجمهوري ومارساها فعلاً، وهي حالة لم تتكرّر إلا مرة بعد الانسحاب من الكويت حيث أوكل الرئيس صدام حسين للفريق الخزرجي قيادة كافة القوات العراقية جنوب بغداد.

لقد كانت معارك التحرير لعام 1988 (رمضان مبارك والتوكلات 1 و2 و3 و4) مجمــوعة مـــن أهم المناورات الحربية في تاريخ المنطقة لدرجة أدائها العالي جداً. وقد كانت بصمات الفريق الخزرجي واضحة فيها، ومع ذلك فقد اجتهد الفريق الحمداني في تحلــيله لمجريات الأمور طيلة خدمته العسكرية، وكان مصيباً فيها، وكذلك كانت استنتاجاته صحيحة. ولعل ما يؤكّد هذه الحقيقة تناوله لمحطات مهمة من الأداء القتالي للعـــسكرية العـــراقية، فقـــد وجـــدناه وهـــو يؤرّخ لدور الجيش العراقي في حرب تشرين/رمضان عام 1973 الذي اندفع بمناورة تنقل استراتيجي قاربت 1000 كم بين مناطق التحشد في العراق إلى الجبهة السورية (الجولان) قطعتها نصف القوات المدرعة المشاركة سيراً مباشراً على الطريق (سيراً على الجنازير)، وهذا إعجاز وإنجاز عسكري قياســي إذا مـــا حسبنا المخاطر المحتملة للطيران الإسرائيلي، والمجازفة المشهودة بزج القـــوات العراقية الواصلة تواً إلى ساحات العمليات بالقتال دون أدنى استحضارات؛ ومـــنها ضـــرورات استطلاع الأرض والعدو، ودون أية دراية بالموقف القتالي، فقواته المدرعـــة أسهمت في تثبيت وشلّ حركة اندفاع العدو الإسرائيلي صوب دمشق، أما المشاة الجبلي العراقي (وهي القوات المدرّبة والمجهّزة للقتال في المناطق الجبلية)، فساهمت في معـــارك شمـــال الجولان. وبعد ذلك مباشرة نراه يسرد وقائع عمليات قمع التمرد للحـــركة الكردية شمالي العراق عامي 1974-1975، ثم يرفقها بتحليل مناسب لمن لم يعاصر تلك الأحداث.

كانـــت الحرب العراقية الإيرانية الطويلة 1980-1988 هي المجال الذي نضجت فـــيه الخـــبرة القتالـــية والمهنية للمؤلف الذي شارك في معظم معاركها ضمن سلسلة

القيادة، وعمل الركن (إن الإعداد القياسي للضابط في الجيش العراقي هو العمل في مناصب هيئات الركن والقيادة)، ثم كانت الحرب على الكويت عام 1990، فنراه يقود قوة الواجب الأولى لقوات الحرس الجمهوري منذ الشروع باجتياز الحدود الدولية بين البلدين حتى السيطرة على العاصمة في مدة قياسية جداً وهي خمس ساعات فقط. وحين تلت تلك الأحداث حرب الخليج الثانية عام 1991 - ويُطلَق عليها عراقياً اسم أم المعارك - نجده مجازفاً في نقد خطة الدفاع العراقية نقداً لاذعاً، مما عرّضه لاتهام قاسٍ نال من وطنيته. ثم يصف لنا الفريق الحمداني بشكل ممتاز أسباب الانتكاسة في اثنتي عشرة نقطة تشير كلها إلى الخطر الكارثي الذي يحيق بالدول عندما تتركز عملية صناعة القرارات المصيرية عند زعيم البلاد وباستشارة محدودة من لدن عناصر يفتقر معظمهم للكفاءة والثقافة الإستراتيجية، لقد كانت كارثة الكويت أولى الكوارث التي أودت تراكماتها السلبية بالكيان العراقي برمته، ومن هنا جاءت المشورة المعطاة للقائد العام (إذا كانت هناك أصلاً مشورة) قاصرة على إدراك البعد والمغزى الاستراتيجي لكل ما جرى، بل على العكس تمّ إحراق أوراق الردع العراقية واحدة بعد الأخرى بدءاً بالخيار الكيمياوي وانتهاء بسلاح صواريخ أرض - أرض الذي استخدم هو الآخر بشكل غير عقلاني. لقد أبلت بعض قواتنا رغم كل ذلك التفوق المعادي بلاءً حسناً حتى في أحلك الظروف القتالية، ومنها حين تمكّنت إحدى فرق الحرس الجمهوري (توكلنا على الله) من إيقاف تقدّم الفيلق الأميركي السابع في معركة خط التشريق 73 (Easting 73) الشهيرة، والتي وثّقها مؤرخ عسكري مشهور هو الدكتور ستيفن بورك. وقد تشرّفت بنقل هذه المأثرة العسكرية العراقية إلى اللغة العربية، ونشرها بيت الحكمة البغدادي بتوزيع محدود تحت عنوان (تصحيح الأساطير عن حرب الخليج)، وقد حلّل هذه الدراسة واحدٌ من العسكريين العراقيين المرموقين وهو الفريق الركن طارق محمود شكري في دراسة بعنوان (صخب المعركة يودي بالتقنية). لقد أشاد هذا المؤرخ العسكري بالصفات القتالية العظيمة للمقاتل العراقي الذي وصلت به الحال إلى تسلّق الدبابات الأميركية بهدف تدميرها، الأمر الذي جعل تلك الدبابات ترمي ما يسمى بنيران الحدس (Searching Fire) إحداها على الأخرى لقتل المقاتلين العراقيين الذين نجحوا في تسلقها. واستعرض كاتب المذكرات بعد ذلك

فتـــرة مـــا بين حربي 1991 و2003 حيث كان الحصار الدولي الطويل على العراق، والـــذي أضـــعف كثيراً قدرات العراق، وخاصة قواته المسلحة مع استمرار الضربات الجوية الأميركية والبريطانية على العراق وخاصة في منطقتي الحظر الشمالية والجنوبية. كـــذلك أشار إلى قرار الرئيس العراقي في إعادة احتلال الكويت عام 1994، ومحاولته إقناع القيادة بالرجوع عن هذا القرار عارضاً حقائق القدرات المتاحة بكل صراحة وما سيترتب عليه من نتائج مأساوية. ووصف الفريق الحمداني فترة الاستحضارات لمواجهة الأميركيين للحرب الحاسمة، وتطرّق إلى إرهاصات صنع القرار وبناء الخطط الدفاعية، وكـــيف حـــاول أن يقنع الرئيس صدام حسين بضرورة تغيير الاستراتيجية العسكرية الدفاعـــية العراقية إلى نمط قريب من حرب العصابات، وأماط اللثام عن حقيقة خطة الدفاع عن بغداد وأسرارها، ثم وصف لنا سير معارك هذه الحرب التي أنهت نظام دولة العراق، وليس نظامها السياسي فحسب وخاصة معارك فيلقه (فيلق الحرس الجمهوري الـــثاني – الفتح المبين) الذي كانت مسؤوليته الدفاعية تمتد جنوب بغداد بما يقرب من 200 كـــم وعلـــى محوري دجلة والفرات وذلك لحين سقوط بغداد، وتسليم نفسه للقـــوات الأميركية بعد ذلك بقليل، ذاكراً الكثير من المواقف القتالية للمقاتل العراقي الـــتي غيّبـــتها نتائج الحرب الكارثية، والتي كانت رمزاً لمعاني البطولة وشرف الانتماء الوطني في ظلّ تفوّق معاد ساحق ونتائج حرب معروفة مسبقاً.

وبعد كل هذا، سيشكل الكتاب متعة للقارئ، وفخراً لأي عربي يرى هذا الأداء الـــرائع لقـــوات مسلحة بلغت مستوى استدعى أن تجمع الولايات المتحدة الأميركية العـــالم بقيادتها لتدمرها. كذلك سيكون هذا الكتاب مرجعاً مهماً للمدارس العسكرية المخـــتلفة لما احتواه من مادة في فن الحرب كتاريخ عسكري ودروس مستنبطة. كما وجـــبت الإشـــارة إلى أن كاتب المذكرات قد أرفق العديد من الخرائط الخاصة بأهم المعارك التي تطرّق إليها وأخيراً أقول (قطعاً إن التاريخ لن يغادرنا فنحن من كتبناه).

اللواء الركن المتقاعد

الدكتور عبد الوهاب القصاب

دار العراق لدراسات المستقبل

عمان، الأردن في 2006/1/17

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾

هود (120)

منذ تخرّجي من الكلية العسكرية العراقية عام 1970 ضابطاً برتبة ملازم دروع وأنا أدوّن يوميات خدمتي العسكرية لتساعدني في كتابة مذكراتي الشخصية عند انتهاء الخدمة. وما ظننت يوماً أن هذا اليوم سيكون يوم نهاية جيشنا الباسل في التاسع من نيسان/أبريل عام 2003، حينما سقطت بغداد جريحة(*)، ورضخ العراق تحت الاحتلال الأميركي البريطاني تحت شعار (الحرية للعراق)، لقد ضربت الفوضى العارمة أطنابها في كل مكان، وهدرت دماء العراقيين بلا وجل وبلا ثمن تحت ظلّ شبح تقسيم العراق المخيف وفق تناقضات سياسية محلية، وإقليمية، ودولية. لقد اقتلعت استراتيجية البلدوزر الأميركي أسس دولة العراق الحديث بمؤسساتها كافة (عدا مؤسسات النفط) ومنها القوات المسلحة، وما كانت تلك المؤسسات يوماً ملكاً خاصاً لزعيم أو لرئيس، لكن مع الأسف، حين تبدأ التحولات الكبرى سلباً أو إيجاباً في التاريخ الإنساني، تكون على الأغلب وفق أسلوب الانقضاض اللاواعي أولاً، فهذه بغداد قد دمّرت كما دمّرت عام 1258م على يد المغول! وعلى ما يبدو هناك ضريبة باهظة لا بد منها تدفعها الشعوب والأمم لتلك التحولات.

إنها لصدمة عظيمة لكلّ حالم بفردوس الحضارة الغربية بالمعايير وبالقيم الأميركية، وأنا من هؤلاء الحالمين. صحيح أن الإدارة الأميركية كانت واقعة تحت

(*) هذا هو السقوط السادس عشر في تاريخ بغداد منذ تأسيسها عام 145 للهجرة.

ضغط رهيب بعد أحداث أيلول/سبتمبر المروّعة عام 2001، مما دفعها إلى التحرك بسرعة نحو نوع من العقاب المستعجل يصل إلى أقصى درجات القسوة، بحيث تكون مشاهد الدم والحريق والتدمير ظاهرة أمام الأمة الأميركية لتطفئ نارها، وتشفي غليلها لكي لا تواجه هذه الإدارة أزمة يصعب تقدير عواقبها، لكن هل يحدث هذا على حساب القيم والمعايير الحضارية والإنسانية لأعظم أمة عرفها التاريخ البشري والتي كانت ولا تزال تنادي بها ليل نهار، وبالرغم من إمكانية التمييز ما بين السياسة الأميركية والحضارة الأميركية، وما بين السياسة الأميركية الوطنية والسياسة الأميركية الصهيونية، إلا أن الذي حدث يصعب تسويغه أو تبريره، فالأمم العظيمة تعي ما تفعل وإلا فإنها تكون قد أقدمت على الانتحار الأخلاقي والحضاري(*).

إنّ من السمات اللصيقة بالتاريخ أن يظلّ مختلفاً عليه وحوله لتعدد الروايات، وتباين الرؤى وزوايا النظر للأحداث، إلا أنه كان لسقوط بغداد دوياً شديداً على المستويات والأصعدة المختلفة محلياً وإقليمياً ودولياً، وعلى الرغم من أن التاريخ يحفظ لنا حوادث أشدّ من ذلك كسقوط فرنسا الأمة العظيمة القوية خلال أسبوعين فقط في أسر الاحتلال الألماني عام 1940 في الحرب العالمية الثانية، إلا أن الناس استغربوا انهيار العراق بثلاثة أسابيع وهي مدّة الحرب التي شنّتها أعظم دولة في العالم بمساندة بريطانيا العظمى، فهناك تساؤلات وتحليلات عديدة ومتناقضة حول أسباب ذلك الانهيار السريع، ويعتقد الكثيرون أن هناك أسراراً لا تزال طيّ الكتمان، ومما لا شك فيه أنها كانت حرباً غير مشروعة وفق القانون الدولي تطلّب تبريرها من خلال القدرات اللامتناهية للوسائط الإعلامية والدبلوماسية الأميركية والبريطانية، فعمّمت هذه الكثير من المغالطات وزوّرت شيئاً من الحقائق، وسعت بشكل حثيث لتنفيذ المخطط الصهيوني الداعي لتقسيم العراق على قاعدة إثارة الأحقاد والأضغان ما بين مكونات الشعب العراقي، وقد سهّلت مهمتها طبيعة النظام السياسي الدكتاتوري السابق للعراق، وهشاشة النظام السياسي العراقي الجديد وطبيعة الوعي السياسي العام للشعب العراقي الخاضع للعاطفة الساذجة على

(*) عبارات مقتبسة عن الأستاذ محمد حسنين هيكل بتصرف.

إفــرازات ثقافــات مختلفة ومتباينة وتراث غير ممحص في ظروف تاريخية وإقليمية قاسية.

من أجل ذلك تدعو الحاجة المثقفين بشكل عام، والمسؤولين العراقيين ومنهم القــادة الذين عاشوا الأحداث المهمة للمساهمة في إظهار الحقيقة المغيّبة في أوحال الــتمويه بشكل وطني صادق مجرّد من أية مصالح سياسية أو طائفية أو عنصرية أو شخصية لإحقاق العدل في مسألة كتابة التاريخ قبل أن يغادرنا، ليس لهذه الحرب فحــسب بل لكل تاريخ العراق المعاصر، بعدما نُفّذ حكم الإعدام بمؤسسات دولة العراق ولو أن العدل يعتبر حلم الضعفاء، والقانون والتاريخ يكتبهما الأقوياء، وهذا مــنطق وتــأثير التــيار الصهيوني على السياسة الأميركية في عراق ما قبل وبعد نيــسان/أبــريل عــام 2003 مع خالص الاحترام والتقدير للمسؤولين الأميركيين الوطنــيين ومــنهم القــادة والضباط المهمّون في القوات الأميركية الذين خضعوا مكرهين لتلك السياسة. وكثير منا يعلم حجم وقوة التأثير الصهيوني في صنع القرار الأميركي في كل ما يتعلق بقضايا الشرق الأوسط.

يــصعب على الكثير من المثقفين العراقيين أو غيرهم فهم السياسة الأميركية واستراتيجيتها في العراق، التي جعلت منه بحراً هائجاً من الفوضى بإثارتها النعرات العرقية والطائفية ما بين العراقيين الذين عاشوا أخوة لألوف من السنين مضت، بل جعلــت هذه السياسة من العراق ميداناً لتجميع قوى الإرهاب المختلفة كفخ كبير لكي يتسنى لها محاربته على حساب أرواح العراقيين، ووحدة وطنهم، وهدر خطير بإمكانياتهم، وضياع لمستقبلهم. لقد خلخلت هذه السياسة الوضع العام في العراق كلــه كزلزال عنيف ومستمر. لقد فقد العراقيون أمنهم، ثم فقدوا الثقة بالسياسة الأميركــية وما أنتجته من سياسات محلية هشّة وضعيفة، بل فقدوا الثقة فيما بينهم فأصــبح الأخوة أعداء، والأصعب حين فقد العراقيون الأمل في بناء عراق متحضّر عصري في فترة قريبة.

مــن خلال ولعي بأدب المذكرات، وجدته أدباً رائعاً ليس بتكوينه القصصي والتــسجيلي للحوادث المهمة فحسب، ولكن بالدروس المستنبطة منه لإغناء ودعم التاريخ الإنساني بالحقائق، والموعظة، والحكمة... إلا أن المشكلة لا تكمن في كتابة

المذكرات والسير الذاتية بقدر ما يتطلّب وما يفترض بكتّابها الالتزام بالجانب الأخلاقي والذي أساسه الصدق وعدم التحيّز... إن التحيّز هو أحد عيوب الطبيعة البشرية، وهذا الضعف الإنساني يصعب كشفه وتمييزه ثم التغلّب عليه، فمن تأثيراته الميل إلى التحفظ والنزوع إلى الإبقاء على ما هو مسلّم به، وإذا ما تمّ تجاوزه (أي التحيّز)، فكيف يتجاوز المرء ما ألفه الناس واطمأنّوا له، فيصعب على الكثيرين منا المجازفة بالذهاب إلى الجهة الأخرى من التفكير السائد، لكشف بعض الحقائق المجردة من كل تغليف أو تزييف. على الرغم من عجزنا عن تبرئة أنفسنا من الأنانية أو التحيّز إلا أنني حاولت أن أكون منصفاً ما استطعت مع الإقرار أن لكل منا نواقصه ونظرته الخاصة النابعة من طريقة تكوين شخصيته، وثقافته، وبيئته. ولضرورات تحقيق الأمانة في تصوير أبعاد أنماط التفكير والنظرة السائدة لها في زمن الأحداث المختلفة، تركت بعض المفردات المسجلة لتلك الأحداث على حالها دون تصرّف ودون تطويعها بما ينسجم والرؤى الحالية لها، وفي بعض المواضيع انطلقت فيها من الموضوع الخاص إلى الموضوع العام أو بالعكس لأوسّع زوايا النظر لذلك الموضوع. من حسن الحظ أنني احتفظت بكل يومياتي، إلا أنني فقدت يوميات الحرب الأخيرة مع خريطة الموقف العملياتي فجر يوم الثالث من نيسان/أبريل 2003، على أثر إحدى الغارات الجوية لطائرات أف 16 الأميركية وأنا في خضمّ موقف عصيب بمنطقة اليوسفية (جنوب غرب بغداد 30 كم)، فاستعنت بالذاكرة فور انتهاء الحرب، فدوّنتها حيث كانت الحوادث قريبة ومحتفظة بحرارتها.

لقد شملت هذه المذكرات ستة حروب شاء قدري أن أساهم فيها خلال الثلاثين عاماً الفاصلة ما بين حرب تشرين الأول/أكتوبر 1973 والحرب الأخيرة على العراق، ذكرت فيها كل ما علمته، وفيه ما هو كشف للنقاب عن كثير من الأسرار درءاً لأحكام ظالمة أو لتدوين ما يسيء للحقيقة.

في بداية شهر تشرين الثاني/نوفمبر عام 2003 وقد صادف شهر رمضان، كنتُ مستمراً في حضور جلسات الاستنطاق الذي كان يجريه مكتب (ICP) التابع للقوات الأميركية في العراق (كان من أفضل الدوائر الأميركية من حيث الالتزام بالجانب الأخلاقي)، فوجئت بعدد من ضباط مركز التحليل العملياتي المشترك

الأميركي (JCOA) Joint Center for Operational Analysis-Washington وقد طلبوا مني تثبيت سير العمليات الحربية الخاصة بفيلقي تجاه القوات الأميركية (الفيلق الخامس الأميركي وفيلق مشاة البحرية - المارينز) واستغرق ذلك عدّة جلسات طويلة لأهمية مراعاة الدقّة في كتابة تاريخ الحرب. وكانوا ضباطاً رائعين أخص بالذكر العقيدين روبرت وكيفن والضابطين - سلطان والكسسز وقد سبق ذلك لقاء متلفز مع القناة الرابعة البريطانية التي أعدت برنامجاً بعنوان (غزو العراق) وكانوا على درجة عالية من الأمانة الصحفية فكانوا جميعاً يستحقون الشكر. أصبحت في 2004/2/29 حراً وقد أخرجت من القائمة السوداء مع الإقرار بأنني قائد محترف غير متهم بأي جريمة.

وفي ختام تقديمي هذا لموضوع المذكرات، أقف بإجلال واحترام لضباط وجنود جيشنا الباسل الذين سقطوا في ساحات القتال شهداءً أبراراً دفاعاً عن وطنهم وشرفهم، وكلّي أسف وحسرة لضياع حقوق شهدائنا في الحرب الأخيرة وحقوق عوائلهم المعنوية والمادية، فكانوا ضحية لجريمة أخلاقية ارتكبت بحقهم بعد الحرب لعدم الاعتراف بحق هؤلاء في الدفاع عن وطنهم وسط بيئة طارئة تجهل معاني شرف الجندية وشرف الانتماء الوطني، علاوة على فقدان الكثير من ضباطنا وجنودنا استحقاقات التقاعد من الخدمة للسبب ذاته. كذلك أنا مدان بالشكر إلى المغفور له الشيخ المهندس طلال الكعود الذي لولاه لما تمكنت من إكمال وإعداد هذه المذكرات في هذا الوقت. وأخيراً وجب تقديم الشكر إلى ابني أحمد الذي تكلّف عناء طباعة كافة مسودات هذا العمل... الذي هو جزء مما يتطلّبه الوفاء لجيشنا الباسل ووطننا العظيم والله ولي التوفيق.

كاتب المذكرات

بغداد 2004

الفصل الأول

مع الإسرائيليين وجهاً لوجه في المرتفعات السورية (الجولان) عام 1973

كـــان الموقف السياسي والعسكري للأمة العربية في غاية التبلور الإيجابي بعد الكارثـــة الكبرى في 1967/6/5، حينها تحطّم حاجز وهم القوة العربية تجاه القدرة الإســـرائيلية المدعـــومة بالقدرة الغربية، لقد كان صيف وبداية خريف عام 1973 ســـاخناً جداً نتيجة لاستمرار الصراع السياسي والعسكري مع إسرائيل التي دأبت مـــنذ نـــشوئها عـــام 1948 على احتلال المزيد من الأراضي العربية، علاوة على اغتصاب فلسطين برمّتها، وكانت هناك شعارات واستعدادات لحرب تحرير كبرى حـــسب ما يعلن، وفي الشهرين السابقين للحرب، كان هناك شيء من استعراض القـــوة إلا أن سقوط سرب طائرات سورية من نوع ميغ بالكامل في معركة جوية فوق بحيرة طبريا دون إسقاط إلا طائرة إسرائيلية واحدة، كان مؤشراً غير سارّ لنا كعرب في بداية خريف ذلك العام.

كنت أنتسب آنذاك إلى كتيبة الدبابات الثالثة – لواء المشاة الآلي الثامن – الفـــرقة المدرعة الثالثة، حيث كانت الكتيبة مدربة تدريباً جيداً، وكان للوائنا تـــاريخ عـــريق، وهو القوة البرية العراقية الوحيدة التي شاركت في حرب عام 1967، وكنا نعسكر في منطقة الورار غرب الرمادي بحوالى عشرة كيلومترات. بعد ظهر يوم 1973/10/6 استمعنا من الإذاعات عن نشوب حرب كبرى بين العرب والإسرائيليين على الجبهتين السورية والمصرية، وأن إخواننا قد عبروا قناة الـــسويس، وحطّمـــوا أسطورة خطّ بارليف الدفاعي في الجبهة المصرية، وأن الـــسوريين قـــد اخترقوا المرتفعات السورية المحتلة التي تسمى الجولان أي خط

آلون الدفاعي، وهناك احتمال بأن يفتح الملك حسين جبهة الأردن إلا أن ذلك لم يحصل.

في الساعة 10:00 يوم 1973/10/7 استلمنا الأمر الإنذاري للتهيؤ للقتال على الجبهة السورية أو الأردنية - إن اندلع فيها القتال - غير أنه كان هناك معضلة تأمين ناقلات للدبابات حيث كان عددها لا يكفي إلا لنقل لواء مدرع واحد، وقد خُصِّصَت للواء المدرع الثاني عشر من فرقتنا المُعسكر شمال تكريت، كما كانت هناك معضلة أخرى تمثّلت بأن اللواء المدرع الثاني عشر كان قد بدأ باستلام أعتدته من مخازن عتاد الحبانية حيث زاحمنا في ذلك إلا أنه كان هناك أملاً بوصول سرية ناقلات أردنية لنقل كتيبتنا.

في الوقت الذي شرع لواؤنا بقيادة المقدم الركن محمود وهيب المجهّز بعجلات قتال نوع (M-113) التي دخلت الخدمة في جيشنا عام 1963 بالتنقل على طريق الأنبار - الكيلومتر 160 - الرطبة - الحدود الدولية مع سورية والأردن.. وكان آنذاك طريقاً رديئاً للغاية بعرض 7 أمتار يتخلّله العديد من الحفر والكثبان الرملية مستغلاً خفة هذه العجلات وسرعتها إلا أن مسافة 1000 كم التي كانت تفصل عن الحدود الشرقية لفلسطين المحتلة كانت معضلة كبيرة تؤثّر على القدرة الفنية والقتالية للعجلات، وكان المطلوب من كتيبتنا - دبابات T-54 ذات التسليح القديم - المباشرة بالتنقل لمسافات محدودة باتجاه الكيلومتر 160 لحين وصول الناقلات الأردنية، في ظل هذه الظروف استبدل آمر وحدتنا الرائد عبد القادر بآمر جديد هو وليد محمد صالح التكريتي، ولم يبدُ هذا التغيير آنذاك سهلاً عليهما ولا علينا كمقاتلين لأن الفهم والمعرفة المتبادلة لخصائصنا كانا مهمين جداً من الناحية المعنوية في العلاقة ما بين الآمر ومرؤوسيه. ومنذ يوم 1973/10/9 بدأت الناقلات الأردنية برفع سرايانا، ثم عزّزت بعدد من الناقلات العراقية إلا أنها كانت من النوع القديم والبطيء الحركة، وكانت لنا وقفة في مفرق الطريق المؤدية إلى الحدود السورية الحدود الأردنية بمسافة 90 كلم، وقد كلفني آمر اللواء بالذهاب إلى قاعدة H3 الجوية لمعرفة اتجاه الحركة حيث كنا ننتظر تحديده من قبل المقر الأعلى، حيث وجدت رسالة من رئيس أركان الجيش

الفريق الركن عبد الجبار شنشل تنبئ لواءنا بالتوجه إلى الجبهة السورية للقتال لأن الأردن اعتذر عن فتح جبهته لعدم استعداده للحرب، وقال بأنه سيبعث باللواء 40 المدرع للمشاركة بالقتال على الجبهة السورية، فانطلقنا بسرعة نحو الحدود السورية، وكانت لنا وقفة في منطقة أبو الشامات السورية للتزوّد بالوقود والاستراحة، ثم باشرنا بالتحرك نحو دمشق، فدخلنا أطرافها الجنوبية الشرقية عند الساعة 02:00 يوم 1973/10/12 وكانت مظلمة نتيجة التعتيم، إلا أن القمر كان بدراً، وكانت القوات الشعبية والشرطة العسكرية تؤمّنان الدلالة لنا باتجاه الجبهة حيث شعرنا أن فرصتنا للمشاركة في القتال ما تزال قائمة وأن ذلك سيحدث بعد تنقل قليل، وليس كما خمّنا بأننا سنقاتل في فلسطين، وقد بدا ذلك من خلال نداءات الأدلاء ذوي اللهجة الشامية (الحقوا شرفنا، الله يعطيكم العافية) أي أسرعوا لأن الإسرائيليين اقتربوا منا.

بفطنة، حدَّد السوريون اتجاه تقرّبنا نحو العدو حيث انحرفنا جنوباً على طريق دمشق - الكسوة - الصنمين - شيخ مسكين ثم انحرفنا من الصنمين غرباً باتجاه قيطة تل عنتر - تلول المال - تل الشعار، وكان اللواء الثاني عشر المدرع بقيادة المقدم الركن سليم شاكر الإمام ولواؤنا قد ضربا مركز قيادة العدو بقيادة الجنرال لانر، حيث توقّف الاندفاع المدرع المعادي باتجاه الكسوة - دمشق حيث احتواه الهجوم العراقي من الجناح الأيمن حيث كانت تدور هناك معركة دبابات كبيرة، إن أول واجب لكتيبتنا ناقص السرية الأولى المشتركة في المعركة منذ اليوم السابق، كان مهاجمة الجناح الأيسر باتجاه تل الحارة لمنع الالتفاف على قواتنا من ذلك الاتجاه بالوقت الذي شاهدنا فيه تراجعاً غير منظّم من قبل القوات السورية التي قاتلت ببسالة في الأيام الأولى من الحرب حيث تمكّنت من خرق معظم مواضع الإسرائيليين بأعماق مختلفة، وتمكّن لواء مدرع منها من الوصول إلى بحيرة طبريا، وبعض المستعمرات الشمالية، إلا أن التعرّض المقابل أرجع القوات إلى الخلف، واستمرّت ألوية مدرعة إسرائيلية باندفاعها على محور القنيطرة - تل الشعار - مفرق سعسع - الكسوة - دمشق مستهدفة تهديد العاصمة وعزل القطاع الجنوبي من الجبهة السورية بكامله إذا ما استطاعت بعض القوات الإسرائيلية المتقدّمة على

المحور أعلاه من قطع طريق دمشق - شيخ مسكين - درعا، في منطقة غباغب، إلا أن هجومنا الذي ضرب الجناح الأيمن للإسرائيليين في منطقة تل الشعار - تل العدسية - تلول المال - تل الحارة، أوقف التعرض الإسرائيلي المقابل في الوقت الذي وصلت فيه قطعات الاستطلاع الإسرائيلية مفرق سعسع وكناكر، فجرت معارك تصادفية (خصم يصادف خصمه وهما في حالة الحركة) لقواتنا مع الإسرائيليين في هذه المنطقة تكبّد فيها الطرفان خسائر كبيرة، ولعب الطيران الإسرائيلي دوراً كبيراً في إضعاف زخم الهجوم العراقي، إلا أنه تكبد خسائر جسيمة نتيجة فعالية أسلحة الدفاع الجوي السورية المختلفة وعلى الأخص منظومة الصواريخ (كافدرات).

يوم 1973/10/14 كان الموقف كالآتي... كثّف العدو غاراته الجوية، وبدأ بفتح ثغرات بجدار الدفاع السوري المدعوم بعناصر من الاختصاصيين السوفيات الذين كانوا يرتدون ملابس الجيش السوري بعد تدمير عدد من بطاريات صواريخ (الفولكا، والبيجورا، والكفادرات، وعجلات الشيلكا ذات المدافع الرباعية) وفي الوقت ذاته تمكنت دروع العدو من دفع اللواء الثاني عشر المدرع ولوائنا شرق تلول المال - كفر ناسج، والسيطرة على تلول العدسية - والشمال - وتل الحارة، واستعادة جبل الشيخ من القوات الخاصة السورية والمعزّزة بالعمق باللواءين العراقيين الجبلي 5 والمشاة 20 الواصلين تواً إلى القاطع الشمالي من الجبهة، وعلى ما يبدو أن العدو صمّم على تدمير القوات العراقية لخطورة تأثيرها، وقد علمنا باستشهاد آمر كتيبة دبابات قتيبة الرائد الركن عبد الهادي الراوي الذي تقدّم غاضباً بدبابته مسرعاً نحو دروع العدو ليثبت لآمر لوائه سليم شاكر الإمام أن عزيمته لم تخُرْ حينما اشتدّت عليه مقاومة العدو الذي تسبّب في تدمير أعداد كبيرة من دباباته، ومن دبابات كتيبة دبابات المعتصم بقيادة الرائد الرّكن زهير قاسم شكري، ومن دروع الفوج الآلي بقيادة المقدّم الركن حازم الجنابي، كذلك تكبّد لواؤنا خسائر غير قليلة، وكان الفوج الأول منه بقيادة المقدّم الرّكن عبد الكريم الحمداني بينما كان الفوج الثاني بقيادة الرائد الركن كريم شاكر الإمام أما الفوج الثالث فكان بقيادة الرائد الركن حكمت عبد

القــادر إلا أن الــروح المعنوية لكل قواتنا كانت عالية جداً، وقد لفت انتباهنا هــدوء ورباطة جأش القوات السورية رغم خسارتها لكل مكتسباتها الأولى في بداية الحرب.

لــيلة 14-1973/10/15 أعــدّت فــرقتنا خطة للهجوم على قوات العدو لــتدميرها ودفعهــا خلــف خط تلول المال - كفر ناسج - تل الحارة، أكملنا استطلاعاتنا واستحضاراتنا قبل الساعة 13:00 يوم 1973/10/15 على أن نشرع بالهجوم عند الساعة 15:00 من نفس اليوم، إلا أن هجومنا تأخّر لأكثر من ساعة لعــدم اكــتمال حشد بعض وحداتنا على الحافة الشرقية لعارضة تل عنتر ذات الأهمــية التعبوية حيث أمّن لنا ارتفاع هذا التل والبالغ 92 م رصداً جيداً لساحة المعركة خلال فترة الاستطلاع، حيث شاهدنا بعض دروع العدو أمام قرية كفر ناسج، وخلفها كانت خطوط عديدة من الغبار الكثيف لدروع تتحرك باتجاهنا، كما رصدنا على تل أمامنا جماعة استطلاع معادية تترصّدنا، وكان على هذا التل اســتحكامات سورية جيدة، إلا أنها خالية من الجنود المدافعين، تساءلنا فيما بيننا ألا ينبغــي الــدفاع فيها ولو بفوج واحد من لوائنا؟ وقد لفت انتباهي على بعد أمتار منّا ضابط الرصد المدفعي المخوّل للفرقة المقدّم سالم الحاج عيسى وهو يقوم بتــسجيل أهداف الهجوم برمي قنابل الدخان، يقابله ضابط رصد إسرائيلي يقوم بــنفس المهمــة ضدنا، فسقطت ثلاث قنابل دخان معادية على منطقة تواجدنا، فأنهيــنا استطلاعنا، وقد حجب الدخان الرؤيا بيننا وبين مرصد مدفعيتنا، وحال هبوطنا من القمة نحو أسفل التل للعودة إلى وحداتنا انقضّت فجأة طائرة إسرائيلية مــن نــوع سكاي هوك بيضاء اللون علينا، ورشقتنا بصليات متتالية من مدافع رشاشاتها، فقفزت ورفاقي من عجلة الاستطلاع نوع (بي آر دي أم) التي كانت تقلّــنا وهــي تسير بسرعة، ونجونا من موت محقّق إلا أننا أصبنا بكدمات نتيجة تدحرجنا العنيف على السفح (على ما يبدو حينها قد حقّقنا رقماً قياسياً بالقفز الحــر)، ثم واصــلنا سيرنا نحو وحداتنا، وقبيل شروعنا بالهجوم سألت صاحبي المــلازم عــصام وكنا جالسين على كوم من الصخور السوداء الصغيرة لماذا لم تستطلع معنا؟ أجابني وهو مطرق الرأس: "فيكم البركة." ثم استدرك قائلاً: "أنا

أوصـيت دكـتور منير - وقد كان والدكتور من سكنة الحلة - إذا استشهدت فعلـيه إعادة جثتي إلى أهلي وأن يقبّل بدلاً عنّي ولدي رائد." فقلت له: "دعك عـن هـذا الأعمار بيد الله." وما هي إلا دقائق حتى سقطت بالقرب منا عدة مقـذوفات خارقـة للدروع وتعالت بعض الأصوات: "دبابات معادية! دبابات معاديـة!"، فركـضت مسرعاً نحو دبابتي المتوقفة خلف سياج صخري. وكان السوريون قد أعدوا مسرح العمليات جيداً من مواضع، واستحكامات، وغيرها وحـال شروعنا بالحركة فاجأتنا عدّة تشكيلات من طائرات العدو نوع (مستير وسوبر مستير) بارتفاعات منخفضة جداً، علاوة على عدد من طائرات (الفانتوم والـسكاي هـوك) حيث أثّرت على تشكيلنا القتالي للمعركة (أي على طبيعة الانفتاح القتالي لقواتنا)، فكبّدتنا خسائر عديدة في الأرواح والمعدات القتالية. وما إن انجلت غيوم الانفجارات لقنابل الطائرات، حتى ظهرت عشرات من الدبابات الإسرائيلية بمدى قريب جداً من 300-500م (استطعت شخصياً تمييزها من خلال قـراءتي لعلامات النداء اللاسلكية المثبتة على أبراج الدبابات التي كانت أمامي وبالأحـرف العـبرية) فـدارت أكبر معركة دروع سيّالة بمئات من الدبابات وعجـلات القتال المدرعة بعد ظهر ومساء هذا اليوم، واستمرت حتى منتصف اللـيل، وكـل منا يعتقد أنه الناجي الوحيد من هذه المعركة، إلا أننا بدأنا نعيد تنظيم وحداتنا الفرعية (الفصائل والسرايا) رويداً رويداً منذ ساعات الفجر الأولى في جـوٍّ قـارس الـبرودة، وقد امتلأت سماء ساحة المعركة بعشرات متتالية من طلقـات الإشارة الملونة للتعريف حيث وجدنا أنّ العدو قد تمكّن من دفعنا إلى الخلـف بضعة كيلومترات كما تمكّن من إسقاط العارضة التعبوية المهمة تل عنتر بـيده، ولوصف حالة الفوضى التي حلّت بنا نتيجة هذا الهجوم المباغت السريع للعـدو وجـدنا بعض دروعنا متوقّفة بين دروع العدو نتيجة للاشتباك القريب وشـدّة الظلام وصعوبة التمييز عبر سحب الدخان المنبعث من الدبابات المحترقة، وقـد علمـنا بجـرح آمـرنا الجديد، وإخلائه إلى إحدى المستشفيات الميدانية، واستشهاد وفقدان وجرح العديد منا، ومن غريب الصدف أن إصابة آمر السرية الأولى النقـيب عبد الستار عبد الرحمن ومعاونه عبد الغني كانت كسر ذراعيهما

الأيمن، ومن المواقف الحساسة أن الملازم علي زيدان من السرية الثانية كاد يدمّر دبابة آمر السرية الثالثة رياض جمال قبيل الفجر لصعوبة التمييز وإن كانت المسافة بينهما قريبة جداً لولا ظهور هدف صديق فجأة بينهما تمّ تمييزه بسهولة من قبلهما، وقد كان هناك العديد من الخسائر بالنيران الصديقة منها تدمير أكثر من ناقلة مدرعة ومقتل جميع من فيها من لوائنا من قبل اللواء الثاني عشر المدرع لتشابه نوع الناقلات المدرعة للوائنا مع ناقلات الجنود الإسرائيلية، أن أنسى فلن أنسى منظر النائب العريف حميد شهيد وهو يحاول إطفاء دبابته المحترقة نتيجة إصابتها بالمعركة وذراعه اليمنى قد تدلّت مقطوعة إلى جنبه بفعل شظية من المقذوفة المعادية التي أصابت دبابته. لقد كانت معركة اشتباك قريب وعنيف و لم يكن من الصعب إيجاد ثلاث دبابات منا تقاتل معاً وكل دبابة تعود إلى كتيبة ما، ومن المواقف المحرجة خلال الاشتباك القريب مع دروع العدو أن تعطّل مدفع دبابتي، فاضطررت مع الرامي العريف هندي عبود أن نعالج العطل بسرعة فائقة، ونستمر بالاشتباك، وفي الليلة التالية نُسب لنا الرائد الركن عدنان دحام كآمر جديد، إلا أنه تركنا بعد ساعات لمنصب آخر، وقد تحمّل مساعد الكتيبة موفق صالح العلي عبئاً كبيراً بغياب آمر الكتيبة.

في الساعة 09:00 يوم 1973/10/16 حاول اللواء السادس المدرع من فرقتنا الواصل للتو والذي كان بقيادة المقدم الركن غازي محمود العمر أن يستعيد تل عنتر من خلال قاعدة قوية مشكّلة من اللواء الثاني عشر المدرع ولواء المشاة الآلي الثامن، وقد استطاع هذا اللواء من احتلال قمة هذا التل وسفوحه الشرقية الواسعة والشديدة الانحدار بقتال باسل، إلا أن العدو شنّ هجوماً مقابلاً دفع اللواء السادس المدرع باتجاهنا بعد ظهر ذلك اليوم، بعدما تكبّدت كتيبتا خالد والمقداد، والفوج الآلي الأول العائدة للواء خسائر غير قليلة، وكانت معضلة هذا اللواء هي تغيير الهدف وهو في مسير الاقتراب نحو هدفه الأول تلول المال المشرفة على قرية كفر ناسج إلى هدفه الجديد تل عنتر الذي حدّد له أولاً كخط شروع بالقتال وفقاً للمهمة المستلمة من الفرقة نتيجة لمعارك الليلة الماضية للواءين أعلاه.

يوم 1973/10/17 شنّ اللواء 40 المدرع الأردني بقيادة العميد الركن خالد الواصل قبل ليلة هجوماً مدبّراً بإسناد ناري محدود لاستعادة تل الحارة، إلا أنه فشل بذلك بالرغم من الأداء الجيد لدباباته السنتورين المشابهة للدبابات الإسرائيلية (لغرض التمييز لنا كانت دبابات هذا اللواء ترفع بيارق صفراء صغيرة على هوائيات أجهزتها اللاسلكية) وقد ترك اثنتي عشرة دبابةً مدمرةً هناك، ثم استمرت المناوشات بالمدفعية وبالرمي بالمديات البعيدة للدروع بيننا وبين العدو لأكثر من 36 ساعة متواصلة وعلى ما يبدو أن العدو لم يعد بإمكانه لا التقدم باتجاه مفرق سعسع – دمشق ولا مواصلة هجومه باتجاهنا، فانتقل إلى الدفاع، وركز على استخدام الأسلحة الحديثة المقاومة للدبابات نوع تاو التي فاجأتنا (لم نكن نعرف حينها أن الإسرائيليين يمتلكونها)، وأنار العدو الليل بجميع وسائط التنوير المتاحة له (بمشاعل التنوير للطائرات، والمدفعية، والهاونات)، وكنا نحاول إخلاء خسائرنا البشرية خلال فترات الهدوء القصيرة، وكانت معظم جثث جنودنا محروقة، وقد أدهشتنا دقة وحجم التدمير الذي أحدثته صواريخ العدو بدباباتنا. بعد ظهر ذلك اليوم اقترح عليّ زميلي الملازم أحمد عبد الرشيد أن نبحث عن مفقودينا لليومين السابقين ومنهم الملازم عصام العذاري فليس من الشهامة أن يبقى مصيرهم غامضاً، فتسللنا عبر وادٍ صخري نحو مواضع العدو، وقد شاهدنا دروعنا المدمرة في المعارك السابقة وشهداءنا المحترقين بها، وتعرّفنا على دبابة الملازم عصام التي اخترقتها مقذوفتان نوع مصغر العيار من دبابات العدو، وكان خطؤه رحمه الله أنه رمى 18 رمية من موضع رمي واحد دون تغيير موضعه إلى موضع آخر (من خلال حساب الظروف الفارغة المرمية خارج دبابته، فالسياق الصحيح أن لا ترمي أكثر من ثلاث رميات من موضع رمي واحد) سبحان الله لقد تنبّأ بموته و لم يتبقَ من جثته إلا القسم الأسفل منها، ثم رصدنا اثنتي عشرة عجلة جيب تحمل أسلحة مقاومة للدبابات ظننتها نوعاً مشابهاً لمدافع عيار 106 ملمتر (فيما بعد عرفنا أنها منظومة الصواريخ الجديدة نوع تاو الأميركية الصنع التي عرّفها لنا آمر اللواء الأردني الذي شاهدها بدورة تدريبية في أميركا قبل مدة قصيرة) كانت متموضعة مع عدد من الدبابات في

الأمـــام على حافة المرتفع الهضبي الذي تسلّلنا نحوه، وإلى الخلف تختبئ عشرات مـــن دبابـــات الـــسنتورين الإسرائيلية، وكانت حركه جنودهم واضحة جداً رصـــدناهم بالعين المجردة، وأقرب مسافة وصلنا إليها كانت تبعد 250 متراً عن العدو، وقد استفدنا في تقدمنا من ستر المنحنيات الصخرية، بعدها عدنا أدراجنا إلى موضع سريتنا وقدّمنا تقريرنا إلى آمر سريتنا رياض جمال الذي كان ينتظرنا بفارغ الصبر.

لـــيلة 18-1973/10/19 كلّفنا بهجوم على قطاع الاختراق المعادي (اللواءان المـــدرّعان 19 و20 الإســـرائيليان) بكامل فرقتنا الثالثة بقيادة العميد الركن محمد فتحي أمين لتدمير العدو في تل عنتر وسفوحه الواسعة والصخور الناتئة لدفعه باتجاه كفـــر ناسج - تلول المال، وجرى قصف تمهيدي كبير بكتائب مدفعية الفرقة 15 و19 و21 علـــى أن تقـــوم سرية الدبابات الثالثة زائد مقر الكتيبة (المتبقي منها 8 دبابـــات فقـــط) بالتسلل ليلاً على الجناح الأيسر بنحو 5 كم بدلالة دورية قتال فلـــسطينية، فدارت معركة كبيرة أيضاً، وكنا في موضع قريب وقد موّهنا دباباتنا بـــالطين، فكنا نرى المعركة جيداً، وبالرغم من فشل قواتنا بدفع العدو من أماكنه، طلـــب مقـــدم اللواء قصي صبري من قوتنا الصغيرة ضرب العدو خلف تل عنتر وبحـــركة بطيئة نتيجة لاكتساء الأرض بالصخور البركانية الصغيرة سوداء اللون، فاندفعـــنا نحو دروع العدو التي كانت على مسافة ما يقارب 800 متر تقريباً وعلى مـــا أظن أنهم فوجئوا بنا فدارت معركة غير متكافئة حيث كانت نسبتنا إلى العدو 10/1 تقـــريباً، فخـــسرنا نصف دباباتنا بعد أن قطعنا ثلث المسافة فيما بيننا وبين العـــدو، وكان أول الضحايا ذلك الشاب الأشقر الشعر الملازم صكبان من منطقة الـــسعدية الذي تخرج من الكلية العسكرية قبل ثلاثة أشهر فقط مع طائفته الذين احترقوا جميعاً بداخل دبابتهم التي كانت على يساري مباشرة، وقد رصدت أمامنا ثلاث دبابات إسرائيلية تحترق بالوقت الذي لم يكن من الممكن التوقف أو العودة لأن ذلـــك كان يعني نهاية محتومة إلى أن انخفضت الأرض بنا وفقدت الرؤيا بيننا، فاتجهـــنا بعـــد ذلـــك مع الوادي نحو تل عنتر، حيث واجهتنا نيران كثيفة دفعتنا للدخول مضطرين إلى قرية كفر شمس الكائنة أسفل ذلك التل فشاهدنا آثار معركة

دامية ومدمرة قد انتهت تواً، وقد حاول آمر الفوج الثاني من لوائنا (شقيق آمر اللواء الثاني عشر المدرع) قبيل الانسحاب إخلاء بعض الجرحى القريبين من دبابتي إلا أن الأمر تعذّر عليه حين قتل الإسرائيليون الجنود المسعفين والجرحى معاً بنيرانهم المصوبة من أعلى التل. وقد علمنا فيما بعد أن الفوج الأول من اللواء السادس المدرع بقيادة الرائد الركن جواد أسعد شيتنه قد أبلى بلاء حسناً في هذه المعركة.

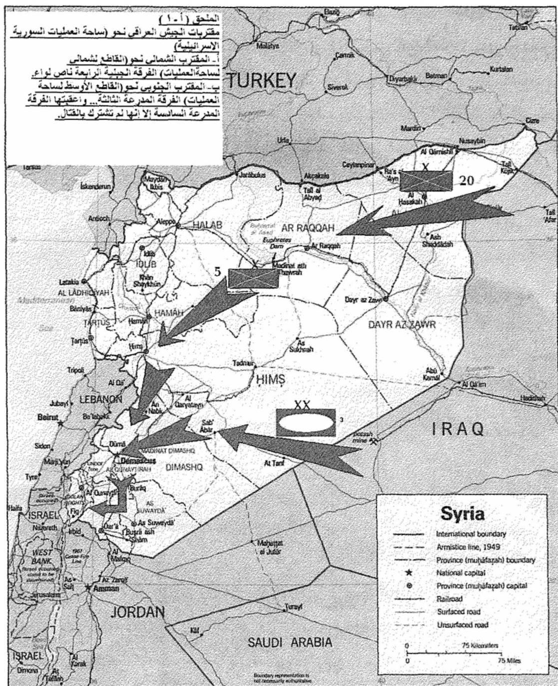
بعد انسحاب قطعاتنا من تل عنتر حين أيقنت أنه بات من الصعب دفع العدو من هناك، وجدنا أنفسنا ثلاث دبابات بثلاثة ضباط مع ناقلة القيادة لمقدم لوائنا (أي رئيس أركان اللواء) الذي كان يحاول إقناع آمر اللواء بضرورة معاودة الهجوم بالاستفادة من وجوده ودباباتنا الثلاث (واحدة بقيادتي وهي مصابة بطلقة دبابة غير نافذة، والثانية بقيادة الملازم موفق صالح مساعد الآمر، والثالثة بقيادة الملازم عدنان المحياوي) في منطقة الهدف، إلا أن آمر اللواء وجد قواته غير قادرة على ذلك إلا بعد مرور اثنتي عشرة ساعة على أقل تقدير وخاصة أن مدفعية اللواء قد استنفدت ذخائرها، وبعد محاولة يائسة للصمود، وقبيل تطويقنا انسحبنا مع الضياء الأخير نحو الشرق وليس نحو الجنوب الشرقي لتعقيب وحدات لوائنا نظراً لسيطرة نار العدو على الاتجاه وذلك وفقاً لمشورتي التي أخذ بها مقدم اللواء حيث أمّنت التغطية لرفاقي (تبقّى في دبابتي ست إطلاقات مدفع فقط تمّ رميها لحماية ناقلة مقدم اللواء نوع (بي تي آر/50) والدبابتين الأخرتين اللتين نفدت ذخائرهما) وخلال عدة مواقف صعبة تمكّنا من الوصول إلى وحدتنا صباح اليوم التالي، والحقيقة كان موقف مقدم اللواء رائعاً من حيث الشجاعة والإحساس بالمسؤولية لأنه يفترض أن يكون أول من ينسحب من تلك المعركة الخاسرة وليس آخر من ينسحب وفقاً لطبيعة واجباته، كذلك كان موقف جميع عناصر قوتنا الصغيرة وسط قوة معادية كبيرة حاولت بكل جهدها تدميرنا، ومن المفارقات أنه خلال تملّصنا من قبضة العدو ليلاً سقطت دبابتي في حفرة كبيرة قد تكون أحدثتها إحدى قنابل الطائرات المعادية مما أدّى إلى إصابة مخابر الدبابة عسكر شلال الذي استشهد فيما بعد وفي محاولة

مـــني للبحث عن واسطة لإخلاء هذا الجريح، ونتيجة للتعب والإرهاق وارتطام رأســـي بالرشـــاش المركب على برج الدبابة فقد سرت لمسافة بعيدة، وباتجاه خاطئ حيث التقيت بعدد من ناقلات الجنود الإسرائيلية وهي تتحرك باتجاه ما، ظاناً أنها ناقلات جنود عائدة لإحدى وحدات لوائنا لأنها من ذات النوع (M-113) وقـــد تملّكني الغضب لعدم الاستجابة لإشارتي بالتوقف إلا أنني فوجئت حين اكتشفت أنها ناقلات إسرائيلية عند تمييزي لشكل أنبوب عادم المحرك الذي يـــنخفض إلى الأسفل وليس إلى الأعلى كما في ناقلاتنا، فتمسمّرت في مكاني وحمدت الله أن الظلام والتراب حالا دون تمييزهم لي، وبعدها صحَّحت اتجاهي ولا أدري كـــم قطعت من المسافة حين التقيت رفيقي الملازم عدنان الذي كان هـــو الآخـــر يحاول الاهتداء إلى الطريق المؤدي إلى قواتنا، وبعد مسيرة قصيرة، اصـــطدمنا بدوريـــة قتال سورية، قامت باستضافتنا في إحدى المواضع السورية القريبة لفترة وجيزة، حيث قدموا لنا شاياً ساخناً، ثم دلّونا إلى الاتجاه الصحيح مودّعيننا بعبارات تشجيعية وبواسطة عجلة جيب عراقية مستطرقة يقودها الرائد محمـــود بـــريبيد الدليمـــي من اللواء المدرع الثلاثين الذي وصل تواً إلى الجبهة السورية كمقدمة للفرقة المدرعة السادسة العراقية التي لم تتسنَ لها فرصة القتال، أُوصـــلنا إلى منطقة تحشد لوائنا، وعند الصباح عدت لإخلاء الجريح واتضح لي أن ســـائق دبابتي بذل جهداً كبيراً في إخراجها من الحفرة بمساعدة دبابة سورية (مـــن الطـــريف ذِكر أنني حصلت على بطانية لإخلاء صاحبي الجريح من أحد جـــنود طـــاقم مدفـــع عراقي مقاوم للطائرات نائم مع رفاقه إلى جانب المدفع الـــذي صـــادفته في المنطقة بعدما سحبتها منه بقوة حيث كان متمسكاً بها من شـــدة برد ذلك الصباح والغريب أنه لم يصحُ من نومه لشدة تعبه على ما يبدو حيـــنها). في يـــوم 1973/10/20 قصف العدو ولأول مرة قواتنا بكثافة نارية بعـــد أن حـــشد أعـــداداً كبيرة من مدفعيته وبأسلوب جرف وتفتيش علاوة علـــى التمركـــزات الـــنارية لمواضـــعنا المرصـــودة بسهولة لاحتلاله الأماكن الحاكمـــة والمسيطرة وكانت طائرات العدو تقصف بعنف ما بين فترات رمي مدفعيته.

بعـد إعـادة تنظيم سريع لقواتنا وصلتنا الأوامر للاستعداد لتعرّض مقابل كبير مـشترك مع القوات السورية في الساعة 6:00 يوم 1973/10/23 (الفرقتان المدرعتان الثالـثة والـسادسة وبعـض التشكيلات القتالية العراقية زائد عدد مماثل من القوات السورية). إلا أن هذا الهجوم لم يُنفّذ لقبول سورية بقرار مجلس الأمن القاضي بوقف إطـلاق النار مع الإسرائيليين بدءاً من اليوم التالي 1973/10/24 وذلك بالاتفاق مع مصر التي كادت أن تفقد نصرها بالكامل نتيجة اندفاع قوات مدرعة إسرائيلية تقدّر بـسبعة ألوية مدرعة بقيادة الجنرال المغامر أرييل شارون عبر ثغرة الدفرسوار الشهيرة نحـو الـضفة الغـربية لقناة السويس حتى وصلت إلى الكيلومتر 101 عن القاهرة، فصدرت الأوامر لنا بالعودة سريعاً إلى العراق في 1973/10/30 حين وصلت زمر من المـراقبين الدولـيين تحت راية الأمم المتحدة من ذوي القبعات الزرق للفصل ما بين الطرفين وللإشراف على وقف إطلاق النار، وأظنّ أن القيادة العراقية في قرارة نفسها قـد ارتاحت لقرار وقف إطلاق النار بالرغم من استنكارها العلني له بعدما أحسّت بحجم الخسائر التي تكبّدها نخبة قواها في غضون بضعة أيام من القتال، وأنها قد أدّت دورها بكل إخلاص على الجبهة السورية (فرقتنا المدرعة ولواءان جبليان وآخر مشاة عـلاوة علـى الفـرقة المدرعة السادسة التي لم تشترك في القتال زائد أربعة أسراب طائرات مقاتلة نوع ميغ 21 وسوخوي 7) وأما على الجبهة المصرية (فشاركت فيها بسربين من طائرات الهوكر هنتر وبأفضل الطيارين) وبعد إجراء مراسم دفن شهدائنا الأبـرار في مـنطقة أم العوامـيد قرب مسجد السيدة زينب جنوب دمشق، شرعنا بالحـركة صـباح اليوم التالي باتجاه العراق، وخلال اجتيازنا الطريق الدولي الجنوبي للعاصمة دمشق عبر منطقة الغوطة الجميلة تراءى لنا جبل قاسيون المشرف على هذه المدينة الموغلة بالقدم وحاضرة الدولة الأموية حيث أسفرت دمشق عن وجهها الحزين لتطـبع قبلة شكر ووداع على جبين المقاتل العراقي الذي دافع عن شرفها، وكانت دمـاء 323 مقـاتلاً من فرقتنا المدرعة الثالثة قد طرّزت جلبابها الأبيض بخيوط حمراء زاهـية (لا أعـرف حجم خسائر التشكيلات العراقية الأخرى) كما عكس ضياء الـشمس المشرقة خلفنا وعلى روابي الجولان شواهد النخوة العراقية فتلـك أشلاء 137 دبابـة وناقلـة جنود و26 طائرة عراقية ستظـلّ تحكي للأجيال القادمة قصة

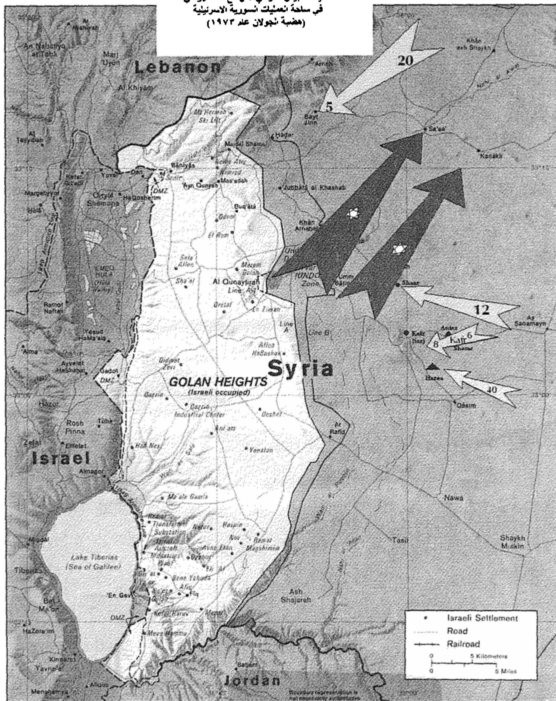
عظـــيمة عن روح الإخاء. وفي 1973/11/1 دخلنا الحدود العراقية، وفي اليوم التالي انطلقـــنا نحـــو معـــسكرنا في الورار قرب مدينة الرمادي، وكان استقبال الجماهير لنا لا يوصف، فقد غمرتنا بعواطفها الجياشة، حيث عبّرت عن فخرها بنا... فعلاوة علـــى الـــواجب القومـــي والأخلاقي اكتسبنا خبرة رائعة وخاصة في قتال الدروع، لقـــد كـــان الجـــيش الإسرائيلي شجاعاً ومنظّماً ويمتلك مهارات قتالية عالية ويدل هـــذا علـــى الـــتدريب الراقـــي والثقافة الجيدة كما أن التنسيق العالي ما بين قواته الـــبرية، وقـــواته الجوية، ومرونة القيادة، والدرجة العالية في إدارة المعارك أبهرتنا... لقـــد تركت هذه التجربة في نفسي آثاراً إيجابية عديدة أفادتني كثيراً في حياتي المهنية فيما بعد.

خريطة ساحة العمليات السورية الإسرائيلية لحرب 1973 الملحق (أ)



ملحق (أ - ٢)

عمليات الجيش العراقي + ل مع ٤٠ الأردني
في ساحة العمليات السورية الاسرائيلية
(هضبة الجولان عام ١٩٧٣)



الفصل الثاني

حرب شمالي العراق
عامي 1974-1975

المشكلة الكردية في العراق مشكلة قديمة، ظهرت منذ بداية التكوين السياسي الحديث للعراق على خلفية الوعود السياسية البريطانية العديدة للأقوام والطوائف التي كانت ضمن تركيبة الإمبراطورية العثمانية قبل الحرب العالمية الأولى، وبعد انتصار بريطانيا على السلطنة العثمانية، لم تتمكن من الإيفاء بكل وعودها لما يتعارض ومصالحها القومية، ومشكلاتها العملية، فالأكراد كجزء من تلك الأقوام كانوا يأملون بإنشاء وطن قومي في مناطق تواجدهم ضمن الشرق الأوسط. في العام 1919 قمعت القوات البريطانية أول عصيان كردي في منطقة السليمانية بقيادة محمود الحفيد، وبعد بضع سنين من نشوء الدولة العراقية الحديثة في عشرينيات القرن الماضي، التحقت المناطق الشمالية الشرقية من العراق الحالي بالكيان السياسي العراقي الجديد، وذلك تحت تاج الملك فيصل الأول، إلا أنه في العام 1932 قمع الجيش العراقي أول تمرد كردي ضد السلطة المركزية لدولة العراق وكان بقيادة أحمد البرزاني، وخلال الحرب العالمية الثانية، جرت ثاني المحاولات الإنفصالية في المناطق الكردية على العراق بقيادة الملا مصطفى البرزاني، ولكنها قمعت بسرعة، وهرب قائد التمرد إلى الاتحاد السوفييتي، وبعد قيام النظام الجمهوري في 1958/7/14، واعتراف الدستور الجمهوري في دولة العراق بالحقوق القومية للأكراد، وإعلان العفو العام عن الأكراد المتمردين في الداخل والخارج، عاد الملا مصطفى البرزاني إلى العراق معززاً مكرماً، إلا أنه عاد فتمرد على السلطة المركزية للدولة العراقية عام 1961، فواجهه الجيش العراقي بعمليات مسلحة

للقـــضاء علـــى تمرده، إلا أن هذه العمليات توقفت بعد الانقلاب على حكم عبد الكـــريم قاســـم في 1963/2/8، (هذا العام ظهرت أول خلية مخابرات إسرائيلية في المـــنطقة الـــشمالية لأغراض مساندة التمرد الكردي)، ثم تجددت عمليات التمرد المسلحة الكردية بعد وفاة الرئيس عبد السلام عارف بحادثة سقوط مروحيته في 13 /1966/4 في مـــنطقة النشوة بمحافظة البصرة. في هذه السنة مدّ الموساد الإسرائيلي المتمـــردين بمساعدات عسكرية تضمنت أسلحة ومدربين من قطاع المظليين على رأســـهم العقيد تسوري ساغي إلى جانب مبعوثي الموساد، وكان لهم دور في أول نصر ميداني كبير للمسلحين الأكراد على الجيش العراقي، عندما هُزِمَ اللواء الرابع العراقـــي في معركة جبل هندرين، ثم أعقب ذلك تشكيل أول جهاز استخبارات للمتمـــردين الأكراد في شمالي العراق عرف بجهاز (الباستان) بالاعتماد على الخبرة الإســـرائيلية، إلا أن عملـــيات التمرد توقفت على ضوء بيان البزاز الشهير (رئيس الـــوزراء العراقـــي عـــبد الرحمن البزاز) في 1966/6/29، وفي العام 1967 توثقت العلاقات الإسرائيلية مع قيادة التمرد الكردي فزار الملا مصطفى البرزاني إسرائيل، وأعقب الزيارة هذه تسهيل هجرة ما يقرب من 5000 كردي يهودي إلى إسرائيل، وبعد مجيء حزب البعث للسلطة في 1968/7/17 بعام واحد، تجدد التمرد في شمالي العراق لحين ما توصلت إليه الجهود السياسية لإيقاف القتال بين الطرفين وفقاً لبيان 1970/3/11 الذي وعد بمنح أكراد العراق حكماً ذاتياً بعد مرور أربع سنوات من إعلانـــه، ولعـــب الرئيس السابق صدام حسين دوراً أساسياً في التوصل إلى هذه الإتفاقـــية عـــندما كان نائباً للرئيس أحمد حسن البكر، هذا القانون منح الأكراد العـــراقيين حقـــوقاً ثقافية، وإدارية، ودستورية واسعة بالوقت الذي كان محرماً على الأكراد في مناطق الاقليم الأخرى التحدث باللغة الكردية، فجرت حين ذاك احتفالات كـــبيرة في بغـــداد، حضرها نيابة عن الملا مصطفى البرزاني ولداه ادريس ومسعود، كذلك جرت احتفالات مماثلة في شمالي العراق، وكانت معظم المباحثات قد جرت في معقل البرزاني في منطقة كلالة حيث كان صدام حسين المفاوض الحكومي فيها.

مـــا إن وصلنا أرض الوطن عائدين من سوريا بعد المشاركة في حرب تشرين الأول/أكتوبـــر 1973، حتى باشرنا خلال شهري 11-12 من نفس السنة بإعادة

التنظـــيم واستبدال دباباتنا القديمة، نوع T-54 بدبابات أحدث نوعاً، نوع T-55، وكالمعـــتاد في بداية كل سنة ينخرط معظم الضباط الأحداث بدورات المقر العام التدريـــية. في 1974/3/11 صـــدر قانون الحكم الذاتي للمنطقة الشمالية تصديقاً للبـــيان الـــذي صـــدر قـــبل أربع سنوات، إلا أن توافق المصالح القومية الإيرانية والإســـرائيلية في تحجـــيم الدور العراقي المتنامي، وإنسجاماً مع سياسة الولايات المتحدة الأميركية التي رأت في العراق معرقلاً لمشروع كيسنجر الداعي إلى سلسلة مـــن اتفاقـــيات الـــسلام للأقطار العربية المجاورة لفلسطين، وجد هؤلاء جميعاً أن الـــتدخل بالـــشؤون العـــراقية الداخلية، وخاصة في إفشال مشروع الحكم الذاتي للأكراد، سيقوّض ويحدّد كثيراً السياسة العراقية تلك، وإضافة إلى أسباب أخرى، فقـــد الطـــرفان الحكومي والكردي الثقة المتبادلة بينهما، وتعقّد الموقف، فرفضت القـــيادة الكردية المتمثلة بالملا البرزاني هذا القانون، مما أدّى إلى تجدّد التمرد المسلح ضـــد الـــسلطة العراقية، ولعبت إيران لأول مرة إبان حكم الشاه محمد رضا دوراً مباشراً في التمرّد الكردي منذ بداية العهد الجمهوري في العراق، فشاركت المدفعية الإيـــرانية الثقيلة في إسناد العمليات المسلحة للتمرد، حيث كان إسنادها في السابق يقتصر على الإسناد اللوجستي والسياسي فقط وخاصة خلال الأزمات المستمرة بين الطرفين، وأساسها الأطماع الإيرانية في الأراضي والمياه العراقية، لقد دفع العراقيون ثمـــناً باهظاً لتلك التدخلات الإقليمية بشؤونهم الداخلية. ومن المعروف أن إسرائيل عملت بالتعاون مع بعض دول المنطقة لتنفيذ استراتيجية المحيط كاقتراب غير مباشر علـــى الـــدول الساندة للقضية الفلسطينية. من خلال ردّ فعل الحكومات العراقية المتعاقـــبة، أصـــبحت المنطقة الكردية ذات ولاءات مختلفة، فمنها من يعمل ضمن سياســـة الدولة ومتعاون معها، ومنها من يعمل ضدها، في هذه الفترة تحالف تيار ماركـــسي علمـــاني يتمثّل في الحزب الشيوعي ومجموعة جلال الطالباني (المثقفون والماركسيون) مع التيار القبلي الديني الذي يمثّله البرزانيون وفق توافقية مصالح تلك الأطراف ضد الحكومة العراقية وبحجج مختلفة، فشاركوا في عمليات التمرد المسلح جنباً إلى جنب مع البرزانيين، حينها ومن أجل وحدة العراق أعلنت القيادة تكليف قواتنا المسلحة والمتطوعين من المواطنين الأكراد الموالين للحكومة (قبائل السورجية،

والـــزيبارية، والجاف، والهركية وغيرهم) لإنهاء التمرد العسكري الكبير الذي قاده الملا مصطفى البرزاني في شمالي الوطن وذلك في 1974/4/1.

صـــدر الأمر بإلغاء الدورات التدريبية للضباط المنتسبين للقطعات التي كلّفت بالمهمـــة أعـــلاه حيث التحقت بوحدتي (كتيبة الدبابات الثالثة) التي حشدت في كـــركوك، وكان واجب السرية الثالثة التجحفل مع قوة يقودها المقدم الركن عبد الـــستار المعـــيني آمر لواء المشاة الرابع زائد الفوج الثاني من نفس اللواء مع ثلاث ســـرايا مغاويـــر من الفرقة الثانية وما يعادل فوج من الموالين الكرد بإسناد مدفعي وهندســـي وجـــوي لفتح طريق كركوك - طقطق - كويسنجق بطول 72 كم، وكسر الطوق عن فوجي اللواء أعلاه المحاصرين (الفوج الأول في طقطق، والفوج الثاني في كويسنجق). وفي نفس الوقت، كلّفت سرية الدبابات الأولى وحدتنا مع القوة (الفرقة الرابعة) المكلفة بفتح طريق الموصل - دهوك - زاخو وسرية الدبابات الثانـــية بالتجحفل مع القوة المكلفة بفتح طريق كركوك - جمجمال - السليمانية وكانـــت معظـــم تشكيلات الجيش العراقي القتالية ذات خبرة واسعة في مواجهة أعمال التمرد المسلحة وحرب العصابات وخاصة الفرقتين الثانية والرابعة الجبليتين. تعتـــبر حـــرب العصابات من الحروب الخاصة والمعقدة، خاصة وأن طبيعة شمالي العـــراق جبلية وعرة، وتكتسي أجزاء كبيرة منها بالأشجار والنباتات الطبيعية مع نـــدرة الطـــرق الصالحة لحركة العجلات، ولا تسمح بالانفتاح الواسع للقوات. كانت منطقة برزان ثم كلالة معقلين أساسيين للبرزانيين لانعزالهما الطبيعي ولقربهما من الحدود الإيرانية. ومن المعلوم أن المناخ يلعب دوراً مهماً في العمليات العسكرية حيث تنقطع الطرق نتيجة سقوط الثلوج وذلك يستمر طيلة فترة الشتاء.

كـــان أســـلوب قتالنا يبدأ بحشد عدد من الأرتال في بداية الطريق أو المحور، فتـــتقدم الـــدروع في الأمام مع الرمي بأسلوب النار المتوقعة أولاً وبحماية المغاوير وبإسناد صنف الهندسة العسكرية لتطهير الطريق من الألغام قدر الإمكان، أما المشاة فكانوا يتقدمون على جانبي الطريق لتدمير المواضع المعادية، ومسك الروابي المهمة، وبإسناد ناري وجوي محدود من طائرات السوخوي 7 والهوكر هنتر، وبعد إكمال فـــتح الطـــريق تتمّ حمايته بالمرابأة الثابتة والسيارة وغالباً ما يخصص لهذا الواجب

وحدات الاحتياط العاملة آنذاك، وكانت استراتيجية الجيش العراقي في معالجة أعمال التمرد الواسعة تتمثّل بفتح الطرق الرئيسية بالقوة، ثم مسك العوارض الجبلية الحاكمة والمسيطرة، وبعدها تتمّ سلسلة من عمليات فتح الطرق الثانوية والعرضية وإجراء عمليات التفتيش الواسعة عن المتمردين وقتالهم أو مطاردهم. وغالباً ما تبدأ هذه العمليات الرئيسية في بداية الشهر الرابع إلى بداية الشهر الثاني عشر من كل سنة، وخلال فترة الشتاء، تنخفض الفعاليات القتالية إلى أدنى حدودها، فتقتصر على دوريات قتال صغيرة، حيث يتمّ استخدام النيران المختلفة للهاونات والمدفعية، وفي بعض الأحيان تستخدم القوة الجوية، وتقوم القوات العسكرية بتخزين مواد تموين القتال بما يكفي فترة الشتاء بكاملها. ويحرم العديد من المقاتلين من الإجازات لتعذّر تسيير القوافل الآلية، وتلعب النقلية الحيوانية دوراً رئيسياً في عمليات الإدامة اليومية ما بين القطعات المتخندقة على شكل ربايا وحاميات مختلفة الأحجام وفقاً لخطورة التهديد المعادي، ويشكّل تكتيك الربايا الدفاعي أساس شكل وهيئة المواضع القتالية، وكل ربية تؤمّن الدفاع لجميع الجهات مع استحكامات جيدة من أسوار الصخور، والأسلاك الشائكة، والألغام.

كنت أشغل منصب معاون آمر سرية الدبابات الثالثة عندما كلّفت سريتنا التجحفل (الدخول ضمن تشكيل مشاة سواء كان فوجاً أو لواءً) مع اللواء الرابع الجبلي وهو من الألوية القوية ذات الخبرة الكبيرة، إلا أنه قد خسر معركة جبل هندرين في عمليات عام 1966 كما ذكرنا سابقاً، ولأجله أشار قائد المنطقة الشمالية الفريق سعيد حمو، وقائد الفرقة الثانية العميد الركن طالب محمد كاظم لآمر اللواء الرابع على أهمية تحقيق نصر كبير في هذه العمليات الجديدة لتعويض هذا اللواء عن الخسارة المادية والمعنوية السابقة على الرغم من تحقيقه نجاحات مهمة في عمليات عام 1969. لقد استلمنا مهمتنا كجزء من مهمة اللواء أعلاه بقيادة التقدم لفتح طريق كركوك - شوان - كويسنجق الذي أغلقته القوات المتمردة، وتمّ حشدنا ليلاً في مفرق الطريق العام كركوك - آلتون كبري المتقاطع مع طريق كركوك - كويسنجق. تطلّب وجود آمري رعائل (فصائل) جدد في سريتي ضرورة قيادة التقدم من قبلي لأسباب أخلاقية، ولم يكن ينقص هؤلاء الملازمين

الـــشجاعة بل الخبرة حيث لم يكملوا كل دوراتهم الأساسية للصنف المدرع وهم عامر شياع، وعبد الجليل عبد العزيز، وتركي حروبي (لقد استشهد الأخيران فيما بعد بالحرب العراقية الإيرانية. وأما الأول، فأصبح قائداً لفرقة مدرعة وعميداً لكلية الحرب قبل أن يحال على التقاعد قبيل غزو العراق عام 2003). في الساعة 06:00 يـــوم 1974/4/22 اندفعنا بتقدم سريع باتجاه شوان التي حدث فيها أول اشتباك، فجـــرى التقدم بين اشتباك وآخر حتى تمّ إكمال المهمة يوم 1974/4/30 مع كسر الطـــوق عن الفوجين أعلاه والحمد لله كانت الخسائر محدودة، إلا أن كويسنجق أمست تحت تأثير الهاوين والأسلحة المتوسطة من اتجاه العارضة المهمة جبل هيبت ســـلطان. وقد حدثت أهم المقاومات في منطقة شيوا سور والوادي الأحمر حيث أصـــيبت إحـــدى دباباتي بلغم مضاد للدبابات، وسقطت دبابة أخرى في الوادي الأحمـــر، وأصيب عدد من مقاتلينا بإطلاقات القناصين الذين كانوا يختبئون جيداً علـــى حافة الوادي ومن المصابين عناصر من حماية آمر الفوج الثاني المقدم الركن ضـــياء الدين جمال، وبالكاد استطعت إنقاذ هذا الرجل عندما وضعت دبابتي بينه وبين قناصة العدو، وكذلك نجحت القوة المكلفة بفتح طريق كركوك - جمجمال - السليمانية، ونجحت قوة أخرى كذلك في فتح طريق الموصل - دهوك - زاخو إلا أن تقـــدّم قوات الفرقة الثامنة بقيادة العميد الركن طه الشكرجي المكلفة بفتح طريقـــي (أربيل صلاح الدين شقلاوة سبيلك كلي علي بيك راوندوز كلالة حاج عمران) كان بطيئاً لشدة المقاومة ووعورة المنطقة حيث توقّفت القوات المهاجمة في مـــنطقة مـــا بين جبل نواخين وأسفل جبل كورك أي منطقة (كلي علي بيك) ثم أصبحت تحت رحمة النيران المعادية.

في 1974/6/1 أكملـــنا تحـــشدنا في منطقة قليسان جنوب السليمانية حيث تجحفلـــت ســـريتي مع لواء المشاة الرابع عشر الذي كان بقيادة العقيد الركن عبد الجـــبار الصافي حيث كلفنا بفتح طريق (السليمانية عربت دربندخان)، بالرغم من بقـــاء تواجد العدو في جبل قره داغ وجبل أزمر المسيطرَيْن على مدينة السليمانية. وهـــذا الطـــريق يؤدّي إلى مضيق دربنديخان. وكانت مهمتنا فتح هذا الطريق من السليمانية حتى نفق القطار في دربنديخان، وأهم المناطق هي ناحية عربت، وجسر

دانجــرو، ومــرتفعات دربنديخان الطرف الشرقي لبحيرة دربنديخان. وقد كلّفت بقــيادة السرية لتمتّع آمر السرية بإجازة. وبالرغم من إصابتي بمرض التهاب المعدة الحــاد، إلا أنــني صمّمت أن أنفّذ الواجب دون إخبار مقر اللواء بحالتي الصحية لــسببين، الأول تجــنّب الظن السيّئ، والثاني كما ذكرت سالفاً كان كل ضباط السرية من الضباط الخريجين الجدد الذين لا يمتلكون خبرة كافية.

في الــساعة 5:30 يوم 1974/6/4 شرعنا بالتعرض، حيث اصطدمنا بوقت مبكر بمقاومــة متوسطة الشدة، فتمّت إزاحتها خلال الساعة الأولى، إلا أنني خسرت سائق دبــابتي جندي أول حسين غرقان، الذي أصيب في رأسه بطلقة قاتلة نتيجة خروجنا للقــتال بالأسلحة الشخصية، عندما تعذّر علينا استخدام أسلحة دباباتنا لعدم وجود ســاحة رمــي كافية لها وبسبب انقلاب دبابة المقدمة من على قنطرة الطريق لإصابة الــزلفات الزجاجية بإطلاقات مما جعل من المتعذر على سائقها تقدير المسافة والاتجاه جيداً وقد ساهم في ذلك ضيق القنطرة التي كانت بعرض الدبابة.

بعــدها انفــتح الطــريق نحو عربت، عندها استقبلنا أهلها بالرايات العراقية والبيــضاء، ومــنها اندفعنا سريعاً لإزاحة باقي المقاومات في منطقة جسر دانجرو وزرايــين، ثم تــدمير المقاومة الكبيرة في منطقة دربنديخان، وتمّ الاتصال عند النفق بطلائــع اللواء السادس عشر المدرع بقيادة العقيد الركن محمود وهيب المتقدم من جلــولاء، وكان أحد رشاشات العدو الثقيلة نوع دوشكا في موضع رمي حصين ومسيطر جداً، مما منع مشاتنا من مواصلة التقدم نحو نفق القطار، فقرّرت الاندفاع نحــوها، وكانــت زاويــة الارتفاع قد قاربت (45°)، وكان يقود الدبابة الرامي العريف خالد بدلاً من سائقها الشهيد، وبصعوبة بالغة جثمت الدبابة على موضع الرشاشات المعادية، فعندها تمكّن المشاة من الاندفاع النهائي، والوصول إلى الهدف. وقــد أثــار صعود دبابتي دهشة آمر اللواء الذي منح سائقها مكافأة مالية، إلا أنه ســألني عــن سبب الرائحة النتنة المنبعثة من الدبابة، وأسباب الدماء الظاهرة على ملابس السائق، فأجبته بأن ذلك الدم يعود إلى السائق الذي استشهد في بداية تنفيذ المهمة، وهذه الرائحة ناتجة عن تعفّن ذلك الدم.

في 1974/6/9 تعرّضــنا بالهجــوم لمنطقة قرة داغ الواقعة شرق السليمانية،

وتمكّنا من طرد العدو منها بعد معركة استغرقت كل نهار ذلك اليوم، حيث انسحبت فلوله باتجاه سلسلة الجبال الفاصلة بين حوضي عربت ونهر ديالى، بعدها عدنا إلى منطقة زرايين لإسناد الفوج الثاني من اللواء 90 الاحتياطي الذي كان يتعرّض يومياً لعدة هجمات معادية مع قصف بالهاونات. وفي 1974/6/11، كرّر العدو هجومه باتجاه مواضع الفوج أعلاه دون تمكّنه من كشف دباباتنا، فتصدّينا له بقوة، وجرى تدميره، وأسر مدفعي هاون عيار (120 ملم)، فارتفعت معنويات جنود هذا الفوج كثيراً إلا أن هذا الفوج كان سيِّئ الحظ، فعند المغيب انقلبت إحدى شاحنات نقل الجنود، فقتل على أثرها 18 جندياً، وصادف أن عدداً كبيراً من جنود هذا الفوج كانوا من منطقة واحدة من محافظة ميسان فأخذتهم العاطفة، وانهال بعض أقاربهم على مساعد آمر الفوج الملازم الأول طارق بالضرب لاعتقادهم أنه كان مسؤولاً عن الحادث، حيث أمر بتحميل عدد كبير من الجنود في هذه الشاحنة لقلة الشاحنات في هذا الفوج. ثم تعاظم الحدث بما يشبه التمرد لقلة ضبط جنود الاحتياط، مما اضطرني إلى حسم الموقف باستخدام قوة من سريتي، بعدما أمسكت بالمحرّض، وكان برتبة نائب ضابط ينتسب إلى نفس عشيرة هؤلاء القتلى. وفي صباح اليوم التالي واصلت مسيري نحو منطقة السليمانية، وحاول آمر الفوج إقناعي بالبقاء لليوم التالي ريثما يستتب الهدوء في الفوج، إلا أنني كنت ملزماً بتوقيتات لا يمكن تجاوزها.

في 1974/6/17 اكتمل تحشدنا مع قوة كبيرة غرب مدينة السليمانية، وكان الهدف تحرير جبل أزمر المؤثر جداً على سلامة المدينة، مع عدد من الرواقم الأخرى، وكان عدد تشكيلات المشاة أربعة، زائد لواء قوات خاصة، وبعض الوحدات المدرعة بالإضافة إلى إسناد ناري جيد، وكان واجبنا قيادة التقدم على طريق السليمانية - أزمر - جوارتة، ومهمتنا تنتهي باحتلال قمة الجبل مع اللواء الرابع مشاة. في الساعة 5:30 يوم 1974/6/18، شرعنا بالحركة وبدأنا بتسلق الطريق الضيق آنذاك حتى الساعة 14:30، عندها توقّفنا عند كلي أزمر وهو عبارة عن طريق شديد الالتواءات مع حافة شديدة الانحدار، وذلك بسبب اكتشاف فصيل الهندسة لعدد من الألغام المضادة للدبابات، وعدد من موانع الطريق على

شــكل حفر، إلا أن هذا الفصيل الشجاع، تكبّد خسائر كبيرة أوقفت عمله. وفي الــساعة 17:30، صــدر أمر الانسحاب إلى مناطق الانطلاق، لتعذّر وصول جميع الأرتــال إلى أهــدافها، لقد استثمرت هذه الفرصة لإخلاء أكبر عدد من الشهداء والجرحــى علــى ظهور دباباتنا. وقبيل المساء وبينما كنّا نسدّ نقصنا من الوقود والعتاد، علمنا أن القيادة الشمالية تحقّق حول من أعطى أمر الانسحاب للواء الرابع الــذي كانــت سريتنا تقود تقدّمه (كنت أقود الدبابة الأولى وفي منعطف طريق الكلــي اصــطدمت بمقاومة شديدة، وكان معظم جنود فصيل الهندسة العسكرية الذي يتقدّم دبابتي قد أصيبوا، ومنهم آمر الفصيل بطلقة في رقبته، وقد تمكّنت من إســكات المقاومة، وتخليص هذا الفصيل. وقد اضطررت إلى استخدام بندقيتي في هذه المشاغلة لتعذّر استخدام مدفع الدبابة، في ظل هذا الموقف، اتصل آمر السرية رياض جمال، وأبلغني بالتوقف، ثم الانسحاب إلى منطقة الانطلاق أسفل الجبل وفقاً لأمــر استلمه من اللواء الرابع، وكانت عملية الانسحاب صعبة لأن الطريق الجبلي كــان ضــيقاً جداً ولمسافة تزيد عن 300 متر كانت دباباتنا تسير باتجاه الخلف، وبإشــارات مــن آمري الدبابات لحين وصولها إلى نقطة فيها متسع تمكّنت فيها الدبابات من الاستدارة نحو الخلف بالتعاقب).

في الــساعة 8:30 يــوم 1974/6/19، وقبل شروعنا بالتقدم مجدداً، وصل إلينا العميد الركن عبد الرحمن سوسة من مقر القيادة الشمالية؛ وهو من الضباط الأكراد وهــو في حالة انفعال شديد، فألقى القبض على آمر سريتنا متهماً إياه بالانسحاب بدون أمر. وقد أثار هذا دهشتنا، فعندها جادلت هذا الضابط الكبير للدفاع عن آمر سريتي، إلا أنه لم يستمع لي، وأصرّ على أخذه معه بالمدرعة التي كان يستقلها. ودفعاً لــشبهة تقــصير سريتنا طلبت منه الإذن بالانطلاق، فأخبرني بأنه سيوعز إلى اللواء الــرابع بمواصلة التقدم خلف سريتي، فقدت السرية بأقصى سرعة نحو طريق الجبل، وبدأنا بالصعود على ذات الطريق الذي انسحبنا منه في اليوم السابق، وكالعادة كنت في الأمــام لأن الطريق ضيق جداً، لا يسمح إلا بالتقدم بأسلوب الرتل. وقد تركت (رعــيل) فــصيل دبابات في بداية الطريق بانتظار وصول اللواء الرابع. وبعناية إلهية عــبرت بجميع دباباتي منطقة الكلي في ظل رمي شديد من الحافة العلوية للجبل دون

تمكّــن أسلحة دباباتنا من الرد ومشاغلة نار العدو حيث يتعذر على مدافع الدبابات الوصول إلى زاوية الارتفاع المطلوبة لأن حافة الجبل كانت على شكل قطع يساوي (90°). أما الجهة اليسرى، فتشكّل فضاء الهاوية نحو الوادي، وبعدما تمّ الوصول إلى رقبة الجبل، هناك جاهني مانع طريق على شكل قطع محفور بالمجارف اليدوية تسنده عــدة مواضــع لرشاشات معادية تمكّنت من تدميرها، وكذلك من تخفيف القطع باستخدام مدفع الدبابة، وبعدد من إطلاقات (المهداد). وعند وصولي إلى حافة القمة كــان فيها المخفر القديم، والذي تمّ تدميره بسهولة، والقضاء على القوة المدافعة فيه، علاوة على تدمير مدفع مقاوم للطائرات عيار (37 ملم). بعدها، اتسع المجال لانفتاح عــدد مــن الــدبابات فتمّ احتلال القمة المشجرة، فشاهدنا في فضائها تشكيلاً من طائــراتنا السوخوي المقاتلة، وعلمت فيما بعد أن طيار إحدى تلك الطائرات أخبر القــيادة الــشمالية بوصــولنا إلى القمة التي كانت بارتفاع 1709م، فتمّ الاتصال اللاسلكي بي من قبل القيادة الشمالية مع عبارات التشجيع والإعجاب، وطلبوا مني تقــديم الاحتــياجات الضرورية التي أراها مناسبة، فطلبت سرعة إيصال قوة مشاة لمعالجــة المقاومــات المعاديــة على حافة القمة المشجرة. وخلال أقــل من ساعة، شــاهدت قــوة مشاة آلية محمولة بناقلات مدرعة نوع (BTR 60). وعند منعطف الطــريق الجبلــي، انفجــرت عدة ألغام تحت الناقلة الأولى، ثم علمت بأن الهندسة العــسكرية تمكّــنت مــن رفع 12 لغماً مضاداً للدبابات لا أعرف كيف لم تنفجر بدبابتي أو الدبابات المعقبة لها. وبعد ساعتين، وصلتني مجموعات من القوات الخاصة، كــادت تمــوت عطشاً، فأسعفناها بالماء المحمول في دباباتنا لسقوط المروحية المكلفة بحمــل المــاء لهم، وقبل الانسحاب مساءً تمّ تبديلنا بدبابات نوع M-24 من كتيبة الــدبابات الثانــية (وهــي من الدبابات الأميركية القديمة حيث اضطررت لقطرها بــدبابتي عــند رقبة الجبل)، وطلب منا قصف المواضع المعادية باتجاه جوارتة وسط دهــشة قائــد المنطقة الشمالية الفريق سعيد حمو بكفاءة مدفع الدبابة من عيار 100 ملــم، وبمــداه الطويل 16800 متر، حيث استفدنا من ارتفاع مواضعنا بالنسبة إلى الهدف، وعندها طلبت منه إطلاق سراح آمر سريتنا كمكافأة لما أنجزناه مع إصراري على براءته، فتم لي ذلك، وقد منحت نوطي شجاعة مع مسدس هدية.

بعدها نفّذنا عدداً من الغارات باتجاهات مختلفة لتحقيق مبدأ (طارد العدو بـدل أن يطاردك) إلا أن الموقف في قاطع - كلي علي بك - كان سيئاً لشدة وعـورة المنطقة (كورك - نواخين - خليفان - ظهر السمكة) مع سوء تقدير القـيمة التعـبوية لعارضة - ظهر السمكة - من قبل قيادة الفرقة الثامنة التي كانـت بقيادة العميد الركن طه الشكرجي والمشهور بتهـوره، إلا أن نجـاح سـرية دبابات خفيفة نوع (BTR-76) من كتيبة الدبابات الثانية بقيادة الملازم الأول بـرجس سلمان العذبان (الذي استشهد فيما بعد خلال الحرب العراقية الإيرانية عندها كان يقود لواءً مدرعاً) وبمساعدة جهد هندسي كفوء تمكن من اعـتلاء قمـة جـبل (كـورك) ومنها جاء تخطي المضيق وانفتح الطريق إلى (راوندوز) وبعدها تمّ احتلال الجبل الكبير (زوزك) توأم جبل (هندرين). إلا أن الـتقدم توقّف عند منطقة الجسور وخاصة الجسرين الرابع والخامس. وأمست (كلالة) معقل المتمردين على طريق جومان - حاج عمران - الحدود الإيرانية قريبة لكنها منيعة.

في 1974/7/5 كلفـنا مع لوائنا لواء المشاة الآلي الثامن بقيادة العقيد الركن عـبد الكـريم الحمـداني (الذي أعدم عام 1998 بتهمة التآمر على الرئيس صدام حـسين) بعد تحرير جبل (هيبت سلطان) بهجوم ليلي مباغت بالاندفاع من مفرق (بـستانة) نحـو (خوشناو) ثم (شقلاوة) سفح جبل (سفين) الشمالي بغارة كبيرة اسـتهدفت تدمير المناطق الإدارية للمتمردين. وكانت غارة ناجحة جداً أسر فيها 32 متمـرداً، وتمّ تـدمير مـئات الأطنان من مواد تموين القتال، وكانت أكداس المشروبات الروحية الغالية الثمن تثير الدهشة، فدمّرت بأماكنها مع رفع حمولة 70 عجلـة مـن الأرزاق للاستفادة منها. ومن الظواهر الشاذة، كان يوم 1974/7/7 ممطراً جداً، ومن الطريف أن أذكر هذه الحادثة وهي عندما صدر الأمر لي بتجميع دبابـات سـريتي لتنفيذ الواجب نحو منطقة خوشناو، كان أحد رعائل (فصائل) سـريتي على المرتفعات المطلة على بحيرة دوكان، فتعذّر على إحدى دبابات ذلك الرعيل الهبوط نحو الوادي. وكان آمر الرعيل من الضباط الجدد الملازم عامر شياع، وكانت تلك الدبابة تبدو من الوادي بوضع تسهل حركتها إلى الأسفل مما اضطرني

للصعود إليها بواسطة عجلة الجيب متهماً سائقها بالتخوف وقلة الكفاءة إلا أنني حين وصلت إليها، وجدهما بوضع صعب ومعقد مع احتمال كبير بسقوطها نحو البحيرة لشدّة الانحدار، غير أنني كنت مجبراً على قيادهما بنفسي نحو الوادي، وبصعوبة بالغة مع عدد من الانزلاقات غير المسيطر عليها نجحت في إيصالها بسلام إلى طريق الوادي في منطقة بستانة. وعندها صرخت بوجه سائقها أكان هذا متعذراً عليك وأنت سائق قديم؟ وفي الحقيقة كان ينطبق عليّ المثل القائل: "مكره أخاك لا بطل".

في 1974/8/2 نفّذنا غارة كبيرة لتطهير المرتفعات المطلة على الطريق الواصل بين عربت ودربنديخان، ونتيجة لعدم دقة موقف الفوج الأول (قوات خاصة) كادت الطائرة المروحية لقائد المنطقة الشمالية ومعه قائد الفرقة الثانية أن تسقط بنيران العدو حين هبطت اضطرارياً قرب دباباتي حيث أوجزهما بدقائق الموقف إلا أن آمر الفوج أعلاه وهو المقدم الركن شامل لم يسلم من لعنات قائد المنطقة.

يوم 1974/8/7 تحرّكنا إلى قاطع (رانية) - حوض (بلكان)، فتمّ تحريره بسلسلة من المعارك التي اشترك فيها اللواء الأول الآلي (ميكانيكي)، ثم تحرّكنا إلى منطقة مضيق سنكسر حيث شكل الكتف الأيمن بداية جبل (أسوس) وفتحة دخول مياه بحيرة دوكان، والكتف الأيسر بداية جبل (كيوه رش) الذي يمثّل من جهتنا حائطاً جباراً من الصخور ومن خلال هذا المضيق يمرّ طريق (رانية) - (قلعة دزة) وقد أغلق العدو هذا المضيق بالصخور وبالألغام المختلفة. وبعد سلسلة من هجمات المشاة، والقصف المدفعي الثقيل، والرمي المباشر بالدبابات تمّ الاندفاع من المضيق نحو قلعة دزة، حيث حرّرت يوم 74/8/18، وقد سبق ذلك عملية عبور بحيرة دوكان بالأطواف من قبل الفوج الثالث التابع للواء الثاني عشر المدرع وبعض وحدات لواء المشاة الآلي الأول بقيادة المقدم الركن محمد جواد البدر المعروف بهدوئه وكفاءته. إلا أن سقوط طائرتين نوع هوكر هنتر كان حدثاً غير سار. ثم عدنا بعدها إلى مأوى قرب المقر الجوال للفرقة الثانية (جوار قرنة) ولإمرة مقر كتيبتنا الذي تحرّك لأول مرة من كركوك (كان عناصر الهندسة العسكرية يفجّرون بعض الألغام المعادية المرفوعة من قبلهم في مضيق سنكسر على حافة بحيرة دوكان

ممـــا أدّى إلى مــــوت كميات من الأسماك وهالني حجم إحدى تلك الأسماك التي نسميها بالشبوط والتي قاربت المترين طولاً).

شنّ العدو ليلة 30-1974/8/31 هجوماً كبيراً على قطعاتنا الموجودة في قاطع قلعة دزة ولأول مرة بإسناد المدفعية الإيرانية الثقيلة من (عيار 175 ملم) مع قصف مضيقي (سنكسر) و(رانية) وقد ترافق ذلك مع قصف تجاه أحدث بطارية مدفعية لـــنا كانـــت هناك من عيار (130 ملم)، فكان موقفاً أدهش الجميع حين أصبح الـــتدخل الإيـــراني سافراً، وعلى استعجال شكّلت قوة مرتبة بإمرتي من الدروع والمـــشاة حيث أوجزني قائد المنطقة بمهمتي القاضية بنجدة القطعات في قاطع قلعة دزة وابتداءً من قرية سنكسر لأن موقف الفوج الثالث الآلي من اللواء الثاني عشر المدرع المدافع في قلعة دزة كان غامضاً. إلا أن القصف الشديد لفتحة المضيق حال دون عبور المشاة المحمولين بعجلات الحمل، فقدت دباباتي بفاصلات طويلة لتفادي إصـــابتها، وبسرعة عالية عبرنا النقطة الحرجة، وتبيّن بأن موقف الفوج الأول من اللـــواء الأول بقـــيادة عبد الكريم العيثاوي في (سنكسر) لا بأس به. وبعد إزاحة مقاومة بسيطة في منتصف المسافة عند قرية (جيراوة)، وصلنا إلى موضع (قلعة دزة) حـــيث تحمّل الفوج الثالث من اللواء الثاني عشر بقيادة المقدم الركن حازم الجنابي شـــدة الهجوم والقصف الثقيل وقدّم تضحيات كبيرة. إلا أن صمودهم قد أدهش الإيـــرانيين الذين كانوا يراقبون المعركة من جبل أسوس، وعلمنا ذلك من خلال استراقنا السمع لمكالماتهم اللاسلكية.

يـــوم 74/9/27 كلّفـــت بالتحجفل مع اللواء الثاني مشاة الذي كان بقيادة المقـــدم الـــركن قيدار محمد صالح وبالاندفاع من جوار قرنة إلى سرجاوه لتحرير المرتفعات الجبلية في قاطع (بيت واته) لتأمين قاعدة الانطلاق على محور ضيق جداً ضـــمن مـــنطقة شـــديدة الوعورة لتخطّي جبل (هندرين) نحو (كلالة)، ولتفادي المقاومـــات الشديدة في منطقة الجسور. شرعنا بالتعرض بثلاث أرتال، الرتل الأيمن الفوج الأول من اللواء الثاني عبر السلسلة الجبلية بهدف احتلال الراقم(*) 1821 متر، وكـــنت أتقدم الرتل الوسطي بدباباتي وأساسه الفوج الثاني من اللواء الثاني وهدفه

(*) الراقم: يعني رقم ارتفاع القمة الجبلية بالأمتار.

قمـــة تدعـــى النجمة، والرتل الأيسر الخفيف الطيار أي المتقدم على سلسلة القمم الجبلـــية من الكرد الموالين. وبعد 8 كم من التقدم ضاقت علينا الأرض وانحشرت دباباتي بين الصخور الكبيرة التي تجاوز حجمها وارتفاعها ارتفاع دباباتنا. توقّفت الأرتـــال مـــساء يـــوم 1974/9/28؛ الرتل الأيمن عند الراقم 1821 متراً، والرتل المركزي أسفل قمة النجمة، وظلت المعركة سجال واستنـــزاف لمدة 17 يوماً، تمّ علـــى أثـــرها سحب قوتي بعد تدخّل مقر الكتيبة لأن المشاة في الحروب الجبلية لا يفـــضّلون أبداً الاستغناء عن الدبابات، وذلك بعد أن أصبحت دباباتي لا جدوى مـــنها وهي محشورة في وادٍ صخري منيع. كانت هذه الفترة من أصعب الفترات الـــتي واجهتني في عمليات حرب الشمال، وقد أفادتني كخبرة جيدة في موضوع القـــيادة وكيفـــية المحافظة على الروح المعنوية للجنود المحاصرين والمتعرضين لخطر القـــصف والتطويق واحتمالات الأسر، حيث كانت عناصر من العدو تناديهم ليلاً للاستـــسلام، وكانـــت مدافع الدبابات أفضل سلاح لتدمير المغارات والكهوف (شـــكفتات باللغـــة الكردية) الموجودة على سفوح الجبال، والتي كان المتمردون يجعلـــونها مواضعاً محصنة للرشاشات الثقيلة. لقد كنا شبه محاصرين، وكان قصف الهاونات مزعجاً جداً مما اضطرنا للمكوث طويلاً داخل الدبابات، وكنت أستثمر الوقت بالقراءة لأنني كنت أحتفظ دائماً بعدد من الكتب في دبابتي، وقد استفدت كـــثيراً من مكتبة بشدر في (قلعة دزة). فقد حصلت على كتب ثمينة كادت تحرق عندما تعرّضت المكتبة للتدمير خلال القصف الإيراني في الشهر السابق.

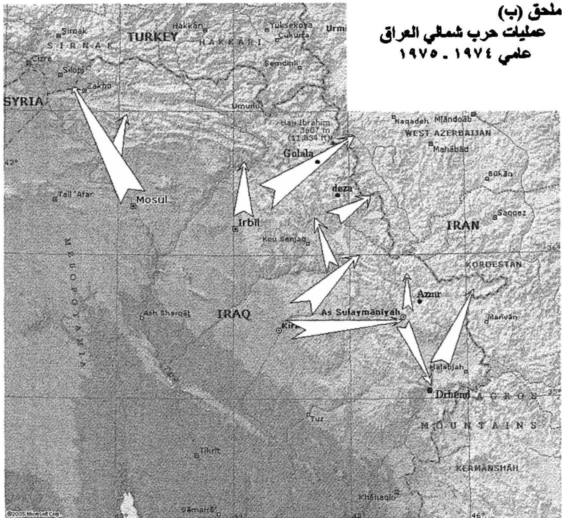
في 1974/11/23 كلّفنا بالتححفل مع اللواء الأول مشاة آلي بعد اتخاذنا من قلعـــة دزة قاعـــدة للانطـــلاق بسلسلة من الغارات، وبالتعاون مع الكرد الموالين باتجاهـــات مخـــتلفة، إلا أن أهمهـــا كان عدداً من الغارات باتجاه الحدود الإيرانية (هولشو – هيرو)، وباتجاه منطقة شهيدان ومرة نحو منطقة (قادر كرم) ولكن مع اللواء الرابع بقيادة العقيد الركن طارق محمود شكري. واستمرت تلك الغارات إلى موسم الثلوج حيث تحوّلنا إلى الدفاع مع انحسار تأثير المدفعية الإيرانية الثقيلة حيث اهتممنا بتحصين المواضع. وقد أضاف لنا العمل في موسم الثلوج خبرة جديدة مع انخفاض فعّاليات الجانبين إلى الحدّ الأدنى.

في 1975/3/6 أعلن عن اتفاقية المصالحة في الجزائر بين العراق وإيران لتحسين العلاقـات بين الطرفين خلال مؤتمر قمة دول منظمة (أوبك)، ونصّت على إنهاء الـتدخل الإيراني بالشؤون الداخلية للعراق، وقد مثّل العراق نائب الرئيس صدام حسين، ومثّل الجانب الإيراني الشاه محمد رضا بهلوي. وكانت هذه الاتفاقية نتيجة إيجابـية لوساطة الرئيس الجزائري هواري بومدين لإنهاء النـزاعات الطويلة ما بين البلدين الجارين. وعلى أساس هذه الاتفاقية تنازل العراق عن حدوده الممثلة بالضفة الـشرقية لـشط العرب(*)، واعتُمد خط التالوغ أي منتصف المياه العميقة للشط كحـدود فاصلة ما بين البلدين مع ضمان حرية الملاحة، مقابل سحب دعم إيران لحـركات التمـرد الكردية في شمالي العراق، وأحدثت تلك الاتفاقية صدمة قوية للقيادة الكردية، حيث استدعى الشاه الملا البرزاني، وأخبره بكل برود بأن الاتفاقية أصـبحت نافذة المفعول، فاستثمرت قيادتنا ذلك أفضل استثمار، فحال ما تحسّن الطقس جرت اندفاعات سريعة بكل الاتجاهات لإنهاء تواجد المتمردين، وخاصة ما نفّـذه لـواؤنا (اللواء الثامن مشاة آلي) باتجاه معقلهم الحصين في كلالة وجومان وحـاج عمـران، فانهارت مقاومتهم بشكل مذهل وقد قتل المتمردون عدداً من أسـرانا منهم طيارين في (جومان) قبيل هروبهم. وما إن أعلن قرار القيادة بالعفو العـام عـن المتمـردين من المواطنين الكرد حتى جاءوا كسيل منحدر من الجبال الـشاهقة لتسليم أسلحتهم واستلام التعويضات المالية عنها، وقد أفادت سجلات قاطعنا فقط باستسلام أكثر من 14 ألف مسلح. وفي 1975/4/30 انتهت عمليات القضاء على التمرد في شمالي الوطن، وعم السلام ربوعه الجميلة. وفي يوم 1975/5/5 تركنا قاطعنا وتحشدنا في منطقة كركوك - لقد عدت بسريتي، وأنا أنظر إلى آثار المعـارك وخـسائرها من الطرفين لأنها خسارة واحدة فكلهم عراقيون، متمنياً أن يـشمل الله الجميع برحمته ويؤلف بين قلوب العراقيين جميعاً. لقد اكتسبت الكثير من الدروس والخبرة في هذه الحرب في القتال بالمناطق الجبلية وأساليب مجابهة أعمال التمرد وحرب العصابات، وأهمها درس الوطنية السياسية، والمتمثل بخطورة الافتقار

(*) هـذا التنازل أصبح عقدة ذنب للرئيس صدام حسين فيما بعد لحين قيامه بالغاء الاتفاقية أعلاه عند بداية الحرب مع إيران.

إلى الحكمـــة واعــتماد الوسائط العسكرية في حل المشكلات وخاصة المشكلات الوطنية فما ذنب من قتل في هذه الحرب؟ ولمصلحة من؟ وما ذنب هؤلاء المواطنين الذين قست عليهم ظروف القتال؟ فمنهم من تشرّد ومنهم من خسر ما ملكه من وســائط العــيش الرغيد، فتفرق الأحباب والأخوان وتاهت ألوف العوائل البريئة وهي تبحث عن ملاذ آمن. ومما لا شك فيه أن الفريقين تقاسما الأخطاء، وكانت الحــرب مجازفــة أكيدة بشعبنا الكردي حيث لم تتوفّر المبررات المقنعة لها، وعلى العكــس كان من الممكن كسب الكثير من المكاسب السياسية لعملية تطبيق أكبر منجــز سياســي ألا وهــو الحكم الذاتي... ثم عدنا بالقطار إلى بغداد، وبواسطة نــاقلات الدبابات وصلنا إلى معسكرنا الدائم في الورار غرب الرمادي، وقد بلغت تــضحيات قواتــنا المــسلحة خلال ذلك العام 63 ألف إصابة ولا نعلم بالضبط الإصــابات بالجانب الآخر. وعلى كل حال سطّر رجال جيشنا الأشاوس ملحمة أخرى في سبيل وحدة الوطن والشعب.

الملحق ب


ملحق (ب)
عمليات حرب شمالي العراق
عامي ١٩٧٤ - ١٩٧٥
TURKEY
SYRIA
IRAQ
IRAN
Sirnak
Cizre
Silopi
Zakho
Hakkari
Yuksekova
Cukurca
Urmi
Semdinli
Umurlu
Haji Ibrahim
3607 m
(11,834 ft)
Golala
Naqadeh
Miandoab
WEST AZERBAIJAN
Mahabad
Bukan
Saqqez
deza
Mosul
Tall 'Afar
Irbil
Kou Senjaq
KORDESTAN
Azmr
As Sulaymaniyah
Marivan
Ash Sharqat
Halabjah
Drhend
ZAGROS
MOUNTAINS
Tuz
Tikrit
KERMANSHAH
Khanaqin
Samarra
MESOPOTAMIA
©2005 Microsoft Corp

الفصل الثالث

الحرب العراقية الإيرانية

حرب الخليج الأولى للأعوام 1987-1988

التعرض الوقائي

بما أن ملحمة الحرب العراقية الإيرانية، قد دامت لأعوام ثمانية، ومرّت بمراحل عديدة، وشهدت تقلبات كبيرة في ميزان الصراع، فعليه رأيت من المناسب تناول حوادثها المهمة حسب مراحلها، وذلك بهدف تحقيق الفائدة بشكل أفضل، وإن لم يكن تحديد هذه المراحل متفقاً عليه رسمياً.

كما هو معلوم، شهد النصف الثاني من عقد السبعينيات غلياناً شعبياً في إيران علـى كافة الأصعدة السياسية، والدينية، والإجتماعية وذلك بسبب عدم مواكبة نظـام الـشاه لحـركة العصر، وظل أسيراً لرؤيا وفلسفة الإمبراطورية الساسانية المنقرضـة مطمئـناً لإسـناد أصدقائه في الغرب، وعلى رأسهم الولايات المتحدة الأميركـية، وقـد حاول عبثاً أن يبقي المارد محبوساً في قارورته، إلا أنه وبحركة (مـسرحية)، أقنع جنرال أميركي الشاه بالمغادرة، وترك إيران لبعض الوقت، كما جرى أيام إنتفاضة مصدق في مطلع خمسينيات القرن الماضي، بعدما ركب معه في طائـرة هليكوبتـر (مـروحية)، حامـت فوق شوارع طهران التي كانت مليئة بالمتظاهرين، وإذ بالمارد يخرج من محبسه، وينفجر كالبركان.

لقـد اسـتلم رجال الثورة الإيرانية بزعامة رجال الدين، ورؤساء الحوزات العلمية الدينية للمذهب الاثني عشري الجعفري السائد في إيران السلطة، وكان على رأسهم الزعيم الروحي الكبير (آية الله خميني)، وبالرغم من أن رجال الثورة كانوا

مـــن مشارب مختلفة كالزعامات الطلابية ذات الدور المباشر بالثورة، بالإضافة إلى الكـــثير مـــن مثقفي إيران، وهم علمانيون وسياسيون وطنيون بمعظمهم كمهدي بازركـــان، وماركـــسيون ورجال قانون، وسياسيون مخضرمون، بالإضافة إلى من كان يشك في علاقاته بمخابرات أجنبية كصادق قطب زادة وآخرين. إلا أنه كان للموضوع الديني أثره الطاغي والحاسم في أوساط شعب كبير معظمه محدود التعليم إن لم يكـــن أمياً، فهم يقدسون رجال الدين، ويأتمرون بأمرهم، فهؤلاء هم مادة الـــثورة، وليس طلائعها ضد الدكتاتورية الساسانية المتخلفة والمتقوقعة في فلسفات الإمبراطوريات الغابرة كما وصفت آنذاك.

كـــان للتـــناقض الايديولوجي بين نظامين سياسيين متحاورين على أرضية مشتركة ومعقدة من الموروث التاريخي، والديني، والاجتماعي، والاقتصادي الدور الأساسي لمكونات ومسببات الصراع المسلح الطويل الذي دام ثماني سنوات كاملة، فالنظام الإيراني نظام إسلامي شيعي أصولي يسيس الدين وفق عقيدة ولاية الفقيه، ويرى أن حل كل مشكلات المجتمع والعصر (المشكلات الدينية والدنيوية) تتم على أيدي رجال الدين، الذين يرفضون طروحات العلمانيين، الذين بدورهم يعتبرونهم لا يحـــسنون غير صناعة الفقه الديني، ويرى هذا النظام الديني أن الحدود السياسية تنتهـــي عـــند حدود الانتماء الديني المذهبي وبالمقابل النظام العراقي نظام سياسي علمـــاني قومـــي، يرى في الدين موضوعاً شخصياً إنسانياً محصوراً ما بين الإنسان وربـــه، وبالتالي فهو غير مؤهل لحل مشكلات العصر السياسية والاقتصادية فليس هـــناك سياسة إسلامية وأخرى غير إسلامية واقتصاد إسلامي وآخر غير إسلامي، فالنظام السياسي البعثي يرى أن حدوده تنتهي عند نهاية رقعة الانتماء العربي.

لقد فاجأت الأحداث السياسية الإيرانية النظام السياسي العراقي وهو في بداية اســـتلام زعامة شابة (استلم الرئيس الجديد صدام حسين المنصب الأول في الدولة والحزب في منتصف عام 1979) يحدوها الأمل في تحقيق حلم كبير جداً في انبعاث قدرات أمة عربية من المحيط إلى الخليج، وإذا فشل الزعيم العربي الراحل جمال عبد الناصـــر في تحقـــيق ذلك الحلم للأسباب المعروفة، فإن الزعامة الشابة القومية في العراق، كانت لها كل الثقة في تحقيقه، لكن كيف يتحقق هذا الحلم في ظل المنافسة

الــتي يفرضــها التيار السياسي الإيراني الجديد، الذي يرى أن أول مكاسبه خارج إيــران يجــب أن تكون في العراق بوضعه الجيوبولتيكي الواهن أمام عنفوان الثورة الإيــرانية، الــتي تعتبر العراق مجالها الحيوي الأول في المنطقة؟ ونظراً لضيق مساحة الــرؤيا الاستراتيجية لكلا النظامين، كانا فريستين سهلتين للوقوع في الفخ الكبير الذي نصبته لهما الدول العظمى، وفق (ميتاستراتيجياتها) كما يرى المؤمنون بنظرية المؤامــرة والــتي أعــتمدت النفط كأهم مرتكزات إستراتيجيتها العملية في منطقة الشرق الأوسط، وأن أي احتمالية لتوافق المصالح ما بين العراق وإيران كما حدث بعد اتفاقية الجزائر عام 1975، يعتبر تهديداً جوهرياً لمصالحها القومية الحيوية، وعليه وجــدت الــدول العظمى أنه ولأجل تحقيق استراتيجيتها فمن الضروري أن تقوم باستنــزاف كلا البلدين في حرب إقليمية تُسهّل عليها فيما بعد احتوائهما وتطويعهما لاستعادة موفقة لآمن تلك المصالح في هذه المنطقة الحيوية جداً لتحقيق مشروع الهيمنة العالمية كأقصى هدف استراتيجي رسمته السياسة العليا لتلك الدول العظمى.

وكــردّ فعــل على الاجراءات الإيرانية ارتكب العراق سلسلة من الأخطاء السياسية منها إلغاء اتفاقية الجزائر في 1980/9/17، وطرد كل عراقي يُشك بولائه لإيران، وشملت عمليات الطرد العراقيين من أصول إيرانية بعدما تأكد ضلوع عدد مــنهم في الهجمات المسلحة على الاحتفالات الجامعية السياسية كحادث جامعة المستنــصرية، وشُــنت حملــة اعتقالات واسعة في صفوف حزب الدعوة الديني السياسي الموالي للثورة الإيرانية، وذلك بعد ثبوت تورط بعض أعضائه في نشاطات سياســية مــضادة، واعتقد بفكرة طرحتها الدوائر الخفية بالوسائل البريئة أن أي هجــوم عسكري عراقي سريع يتمكن العراق من خلاله احتلال قسم من الأجزاء الغــربية من إيران لفترة مؤقتة، مستفيداً من مرحلة التفكك التي يعاني منها الجيش الإيــراني المحسوب على النظام السابق سيستقطب قدرات الثورة الإيرانية الفتية، مما يــؤهل وصول الوطنيين العلمانيين الإيرانيين والمثقفين بالثقافة المعاصرة إلى الحكم ســريعاً، واعتبر أن مثل هذا العمل سيكون بمثابة الفرصة التاريخية للعراق ولزعامته الجديدة لتحقيق أهداف استراتيجية ينبغي عدم تفويتها! وعليه مضى العراق قدماً في هذا الصراع، واستعد لحرب خاطفة وسريعة على إيران كحرب وقائية.

لقد كان للهجوم الإيراني الإعلامي المباشر على العراق، وقيام الساسة الإيرانيين بإهانة أقطاب السياسة العراقية بمناسبة وبغير مناسبة، ومنها الرسالة الجوابية لآية الله الخميني على رسالة التهنئة بنجاح الثورة الإيرانية للرئيس العراقي أحمد حسن البكر حين ختمها بالقول (والسلام على من اتبع الهدى) وهذه العبارة تقال لغير المسلمين من الكفار! كما كان للأفعال الصبيانية للمتأثرين من العراقيين بسحر تلك الثورة تأثير على الأسباب الظاهرية لهذه الحرب، والتي دونت مذكراتي فيها، لقد ساهمت في معظم الحرب العراقية الإيرانية طيلة ثماني سنوات كانت عسيرة على كل عراقي وإيراني، لقد دفع كلا الشعبين ثمناً باهظاً من الدماء، والأموال، وضياع فرص البناء، وخسارة أعمار جيل كامل من شباب تلك الفترة الزمنية.

من الضروري إعطاء صورة مبسطة للقارئ الكريم وان كانت مقتضبة حول مستويات الأداء العسكري لكلا الطرفين وفق الملاحظات الآتية:

- ينتمي كلا الجيشين المحاربين إلى دولتين من قياسات العالم الثالث، وإن كان كل من العراق وإيران في أعلى سلم تلك القياسات.
- اعتمد بناء المؤسستين العسكريتين العراقية والإيرانية على توصيف وظيفي للمناصب العليا، وفق شروط الولاء السياسية، وليس وفق معايير الكفاءة المجردة.
- إن كلاً من القيادتين السياسيتين للعراق وإيران، لم تصنع لنفسهما حدوداً في التصرف، وفق متطلبات اتخاذ القرار العسكري وفي إدارة الصراع المسلح.
- يفتقر كلا الجيشين إلى المستويات الرفيعة الكافية في فهم وادراك الاستراتيجية العسكرية واستخداماتها لتحقيق الأهداف الإستراتيجية العليا لكلا الطرفين، وان وجدت مثل هذه المستويات فهي معطلة بشكل ما.
- يعاني كلا الجيشين من محدودية المستوى الثقافي لمعظم كبار الضباط بالإضافة لشبه الأمية التي يتصف بها معظم الجنود.
- يعتمد كلا الجيشين في تسليحه وتجهيزه على المصادر الخارجية، وهذا يكلف أموالاً، والتي يشكل عائد تصدير النفط المصدر الأساسي لها، الذي سيكون إنتاجه وتسويقه تحت رحمة القدرة العسكرية للخصم.

في الساعة 9:30 يوم 1980/7/7 اجتمع بنا (آمرو تشكيلات ووحدات وهيئات ركن الفرقة وكنت آنذاك بمنصب ضابط ركن استخبارات اللواء المدرع 35) قائد الفرقة التاسعة العقيد الركن طالع الدوري في مقره بمعسكر أبي غريب، وألقى علينا كلمة طويلة فحواها أن إيران بنظامها الجديد أصبحت تشكل تهديداً مباشراً للعراق بالرغم من كل المحاولات لتهدئة الموقف معها، وأن هناك الكثير من المؤشرات والدلائل السياسية والإعلامية وحركة القطعات والأعمال التخريبية على ذلك، وهي آخذة في التصاعد. وعلى ضوء تقدير الموقف السياسي للقيادة فإن الحرب واقعة لا محال، وأن هناك تصور عام لنطاق هذه الحرب ولنتائجها، ومنها أن يتمكن الوطنيون الإيرانيون من الأخذ بزمام الثورة بعد عزل رجال الدين عن قيادتها، وعن إدارة شؤون البلاد السياسية والاقتصادية، وأن هناك تذمراً شديداً في داخل الجيش الإيراني من التدخل السافر للحرس الثوري بشؤونه، وعليه طلبت القيادة العراقية من القادة وآمري التشكيلات في القوات المسلحة تقديم تقييم للقدرة القتالية يقدم بشكل محرر خلال 72 ساعة.

خرجنا جميعاً، وكان لوائنا المدرع 35 في معسكر الحصوة، واللواء المدرع 43 بإمرة العقيد الركن ماجد في معسكر التاجي، وكان لواء المشاة الآلي 14 بإمرة العقيد الركن عماد في الناصرية. وحال وصولنا إلى مقر اللواء حيث موعدنا مع آمر اللواء العقيد الركن نوري جدوع العبيدي وكان ذلك في الساعة 12:30 من نفس اليوم، عقدنا اجتماعاً سريعاً، أوحى فيه آمر اللواء بشكل صريح أن لواءنا جاهز للقتال بنسبة عالية 95%، ثم بدأ باستطلاع أراء آمري الوحدات الذين أحرجوا حيث لم يختلفوا على النسبة العالية التي صرّح بها، وطلب من مقدم اللواء المقدم الركن فيصل مشعان الفيصل تحرير التقرير التقييمي، وهنا اعترضت بشكل صريح على ذلك، وأشرت إلى أن ذلك يخالف الحقيقة وأن لوائنا، ولأسباب حقيقية ومعروفة لدى الجميع لا يتمتع بهذه النسبة من الجاهزية كونه لواء حديث التكوين، ولم تتح له فرصة كافية للإعداد الحقيقي من الناحيتين الفنية والقتالية، وينقصه الانسجام العام، ولم يقر بعد أي نوع من الدبابات T55 أو T62 المسلح

بهما هو التسليح الأساسي للواء، وخلاصة الرأي، إن لوائنا غير معدّ لحدّ اليوم للعمليات التعرضية، بل يمكن تكليفه بمهام دفاعية. على اثر ذلك عنفني الآمر بشدة وأشار أنه هو المسؤول وأنني مجرد ضابط ركن - قد تجاوزت صلاحيتي في الكلام - بعد انتهاء اجتماعنا طلب مني الآمر أن أركب معه في عجلته الفولفو لمرافقته في زيارة لأحد مرافق المعسكر، وقال لي بالحرف الواحد "شوف رعد من يعلم ماذا سيحدث بعد أسبوع (وكان يقصد بكلامه جدول التنقلات الذي سيصدر في 14 تموز) قد أكون في منصب آخر، وقد ينقل قائدنا، أو قد يتغير رأي القيادة بخصوص الحرب، ويبدو أنك غشيم بأمور الدنيا، وأمور السياسة، فهل تريد أن يكون موقفي سلبياً أمام القيادة؟" وخاطبني قائلاً "إذا بقيت بهذه العقلية فلا مستقبل لك، هذه نصيحتي لك، وبعدها لا تجادلني"، فأجبته ذلك صعب على كل إنسان له مبادئ فغضب مني وأنزلني من سيارته)، فساءت العلاقة بيننا كثيراً بالرغم من محاولات اصلاحها من قبل مقدم اللواء، فعمد إلى نقلي من اللواء، وبناء عليه صدر أمر من المقر الأعلى بنقلي بإمرة إدارة الضباط، ثم نقلت إلى منصب آمر جناح الاستطلاع في مدرسة التعبئة مركز الدروع وفقاً لطلب مدير الدروع العميد الركن صلاح عسكر، ومدير المركز العقيد الركن نزيه الرزو لأنني كنت في الأساس معلماً في مدرسة الدروع قبل دخولي إلى كلية الأركان عام 1978 حيث كلفت بتشكيل هذا الجناح مع ضباط ركن آخرين منهم الرائد الركن غازي جاسم (الذي أعدم على ضوء نتائج حرب الخليج الثانية 1991) حيث وفقنا بإعداد المادة العلمية والمستلزمات المادية لذلك الجناح، وقد استفدنا من كل الضباط الذين أتيحت لهم الفرصة للتدريب خارج العراق بالوقت الذي كانت فيه معظم تشكيلاتنا المقاتلة تمارس تمارين التخلل أو المرور عبر الخطوط بما يشبه الموقف العسكري العام على الحدود الدولية مع إيران، وحسب التصور العام لنطاق الحرب المتوقعة.

اندلاع الحرب والتعرض الوقائي

في 1980/9/4 بدأت إيران بسلسلة من الأعمال العدائية تجاه مخافرنا الحدودية، والقصبات السكانية القريبة من الحدود. وكان أهم وأخطر هذه

الاعـــتداءات تلك التي نفذها المدفعية الإيرانية من أماكن كان قسم منها جزء من الأراضي العراقية، إلا أن السيطرة عليها آلت إلى إيران نتيجة ظروف العراق الوطنية والقومية، وبالمقابل ارتفعت لهجة الإعلام المعادي ولهجة إعلامنا في تبادل الاتهامات والتــنديد، وكان هناك ناطق رسمي عن وزارة الدفاع يفيد يومياً بالموقف المتصاعد من قصف مدفعي واختراق جوي أو بحري مع وقوع عدد من التخريبات بالداخل راح ضحيتها الكثير من الأبرياء أخطرها التي حدثت في الجامعة المستنصرية، وجرح فـــيها وزير الاعلام آنذاك طارق عزيز، وكان عدد من العراقيين من أصول فارسية (فيليه) قد نفذوا تلك الاعتداءات بدفع من المخابرات الإيرانية (الجديدة) وعلى أثر ذلـــك صدر القرار الخاطئ بطرد كل من كان من أصول فارسية من العراقيين إلى إيران.

في 1980/9/12 ألغـــيت الـــدورات التدريـــية في مدرستنا بالتعاقب، وأُعيد الــضباط الطـــلاب إلى وحداتهم التي أنذرت بالتحرك إلى مواقع مختلفة من الحدود كتحـــشدات تعرضية، وبدأ الموقف يتصاعد بشكل خطير، وبدأ الجميع يتساءلون عما يخبئه القدر، إلا أن شعوراً عاماً كان يميل إلى ردّ العدوان الإيراني الذي تجاوز الحـــدود المعقولة، وبات السؤال الشائع هل على الثورة في إيران معالجة مشاكلها عـــندنا في العـــراق؟ وعـــندها بدأت تصريحات المسؤولين في إيران تلمح للحرب صـــراحة، وبـــات موضوع تصدير ثورتها للعراق أهم أولوياتها... لماذا؟ هذا هو السؤال الذي طرحه معظم العراقيين آنذاك.

في 1980/9/18 وباســـتغلال إيجـــابي للموقف، شنّت كل من الفرقة المدرعة السادسة والفرقة الآلية الأولى سلسلة من الهجمات السريعة، استطاعت من خلالها اســـتعادة الأراضي العراقية التي آلت للسيطرة الإيرانية في ظروف خاصة، وتم دفع عدد من بطاريات المدفعية الإيرانية إلى الخلف، وكانت أهم هذه الأراضي ما عرف بسيف سعد، وسيف أبي عبيدة، وبعض الروابي الحدودية. في ذلك اليوم تم استدعاء عـــدد من ضباط الركن، كنت من ضمنهم، لينضموا إلى زمر بحوث ميدانية، وقد شـــكلت مع ضابطين آخرين زمرة كانت مسؤولة عن بعض المهام الفنية والتعبوية للقاطـــع الجـــنوبي من الحدود المشتركة مع إيران من هور الحويزة حتى الخرنوبية

جنوباً، وقد كلفت الزمر برفع تقارير مفصلة عن أعمالها للمقر الأعلى بالإضافة إلى نسخة أخرى للمقر الميداني ضمن القاطع، وقد علمنا بنفس الوقت أن قيادة عامة قد تشكلت برئاسة الرئيس صدام حسين، وعلى الفور غادرت زمرتنا المؤلفة من الرئيس الذي كان برتبة مقدم ركن ونحن العضوان برتبة رائد ركن، وشرعت بالاستطلاع وزيارة القطعات المتحشدة هناك، وعند اكمالنا لواجبنا صباح يوم 22 /9 قصدنا قائد الفرقة الخامسة العميد الركن صلاح القاضي الملتحق حديثاً بمنصبه هذا، فلم نجده حيث كان خارجاً للاستطلاع، فسلمنا نسخة من التقرير إلى ضابط ركن الفرقة الأول العقيد الركن نماد ووجدنا عنده آمري تشكيلات الفرقة آمر اللواء المدرع السادس العقيد الركن عبد العزيز الحديثي وكان هذا اللواء يتبع الفرقة المدرعة الثالثة وقد ألحق بهذه الفرقة قبل بضعة أيام، كذلك العقيد الركن جميل نجم الدين آمر اللواء المدرع 26 وآمر لواء المشاة الآلي 15 العقيد الركن سمير أيوب وقد استلموا تواً مهمة الفرقة والتي تقضي بقيام الفرقة بتعرض وقائي باتجاه الأحواز، وكان الموقف المعنوي لا يوصف وهو مزيج من الحماس والتحسب... إنها الحرب بكل ما تعنيه ولقد بدأت عجلتها بالدوران. وغدا مقر الفرقة في حركة دؤوبة استعداد للقتال، وكان شاغلهم إعلام قائد الفرقة بمهمة الحرب سيما وأنه لا يفصلهم سوى ساعات قليلة قبل الشروع بالتعرض.

في الوقت نفسه سلمنا ضابط ركن الفرقة الأول رسالة من مديرية الدروع تخبرنا بإنهاء مهمتنا، وتدعونا للالتحاق فوراً بوحداتنا الجديدة حيث عين آمر الزمرة المقدم الركن عبد الجليل أحمد بمنصب ضابط ركن في مقر الفيلق الثاني وصاحبي الرائد الركن خالص الحديثي بمنصب ضابط ركن 3 حركات الفرقة المدرعة الثالثة حينذاك في الناصرية وأنا بمنصب ضابط ركن 3حركات الفرقة المدرعة الثانية عشرة المتحشدة وقتذاك في مندلي، فسلكنا طريق البصرة - الناصرية - الكوت - بغداد لغرض إيصال صاحبنا إلى مكانه الجديد، وحال وصولنا إلى مقر الفرقة المدرعة الثالثة كان أزيز الطائرات العراقية المقاتلة والمنطلقة من قاعدة علي بن أبي طالب القريبة منا إلى أهدافها والعائدة اليها يملأ الجو، وبعد استراحة لتناول الطعام، ودّعنا رفيقنا، وضباط ركن مقر الفرقة وعلى رأسهم العقيد الركن انمار صلاح الدين

الـــصباغ الذي تربطني به علاقة عمل سابقة، وكان كل الضباط يتأججون حماسة لغرض تنفيذ مهمتهم الأولى في الحرب، فاستأنفنا طريقنا عائدين إلى بغداد، ثم إلى وحدتيـــنا الجديـــدتين، وعـــزمنا على أخذ عجلة ثانية من وحدتنا الأصلية لغرض الوصول بالسرعة المطلوبة لمقصدنا، وخلال الطريق كنا نبحث عن المزيد من ردود الأفعـــال تجـــاه الـــضربة الجوية الأولى من الإذاعات الدولية، ونتجاذب أطراف الحـــديث، ونتكهن بالنتائج حيث أبدى صاحبي المقدم الركن عبد الجليل أحمد رأياً أدهـــشني بـــه جداً حين توقع أن تمتد هذه الحرب فترة طويلة قد تصل إلى خمس سنوات، فجادلته بما أملكه من تصور بالاستناد إلى ما قاله قائد فرقتنا يوم 1980/7/7 بـــأن المـــصالح الاقتصادية للدول الكبرى ستحول دون اطالة مدة الحرب لأن كلا الـــبلدين المـــتحاربين مـــن الدول النفطية الكبرى، وانتهيت باتهامه بضعف الرؤيا الاستراتيجية، وعدم تقديره للأهمية الجيو استراتيجية لمنطقة الصراع؟

وما إن وصلنا إلى مدرسة التعبئة - وقد تأخرنا لأسباب فنية تعود للعجلة - كانت بغداد في السكون الذي يسبق العاصفة، وبالتأكيد كانت قواتنا الجوية (قوة جـــوية، ومدفعية وصواريخ ضد الجو) تتوقع ردّ فعل العدو الجوي، فكان موعدهم الـــصبح. لقد عرج كل منا إلى بيته لوداع عائلته، وانتظرنا إعداد عجلتين للوصول إلى مقصدينا، ومع إطلالة فجر يوم 1980/9/23 شنّت عشرات الطائرات الإيرانية المقاتلـــة هجوماً ثأرياً على عدد من الأهداف المهمة في بغداد ولأول مرة أطلقت صـــافرات الإنـــذار بأصواتها المنذرة بالخطر الداهم، والقادم من الشرق، وكانت معـــنويات أهل بغداد لا تقل روعة عن معنويات المقاتلين الذين ودعناهم بالأمس، وخـــلال اجتـــيازنا هـــذه المدينة الخالدة قاطعتنا عجلات إطفاء الحرائق المسرعة وسيارات الإسعاف، وفيما بعد أشار بيانٌ إلى إسقاط 68 طائرة معادية فوق بغداد، ومما لا شك فيه أن كلا الطرفين عمد في بداية الحرب إلى المبالغة في احصاء خسائر العدو، وذلك لقلة الخبرة الفنية لديه، وفي الساعة 8:00 من نفس اليوم وصلت إلى مـــندلي إلا أني علمـــت بأن الفرقة المدرعة الثانية عشرة تبادلت المواقع مع الفرقة الـــرابعة بقـــيادة العميد الركن عبد الستار المعيني، حيث أصبحت اليوم على محور خـــانقين - كاني ماسي - نفط خانة وبعد ساعتين تقريباً كنت في غرفة في بناية

متواضعة لقوة حماية النفط، أُسلّم كتاب التحاقي، وكان يجلس في تلك الغرفة قائد الفرقة العميد الركن محمد الويس، ومسؤول التنظيم الحزبي محمد بلال الذي أعدم فيما بعد بتهمة التآمر على الرئيس صدام حسين في تسعينات القرن الماضي، وضابط الركن الأول العقيد الركن ناطق، وضباط ركن الفرقة المقدم الركن عبد الإله، والمقدم الركن صباح عجيل، والمقدم الركن مهند الاعظمي. وبعد تقديم نفسي وتسليمي الكتاب خرجت بصحبة ضابط ركن من هيئة الاستخبارات (أبو قتيبة) ولي معه صداقة قديمة وبأسلوبه الساخر المعروف به أوجزني الموقف بعبارات شعبية ساخرة، وفهمت منها أن لواء المشاة الآلي 46 آمره المقدم الركن عبد الحافظ حبيب يواجه مقاومة شديدة، وفسحة المناورة لديه ضيقة جداً، وأن مهمة فرقتنا هي الاندفاع نحو نفط شاه، ثم الاستدارة يميناً نحو سومار للالتقاء بالفرقة الرابعة وفرقة المشاة الثامنة بقيادة العميد الركن سلمان شجاع ثم الاندفاع بالعمق إلى كيلان غرب دون تحديد تفاصيل كافية للتمييز بين المحاور، وحدود المسؤولية، والأهداف بين هذه الفرق الثلاث، لقد كانت المهمة شبة غامضة وهدفها الوصول إلى كيلان غرب.

قضيت ليلتي الأولى في هذا المقر الجديد حيث لم يكن لي سابق معرفة بأي من الموجودين إلا صاحبي الميال إلى الانزواء والنوم ضمن أماكن لا يتم العثور عليها إلا بشق الأنفس، وكانت ملاحظاتي الأولية أن هؤلاء الرجال يمتلكون معنويات عالية وكفاءة، إلا أنهم فريق غير منسجم، وتنقصهم خبرة التشكيلات القديمة، كما شاهدتها ليلة أمس في مقر الفرقة المدرعة الثالثة، وهذا أمر طبيعي لأن الفرقة الثانية عشرة شُكلت حديثاً، وكانت تنقص هيئة ركنها شخصية مهمة ألا وهي شخصية رئيس أركان الفرقة حيث كان منصبه شاغراً بالوقت الذي كانت الأخبار تأتينا تترا من القواطع الأخرى عن النجاحات العديدة والخروقات العميقة في العمق الإيراني، غير أن النجاح لم يحالفنا إلا ليلة 26 - 1980/9/27 حيث أكملت فرقتنا واجبها، والتقت رؤوس الأرتال المتقدمة لقواتنا الأمامية مع القوات الأمامية للفرقتين الرابعة والثامنة، كيلان غرب الإيرانية، حيث كانت الهدف المشترك لفرقنا الثلاث، إلا أن محاور التقدم المؤشرة على خرائط الخطط - الورق الشفاف الذي

ترسم عليه طرق التقدم - المستلمة من رئاسة أركان الجيش كانت في معظمها غير دقيقة عند تطبيقها على الأرض لنقص المعلومات الاستخبارية، فمن تلك الطرق ما كـــان غـــير صالح لاستيعاب قوات كبيرة أو كانت طرق تقطعها قطوع جبلية أو وديان سحيقة كطريق سومار - داراماں - كيلان غرب، مما أدى إلى توقف بعض الأرتـــال خلال تقدمها وبحثها عن طريق آخر بديل أو تداخل أكثر من رتل على طريق واحد. ويجدر بالذكر أن اللواء المدرع العاشر من الفرقة العاشرة الذي كان بإمـــرة العقـــيد الـــركن محمود شكر شاهين أصبح بإمرة فرقتنا في بداية التعرض للأراضي الإيرانية في القاطع أعلاه والذي حسم معركة سومار بكل جدارة مدمراً أكثـــر مـــن جحفل معركة إيراني في ذلك، وهروب العديد من دروع العدو نحو العمـــق عبر شعب الوديان طالبة الخلاص من ذلك التدمير، في نفس الوقت الذي انهمكـــت وحداتـــنا بجمع الأسرى، واخلاء الجرحى، والاستيلاء على العديد من الأســـلحة والدروع والمعدات العسكرية، وكان ذلك أشبه بالحلم من الحقيقة. فها نحن بسومار ونفط شاه، وعلى مشارف كيلان غرب، وسربيل زهاب، والخفاجة، ومهران، وديز فول، والمحمرة، والاحواز، وعبادان لقد انتهى شهر أيلول وقواتنا في أراضٍ إيرانية تعادل ضعف مساحة لبنان.

كـــان أول مقـــر لفرقتنا في الأراضي الإيرانية يقع عند مفرق اردوبان على الطـــريق الموصل بين سومار ونفط شاه، في ذلك الوقت كانت القطعات الداخلة والخارجـــة والمـــارة لا تـــزال مستمرة، يرافقها زيادة في أرقام الأسرى والمعدات المـــستولى عليها. لقد سادت الفوضى موضع مقرنا بالإضافة لعدم إحكام السيطرة على مجريات الأمور، فلم يكن حدود مسؤولية مقرنا واضحاً، فقد كانت المجموعة القيادية تتحرك ككتلة وتستريح ككتلة مما دعاني في آخر ليلة من شهر أيلول لطرح بعـــض الملاحظـــات بإستحياء حول تطوير عملنا، ولهدف خلق الإثارة المطلوبة، بـــدأت كلامي باحتمال أسرنا جميعاً في هذه اللحظة من قبل دورية معادية أو من قـــبل مجموعة من الجنود الإيرانيين المتشردين الذين من المحتمل أن يكونوا قد أعادوا تنظـــيم أنفسهم في هذا الظلام الدامس، وأشرت إلى ما يمكن أن يكون عليه وقع هكذا أمر في حال حصوله لا سمح الله على القيادة العليا، وعليه أشرت إلى ضرورة

تقسيم مقرنا إلى مقر رئيسي، وآخر خلفي، وبالإضافة إلى جماعة جوالة وذلك بهدف احكام السيطرة على حركة القطعات، وفتح غرفة حركات، وتثبيت المواقف، ومتابعة طلبات التشكيلات والوحدات، وغير ذلك من السياقات المعمول بها. على الفور وافقني الرأي القائد وأمين سرّ التنظيم الحزبي وكلفاني مع ضابط ركن الفرقة الأول باتخاذ ما يلزم على الفور، إلا أني دفعت ثمن ذلك تأنيباً من بعض الحضور الذين اعتبروا تصرفي هذا تجاوزاً لصلاحيات الآخرين، خاصة وأني برتبة رائد، وحديث الانتساب إليهم، وعليه قضيت ليلتي نائماً على الأرض، حيث كان للجميع عجلات ناموا بها، وتجنبوا مبكراً برد الليل.

بدءاً من 1980/10/1 بدأ العدو بسلسلة من أعمال الرصد، فبث دورياته بالعمق ليكوّن صورة عن مقدار قطاعات الاختراق التي حدثت في مواضعه وأراضيه. وبدأت أعداد من مدفعيته المنفردة في مشاغلة قطعاتنا. في هذا الوقت، كنا قد أهملنا أعمال حفر الخنادق والقيام بالتحصينات، لأننا تصوّرنا أن الحرب أوشكت على الانتهاء، كانت ليلة 1980/10/3 أول ليلة ممطرة في الحرب في نطاق قطاعنا، وكنت حينها أتابع دورية قتال أرسلناها للبحث عن موضع المدفع المعادي الثقيل الذي شاغلنا في ذلك النهار من أسفل جبل كرشكين في نهاية حوض سومار بالإضافة إلى متابعة موقف أحد أفواج اللواء الخامس الجبلي بقيادة الرائد الركن مازن الجنابي الذي دخل بأمرتنا، كما استلمت في نفس الوقت من ضابط الارتباط ردّ الفيلق الثاني على طلبنا بتعزيز قاطعنا بلواء مشاة وعدد من وحدات المدفعية وذلك بهدف السيطرة على العوارض المهمة ضمن قاطعنا الجبلي، وزيادة وحدات الدفاع الجوي لأن إحدى الغارات التي نفذتها طائرات العدو قد دمّرت مقر لواء المشاة الآلي 46 في اليوم السابق، وكان ردّ الفيلق عنيفاً متهماً مقر الفرقة بفقدان روح المبادرة وضعف المعنويات.

في 1980/10/4 أصدر العراق بياناً رسمياً أعلن فيه وقفاً لإطلاق النار من جانب واحد بدءاً من 1980/10/5 وبذلك أعطى فرصة ثمينة للسلام، وذلك بدعوة الجانب الإيراني للتفاوض والعمل على حقن الدماء بين الجارين المسلمين، وفي نفس الوقت جاءنا أمر بتدمير كافة المنشآت العسكرية والمنعات المقامة بالقرب من

حـدودنا والتي كانت مصدر إيذاء لنا، إلا أن ردّ فعل القيادة الإيرانية كان سلبياً، وجـاء على لسان رئيس جمهوريتهم أبو الحسن بني صدر، الذي اعتبر هذه المبادرة أول خطوة عراقية نحو الخلف.

في ليلة 1980/10/7 طلبت منا القيادة العامة أحدث توزيع للقطعات، وحدود المسؤولية على شفافة تعد من نسختين، تسلم الأولى للفيلق فيما تسلم الثانية للقيادة العامة، وقد كلفت شخصياً بإعدادها وخلال اقترابي من منطقة الحدود نفط شاه، تعرضت سيارتي إلى إطلاق نار صديقة، وكان ذلك قبيل فجر يوم 10/7 على اثر اصـطدام دوريـة معادية بقواتنا قبيل وصولي بدقائق بنفس المكان، والحمد لله لم نـصب بـأذى، وقتها وبعد تسليمي شفافة الفيلق، وصلت وزارة الدفاع ظهراً، وكانـت بغـداد وقتها تتعرض لغارة معادية، وعند عودتي في المساء، وجدت أن مقـرنا يتعرض لقصف مدفعي شديد مما أدى إلى نقل المقر صباح اليوم التالي إلى قرية (تاليون) في بداية حوض سومار ناحية فتحة حران في سلسلة التلال الحدودية، وهـي قرية مهجورة على حافة نهر كنكير، تتألف من مجموعة أبنية طينية منفردة، حـيث كانت أسراب الذباب في النهار لا توصف فيما نباح الكلاب في الليل لا يـنقطع، ولأول مـرة بنينا ملاجئ تحت سطح الأرض وذلك بين الأكواخ إلا أن النهر المار عند حافة القرية، أعطانا فرصة رائعة لشرب الماء مباشرة وهو ماء رقراق جار بسرعة عالية فوق قاع حصوي براق وبذلك لم نعد ننتظر وصول مقطورات الماء، وأصبح المجال واسعاً للاغتسال، وبين الحين والآخر كانت مقذوفة مدفع معادٍ تخرق هدوء هذه المنطقة الرائعة مستهدفة فتحة السلسلة الحدودية في حران، ومقرنا الجديد هذا.

في صـباح يوم 1980/10/9 سلم ضابط إيراني برتبة ملازم يدعى محمد علي أكـبر من سرية مقر الفرقة الآلية 77 القادمة من قرب الحدود السوفييتية نفسه إلى الفوج الثاني من اللواء 18 الذي كان بقيادة العقيد الركن غائب أحمد غائب، وأثناء اسـتنطاقنا له، كشف عن معلومات ميدانية مهمة، كما كشف عن نية قريبة لدى العـدو بالتعرض لنا في هذا القاطع، ومن خلال استنطاقه كونا صورة واضحة عن الصراع ما بين الجيش والحرس الثوري، وعلمنا أن هناك عدد من المقرات الميدانية

المختـــلفة تقوم بتنفيذ واجبات قتالية ضدنا بشكل غير مركزي تقريباً، حيث كان كل واحد منها يعتمد على حجم التأييد الحاصل عليه من مراكز القوى الحاكمة، وعلمـــنا أيضاً أن نسبة عالية من ضباط الجيش لا يرغبون بهذه الحرب علاوة على وجـــود مقـــرات من العراقيين المعارضين منهم أياد سعيد ثابت المتهم باغتيال عبد الكريم قاسم مع صدام حسين في 1959/9/7 تشارك بالحرب ضدنا.

يوم الجمعة المصادف في 1980/10/17 وعند الساعة 9:00 اخفق تشكيل من طائراتنا المروحية المسلحة بتحقيق التأثير المطلوب على تحشدات العدو خلف منطقة كلـــه حـــوب، وأكدت كل تقارير الموقف في كل مسارح العمليات تزايد حجم القطعـــات المدرعة المعادية، وبناء على ما تقدم كان يوم 1980/10/27 يوماً حافلاً لـــسلاح المـــروحيات حـــيث شـــارك في القتال في قاطعنا تشكيلين مختلطين من المروحيات المقاتلة من نوع غزال ومي 25، وقد أحدثت مشاركتهما صدمة جيدة على قطعات العدو، وكان التأثير العملي المرصود من قبلي (حيث كنت في مرصد مـــتقدم ومعي جهاز المحس الجوي) تدمير سبعة دروع إيرانية ما بين دبابة وعجلة قـــتال مدرعـــة، وبعـــد هذا التاريخ ازداد النشاط المدفعي والجوي لكلا الطرفين، وبدأت الجبهات تتحدد يوماً بعد يوم وفي الساعة 11:00 من 1980/10/29 مرّت من فوقنا طائرتان قاصفتان من قواتنا الجوية (تي يو 22) بارتفاع منخفض جداً نحو العمـــق الإيـــراني، إلا أن هاجساً غريباً أحسست به حول مصير هاتين الطائرتين القاصفتين، وعندما تأخرتا في العودة توقعت فقدانهما، وللأسف سمعت عند المساء خـــبراً مـــن إذاعة لندن نقلاً بيان عسكري إيراني أشار إلى اسقاط هذين النسرين الكـــبيرين أحـــدهما فوق طهران والآخر فوق قم، وكان استخدام هذا النوع من الطائرات يتطلب الكثير من الشجاعة، لأنه لم يكن يتوافر وقتذاك طائرات حماية لها تتمتع بنفس مدى الطيران الطويل الذي تتمتع به. لقد كانت فرحتنا عارمة عندما سمعنا البيان رقم 99 الصادر عن القيادة العامة والذي أعلن عن تحرير مدينة المحمرة العراقية الأصل والتي فقدها العراق على إثر قيام الاستعمار البريطاني بتقسيم المصالح النفطـــية بدايـــة القـــرن العشرين. في ذلك الوقت، كان بعض الأشقاء العرب قد أصـــبحوا بجانب عدونا كسوريا وليبيا فالخلافات السياسية العميقة ما بين جناحي

حـــزب الـــبعث الحاكم في العراق وسوريا والتي ازدادت بعد تسلم الرئيس صدام حسين المستوى الأول في القيادة العراقية وقيامه بإفشال مشروع اتحاد الجناحين عام 1979 بقوة كان وراء موقف سوريا هذا، وأظن موقف ليبيا منا يعود لقيام العراق فيما مضى بدعم الرئيس التشادي حسين حبري.

في 1980/11/7 جـــرت تغـــييرات جوهرية في مقرنا، حيث نقل قائدنا إلى الـــسلك الدبلوماســـي، وعين آمر لواء المشاة الآلي 20 العميد الركن جواد أسعد شيتنة خليفة له وهو من الأكراد المعادين للبرزانيين، وذلك بعد منحه رتبة لإغراض القيادة لبلائه الحسن في القاطع الجنوبي، وكان قد سبق لي أن عملت معه في اللواء الثامن، وقد عين معظمنا بمناصب آمري وحدات، حيث حصلت الموافقة على نقلي إلى منصب آمر كتيبة استطلاع القيادة (تحت التشكيل) وفقاً لقائمة تنقلات صادرة مـــن رئاسة أركان الجيش، وحلت مجموعة من ضباط الركن في مناصبنا ابتداءً من رئـــيس أركـــان الفرقة الجديد العقيد الركن محمد جواد ونزولاً إلى أصغر منصب ركـــن، إلا أن القائد الجديد أبقاني لمدة من الزمن للاستفادة من معرفتي بالقاطع، ومـــن غريب الصدف أن يكون يوم 11/7 يوماً ممطراً للغاية، حيث حدثت سيول عارمـــة اكتسحت حوض سومار بالكامل مما تطلب نقل مقرنا إلى بستان (شمس الله) شرق مندلي، ثم إلى موقع آخر غربها، وكان القائد الجديد عالي الهمة ويتصف بالجـــرأة، ويـــتقن حرب العصابات، فاستخدم الفوج الرابع من اللواء 32 قوات خاصـــة، ليشن سلسلة من الغارات بالإضافة إلى كافة سرايا المغاوير، وقد كلفت بقـــيادة إحداهن، وتم الاستيلاء على عدد من مدرعات الاستطلاع وناقلات الجند مـــن نوع (M 113) في نهاية وادي (كنكانوش)، وأصبح دفاع فرقتنا أكثر فعالية وتـــأثيراً إلا أن دلائل قوية أشارت إلى صدق ما أخبرنا به الضابط الإيراني السالف الذكـــر، فقد ازداد معدل القصف الدقيق، وظهرت القاذفات الأنبوبية حديثاً عند العـــدو. إلا أن رأي المقر الأعلى اعتبر ذلك مبالغة، واستبعد الهجوم المعادي، ولم تحـــصل الموافقة على تعزيز قطعاتنا بوحدات إسناد إضافية، وفي ليلة 18-11/19/ 1980 شـــنّت الفـــرقة الآلـــية 77 الإيرانية هجوماً مدبراً بإسناد من طائرات نوع كوبـــرا، وتمكنت من إسقاط موضعي الفوج الأول والثاني من اللواء 46، وتدمير

معظـــم كتيـــبة الدبابات 20 في منطقة كله جوب. إلا أن فرقتنا أدارت معركتها الدفاعـــية بكفـــاءة، وكـــان للقائـــد الجديد توجيهات ممتازة في الزمان والمكان الـــصحيحين، وقد تعلمت منه الكثير، حيث رافقته من بداية المعركة حتى نهايتها. ولم يتوفر لفرقتنا قوة احتياطية سوى الفوج الخامس الذي كان بقيادة المقدم الركن منصور ضاحي من اللواء 32 قوات خاصة، بالإضافة إلى سرية الدبابات الاولى من كتيـــبة دبابات الطارق بقيادة الرائد الركن قحطان النعيمي، لأن اللواء 37 المدرع بقيادة العقيد الركن منذر ابراهيم كان يعمل في قاطع مهران. وكان للمدفعية دور رائع بعد تعزيزنا ببطارية من القاذفات الأنبوبية، وفي الساعة 10:00 يوم 11/22 تم اســـتعادة كافـــة المواضع الساقطة، وقد وصلت عدة وحدات من الفرقة المدرعة السادسة بعد ذلك بقليل لتعزيز معركتنا، وفي يوم 1980/11/25 نقل آمر اللواء 46 إلى منـــصب آخر في فرقة أخرى وعين بدلاً منه أحد الضباط المنتسبين لدورة كلية الحرب المؤجلة العقيد الركن فوزي حميد العلي ويوم 1980/11/30 ألحقت بمدفعيتنا بطاريـــة مدافع ذاتية الحركة عيار (155ملم) من المدافع المستولى عليها، وكانت لها آنذاك قيمتين معنوية ومادية.

في الفترة الممتدة بين شهر كانون الأول والخامس من كانون الثاني 1981 شنّ الاعـــلام المعـــادي حرباً نفسية شعواء عن اكتمال استعدادات هائلة إيرانية لشن تعـــرض مقابـــل واسع على القوات العراقية، ودفعها إلى ما وراء الحدود الدولية، والملفـــت للنظـــر تبادل أقطاب النظام وقادة الجبهات الإيرانيون فيما بينهم رسائل التهنئة بالنصر القادم حسب ادعائهم قبل الهجوم.

راجع ملحق (ج) التعرض الوقائي العراقي في 1980/9/22



انتزاع المبادأة

لقد امتحنت في المرحلة الثانية من الحرب العراقية الإيرانية والتي أسميتها (الصراع لانتزاع المبادأة منا) والممتدة من كانون الثاني 1981 ولغاية صدور الأمر الرسمي لانسحاب قواتنا إلى الحدود الدولية نهاية شهر حزيران 1982 والتي كانت فترة عصيبة في حربنا الطويلة مع إيران الكثير من مبادئ الحرب، حيث أصبحت

معرفتنا جيدة على أرض الواقع للمسافات الشاسعة التي تفصل مناضد الرمل والمشاريع التدريبية عن ساحات الحرب.

في ليلة 1981/1/5 بدأت سلسلة من هجمات العدو المقابلة والمدبرة، حيث قام الإيرانيون بحشد كل ما لديهم من عدة وعتاد، وبتوقيت متقارب، تعرض العدو لمواضع قواتنا في الخفاجية، وسيف سعد، وكيلان غرب إلا أن الجهد الرئيسي كان يتوخى الخفاجية، فقد أُمتحنت الفرقة المدرعة التاسعة بقيادة طالع الدوري امتحاناً عسيراً، فيما خسرت الفرقة الثانية بقيادة العميد الركن حازم برهاوي المدافعة عن سيف سعد خط قمم المرتفعات الرئيسية، وتحمل اللواء الثاني بقيادة المقدم الركن محمد جواد مسؤولية ذلك بشكل خاص، وتمكن العدو من زحزحة قسم من تشكيلات الفرقتين الرابعة والثامنة في كورك وحجين ومرتفعات دانة خوشك من مواضعها بعد معارك عنيفة، لقد تكبد الطرفان خسائر فادحة، إلا أن اللواء المدرع العاشر خاض أبرز معارك السجال، وذلك بقيامه بتدمير الفرقة المدرعة السادسة عشرة الإيرانية، وفي هذه المعركة أثبت الدرع العراقي تفوقه على خصمه الدرع الإيراني، وكذلك أثبت مشاتنا وجودهم بقوة في منطقة الجسور على نهر الكرخة، وكذلك عند مضيق حاجين، الا أن لواء المشاة 23 بإمرة العقيد الركن دحام راضي العسل كان أول قوة عراقية تخسر مواضعها بالكامل في دانة خوشك.

.بمبادرة من قائد الفرقة المدرعة الثانية عشرة، كلفت بقيادة قوة لحماية الحدود الفاصلة، وذلك عن قاطع سيف سعد بالتعاون مع الفرقة الثانية، حيث اندفعنا من القلعة التركية باتجاه مضيق جكبورة، فوجدته يمثل الطريق الوحيد لإدامة العدو في ذلك القاطع، ورأيت أنه من الضروري مسك هذا المضيق بقوة قد تقل عن لواء على أقل تقدير، وأدركت متأكداً أن هذه الاستدارة خلف مواضع العدو، ستحسم الموقف لصالحنا سريعاً أو ستساعد قواتنا التي اعتمدت نوع واحد من الهجمات المقابلة جبهوياً، واعلمت قائدي بذلك، فأرسلني إلى قائد الفرقة الثانية لنقل المقترح، وحين ذهبت إلى مقر الجماعة الجوالة للفرقة في مخفر ترساق قرب قرية عرب المعلا لأنقل مشورة قائدي باعتماد مضيق جكبورة في الهجمات المقابلة، وجدت قائد الفيلق الثاني الفريق الركن طه الشكرجي وقد أصدر زوبعة انفعالية

شـديدة، كادت جدران المخفر السميكة لا تتحملها، وذلك كإنعكاس للموقف الـناتج عن عدم قدرة الفرقة على حسم الموقف، فنقلت المشورة بحذر شديد إلى ضباط الركن كرسالة شفوية، وتركت المخفر، وأنا شبه مصدوم لما شاهدته وظل مـا يسمى (تعزيز الفشل بالفشل) سمة العمل هناك، حتى باتت جهود خمسة ألوية مشاة، وعدد من الوحدات المدرعة، والقوات الخاصة تذهب أدراج الرياح بالرغم مما أعطاه الرئيس صدام حسين خلال زيارتيه الميدانيتين يومي 5 و1981/2/7 لذلك المقـر من مرونة في التصرف، إلا أن نمط العمل ظل جامداً لا يتغير، إلا أن حكماً قـد نفـذ بإعدام آمر اللواء الثاني المقدم الركن محمد جواد باعتبارة مقصراً، وهذا الـرجل كـان من صنف المخابرة، وكان يشغل منصب الملحق العسكري في بون بالمانيا، ولا يملك الخبرة الكافية. في الحقيقة، لم يكن المقدم محمد جواد يستحق هذا الحكم القاسي، وهذا كان أول أحكام الإعدام التي توالت فيما بعد، وأعقبه اعدام نقـيب يدعى سعد، وعدد من الجنود المنسوبين إلى نفس اللواء، وباصرار من قائد الفيلق المعروف بتهورة وقساوتة.

يـوم 1981/2/26 اسـتبدل قائد الفرقة الثاني العميد الركن حازم برهاوي بقائـدنا، وعـين أحد أعضاء المكتب العسكري العقيد الركن كامل عبد اللطيف قائداً جديداً لنا، وسط جوٌ معنوي من الرفض لأن ذلك سيعطي العدو الثقة بنفسه كي يواصل عملية انتزاع المبادأة منا، وما انتصاراته المحدودة من دانة خشك كأول خسارة ميدانية في الشمال إلى خفاجية في الجنوب إلا جزء من معارك السجال التي تحدث دائماً في معظم الحروب. أما الموقف السياسي فكان يترقب نتائج الزيارات المكوكـية للجنة المساعي الحميدة للمؤتمر الإسلامي، وكذلك زيارات ممثل الأمين العام للأمم المتحدة أولف بالمه.

من خلال مرافقتي للقائد الجديد، لمست فيه شخصية قيادية رصينة، فقد كان يميل إلى الاستماع أكثر مما يميل للكلام، وكان يتفحص الآراء، ويتفقد كل شبر من قاطـع مسؤوليته، فأجرى بعض التعديلات على المنطقة الدفاعية لفرقتنا، وركّز في ذلـك على الأجنحة والعمق لتحقيق مبادئ الدفاع الجيد، وحال ما اكتملت لديه الصورة عدت إلى عملي محملاً بثنائه.

شـــرع العـــدو يوم 1981/4/20 بشنّ سلسلة من الهجمات المقابلة في قاطع الـــشوش، وقـــد استمرت لثلاثة أيام، إلا أن الملفت للانتباه في تلك الفترة، كان الزيادة الملحوظة في معدلات التضحيات بضباطنا، وخاصة في المقرات، وقد أعقب ذلك هجوم آخر في قاطع سربيل زهاب يوم 1981/4/25 ثم نفذ مساء ذلك اليوم هجـــوم آخر على قاطع إمام حسن، وتمكن العدو من تحقيق بعض النتائج، إلا أنه كـــان مثخـــناً بالخـــسائر، واتضح لنا بأن سلوك العدو الإيراني بدأ يميل إلى قبول الخـــسائر الكبيرة، نتيجة اعتماده أساليب القدمات المتعاقبة من المشاة دون مراعاة الاســـتخدام الجـــيد لـــلأرض، وقبل إكمال الصنوف الساندة لأدوارها كالمدفعية والهندسة العسكرية وذلك بواسطة قيادات صغيرة الرتب وبعض رجال الدين. كما أصـــبح يمـــيل إلى العمل ليلاً في مسيرات الاقتراب إلى الهدف مع ظهور تسميات جديـــدة لوحداقم المقاتلة (الباسداران - الحرس الثوري) - (البسيج - المتطوعون المستضعفون) وهم أقرب للمليشيات من الوحدات النظامية. ونتيجة لهذا الضغط، استخدمت فرقة المشاة السابعة بقيادة العميد الركن نزار الخزرجي لاستعادة بعض الـــرواقم المهمـــة كالـــراقم 1150 (المنعة)، حيث كان مقدراً لهذه الفرقة المتفرغة للـــتدريب في المـــسيب، إكمال احتلال عبادان بعبور مباشر لشط العرب، إلا أن العـــدو اســـتعادها، وأعقـــب ذلك إعدام ستة ضباط أحدهم المقدم الركن أكرم المـــشهداني، وهو من خيرة الضباط بتهمة التقصير (بعد فترة من الزمن قدم الحاكم العـــسكري للفرقة عريضة إلى الرئيس صدام حسين يقول فيها إن أحكام الاعدام بالضباط أعلاه تؤرقه ليل نهار، وأنه خضع لضغط من قائد الفرقة، وعليه بعد ذلك تم اعتبارهم شهداء وفقاً لرواية شاعت حينها)... إلا أن الحملة الإعلامية، والنفسية ظلـــت مستمرة مع الإشارة إلى أن رئيس الجمهورية الإيرانية أبو الحسن بني صدر كـــان يقـــود شخصياً بعض الهجمات الرئيسية ضمن تنافس مراكز القوة الحاكمة هـــناك، فما كان يكسب على جبهات القتال، كانت تشترى به أسهم التقرب من قائد الثورة آية الله الخميني، مما يزيد من قوة مركز القوة الذي حقق المكسب.

على ضوء نتائج المعارك، اعترف وزير الدفاع فاخوري بأنهم فقدوا فيها نخبة قـــوادهم، إلا أنهـــم احرزوا بعض النجاحات هنا وهناك، وأعلن أنهم مصرّون على

القتال رافضين كل الحلول السلمية. بالمقابل وكرأي شخصي اعتقد أن معدلات خسائرنا المرتفعة تعود لسبب رئيسي ألا وهو أن قواتنا نفذت مهامها التعرضية على ضوء موقف سوقي (استراتيجي) وتقدير موقف يخدم أهداف التعرض الوقائي، فقد كانت قواتنا قد انفتحت لأغراض الدفاع في الأماكن التي وصلتها سواء حققت أهدافها المرسومة لها أم لم تحققها فور تلاشي ذروة الهجوم في العمق الإيراني، دون إعادة النظر بمعطيات الموقف الناتج عن ذلك، أي أن ضرورات إعادة تحليل ساحات العمليات بما يخدم الدفاع واعداد تقارير موقف تؤمن المهام الجديدة لم تتم وبناءً على هذا التصور لم تراعَ مبادئ الدفاع جيداً، واستمرت وحداتنا وتشكيلاتنا المدرعة تقبع في أقصى الأمام مما كبدها خسائر كبيرة كما هو حال الفرقة المدرعة التاسعة.

ولغرض المحافظة على المبادأة، طلبت القيادة العامة الاستمرار بالعمليات التعرضية قدر الإمكان، وأجرت تغييرات مهمة في مناصب القيادة، إلا أن أهم هذه العمليات هي الغارة التي نفذها قوة واجب من الفرقة المدرعة العاشرة بقيادة العميد الركن هشام صباح الفخري على منطقة دهلران يومي 28-1981/5/29، ورافق ذلك الإعلان عن إسقاط سبع طائرات فانتوم معادية أسقط خمسٌ منها بقتال جوي.

بدأ القلق على الوضع العام لقواتنا في بعض جبهات القتال، وخاصة في قاطع شرق نهر الكارون بعد هجوم العدو الأخير في 1981/5/16 على لواء المشاة الآلي الثامن، حيث جرح آمره العقيد الركن فيصل مشعان الفيصل، وتكبد اللواء خسائر كبيرة، وحدث الشيء نفسه لبعض وحدات الفرقة المدرعة الثالثة بقيادة العميد الركن قدوري جابر الدوري، وكذلك ظهر قلق على وضع الفرقة الآلية الأولى والفرقة المدرعة العاشرة في قاطع الشوش نظراً لوجود ثغرات واسعة ما بين تلك الفرقتين.

في 1981/6/1 استلمت كتيبتي قاطع مسؤولية كتيبة استطلاع ابن الوليد (آمرها سعدون يونس) من الفرقة المدرعة السادسة نظراً لتحرك تلك الأخيرة إلى قاطع آخر، وبعد أيام وفي الساعة 22:00 ليلة 1981/6/6 شاهدت كرة نارية

متوهجة قادمة بسرعة عالية من العمق العراقي فظننتها أولاً صاروخ أرض - أرض إلا أن هـــذه الكرة النارية حال وصولها فوقنا، اتجهت جنوباً بسرعة أبطأ فعجزت عـــن تفسير ذلك، وقد يكون ما شاهدته له علاقة بقصف المفاعل النووي العراقي منتصف النهار التالي بواسطة غارة لطائرات إسرائيلية مدبرة جيداً حيث استخدمت معدات الحرب الإلكترونية لإعماء رادارات الدفاع الجوي، وشكلت تسع طائرات نـــوع F 16 الحديـــثة القوة التي ضربت (المفاعل) أما بقية الطائرات وعددها 27 وخاصة F 15 فكانت لأغراض الحماية.

في العـــشرين مـــن حزيران، قصفت مدينة البصرة لأول مرة بالمدفعية الثقيلة المعاديـــة، ونجم عن ذلك خسائر بالمواطنين. والحدث الآخر في شهر حزيران كان بدء الصراع الدموي بين مراكز القوة الحاكمة في إيران فتم إقصاء رئيس الجمهورية الـــذي تمكـــن مـــن الهرب إلى فرنسا بعد مقتل عدد من مساعديه، وأعقب ذلك الحادث انفجار كبير في مقر الحزب الإسلامي عندما كان بهشتي يلقي كلمة فقتل مع 72 من ملاكات الحزب المتقدمة، واتهم بهذا الحادث أطراف أخرى منها منظمة مجاهدي خلق، وسبق ذلك الحكم على صادق قطب زادة وزير الخارجية بالإعدام بعـــد اتهامـــه بالعمالة للمخابرات الأميركية، وفي 30 آب حصل انفجار مدمر في مكـــتب رئـــيس الجمهورية الجديد محمد على رجائي، أدى إلى مقتله، وعدد من مـــساعديه، وانفجـــار آخر أودى بحياة رئيس الوزراء الجديد محمد جواد باهونار بالإضافة إلى عدد من الوزراء، وتلى ذلك سلسلة من الحوادث الصغيرة وهي نتيجة حتمية للتركيبة غير المتجانسة لمكونات النظام السياسي في إيران، واستمر الصراع إلا أنه أصبح على نطاق ضيق بين (الحجتية) رجال الدين و(المكتبية) الاصلاحيون العلمانيون. أي بين المحافظين والاصلاحيين.

في 1981/9/1 شـــنّ العـــدو تعرضـــه المتوقع على قاطعي (سربيل زهاب في الشمال، والخفاجية في الجنوب)، وبإسناد مدفعي جيد، صدّت قواتنا بدفاع بطولي هذين المحجومين في القاطعين، وكبدت المهاجمين خسائر كبيرة، وأعلن عن اسقاط 11 طائرة مقاتلة معادية حيث لعبت القوة الجوية العراقية، دوراً مهماً في المعركتين أعلاه.

ليلة 1981/9/8 وعند عودتي من واجب محدود في قاطع مهران، وقبل وصولنا إلى مفـــرق قزانية بقليل، فوجئت بانفلاق أعداد كبيرة من مشاعل التنوير لمدفعية وهاونات العدو، فظننت أن العدو هاجم قاطع سومار، وعند استطلاعي للموقف علمت أن هذه المشاعل الليلية تعبير عن ابتهاج العدو باستعادة قاطع عبادان وشرق الكارون من أيدي قواتنا، فتألمت لذلك كثيراً. إلا أن ضربة حظ قد عادلت شيء مـــن الموقف المعنوي، حيث علمت من ضباط اللواء 412 المدافع في قاطع داروان حـــال وصولي إليهم من مهمة استطلاع أن إيران أعلنت الحداد على وزير دفاعها فاخوري مع 96 ضابطاً من القيادة الإيرانية الذين قضوا بحادث سقوط طائرة نقل عسكرية نوع (هيركليس س 130) قرب طهران بعد عودهم من قاطع عبادان.

في 1981/10/18 جـــرت عدة ترقيات بالرتب والمناصب القيادية مع الإعلان عن تشكيل مقر الفيلق الرابع في العمارة بقيادة اللواء الركن هشام صباح الفخري، وصـــدرت في الـــيوم التالي قائمة تنقلات كبيرة لعدد من المناصب القيادية حيث أصـــبح العمـــيد الـــركن ثابت سلطان قائداً للفرقة العاشرة (بعد نهاية الحرب أمر الرئيس صدام حسين بقتل المومأ إلية وهو متقاعد في مزرعته جنوب بغداد لخلافات سياســـية بالرغم من علاقته الحميمة به سابقاً) ومن الملاحظ أن الترقيات السريعة جرت لصالح عدد من العناصر القيادية وعدد كبير من الضباط لأغراض التشجيع، ومـــثل هذه الترقيات تحصل في كل الحروب، إلا أن نتائجها غالباً ما تكون سلبية فـــيما بعـــد لأن هذه الترقيات لا تحصل على أسس تقييمية دقيقة وعلى حساب النضج الذي تتطلبه المناصب القيادية.

مـــن خلال الاهتمام بإعداد قطعات الهجوم المقابل في جميع القواطع، كُلّفت بقـــيادة قـــوة هجـــوم مقابل لاستعادة بعض المواقع التي سقطت، وقد تألفت قوة الهجـــوم من كتيبتي، زائد فوج مشاة حدود، وبعض سرايا المغاوير، وقاطع الجيش الـــشعبي، وبعـــض الوحدات الفرعية الساندة، وحال انتهائنا من تحشيد هذه القوة استمعنا إلى بيان القيادة العامة الذي حمل الرقم (503) ومن منا كان يتوقع أن يصل تسلـــسل البيانات العسكرية إلى مرتبة المئات؟ على كل حال أصبحت لدينا قناعة بأن الحرب ستطول كثيراً، وأن الانتصارات المحدودة التي حققها العدو قد أصابت

بصيرته بقصر النظر الاستراتيجي للحرب، وزادت من غطرسته، وابعدته عن المنطق السليم. وأهم الملاحظات التي يمكن الحديث عنها عن الوضع الميداني هي تضيّق الثغرات بين مواقعنا ومواقع العدو، بحيث أصبح المقاتلون على جنبتي الجبهة يرون بعضهم البعض، وأصبحت طرق تسللنا للاستطلاع بالعمق محدودة ومحفوفة بالمخاطر، وامتدت السواتر الترابية في تلك المناطق لمسافات غير قليلة، وقد استحدثت للضرورة الميدانية. أما في قاطعنا الجبلي فكانت لا تزال لدينا الكثير من الفرص لابراز دور الاستطلاع الميداني، حيث تمكنا من السيطرة على أرض الحرام ودفعنا دوريات العدو، واكتسبنا خبرة جيدة في هذا المجال، ومن الملاحظات الأخرى التي يمكن تسجيلها ازدياد عمليات القصف الاستراتيجي التي تنفذها قواتنا الجوية، بعد التحسين الذي طرأ على نوعية طائراتنا المقاتلة حتى باتت تطال الكثير من المنشآت الاقتصادية المعادية وخاصة في القسم الشمالي من الخليج العربي. ومن الملاحظات الأخرى التوسع الأفقي لتشكيلاتنا المقاتلة لستر أكبر ما يمكن من جبهات القتال، وذلك بهدف توفير الحماية للاحتياطات التعبوية والعملياتية، حيث برزت طائرات الميغ 25 والميراج كأهم الطائرات المؤثرة في العمق المعادي. وهنا تجدر الإشارة إلى قدوم أعداد كبيرة من المتطوعين العرب انتظم الأردنيون منهم في كتيبة مشاة سميت كتيبة اليرموك وكانت بإمرة المقدم عدنان، وقد عملت بأمرتي فترة قصيرة، وقد ساهم الملك الأردني الحسين مساهمة رمزية عندما أطلق قنبلة مدفع عيار 130 ملم بإتجاه المواضع الإيرانية خلال زيارة للجبهة الشمالية بصحبة الرئيس صدام حسين.

ليلة 1981/11/30 شنّ العدو هجوماً تعرضياً على قاطعي الخفاجية والبسيتين في الجنوب، واستمر القتال عنيفاً حتى 1981/12/5، حيث تمكن العدو من دفع قواتنا بضعة كيلومترات في بعض النقاط، حيث قاتل رجالنا قتالاً باسلاً، وتحملت تشكيلات الفرقة المدرعة العاشرة من اللواء المدرع 17 بإمرة العقيد الركن رياض طه داود، ولواء المشاة الآلي 24 بإمرة العقيد الركن رشيد الكردي، والقوات الخاصة وطأة ذلك الهجوم. لقد كانت خسائر الطرفين فادحة، إلا أن العدو ارتكب جريمة وحشية نكراء بإعدام أعداد كبيرة من أسرانا.

كانت الاشتباكات في القطاع الأوسط أقل حدة، إلا أن وتيرة التراشق المدفعي ازدادت كثيراً، مما تطلب إعادة النظر ببعض الترتيبات الدفاعية، إلا أنه وللأسف تم اهمال الراقم (1172)، وهو أعلى جبال السلسلة، وأهم عارضة تحكم الحدود الفاصلة بين الفرقتين السابعة والثانية عشرة في القاطع الأوسط. وبالاستناد إلى خبرتي الجيدة بالقاطع اتفقت مع آمر اللواء الثاني العقيد الركن قاسم حمو على طرح هذا الموضوع في المؤتمر المسائي للفرقة التي أصبحت بقيادة العميد الركن طالع الدوري الذي نقل من الفرقة التاسعة وحل بدلاً من العميد الركن كامل عبد اللطيف الذي تحمل مسؤولية الموقف السيء لهذه الفرقة في منطقة بحيرة الأسماك في الجنوب فأحيل على التقاعد، وبالرغم من قوة مُبرراتنا إلا أن الرأي كان حاسماً وللأسف باعتبار الراقم قليل الأهمية. وفي اليوم التالي تم أسر ضابط استطلاع إيراني برتبة ملازم أول ومعه مخططات مناظرية تؤكد ما أشرنا إليه، وقد قام باستنطاقه مقدم اللواء المقدم الركن عبد المنعم يسر إلا أن قائد الفرقة ظل متمسكاً بوجهة نظره مبرراً أن ذلك قد يكون خدعة، و لم يوافق إلا على تخصيص سرية مغاوير فقط لمسك ذلك الجبل.

في ليلة 1981/12/11 شنّ العدو تعرضه المتوقع مستهدفاً أولاً الراقم (1172)، وتمكن من احتلاله بسهولة، وحاصر بذلك اللواء الثاني، وعزل الفرقة السابعة عن الفرقة الثانية عشرة معتمداً بالأساس على الحقائق الجغرافية ومعطياتها التعبوية، فدارت سلسلة من المعارك لاستعادة هذا الراقم المهم، ولتعزيز مواضع وحدات اللواء الثاني وقد تخلل تلك المعارك الكثير من سوء التقدير والاستعجال بالتخطيط، وضعف التنسيق و لم يتم طرد العدو إلا صباح يوم 1982/1/5 وذلك بمشاركة اللواء 36 بقيادة العقيد الركن زهير علي يونس، واللواء الثاني، والفوج الأول من اللواء الرابع الذي استشهد آمره المقدم الركن محمد العزاوي فيما بعد، وفوجين من القوات الخاصة بقيادة كل من بارق الحاج حنطة ووعد الله مصطفى بعد إجراء التنسيق الصحيح لجهود كلا الفرقتين واعتماد التقرب والهجوم غير المباشر بالتعاون مع القوات المخصصة للهجمات الجبهوية. وكالعادة غطى النصر كثيراً من السلبيات، وتركها دون دراسة كافية، ومما يستحق ذكره أن كميناً من السرية

الثانــية مــن وحدتي تصدى لمجموعة استطلاع خلال القتال، فجرح قائد الهجوم المعادي، وكان يدعى حمزة أثناء محاولته إكتشاف مسلك للالتفاف حول الراقم (1000)، الــذي كــان يدافع عنه الفوج الثاني من اللواء الثاني بقيادة المقدم لطيف رســتم وقتل ثلاثة من مساعديه، وكردّ فعل طبيعي لهزيمته كثف العدو من قصف مواضعنا بالمدفعية وخاصة بالمدفع بعيد المدى من عيار 175 ملم، ومن خلال تحليل إحــدى حفر قنابله الساقطة على مقري وبالتعاون مع استخبارات الفرقة والفيلق اســتطاعت إحدى طائراتنا نوع (ميغ 23) من صيده بالقرب من (كيلان غرب)، قد يكون للحسابات الشخصية ما بين القائدين (طالع، ونزار) أثرها في تأخر حسم المعــركة حــسب ما تداوله بعض الضباط في مقر الفرقة الثانية عشرة الذي كان رئــيس أركانهــا العقيد الركن نادر غياض حيث كان المنطق السليم يقضي بقطع طــريق ادامة العدو وهو وادي شك ميدان. وفي النهاية، تدخل قائد الفيلق الثاني الفريق الركن عبد الجبار الأسدي لدفع لواء المشاة التاسع عشر بقيادة المقدم الركن عــصمت مــن الفرقة السابعة لتنفيذ ذلك، وكاد قائد الفرقة الثانية عشرة أن ينفذ حكم الاعدام بالعقيد الركن قاسم حمو آمر للواء المشاة الثاني لاتهامه بالتقصير، لولا شهاداتنا الصادقة، وعدالة رئيس المجلس التحقيقي العقيد الركن منذر ميخائيل (عند أخذ موافقة الرئيس بالإعدام طلب من قائد الفيلق تشكيل مجلس تحقيقي سريع بحق آمر اللواء واذا ما ثبت تقصيره يعدم فوراً).



الإيرانيون يديمون زخم هجماتهم

بعـــد إصرار العدو على إدامة زخم هجماته وباعتماد منطقه الأعمى للاستمرار بالحـــرب وتهديـــده باحتلال العراق، أطلقت الدعوة لتطوع جماهير الحزب في ألوية المهمـــات الخاصة كنوع من أنواع النفير، وارتدى أعضاء القيادة السياسية، والوزراء، والملاكات الحزبية القيافة العسكرية كدلالة على جدية وخطورة التهديدات المعادية مع تمكـــن قيادتنا من اصباغ طابع الحرب القومية من خلال تأثيرها الأدبي بالأمة العربية، وذلك لأن العراق يمثل البوابة الشرقية للوطن العربي، وذلك لأن هذه الحرب هي دفاع غـــير مباشر عن دول الخليج، فقدمت هذة الدول الدعم المادي السخي للعراق خاصة المملكة العربية السعودية، والكويت، والامارات العربية.

وبالـــرغم من كل المساعي الحميدة لإيقاف الحرب كان أقل وصف يمكن أن

يعطـــي للـــشروط الإيرانية هو أنها تعجيزية. وفي 1982/2/13 تعرض العدو مجدداً لقاطـــع البـــسيتين إلا أن دفاع قواتنا كان بطولياً، وانتهى تعرضه في 1982/3/21 بالفشل مع اسقاط ثلاث طائرات نوع F5.

كانـــت هناك دلائل قوية على قيام العدو بالتعرض على قاطع الشوش التي تدافع فـــيه قطعات الفيلق الرابع (الفرقة المدرعة العاشرة، والفرقة الأولى) وتم استقدام الفرقة المدرعـــة الثالثة بقيادة العميد الركن جواد اسعد شيتنة لتنفيذ هجوم إجهاضي، إلا أنه تبين أن إجهاض تقدم القوات المعادية والحيلولة دون تنفيذ خططها، كان يفوق قدرات فرقة مدرعة، أضف إلى ذلك وجود ثغرات ما بين مواقع القوات المدافعة، وترك بعض العـــوارض التعـــبوية دون الامساك بها بقوة، فَعَبَرت تشكيلات العدو نهر الكرخة من اتجـــاهين: الأول منطقة الكثبان – الرقابية – جنانة – والثاني باتجاه الدوسلك – جنانة وبالرغم من الدفاع البطولي لقطعات الفرقة الآلية الأولى والفرقة المدرعة العاشرة إلا أن العدو استطاع الاستفادة من الثغرات، وطالت طلائعه المناطق الخلفية التي أصابها ارتباك شـــديد، وعـــزلت قطعات كثيرة، وفقدت القيادة السيطرة على عدد من الوحدات والتشكيلات، ولولا التأثير الشخصي للرئيس صدام حسين، لانقلب الموقف إلى هزيمة مـــرة، ولتجاوزت القطعات المطاردة خط الحدود الدولية، وفي ليلة 1982/3/19 ومن خلال رسالة الرئيس إلى قائد الفيلق الرابع، انسحبت قطعاتنا بقتال تراجعي على خط مـــوازي للحـــدود الدولية ونهر دوريج، وقام العدو بأسر حوالى 15 ألف مقاتل، ثم جاءت المعلومات الاستخبارية عن حشود جديدة للعدو وفي ظل مظلة إعلامية ونفسية صـــعبة للغاية في قاطعي الخفاجية والاحواز، نفذ العدو هجومه ليلة 1982/4/30 على مواضـــع الفرقة المدرعة السادسة بقيادة العميد الركن محمود شكر شاهين المدافعة في الخفاجـــية وعلى مواضع الفرقة الآلية الخامسة بقيادة العميد الركن ماهر عبد الرشيد المدافعة على مقترب الاحواز – الحدود الدولية، ومن خلال قتال دفاعي مستميت، لم يتمكن العدو من تحقيق إلا بعض النجاحات المحدودة، ولعبت القوة الجوية العراقية دوراً مهماً في التجريد التعبوي، إلا أن العدو واصل هجومه يوم 1982/5/1، وامتد ليشمل مـــنطقة الطاهـــري (اللـــواء المدرع 55)، وتمكنت قواتنا من صده بصعوبة، وكانت الفرقتان المدرعتان الثالثة والتاسعة قد كلفتا بسحق أي هجوم معادٍ عبر نهر الكارون.

كانـــت فكـــرة العمليات تعتمد على ما يبدو على تدمير رؤوس الجسور المعاديـــة عند عبور العدو لنهر الكارون حيث يشكل الطريق العام الاحواز - المحمـــرة خط الصدّ الرئيسي، حيث تتم الاستفادة من النقاط الحصينة الأمامية القابلـــة (للعـــزل والـــتطويق) في تكسير قدمات العدو، وفي الفترة الممتدة بين 2 و5 أيار/مايو اكتنف الموقف طبقات كثيفة من ضباب المعركة، وعميت الرؤيا في المقرات العليا، وكانت القناعة بأن العدو قام بدفع مجموعات صغيرة عبر نهر الكارون، وأن القطعات المدافعة قادرة على احتوائها، إلا أنه يوم 1982/5/6 تم الـــتأكد أن القطعـــات العابرة تشكل الجهد الرئيسي للعدوان، وأن تشكيلات الهجوم المقابل وخاصة اللواء المدرع الثاني عشر تخوض معارك دفاع عن النفس، وأن الـــنقاط الحصينة التابعة للواء المدرع 55 بقيادة العقيد الركن نزيه الرزو قد ابتلعت، وأن الفرقة المدرعة التاسعة والفرقة الآلية الخامسة قد دفعتا كثيراً باتجاه الحـــدود الدولـــية، وأن منطقة جفير قد أصبحت بيد العدو أي أن السيطرة قد فقـــدت علـــى قاطعي شمال وشرق المحمرة فأحدث ذلك دوياً كبيراً لأن انهيار جـــبهة الغرب (الكارون) كان ينبئ بالكثير من الخطر على وضع مدينتي المحمرة والبـــصرة، وكانـــت أعصاب القادة والآمرين مشدودة إلى أقصى الحدود، بل أصبح كافة العراقيون ينظرون إلى الموقف بتوجس كبير، وذلك عندما أعلن بيان القـــيادة العامة يوم 1982/5/8 الموقف، وسحب الفرقتين التاسعة والخامسة إلى الحدود الدولية (لقد اعتبر اللواء الركن صلاح القاضي قائد الفيلق الثالث وقائد الفـــرقة الثالـــثة وآمر اللواء المدرع الثاني عشر العقيد الركن محسن عبد الجليل مقصرين في تقدير الموقف وادارة المعركة، فاعدموا وكان الأخيران يحملان أعلى الأوسمـــة في حين ساهم الأول في عملية الاستيلاء على القصر الجمهوري لصالح حزب البعث في العام 1968) كذلك تسبب قائد الفرقة الخامسة في انتحار آمر لواء المشاة الآلي الخامس عشر العقيد الركن ماجد عبد الحميد عندما احرجه في توقيـــتات مستحيلة لتنفيذ مهمة إعادة السدة الحدودية. وحدث ما كان يخشى منه، فاستثمر العدو الموقف، وشنّ يوم 1982/5/23 تعرضاً على مواضع الفرقة الحادية عشرة بقيادة العميد الركن غالب ابراهيم، وكان بإمرتها خمسة عشر لواءً

(وهـذا العـدد يعتبر خارج إمكانيات الفرقة على القيادة والسيطرة) وبالوقت الذي اعتبرت المحمرة الوسادة الأخيرة التي تغفو عليها البصرة، كانت المجموعات القتالـية المعاديـة الصغيرة التي بُثت ما بين قطعاتنا المدافعة تحدث إرباكاً عاماً بالموقـف (وهـذا أسلوب جديد اتبعه العدو، وعندما يجد الفرصة المناسبة يزج قـواته الرئيـسية لاستثمار أي نجاح تحققه تلك المجموعات)، فسقطت مواضع اللـواء 426 أولاً فانفتحت ثغرة واسعة اندفعت منها قوات معادية كبيرة، وفي ليل 1982/5/25 سقطت المحمرة عندما دخلتها القوات المعادية من الشمال ومن الجـنوب عبر نهر الكارون، فانسحبت قواتنا هناك إلى خط الحدود الدولي بعد تضحيات وخسائر مؤلمة.

يـوم 1982/5/26 أعلن بيان القيادة العامة للشعب العراقي سقوط المحمرة وأشـار إلى أنـنا خسرنا معركة ولم نخسر الحرب، وأصيبت المعنويات العامة بالـصميم، وكأن الشمس غابت عنا إلى الأبد، إلا أن الصلابة النفسية العالية للـرئيس صدام حسين، أعادت الثقة إلى الجميع، بأن ما خسرناه لن يعيقنا عن كـسب الحـرب حـيث أشار إلى أننا سنكسب الحرب من خلال الاعتراف بالواقـع، وإعداد خطة دفاع استراتيجية عن العراق، وشحذ الهمم لاحتواء ما سـينوي علـيه العدو... في الساعة 14:30 يوم 1982/5/28 أخبرنا بأنه وعلى ضـوء اجتماع القيادة العامة علينا الاستعداد للانسحاب إلى الحدود الدولية في بقـية ساحات الحرب، وأن الشروع بذلك سيكون يوم 1982/6/8 وبكتمان شديد شرعنا باستعداداتنا الدفاعية على خط الحدود الدولية، وكانت مهمة وحدتي ستر الانسحاب بعمق 22 كم من خلال موضعي إعاقة، وتم ذلك دون اشتباكات تذكر عدا يوم 1982/6/14، وصادف ذلك في شهر رمضان فكان الصوم شاقاً نتيجة لارتفاع درجات الحرارة، وواجبات الانسحاب، وحفر المواضع الجديدة. واهتـزت الأمة العربية بهذا الحدث، ولحدث آخر ألا وهو الاجتياح الإسرائيلي للبـنان وسقوط العاصمة بيروت لضرب الثورة الفلسطينية التي انحسرت قصراً فيه، وحوصرت القيادة في صيدا.

التعرض المقابل المعادي

الجزء الأول

تعتبر المرحلة الثالثة من سفر هذه الحرب والتي أسميتها (التعرض المقابل المعادي) من أطول مراحل الحرب، وأصعبها، حيث مرّت بأحوال وظروف متقلبة، وكانت من أشد المراحل قلقاً على المصير الوطني للعراق، وبناء على ذلك فإن ما سأذكره هنا هو الجزء الأول منها.

لقد اتصف الموقف العام لقواتنا بالدفاع الموضعي (المرن)، بعد أن اتخذت قيادتنا قرارها الاستراتيجي بالدفاع على الحدود الدولية بتصرف محدود بدلاً من الدفاع عنها حيث بُدء بسلسلة طويلة من الإجراءات الخاصة لاعداد ساحات العمليات، وذلك حسب نوعية الأهداف، وطبيعة الأرض التي تشتملها ساحة الحرب العراقية الإيرانية. لقد كانت إجراءات تهيئة الدفاع في تلك الساحات، تنظم بشكل أفضل بناءً على قواعد العمل الصحيحة التي أقرتها الكراسات الرسمية، التي خضعت إلى فحوص عديدة من قبل لجان مختصة من المقر العام. فشكلت فرق المشاة أساس الدفاع الموضعي المستند على الموانع الطبيعية أو الاصطناعية أو المركبة (طبيعية وصناعية)، وتم دفع القطعات الساترة (الأمن) إلى الأمام، وذلك بحسب ظروف كل ساحة، وذلك لعمل قوات الحجاب، والحرس، ومنظومات إسناد تلك الفرق بوسائل الإسناد الناري، والإداري، والهندسي، والدفاع الجوي مع ارجاع القطعات المدرعة إلى العمق لتشكل قطعات العمق والاحتياط، وشُغلَت الثغرات بالدوريات، والكمائن وبنيران المدافع والهاونات، وحقول الألغام. لقد تم ذلك من خلال قوات الجيش الشعبي وتم الاعتناء بشكل جيد بالمقرات وبوسائط القيادة والسيطرة، وسادت جميع المقاتلين ومن ورائهم شعبهم الأبي روح المقاومة وعزيمة لا توصف محفوفة بالخطر الشديد على مصير بلدهم فهبوا للدفاع عن تراب الوطن وشرف المواطنة مهما كانت التضحيات وأصبح الجميع على المحك. بالمقابل كانت الانتصارات الأخيرة قد أسكرت الطرف الآخر وأصابت بصيرته الاستراتيجية للحرب

بالعمـــى، فأطلق عواصف من التهديدات الرعناء، ومارس إعلام العدو أخبث وســائل الحــرب النفــسية، وتصاعدت لغة الخطاب السياسي للقيادة الإيرانية بكبرياء أجوف، حين أعلنوا أن هدفهم الأكبر هو احتلال العراق، وتغيير النظام السياسي، فتجاوزوا بذلك منطق السياسة والحرب.

منذ نهاية شهر حزيران 1982/6، حذّرت تقارير الاستخبارات العراقية من حــشود كــبيرة للعـــدو في ساحة العمليات الجنوبية، وخاصة في قاطع شرق البصرة، في ذات الوقت الذي صعّد العدو من معدلات قصفه للمدن والقصبات الحدوديــة مـــن خانقين شمالاً حتى البصرة جنوباً. ليلة 13-1982/7/14، شنّ العـــدو هجـــومه المرتقب تحت مظلة الحرب النفسية. فكان هجوماً واسعاً شمل قاطع شرق البصرة وكان يهدف إلى احتلال الضفة الشرقية لشط العرب بما في ذلـــك مـــنطقتي الـــشلامجة والتنومة والعبور إلى القرنة لعزل مدينة البصرة من الشمال، وكان العدو قد نجح في اختراق الجبهة بعرض 15 كم وبعمق 20 كم، إلا أن قواتـــنا قاتلـــت ببسالة، وتمكنت من دحر الهجوم بعد احتواءه سريعاً، وتمكنت من أسر 714 من جنود العدو، إلا أنه كرر هجومه ليلة 16-1982/7/17 وبـــنفس الاتجاه والأسلوب، فأضاف بحماقته هذه فشلاً إلى فشله السابق، فطرد العـــدو مرة أخرى مذهولاً بصلابة مقاتلينا الذين ازدادوا شجاعة، وثقة، وهمة، وإصـــرار على دحر الأعداء. لقد ساهمت العواصف الترابية مع مقاتلينا في دحر العـــدو، ممـــا أفقد اعلامه الفعالية، إلا أن العدو فقد صوابه على ما يبدو، فزج بقـــواته في قاطـــع الشلامجة ليلة 20-1982/7/21، إلا أنه لم يحصد غير الهزيمة، فاستـــشاط غضباً، وشنّ هجومه الأخير بعد أن جمع له كل الامكانات وكان ذلك في الساعة 22:00 يوم 1982/7/28 فدُحِرَ بغير رجعة بعدما تكبد خسائر باهـــضة جـــداً، وزفـــت أخبار النصر العراقي للشعب. وتجدر الإشارة إلى أن تـــضحياتنا كانت كبيرة، فقد خرجت جراء هذه المعركة الفرقة المدرعة التاسعة من القتال بعد تكبدها خسائر كبيرة في معركة الاحتواء في منطقة بحيرة الأسماك.

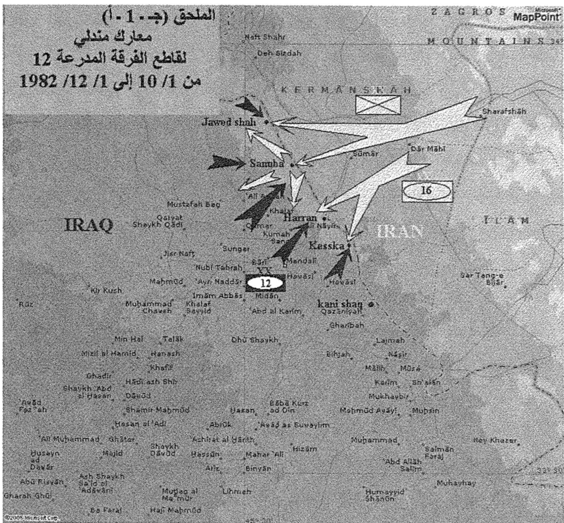
في يوم 1982/8/6 حضرت مؤتمراً حول تشكيل الفرقة المدرعة السابعة عشرة بقـــيادة العمـــيد الـــركن اياد افتيح الراوي - الجديدة على أنقاض الفرقة المدرعة

التاسعة (الملغاة والتي جرى تفكيكها لكثرة أخفاقاتها وخسائرها) حيث نُقلَت كتيبتي إلى نظام معركتها واعتزازاً بها أبقيت في القاطع الأوسط لأغراض العمليات، وعلى ضوء تحذيرات الاستخبارات العراقية عن بداية عملية حشد كبيرة للعدو في هذا القاطع، زار الرئيس صدام حسين مقر الفيلق الثاني بقيادة الفريق الركن سالم حسين العلي، وذلك للاطلاع على الموقف، فكلفت وحدتي بإنشاء خط مراقبة، وإنصات دقيق، فنظمت عدداً من دوريات الاستطلاع، وفتحت رادارات الرازيت في أماكن مشرفة، وخلال انهماكنا بواجبات مراقبة العدو، فوجئت بخبرين الأول صدور أمر نقلي إلى منصب آمر كتيبة الدبابات 36 في اللواء المدرع 40 المُشكل حديثاً بإمرة القيادة العامة، والثاني استلامي أمراً بمسك موضع دفاعي ما بين اللواء الثاني واللواء 412 بعد وضع عدد من الوحدات بإمرتي، ولأغراض أخلاقية طلبت تأخير التحاقي حتى ينجلي الموقف، وذلك خلال مكالمة هاتفية مع مدير إدارة الفرقة.

يوم 1982/9/22 الذي يصادف الذكرى الثانية للتعرض الوقائي العراقي، أعلن العدو عن إكمال استعداداته لهجوم الخريف الكاسح والحاسم، وكان تقدير استخباراتنا لقوة العدو أنه يوجد أمامنا فيلقين أحدهما من القوات النظامية (جيش) والثاني من قوات الحرس والمتطوعين (الباسدران والبسيج) وأشارت تقارير استخباراتنا أنه عند اكتمال وصول الفرقة المدرعة السادسة عشرة المعادية يكون موعد الهجوم قد تحدد، وتوقعت استخباراتنا أن ذلك سيكون يوم 1982/9/27 وقبل عيد الأضحى المبارك. إلا أن العدو، حاول تحقيق المباغتة بالزمان فاختار اليوم الرابع من العيد أي 1982/10/1 بداية لهجومه، والملفت للانتباه أن قدماته الأولى شنّت هجوماً صامتاً وبأسلوب التسلل، وكانت تقارير رادارات وحدتي تنبئ بالكثير فانكشف هجومه، وانقلب صاخباً بالساعة 04:00 فجر ذلك اليوم، وبدت معركة حامية الوطيس إلا أن العدو تمكن بواسطة قدماته المتسللة من احتلال ثلاث أهم عوارض في المنطقة الدفاعية للفرقة المدرعة الثانية عشرة التي كانت بقيادة العميد الركن شوكت احمد العطا - وهو من خيرة ضباط الجيش العراقي، وكان أيضاً زميل

دراســة للــرئيس صدام حسين، إلا أنه لم يستثمر ذلك لأغراض شخصية - وهي (كتفــي مــضيق حــران - كيسكة - صلاح الدين وسانوبا) وبعض الروابي والــرواقم، إلا أننا لم نتمكن من استعادة العوارض الرئيسية الثلاث التي جرت فــيها سلسلة من المعارك السجال، تكبد فيها الطرفان خسائر كبيرة (خاصة في عارضــة سانوبا)، وقد يعزا سقوط هذه العارضة المهمة لسببين هما عدم تقدير قيمــتها بــشكل جــيد من قبل المدافعين، ولذلك لم تعطَ الأولوية في الترصين والتحكــيم، ولم يتم تخصيص أفضل القطعات لمسكها والدفاع عنها. والسبب الآخر قيام حركة تبديل للقوة الماسكة لها ليلة الهجوم المعادي. وفي ليلة 6 - 7/ 1982/10 حــاول العــدو تطوير نجاحاته بالاندفاع من مضيق حران لاحتلال مدينة (مندلي)، وعزل قطعاتنا، وتدمير مصادر إسنادنا الناري والإداري، إلا أنه فــشل في ذلك، لقد حضر الرئيس صدام حسين المعركة، وحين التقى بقائدي الفــيلق والفرقة في المقر الميداني المتقدم لإدارة المعركة، وجدهما شديدي الحزن والأسف على هذه الموقف العصيب، فشجعهما إلا أنه لم يعدهما بتعزيزات لأن الموقف العام لا يسمح بذلك، وكان بصحبته آمر لواء الحرس الجمهوري الثاني، وكــان الإعــلام المعادي ناشطاً في استغلال الموقف، وبدأ يذيع الأخبار المبالغة ومــنها أسماء الضباط الأسرى، وقد ذكر اسمي ومنصبي وقد حصل عليهما من بعــض الجنود الأسرى الذين يعودون لوحدتي. وفي الساعة 2:00 يوم 10/23/ 1982 قــدت بنفــسي دورية استطلاع على مسؤوليتي الخاصة، وأخذت معي ضــابط الرصــد المدفعي لغرض التأثير على فعالية القصف المعادي، وتمكنا من الوصول بعمق 7كم، ومن مكان مشرف، كشفنا مواضع تلك المدفعية، فقامت قواتــنا بمشاغلتها على الفور. يوم 1982/11/2 انتهت المعركة بعد ما تأكد لنا صــعوبة استعادة العوارض الرئيسة الثلاثة الآنفة الذكر في الوقت والإمكانيات الحالــية، وعندها أخبرت بضرورة التحاقي بوحدتي الجديدة والتي أصبحت من وحــدات الحــرس الجمهوري كأول خطوة لتوسيعها فأصبح اللواء المدرع 40 يدعــى لواء الحرس الجمهوري الثاني وأصبحت كتيبة الدبابات 36 تدعى كتيبة دبابــات الحمــزة حرس جمهوري، وقد استلمت كتاب شكر وتقدير من قائد

الفــرقة مع أمر الالتحاق، فكانت بادرة طيبة في ظل معركة شبة خاسرة، وفي طريقــي إلى مقــر الفرقة لتوديع القائد، مررت بالطريق الواقع أسفل مواضعنا الســاقطة ومنها تل سانوبا الذي تحيط به قطعاتنا، فتوقفت قليلاً لقراءة سورة الفاتحــة على شهدائنا الذين تركت جثث الكثيرين منهم في أرض الحرام ومنهم ابــن عمتي جمال محمد آمر سرية مغاوير اللواء 412 لأنه مع الأسف لم تراعَ في حــربنا مع إيران الكثير من السياقات الحربية المعمول بها منذ قديم الزمان ومنها عقــد هدنة مؤقتة بعد كل معركة لإخلاء الجرحى والشهداء. وفي 1982/11/4 وبكــل شرف واعتزاز أصبحت منتسباً لقوات النخبة. ومن طريف الذكر أن والــدتي حين علمت بانتسابي إلى الحرس الجمهوري آنذاك رجتني أن لا أرتدي (قبعة الريش) حين آتي إلى البيت فهي لا تتناسب مع العصر! فطمأنتها أن الذين يــرتدون قــبعات (الــريش) هم فقط حرس الشرف في تلك القوات. أما نحن فمقاتلون نرتدي الخوذ الفولاذية.



ومـــن خلال إيجازي من قبل آمر لوائي الجديد العقيد الركن رياض طه داود وهـــو من الضباط الأكفاء اللامعين، علمت أنه ليس أمامنا سوى ستة أشهر لنعد فيها هذا اللواء من الناحية الفنية، والإدارية، والقتالية مع استيعاب أحدث الدبابات الواصـــلة إلى القطر (تي 72 أم) بناء لطلب الرئيس صدام حسين بدلاً من الدبابات (تي 55 ب) الـــصينية الصنع (جرى استيراد أعداد من الدبابات الصينية لأول مرة خلال الحرب) وتعد دبابات تي 72 أم قفزة تسليحية هامة أعطتنا ثقة عالية بالنفس وقـــد عاهدت آمر اللواء ألا نخيب ظن الرئيس على هذا التشريف، فعمل الجميع على طي النهار بالليل، ومما ساعدنا على ذلك أمران الأول الإشراف المباشر لرئيس الدولـــة والثاني نوعية جنود وضباط هذا اللواء فكان معظمهم من المتطوعين حتى انتهاء الحرب، وكانوا بأعمار ناضجة جداً. وفي بداية شهر تشرين الثاني من العام

1982، شنّ العدو هجوماً على قاطع عمليات الفيلق الرابع شرق ميسان في منطقة الـــزبيدات - الطـــيب، فخرق الجبهة بعرض 10 كلم وبعمق خمسة كيلومترات، واتـــضح لنا وللعالم أن ادعاءات أعدائنا خاوية، حين أعلنوا أنهم سيحتلون العراق، وتأكـــد للجمـــيع أن قواتنا قد استعادت فعلاً قدراتها وثقتها بنفسها بعد عدد من الاخفاقـــات، كـــان آخـــرها سقوط المحمرة، حيث كانت قواتنا تؤدي مهامها بمعنويات لا تخور.

لـــيلة 20-1982/11/21 قامـــت عدة تشكيلات من قواتنا الجوية والبحرية بعملـــية جـــريئة في الهجوم على منصة انتظار ناقلات النفط الإيرانية قرب جزيرة خرج شمال الخليج، فتمكنت من إغراق خمس منها، وعندها بدأت ما عرف بحرب الناقلات وهي الجزء الاقتصادي من الحرب العامة الناشبة منذ أيلول 1980. في يوم 1983/2/1 نفذت كتيبتي تمريناً فحصياً أمام مجموعة من خبراء قواتنا المساحة وعلى رأسهم مستشار الرئيس الفريق الركن محمد فتحي أمين وفقاً لتوجيهه حيث كانت النتـــيجة جيدة جداً. في ليلة 6-1983/2/7 شنّ العدو هجوماً على قاطع الشيب شـــرق ميسان، وباندفاع سريع نجح العدو بخرق الجبهة بطول 14كم وبعمق 8كم من الدفاعات القوية حيث أن طبيعة الأرض المتموجة والمتكسرة تساعد المنطقة هنا علـــى الـــدفاع، إلا أن الفـــرقة المدرعة الثالثة بقيادة العميد الركن حسين رشيد التكـــريتي، تمكـــنت من تقليص جبهة الخرق، وقامت بمناورة ضرب جناح العدو الأيسر بسلسلة من الهجمات المقابلة، ودمّرت له عشرات الدروع، وأسرت 1188 مـــن جنوده، وبذلك فشل العدو في هذا التعرض، حيث كان ينوي إسقاط تلك المواضـــع والانـــدفاع لقطع طريق العمارة - كوت، وفي صباح يوم 1983/2/12 جرى استعراض أسرى العدو في بغداد، بالوقت الذي شرعت قواتنا الجوية بسلسلة من الغارات على جزيرة تصدير النفط الإيرانية (خرج) شمال الخليج العربي. في ليلة 1983/2/16 حـــاول العدو تحسين موقفه، فأضاف فشلاً إلى فشله لأن قواتنا هناك أحكمت قبضتها جيداً.

مـــن خـــلال متابعتي الخاصة لإعلام، وخطب، وتصريحات مسؤولي العدو اســـتنتجت وخاصـــة من خطبة الجمعة لرئيس البرلمان الإيراني رفسنجاني بأنهم قد

اعـــتمدوا اســـتراتيجية قتال جديدة يمكن تسميتها استراتيجية التتابع، بعد أن أيقن الأعـــداء أن أهدافهم الرئيسية التي أعلنوا عنها بعيدة المنال، ومنها احتلال العاصمة بغـــداد، وذلـــك باعتمادهم على سلسلة من المعارك بحيث يجعلون الحرب طويلة وبأســـلوب القضم المتواصل والمستمر لساحات العمليات، وعندها سيكون حجم الإنجـــاز كبيراً مع استثمار التفوق السكاني الذي في صالحهم، وتواجد أكثر من 60% مـــن الأيـــدي العاملـــة العراقية على جبهات القتال ... فيكون بالإمكان إنشاء حكـــومة انفصالية في الأجزاء المحتلة وفقاً لتصوراقم، وبذلك يكسبون الحرب. في لـــيلة 10-1983/4/11 شنّ العدو هجوماً كبيراً على قاطع عمليات الفيلق الرابع بمـــنطقة الفكـــة، فدارت معارك سجال لمدة أسبوع واحد، دحر فيها العدو الذي كانت معظم قواته من القوات شبه النظامية (الباسدران والبيسج)، وتكبد خسائر كبيرة، وتم أسر 417 جندياً من جنوده، والاستيلاء على عدد كبير من دروعه، وفي ذلـــك الـــوقت كانت جماهير شعبنا قد اعتادت على أخبار المعارك، وبشيء من الطمأنينة اقتنعت بأنها حرب طويلة، وعليه يجب على الشعب أن ينصرف إلى تلبية متطلـــبات حـــياته اليومية التي أصبحت الحرب جزءاً منها، إلا أن ما يقلقهم كان نسبة التضحيات.

يوم 1983/5/11 صدر الأمر بتهيئة جحفل لوائنا للحركة إلى القاطع الجنوبي خلال الأسبوعين القادمين بعد استكمال تسليحه وتدريبه، ومساء ذلك اليوم، أعلن عن لقاء بين وزير خارجيتنا طارق عزيز مع وزير الخارجية الأميركي جورج شولتز في بـــاريس لبحث سبل إيقاف الحرب. في الوقت الذي قامت المخابرات الإيرانية بعمل تفجيري بواسطة سيارة ملغمة وبصورة انتحارية على مبنى القوة الجوية، ودار الإذاعـــة والتلفـــزيون، ومبنى الخطوط الجوية العراقية في بغداد فسقط ضحية ذلك الاعـــتداء عـــدد من المواطنين الأبرياء، وكان ذلك إعلاناً ببدء الحرب القذرة التي أدارتهـــا تلك الأجهزة، وفي اليوم التالي أعلن عن الاتفاق اللبناني الإسرائيلي حول انـــسحاب الإســـرائيلين مـــن لبنان مع إبقاء شريط أمني جنوب هذا البلد حيث اســـتنكره العـــراق بشدة. في 1983/5/26 حضرنا مع الرئيس صدام حسين تمريناً تعـــبوياً نفـــذه لـــواء الحرس الجمهوري الأول بالتعاون مع كلية الأركان، وكان

بمستوى متواضع، وخلال المناقشات ادهشتني سلباً مداخلات مدير الاستخبارت الجديد العميد الركن ماهر عبد رشيد.

في صباح 1983/5/28 تحرك جحفل لوائنا إلى قاطع عمليات الفيلق الرابع (الشيب)، وقد حضر الرئيس صدام حسين ونائبه وزير الدفاع عدنان خير اللة حيث ودعانا، ونحن نغادر بغداد، وفي ليلة وصولنا، استلمنا واجبات اللواء المدرع العاشر حرس جمهوري الذي عاد إلى بغداد في اليوم التالي (لقد أضيف اللواء المدرع10 لقوات الحرس الجمهوري).

في صباح 1983/5/29 اجتمع بنا قائد الفيلق الرابع، ونوه عن واجب قريب ينتظرنا، ألا وهو استعادة منطقة الزبيدات المحتلة، فباشرنا بالاستطلاعات الضرورية في المنطقة الدفاعية للفرق (14، 15، 18، 20)، واطلعنا على خطط فرقتي الاحتياط (الفرقة المدرعة الثالثة، والفرقة المدرعة العاشرة)، ودرسنا المعارك السابقة التي دارت في هذا القاطع جيداً، واعددنا خططاً، وأجرينا الكثير من الممارسات تحت تأثير رصد ونار العدو، وفي هذه الأثناء وجه الرئيس صدام بمشاركة نجليه (عدي وقصي) في القتال، كأي عراقيين بلغا القدرة على حمل السلاح، وذلك للدفاع عن الوطن، وكان هذا من خلال جحفل لوائنا المعسكر في الشيب، فنفذا عدداً من الطلعات القتالية بطائرتيهما المروحية نوع (B0)، وتدربا على استخدام الدبابات وقيادتها، وقد رافقهما عدد من أصدقائهما الشخصيين، وكان لوالدهما شرط واحد هو أن لا يقعا في الأسر للاعتبارات السياسية والأدبية. في 1983/6/28 ألغي واجبنا لتحرير الزبيدات لتطور الموقف بسرعة في قاطع شرق البصرة، فتحركنا سريعاً إلى هناك، وكان الجو حاراً جداً، وكنا صائمين لحلول شهر رمضان المبارك حيث شكلنا احتياطاً عملياتياً، وباشرنا فوراً بالإجراءات الضرورية، ودرسنا مواضع الفرق (8،11،19) فقد يكون حشد العدو في هذا القاطع وفعاليته جزءاً من عمليات مخادعة حيث فوجئنا بهجوم معادي مباغت في 1983/7/13 في القاطع الشمالي. وفي يوم 1983/7/21 كلفت وحدتي بواجب محدود لتدمير عدد من النقاط الحصينة والمراصد في السواتر المعادية المقابلة، فكانت بداية طيبة، وممارسة قتال حقيقية ممتازة.

يوم 1983/7/26 شنّ العدو هجوماً كبيراً في القاطع الشمالي منطقة حاج عمران، وتم له الاستيلاء عليه بالتعاون مع الأكراد البرزانيين هناك، وقد تحقق لي استنتاجي السابق حول السوق (الاستراتيجية) الجديد للعدو، وعلى أثر ذلك صدر الأمر بترك القاطع الجنوبي، والحركة إلى بغداد كمرحلة أولى لحين انجلاء الموقف هناك. وفي يوم 1983/7/29 نفذ الفيلق الأول بقيادة اللواء الركن نعمة فارس المحياوي هجوماً صاعقاً، ولأول مرة بالصولة المحمولة جواً، فتم تحرير العارضة الجبلية كردة مند، ولكن بخسائر كبيرة بالطائرات المروحية المحملة بالجنود نوع مي 17، (حوالى 36 طائرة) على أثر ذلك تحول لواء الحرس الجمهوري الأول إلى قاطع الفيلق الثاني إمام ويس واللواء العاشر حرس جمهوري إلى قاطع خانقين لورود معلومات عن تحشدات كبيرة أمام قاطع الفيلق الثاني فخرجنا إلى استطلاع قاطع مهران - بدرة - جصان - سيف سعد - مندلي وخلال استطلاعنا تعرض العدو على قاطع زرباطية - مهران، فاحتل منطقتي الصدور والدراجي، ودارت معارك سجال بواسطة اللواء 37 واللواء 70 واللواء 18 ووحدات مغاوير الفيلق الثاني، ولكنها مع الأسف فشلت، وتكبدت خسائر كبيرة منها استشهاد آمر اللواء 70 العقيد الركن محمد جوهر، وعدد من ضباط ركنه، وعدد من آمري الوحدات الأخرى، فتحركت الفرقة المدرعة الثالثة فوراً لمعالجة الموقف هناك، كما تحرك اللواء الأول حرس جمهوري كاحتياط مع تحرك لواتنا إلى (مندلي - قزانية) منطقة مخفر (لجمة). وفي 1/ 1983/8 حضر الرئيس صدام حسين للاطلاع على سير المعارك الدائرة بقيادة الفرقة المدرعة الثالثة فاشترك اللواء الأول حرس جمهوري بقيادة العقيد الركن عبد الرحمن لتعزيز موقف قواتنا في هذه المعركة الشديدة، وفي 1983/8/4 استلمنا بواسطة المرافق الأقدم للرئيس صباح مرزة الذي هبط بطائرته المروحية في مقري تكليفاً محرراً للوائنا بتعزيز أو استلام واجب اللواء الأول حرس جمهوري الذي تكبد خسائر كبيرة، فتحركنا سريعاً إلى منطقة (مخفر السيحة الجديد)، كمنطقة تحشد ثم اندفعنا عبر الطريق الوحيد وهو خانق يزيد عن 5كم ما بين قاطعي اللواء 602 واللواء 605 ولم أرَ في حياتي ازدحاماً لسابلة في مضيق مترب كما شاهدته هناك، حيث قطعت كتيبتي هذا المضيق بثلاث ساعات ونصف الساعة، واسعفنا خلال مرورنا عشرات

الجرحى الذين علقت عجلات إسعافهم فيه، وحين التقيت في مرصد اللواء 605 صدفة بأحد مرافقي الرئيس ارشد ياسين، رجوته نقل صورة عن الوضع، وذلك لتخصيص طائرة نقل مروحية لغرض إخلاء الجرحى العالقين هناك، ومن خلال قصف جوي بالخطأ من قبل طائرتي ميغ 23 أصيبت عجلتي القيادة بعدد من الشضايا، وكان واجبنا اختراق دفاعات العدو التي كانت على شكل صناديق ترابية أي مجموعة من السواتر الترابية الدفاعية نحو عيلام العمق الإيراني، وفي بداية اشتباكنا بالعدو اتضح أن الهجوم من هذا الاتجاه مكلف جداً فصدر الأمر بالانسحاب، وتغيير الاتجاه نحو الجناح الأيمن للعدو حيث كانت تجري هناك معارك فك الطوق عن الفوج الأول للواء 417 الذي كان يقاتل ببطولة أسطورية، إلا أنه صدر أمر آخر بترك هذا القاطع فوراً لاحتمال اندفاع العدو من مضيق (حران) لاحتلال مدينة (مندلي)، فتحركنا سريعاً إلى هناك، وعلمنا مع الأسف أن قواتنا فشلت في فك الحصار عن ذلك الفوج الباسل، فصدر الأمر له بالتخلص فلم ينجو منة سوى ثلاثة ضباط ملازمين وخمسين من المراتب، وطوى النسيان بطولتهم نتيجة رداءة الموقف العام لتلك المعركة فلم يذكرهم أحد(*). وللمدة من 1983/8/11 ولغاية 1983/9/21 كنا نغلق فتحة مضيق حران كاحتياط للفرقة المدرعة الثانية عشرة التي كانت تقاتل هناك.

لقد تحسن الموقف الدولي لصالحنا كثيراً وخاصة الموقف الفرنسي، حيث صرّح وزير خارجيتها كلود شيسون أن فرنسا تقف بجانب العراق، وأعلن عن موافقة وزارة الدفاع الفرنسية على إعارة القوة الجوية العراقية خمس من الطائرات (سوبر ايتندر) المجهزة بصواريخ جو - سطح أوكسيست لتدمير الأهداف البحرية. وفي 1983/10/7 تحرك لوائنا إلى قاطع مندلي، لغرض الاندفاع لاحتلال حوض سومار في الجانب المعادي كأحد البدائل للقيادة، فأكملنا استعداداتنا خلال 72 ساعة على أن تكون كتيبة دبابات الحمزة التابعة للحرس الجمهوري رأس الرمح لمعرفتي الدقيقة لهذا القاطع مسبقاً. وفي 1983/10/18 أعلن ناطق عسكري بأن العدو أكمل استعداداته للهجوم على قاطع بنجوين في الشمال الشرقي من القطر،

(*) في عام 2001 وصلت ملاحظتي هذه إلى أسماع الرئيس صدام حسين فامر بتكريم هذا الفوج وأعاد تشكيل هذا اللواء في معسكر الورار بإشراف مقر وزارة الدفاع.

وحـــذّر مـــن حجم الكارثة التي تنتظره هناك (أصبحت استخباراتنا الاستراتيجية كفـــوءة جداً منذ ذلك الوقت)(*). وفعلاً شرع العدو في اليوم التالي بهجومه على القاطـــع المـــتوقع، فدارت معارك شديدة، إلا أن العدو تمكن من احتلال حوض بـــنجوين بالكامل في 1983/10/30، وحاول الاندفاع لاستثمار هجومه نحو سيد صـــادق، إلا أن قواتنا أوقفته عند العارضة الجبلية الحيوية قاية ومضيق نال باريس، وعلـــى الفور ساهم اللواء الأول حرس جمهوري من خلالها تنفيذه لعدة هجمات مقابلة كفوءة، تمكن خلالها تحرير بعض الرواقم المهمة (النقطة التلثيثية - الهرتزة)، أما لوائنا فقد قطع التماس، ورجع إلى بغداد كاحتياط عام يوم 1983/11/20. وفي هذا التاريخ توقفت عمليات الهجوم المقابل في القاطع أعلاه، وترك استعادة بنجوين لـــوقت لاحـــق، ويجدر بالذكر أن العناصر المسلحة التابعة لحزب الاتحاد الوطني الكردستاني بقيادة جلال الطالباني، لعبت دوراً مهماً في نجاح هجوم العدو.

مـــن الأحداث المهمة خلال الفترة أعلاه ما حدث يوم 1983/10/23 حيث قـــتل 286 وجـــرح 200 مـــن مشاة البحرية الأميركية والفرنسية في لبنان نتيجة هجـــومين انـــتحاريين، فأصيبت الهيبة الأميركية بالصميم، كذلك زيارة المبعوث الشخـــصي للرئيس الأميركي ريغان السيد رامسفيلد - أصبح وزيراً للدفاع خلال الحـــرب علـــى العـــراق في 2003 إلى العراق - وتسليمه رسالة شخصية للقيادة العـــراقية. كـــذلك تمكنت فرنسا كطرف ضامن تأمين اخراج القيادة الفلسطينية وقـــواتها مـــن لبـــنان إلى تونس عن طريق قبرص، أما حصيلة استخدام الطائرات الفرنسية المستعارة فكانت مهمة جداً حيث أدت إلى تدمير جزء مهم من تسهيلات تـــصدير النفط الإيرانية في شمال الخليج العربي، وأعقب ذلك زيادة ثقة دول الخليج العربي بدور العراق في حماية الجناح الشرقي للوطن العربي وأمن الخليج، وتصادف ذلك مع انهيار كبير في أسعار النفط حيث هبط سعر البرميل الخام إلى 7 دولارات بعـــد مـــا كان 34 دولاراً قبل بضع سنين، كذلك تحسن موقف الاتحاد السوفييتي لصالحنا بعد ضرب حزب توده الإيراني في إيران.

(*) صـــرح طـــارق عزيز فيما بعد للصحفية حميدة نعنع أن الملحق الأميركي وبعض الدول العربية كانت تقدم لنا معلومات استخبارية جيدة خلال الحرب مع إيران.

في 1983/12/27 عين آمر لوائنا بمنصب قائد الفرقة المدرعة الثانية عشر بعدما أصيب قائد الفرقة السابق بجراح، واختير آمر اللواء المدرع الثاني عشر العقيد الركن احمد ابراهيم حماش مكانه، وفي يوم 1984/1/17 اجتمع بنا الرئيس صدام حسين في القصر الجمهوري، وأبدى توجيهاته حول تطوير كفاءة وحدات الحرس الجمهوري وامكانية توسيع هذه القوات المهمة (وأنه قرر تنسيب العقيد الركن عبد العزيز الحديثي آمراً للواء الأول حرس جمهوري بعد أن أمر باخراجه من السجن على ضوء جداله مع قائده حول طريقة عبور نهر الكارون عندما كان يشغل منصب آمر اللواء السادس). وفي 1984/1/27 ولأول مرة أعلن عن قيام طائرات التفوق الجوي العراقية نوع ميغ 25 بعشرات الطلعات التحذيرية فوق طهران وعشرين مدينة إيرانية للحدّ من غلواء تهديدات العدو في الإعداد لهجوم الربيع الكاسح والحاسم وغير ذلك من العبارات الرنانة. وفي 1984/2/1 وكردع، أصدرت القيادة العامة تحذيراً إلى احدى عشرة مدينة حدودية إيرانية لإخلائها من السكان قبل ضربها بصواريخ أرض/أرض، لأنها أصبحت مناطق تحشد عسكرية، وترافق ذلك مع الإعلان عن صفقة طائرات ميغ 29 تعادل سربين مع الاتحاد السوفييتي، وبالفعل قصفت (ديسفول - بندر خميني - البتروكيماويات) بصواريخ أرض - أرض كردّ على قصف العدو لمدينة البصرة يومي 11و1984/2/12. وفي يوم 1984/2/12 علمت بزيارة الرئيس صدام حسين لعائلتي ضمن المجمع السكني في أم العظام خلال تفقده لعوائل مقاتلي الحرس الجمهوري ...

في يوم 1984/2/21 شنّ العدو هجومين على قاطعي الشهابي شرق الكوت والشيب شرق ميسان، واتضح أن هذين الهجومين كانا للمخادعة، فخرجنا لاستطلاع قاطع شرق البصرة حيث كنا نتوقع هناك الهجوم الرئيسي للعدو، وفي ليلة 22- 1984/2/23 شنّ العدو تعرضاً واسعاً شمل كامل قاطع شرق البصرة، إلا أن الجهد الرئيسي لم يحدد بعد، حيث إنه ولأول مرة كان الهجوم بأساليب غير واضحة فصد الفيلق الثالث بقيادة اللواء الركن ماهر عبد رشيد هجوماً ثانوياً في المنطقة الدفاعية (فرقة 8 - مخفر بوبيان) وحسبه أن ذلك هو الجهد الرئيس، بحيث أعلن قائد الفيلق عن استعداده للمبارزة هناك مزهواً بنتائج ذلك الموقف الخادع

بالــوقت الذي كان الجهد الرئيس قد أكمل احتلال معظم أهدافه في هور الحويزة الذي اسند الفيلق الثالث دفاعات جناحه الأيسر عليه كمانع غير محتمل سلوكه من قــبل العدو، وسقطت كل حقول نفط مجنون الشمالية والجنوبية بيد العدو حيث تركت حمايتها إلى وحدات من الشرطة والجيش الشعبي.

علــى الفــور تحركنا، ولكن المعضلة الأولى كانت عدم تيسر ناقلات الدبابات العسكرية، وعليه أعطيت لوحدتي 50 ناقلة زراعية حمولة 35 طن لتحمل دباباتنا ذات 41 طــناً، مما أثر كثيراً على سرعة الحركة، أما المعضلة الثانية فكانت أنه حال وصول رتلي إلى شيخ سعد جنوب الكوت، وصلني أمر بتغيير طريق تنقلنا من طريق (الكوت - العمــارة - البصرة إلى طريق الكوت - الناصرية - البصرة) وجراء ذلك خسرت وقتاً طويلاً للاستدارة وسلوك طريق مزدحم بالسابلة العرضية، أما المعضلة الثالثة فهي خروج الجماهير في المدن المارين فيها لتوديعنا مما اضطررنا إلى خفض سرعة التنقل، أما المعــضلة الــرابعة فكانت مع الضياء الأخير، ونحن على مشارف البصرة حين هبت عواصــف تــرابية قللت من سرعتنا، وزادت من إرهاقنا بحيث تم إكمال عبور شط العــرب علــى جــسر محمد القاسم بالساعة 2:00 يوم 1984/2/24. كانت جميع الاتجاهــات توحي لنا الاشتباك مع العدو إلا أن إيجازاً سريعاً من قبل ضابط ركن من الفــيلق الــثالث العميد الركن نبيل خليل سعيد كان ينتظر وصولنا بفارغ الصبر، قد وضّــح الموقف لي بعض الشيء، حين أفاد بأن المنطقة المحصورة ما بين الطريق الموصل إلى غــزيل حيث موقع اللواء 56 بقيادة العقيد الركن محمد ابراهيم المحاصر هناك والى امتداد حافة الهور حتى (السويب) يتواجد فيها العدو، وأن قطعات الفيلق تقاتل الآن في منطقة شركة النفط لحقل مجنون، وعليه نظمت كتيبتي بتشكيل قتال صندوقي الشكل، مــع رفــع مرشحات بواعث الأشعة تحت الحمراء للاستفادة من الضياء الأبيض من مفرق النشوة للوصول إلى الطريق التعاوني الذي يمثل خط الدفاع الثاني، وحتى انبثاق الفجر، تمكنا من الانفتاح في الخط الدفاعي الثاني للفيلق، فتمت لنا السيطرة والتنسيق مع باقي جحافل معركة اللواء، حيث بدأنا نعمل بوضوح، فدارت معركة شديدة في اللــيلة اللاحقــة 1984/2/25 حيث تم للفيلق الثالث الاتصال باللواء 56 المحاصر، ثم بدأت الفرقة المدرعة السادسة بقيادة العميد الركن جميل نجم الدين بالهجوم المقابل على

العـــدو مـــن جهة حافة الهور وامتدادات السداد الترابية داخل، وهذا لم يجد نفعاً لأن جـــبهة اللـــواء المدرع هي جبهة دبابة واحدة مما كبدها خسائر فادحة مع عدم توفر ســـاحات رمـــي لكـــثافة نباتات القصب، وبالرغم من كل إمكانيات القوة الجوية والمدفعـــية، إلا أنها لم تفعل الكثير لاسناد وحداتنا لأن مسرح القتال كان يمتص معظم تلـــك المقـــذوفات، لأن الأرض مـــناطق مائية أو رخوة وبالمقابل استماتت وحداتنا لتحـــسين الموقف، إلا أنه كما يقول المثل (لا يصلح التكتيك ما أفسدته الاستراتيجية) وبموقـــف مـــسؤول أخذ قائد الفرقة المدرعة السادسة قراره المنطقي بالانسحاب من الألسن الترابية إلى حافة (هور الحويزة)، بالرغم من كل اللعنات التي أنـــزلها عليه قائد الفـــيلق وكـــان يهدف من ذلك الحيلولة دون استنـــزاف هذه الفرقة الثمينة، وتحمل نـــتائج قراره بمسؤولية أخلاقية عالية (لقد كنت مع آمري وحدات الحرس الجمهوري في مقـــر الفرقة اعلاه حين هبط قائد الفيلق الثالثة بطائرته وهو بحالة هائلة من الغضب مـــتوعداً قائد الفرقة بالويل والثبور، فتحمل رئيس أركانه العقيد الركن احسان محمد رشـــاد تلك الاهانات بكل صبر لأن قائده لم يكن حاضراً وعلى أثر ذلك أحيل على الـــتقاعد بعد حين). ثم زجت الفرقة الرابعة بقيادة العميد الركن عبد الكريم العيثاوي، وكـــسبت بعض الشيء، وكانت المعارك سجال ما بين خطي التشميل 32-36. وفي ليلة (2/29 - 3/1) عام 1984 سقطت مواضع الفوج الثاني التابع للواء 95، فكلفت وحدتي باستعادتها بالتعاون مع قوة الهجوم المقابل لذلك اللواء، وفوجئ العدو بكفاءة دباباتنا، فلم يستغرق استعادتها منا سوى ساعتين فقط، إلا أن إحدى طائراتنا المروحية المـــسلحة نوع غزال، سقطت بيننا نتيجة إصابتها بصاروخ مضاد، فكان ذلك حدثاً مؤلماً لاستشهاد طياريها.

بالوقت نفسه كانت قيادة شرق دجلة - بقيادة اللواء الركن محمد عبد القادر ثم اســـتلم قائـــد الفـــيلق الرابع المسؤولية منه - تحقق نجاحات متتالية، فحررت منطقتي الـــصخرة والبيضة، ونصف لسان عجيرة بثمن باهض وخاصة في القوات الخاصة. أما من اتجاه السويب فتم اغلاق الثغرة نحو القرنة، وكان الموقف يوم 1984/3/12 مشجعاً حـــيث تم استعادة الأماكن الساقطة بيد العدو من مخفر بوبيان - كشك البصري - غزيل - منطقة شركة نفط مجنون - السويب وخط التشميل 36 داخل الهور، إلا أن

العدو دفع في الليلة اللاحقة قواتنا في الهور إلى خط التشميل 32، وكانت خسائر العدو المتروكة في أرض المعركة هائلة فقد دفع ثمناً باهضاً، واتضح من التصاوير الجوية استخدامه آلاف الزوارق الصغيرة وعشرات الحوامات في تسريع جهده الرئيسي في هور الحويزة، وما لبث الموقف أن استقر نسبياً. وفي 1984/4/10 كلف لوائي الحرس الجمهوري الأول والثاني باستعادة ما يمكن من المواضع الساقطة داخل الهور حتى خط التشميل 36، وقبيل الساعة (س) من يوم 1984/4/13 بقليل الغي الواجب بعد أن كنا قد أكملنا الصفحة التمهيدية بتدمير النقاط الأمامية للعدو، وصادف ذلك اليوم يوم جمعة، وفي 1984/4/14 صدر الأمر لنا بالعودة إلى بغداد نظراً لاستقرار الموقف. وفي 1984/4/28 صدر الأمر بتشكيل مقر ميداني للحرس الجمهوري دُعي مقر فرقة الحرس الجمهوري بقيادة العميد الركن حسين رشيد، وتشكيل لواء القوات الخاصة الثالث بإمرة حمد الحمود ولواء المشاة الرابع بإمرة خضر العامري.

في نهاية شهر حزيران 1984 كان يتوقع قيام العدو بإعداد هجوم مدبر على منطقة أبي الخصيب ثم الفاو عبر شط العرب على ضوء زيادة ملحوظة في حجم القوات المعادية في الجهة المقابلة من الشط. وترافق ذلك مع موافقة إيران المبدئية على اقتراح الأمين العام للأمم المتحدة كولد فالد هايم بوقف عملية قصف المدن، وسبق ذلك بالطبع موافقة العراق، إلا أن شكوكاً قد أحاطت بالموافقة الإيرانية لستر تحشدات قواهما وخاصة في منطقتي الاحواز وديسفول. في /1984/7/9 صدر أمر بتحركنا إلى قاطع عمليات الفيلق الثالث شرق البصرة، وفي الساعة 23:00 يوم 1984/7/10 تكاملنا في منطقة الدير شمال البصرة على الضفة الشرقية لشط العرب في الوقت الذي ترك فيه اللواء العاشر حرس جمهوري القاطع أعلاه باتجاه بغداد إلا أن دلائل هجوم العدو كانت ضعيفة وبالرغم من ذلك باشرنا بالاستحضارات لصد أي هجوم معاد محتمل هناك. وفي 1984/9/13 انفتح اللواء العاشر حرس جمهوري في قاطع كركوك واللواء الثالث قوات خاصة حرس جمهوري في رايات شمالي الوطن على ضوء بدء عمليات تصفية ما بين المقاتلين الأكراد للحزبين الرئيسين هناك.

راجع الملحق (ج – 2) معارك شرق دجلة الاختراق الإيراني واحتلال جزر مجنون النفطية عام 1984

الملحق (جـ - 2)

معارك شرق دجلة
الاحتلال الإيراني لحقول نفط مجنون
عام 1984

في هـــذه الفتـــرة سجل حدثين مهمين الأول ارتفاع نتائج العمليات الجوية والبحـــرية العراقية في القسم الشمالي من الخليج العربي، حيث ابتلعت مياه البحر آلاف الأطنان من القدرة البحرية والأسطول التجاري والنفطي الإيراني، والحدث الثاني هو وصول ثلاث طائرات إيرانية هاربة إلى المطارات العراقية الأولى كانت من نـــوع بويـــنغ 727، والثانية نوع اير باص اختطفتها عناصر من المعارضة الإيرانية، والثالثة من نوع فانتوم ونتج عن ذلك ضجة إعلامية كبيرة.

بعد يوم من عودة كامل اللواء المدرع العاشر حرس جمهوري واللواء الثالث قـــوات خاصـــة حرس جمهوري من القاطع الشمالي، شنّ العدو في 1984/10/7 هجوماً على قاطع سيف سعد ضمن ساحة العمليات الوسطى، وخلال 72 ساعة دارت معارك سجال تمكنت الفرقة 84 والفرقة غير النظامية للعدو من دفع قطعاتنا

إلى الخلــف بعمــق قليل إلا أن جبهة ذلك زادت عن 20 كيلو متر، ولأول مرة شــارك مقر فرقة الحرس الجمهوري وبإمرته كل من اللواء الأول حرس جمهوري، واللــواء الــثالث قوات خاصة حرس جمهوري، وتمكنت قواتنا من احتواء الهجوم المعــادي واستعادة جزء مما كسبه العدو، إلا أن هذين اللواءين لم يكونا بالمستوى المطلــوب مــنهما، ويعود ذلك لضبابية الموقف هناك، وعدم دقة المعلومات عن قاطــع الاختراق، إلا انهما تفانيا بالقتال مع باقي قوات القاطع. وفي الفترة الممتدة بين 84/11 حتى 85/2 شنّت قواتنا وعلى طول ساحة الحرب سلسلة من الهجمات المحــدودة الناجحة مما أدى إلى تعزيز الثقة بالنفس، وتكبيد العدو خسائر فادحة في الأرواح والمعدات...

معركة تاج المعارك عام 1985

لنتواصــل مع أحداث عام 1985 والتي أهمها معركة تاج المعارك؛ المعركة الدفاعــية التعرضــية المثالــية الــتي أظهرت كفاءة قواتنا المسلحة بشكل رائع ومشرف على مستوى التخطيط والتنفيذ من رأس القيادة العامة، وحتى مستوى الــوحدات الفــرعية المقاتلة والساندة، حيث تمثّلت فيها نتائج الخبرة الميدانية للــسنوات المنصرمة من الحرب، والإتقان الفني والتعبوي لجميع الأسلحة، ورد الفعل السريع، والمناورة، وروح المبادرة، والمعنويات العالية فكانت حقاً معركة تــستحق الــتدريس في جميع المعاهد والأكاديميات العسكرية، وقد كتب عنها الكــثير إلا أنــني سأتناولها من خلال رؤيتي الخاصة، وانطلاقاً منها إلى الرؤيا العامــة، وفــق تسلسل ما دوّنته في مفكرتي الصغيرة خلال تلك المعركة، مع توقّعي الخاص بأن استخباراتنا كانت تتلقى عوناً استخبارياً من مصادر إقليمية ذات صــلات دولية، وذلك في ظل توازنات سياسية همّها استمرار هذه الحرب لأطــول مدة ممكنة، حتى يتقوّض البناء الاقتصادي والسياسي لكل من العراق وإيــران. فليس من المعقول أن يصف الرئيس صدام حسين على ورقة خضراء شكل وأبعاد هذه المعركة في لحظة اندلاعها، ويترك الورقة على طاولة اجتماعه مــع القيادة، وتتحقّق صحة ذلك التصور، ثم يكتب المستشار الصحفي للرئيس

هاني وهيب عن استبصار السيد الرئيس لهذه المعركة فيما بعد، إلا بمساعدة من مصدر معلومات استراتيجي تمتلك قدرات كبيرة.

في صباح 1985/3/12، وبعد عودتي من واجب استطلاع، عرجّت على كتيبة دبابات الوحدة اللواء 10 المدرع حرس جمهوري المحتشدة في منطقة كتيبان شرق البصرة لزيارة آمرها المقدم الركن عبد حمد مهاوش (استشهد جراء التعذيب في إحدى المعتقلات بعد الاحتلال وكان برتبة لواء ركن) الذي تربطني به علاقة زمالة قديمة تعود إلى العام 1972، حيث اشتركنا بواجب حماية قاعدة الحبانية آنذاك. وما هي إلا دقائق معدودات حتى دخل علينا أحد ضباطه راكضاً، وأخبرنا عن قيام العدو بشنّ هجوم في القسم الشمالي من قاطعنا، فاستأذنت مضيفي بالانصراف فوراً وعدت إلى مقر لوائنا المتحشد في منطقة الزريجي، فوجدت آمر اللواء مجتمعاً بآمري الوحدات وضباط الركن، واستلمت منه الأمر الإنذاري للتهيؤ للقتال خلال ساعتين. وعلمت بأن العدو اخترق هور الحويزة مجدداً، وقد ابتلع معظم الألسن الترابية الممتدة في ذلك الهور (المستنقع الواسع) وأهمها لسان عجيردة - كان هذا اللسان الترابي بطول 20 كم تقريباً، وكان العمل متواصلاً فيه لإطالته حتى 30 كم أو أكثر لغرض الوصول إلى منطقة مشرفة على حقل مجنون الشمالي الذي احتل في العام الماضي وهذا اللسان بعرض من 7–10 أمتار - فقط دون وجود امتدادات جانبية له لانفتاح وحدات الإسناد الناري أو لأغراض تأمين العمق، ومن المشكلات التعبوية التي يعاني منها محدودية ساحات الرمي لكثافة نباتات المستنقعات، وأهمها نبات البردي وهي بمعدل طول يبلغ 3 أمتار، وكان اللواء 429 مكلفاً بالدفاع عنه. أما الألسن الترابية الأخرى كلسان هويدي فهي بنفس المواصفات، ولكن بامتدادات أقصر بكثير، وكان اللسان الذي يؤدي إلى ناحية همايون يشكّل خطورة حيث يمثّل مركز قطاع الاختراق المعادي، وكان شبه متواصل مع حقل مجنون الجنوبي، وقد وصل العدو إلى الشارع العام القرنة - العزير بين شمال البصرة وجنوب العمارة.

ظهر ذلك اليوم صدر بلاغ عن القيادة العامة حول هذا الهجوم المعادي مع الإشارة إلى معركة الاحتواء لكلتا الفرقتين (الفرقة 10 المدرعة) بقيادة العميد الركن

صبيح عمران طرفة في القسم الشمالي من قطاع الاختراق، (والفرقة 6 المدرعة) في القسم الجنوبي منه بقيادة العميد الركن أياد أفتيح الراوي.

لقد استمرّ القتال بخسائر كبيرة لكلا الطرفين، حيث استطاعت القوات المدافعة من إيقاف ذروة الهجوم المعادي قرب الضفة الشرقية لنهر دجلة، وأخذت جبهة الاختراق المعادي تضيق يومياً.

في الساعة 03:00 يوم 1985/3/14 صدر الأمر لنا بالتحشد في منطقة المزيرعة ضمن منطقة قتال (الفرقة 6 المدرعة) وهذه المنطقة عبارة عن مشروع زراعي كبير يحدّه هور الحويزة شرقاً، ونهر دجلة غرباً على شكل شبكة واسعة من قنوات الري والبزل حيث تكامل جحفل لوائنا هناك في حدود الساعة 09:00 من نفس اليوم، وبدأت مدفعية العدو تنالنا تدريجياً بالوقت الذي تخوض فيه الفرقة المدرعة 6 معركتها بشدة.

في الساعة 13:30 من نفس اليوم هبطت طائرة نائب القائد العام وزير الدفاع في مقرنا، وأصدر أمره للمباشرة بتعزيز هجوم جحفل لواء المشاة الآلي 25 من الفرقة المدرعة 6 بكتيبة دبابات الحمزة التي أقودها، وذلك بهدف استعادة منطقة همايون، وبإسناد من غرب نهر دجلة (كتيبة دبابات العز) بقيادة المقدم الركن نظام طه. وقد أعلمنا الوزير بأن الساعة س (أي ساعة بدء الهجوم) هي الساعة (15:00) من عصر ذلك اليوم، علماً أن المسافة التي تفصلنا عن ذلك اللواء تبلغ حوالى 25 كم. وعلمت أن الفوج الآلي الخامس من اللواء المدرع 30 متجحفل مع لواء المشاة الآلي 25.

بحركة سريعة وصلنا إلى منطقة اجتماع جحفل اللواء المكلف بالهجوم قبل عشر دقائق من الوقت المحدد، إلا أنني فوجئت أن تلك القوة غير مستعدة للهجوم نتيجة التعب والإرهاق اللذين أصاباها في معركة الأمس. وكان كلامي مع آمر الجحفل مختصراً ودقيقاً، وفحواه أنني استلمت الأمر من أعلى مستوى قيادي ومن المحتمل أنه سيراقب المعركة من طائرته السمتية (المروحية)، ومع التقدير العالي لوضعكم وبدون أي توضيح لمقري أنا مضطر لشن الهجوم بكتيبتي فقط، ومهما كانت النتائج، لأن موقفي لا يسمح بأي نقاش أو تبرير وعليه توكلنا على الله.

وكان تشكيل المعركة من قدمتين قتاليتين كل قدمة تتألّف من سريتي دبابات (كان نظام المعركة لكتائب دروع الحرس الجمهوري يتألف من أربع سرايا وليس ثلاث). وبأسلوب النار والحركة، شرعنا بالهجوم مباشرة بعد استطلاع سريع من مكان شبه مشرف، واستخدمنا الدخان الذاتي للدبابات لتأمين ستارات الدخان للاقتراب الأمين وتقليل احتمالات الإصابة بأسلحة مقاومة الدبابات، لقد صعق العدو من الكفاءة الفنية والتعبوية لدباباتنا، وكان تأثير عتاد الانفلاق الجوي لمدافع الدبابات جيداً (جرى تزويد دباباتنا بعتاد مهداد بصمامة فلق قبيل اصطدام المقذوفات بالهدف لزيادة التأثير على مشاة العدو) حيث اجبر جنود العدو على خفض رؤوسهم، مما حال دون استخدام أسلحتهم بشكل كفوء ضدنا، علاوةً على تكبيدهم خسائر كبيرة. وكانت كتيبة دبابات العز تؤمّن الإسناد بالمرمى المباشر عبر نهر دجلة. عند مراقبة وزير الدفاع للمعركة من الجو ومن مسافة بعيدة رأى كثافة نارية تغطي الهدف من قبل دباباتنا، فنال ذلك اعجابه، وتصور أن جميع القوات قد شنت هذا الهجوم وليس كتيبتي فقط وباسناد كتيبة دبابات أخرى من الحرس الجمهوري.

إلا أن نجاحنا في الاقتراب وفي صفحة المهارشة (المهارشة تعني الاشتباك الشديد بالعدو) لم ينتج عنه احتلال الهدف من قبلنا، حيث غرزت الدبابات الأمامية بالطين على بعد 300 متر من الهدف نظراً لوجود منطقة رخوة ناتجة عن نزيز أسفل السدة الترابية المحيطة بمدينة همايون من الاتجاه الجنوبي. وعندما تأكّد لي استحالة المواصلة، وبسبب عدم توفّر قوة مشاة مع كتيبتي، قرّرت الانسحاب خارج تأثير أسلحة مقاومة الدبابات بسترة كثيفة من النار والدخان، مع إنقاذ الدبابات العالقة في الطين. وساعدنا على ذلك نزول ساتر الظلام ليحجب الرؤيا بيننا وبين العدو، وقد طلبت من مقرنا الأعلى تعزيز كتيبتي بسرية مشاة آلية أو بسرية مغاوير اللواء. وبعد ساعتين، وكما توقّعنا، شنّ العدو هجوماً مقابلاً علينا، تمّ دحره بسرعة حين فتحت نيران رشاشات دباباتنا المصوبة بدقة بالاستعانة بالضياء الأبيض بعد رفع المرشحات عن بواعث الإنارة الليلية.

وفي الساعة 21:45 من نفس اليوم، صدر الأمر لنا بقطع التماس بالعدو، والعودة فوراً إلى نقاط انطلاقنا السابقة لتكليف لوائنا بمهمة جديدة، وعلى الفور تمّ قطع التماس والانسحاب نحو منطقة المزيرعة، والحمد لله كانت خسائرنا لا تتعدى بعض الجرحى، وتعطّل دبابتين خلال إنقاذهما من المنطقة الرخوة المار ذكرها.

في الساعة 01:00 يوم 1985/3/15 تكامل انسحابنا في منطقة تحشدنا، وبعد لقاء قصير بآمر جحفل لوائنا، استلمت أمراً بتقدّم اللواء شمالاً باتجاه منطقة العزير حيث سيكون عملنا اللاحق مع الرتل الشمالي الفرقة المدرعة 10 في شمال مسرح القتال، وكان معنا اللواء المدرع 10 من الحرس الجمهوري بقيادة العقيد الركن ابراهيم عبد الستار، وبسيطرة مقر فرقة الحرس الجمهوري، على أن ترسل العجلات غير المدرعة على الطريق البعيد والطويل البصرة - الناصرية - الكوت - العمارة - العزير، لتفادي تدميرها لأن العدو تمكّن خلال الليلة السابقة من قطع طريق العمارة - البصرة من عدة نقاط ما بين العزير - والقرنة، ولكن تبقى المشكلة في أننا لا نعرف بالضبط أين تلك النقاط التي عبرها العدو.

مع الضياء الأول، اتخذنا تشكيل المسير بعد عبورنا نهر دجلة من جسر عبد الله شمال القرنة، وعلمت أن اللواء 10 المدرع حرس جمهوري قد سبقنا بالحركة، وأعطانا هذا شيئاً من الأمن، وعليه كانت دبابتي في رأس الرتل المزدوج لكتيبتي، ولكنني لم أعلم المسافة الفاصلة بيننا، حيث تحركوا قبل الضياء الأول، وقد تحدّد وقت تكاملنا في المكان الجديد بالساعة 13:00 لذلك اليوم. وعندما أشرقت الشمس، وأرسلت أشعتها ما بين السحب المتفرقة، كنا على مقربة من إحدى المعابر في منطقة تدعى الهدامة، شاهدت حركة أشخاص كثيفة عند ذلك المعبر، وعجلتَي عتاد مشتعلتين مع سلسلة من الانفجارات المنبعثة منهما على ذلك المعبر المزدوج وقد أغلقتا الطريق على ما يبدو. وظننت أن مجاميع الأشخاص تلك تعود لإحدى وحدات قوات شرق دجلة المسحوبة عبر النهر، وما هي إلاّ لحظات حتى اتخذت تلك المجموعات أوضاع الرمي، وفتحت نيرانها الكثيفة علينا ومنها أسلحة مقاومة دبابات القصيرة المدى، فصرخت بالسائق "لا تتوقف وانطلق بأقصى سرعة نحو الأمام"، وطلبت من الذين خلفي الهجوم، لاقتحام هذه المقاومة المفاجئة بسرعة

لأن أي توقّف يعني إعطاءهم الوقت الكافي لتدمير دباباتنا؛ وهي ضمن مدى تأثير الأسلحة المقاومة للدبابات. وكنّا نشعر بعشرات الصدمات على دبابتنا نتيجة اصطدام المقذوفات المعادية بدبابتنا، في تلك اللحظة، تناولت الرشاش المركب على البرج محاولاً استخدامه، إلا أن صاروخ قاذفة معادي (RBG7) كان أسرع مني بحيث خرق دبابتي من جهة اليمين التي كانت موقع ضابط استخبارات الكتيبة الرائد طلال ياس.

شعرنا بهزّة عنيفة مع اشتعال النيران أسفل البرج، فانزلقتُ إلى الأسفل، وأنا أحسُّ بألم شديد أسفل الظهر، إلا أن منظومة إطفاء الحريق الذاتية للدبابة أطفأت النار فوراً. وعندما حاولنا الصعود إلى الأعلى لاستنشاق الهواء، استطاع سائق الدبابة وهو من ضباط الصف القدماء، إعادة تشغيل محرك الدبابة (تحتاج عتلة إعادة التشغيل إلى قوة سحب بقوة 16 كيلوغرام) والانطلاق بها نحو الأمام، فأزاح إحدى العجلتين المشتعلتين، فأصبحت الدبابة خارج الرمي المباشر، ثم توقّفت دبابتنا مرة أخرى. وعندها شاهدت معركة سحق المقاومة المعادية السريعة، وكان أداء مقاتلينا رائعاً، وعلى الفور وصلت ناقلة القيادة، وخرج منها مساعدي الشهم الرائد قدري شاكر - الذي استشهد في نهاية الحرب بعد 3 سنوات - ليطمئن على سلامتنا، فقفزنا إلى ناقلته، وواصلنا قيادة التنقل إلى هدفنا، إلا أننا كنّا متأخرين ساعتين عن الموعد المحدد مسبقاً.

في الساعة 15:00 من ذلك اليوم انفتح جحفل لوائنا خلف اللواء 42 المدرع الفرقة 10 المدرعة بقيادة العقيد الركن موحان حافظ المشتبك مع العدو منذ ليلتين سابقتين على خط نهير يدعى الرويف، وكانت طبيعة المعركة هي التراشق بالنيران من مديات قصيرة دون تحقيق أي نتيجة. وكانت مقاومة العدو على امتداد الساتر الترابي للضفة الجنوبية لذلك النهير ذي الفجوة التي يتراوح عرضها بين 6 و7 أمتار. في تلك الليلة، أصيب آمر هذا اللواء بجرح بسيط. وفي المساء أصبح بإمرة جحفل لوائنا الفوج 3 من قوة الطوارئ (حرس الرئيس صدام حسين) يقوده الرائد طارق التكريتي، كذلك أصبح بإمرتنا الفوج الثاني من اللواء 702 بقيادة العقيد الركن أزهر سعد الله بالوقت الذي أوكلت قيادة فرقة الحرس الجمهوري إلى أمين السر العام العميد الركن طالع الدوري لأن قائد فرقتنا العميد الركن حسين رشيد،

وضـــابط ركـــنه المقـــدم الركن علي اللهيبي أصيبا بجراح بليغة خلال تنقلهما من القطاع الجنوبي إلى القطاع الشمالي. وفي اليوم التالي تمّ استلام مسؤولية اللواء 42 المدرع وقد أصيب آمره بشظية قنبلة هاون، وتمكّنا بمعركة سريعة من تدمير العدو عـــبر نُهير الرويف، والاندفاع بضع مئات من الأمتار، ثم توقّفنا تجاه المقاومة التالية علـــى نُهير آخر يدعى الجيف وكان تقريباً بنفس المواصفات للنهير السابق بالوقت الـــذي كانت فيه الفرقة المدرعة 6 لا تزال تقاتل هناك، وتأمل بالوصول إلى منطقة الروطة والتي تشكّل مركز قطاع الاختراق المعادي.

في الـــساعة 13:00 يوم 1985/3/17 كان إصرار القيادة العامة شديداً على حـــسم الموقـــف لأن القتال أصبح بطيئاً ومكلّفاً، وسيشجّع العدو على الاستمرار بتعزيز قواته هناك عبر هور الحويزة، وعندها أصبحت أعصاب آمرينا مشدودة على آخرها. وعلى خط المقاومة الثاني، تكبّدت وحداتنا خسائر غير قليلة وخاصة كتيبة دبابـــات العز حيث أصيب آمرها الشجاع جداً بجرح بليغ، كذلك تكبدت كتيبة دبابـــات المجد بقيادة المقدم الركن عبد الصمد حسن يوسف خسائر غير قليلة، أما الفـــوج الآلي بقيادة المقدم الركن سعد رشيد الدليمي، فكانت خسائره أقل، ومن حـــسن الحـــظ أنني قمت باستطلاع مسبق لاستكشاف أية ثغرة يمكن النفاذ منها لتجنّب المناورة الجبهوية المكلفة جداً، وتوقعت أن يكون الغد هو آخر يوم يمكن أن نبقـــى فـــيه في هذا الحال غير المحسوم، وقد أوجزت لآمري السرايا فكرتي وهي المنـــاورة من اليسار من خلال الفسحة الفاصلة بيننا وبين اللواء 10 المدرع حرس جمهـــوري إذا تمكّـــنا من تأمين معبر عبر المانع بواسطة الجرافات الآلية الثلاث التي بحوزتـــنا والتي يقودها ضابط هندسة شجاع يدعى محمد، وتأمين العمل الآمن من خـــلال اســـتخدام القاذفات الدخانية للدبابات. لقد وجدت أن هذه النقطة هي أضـــعف ما يكون في مقاومة العدو، وذهبت بواسطة عجلة الاستطلاع إلى مرصد آمر اللواء لأخبره مقصدي، وكان ذلك بحدود الساعة 15:00 حينها، فوجدته قد اســـتلم أمراً قاطعاً وفورياً باقتحام المقاومة المعادية، وكان أمره ينصّ على اندفاع كتيـــبتي بمحـــاذاة نهـــر دجلة وعبر بساتين النخيل هناك أي من اليمين حيث إن الانـــدفاع بهـــذا الاتجـــاه فيه خطورة قصوى لأنه مركز دفاعات العدو، ومعظم

أسلحته المقاومة للدبابات، وبعد حوار ساخن، رجوته أن يسمح بالمناورة من الجناح الأيسر، للإحاطة بالعدو من الخلف، لأن هذا الاتجاه هو الأضمن وهو الذي سيحسم الأمر لصالحنا، فوافق على مضض مع تحميلي المسؤولية كاملةً في حالة الإخفاق كمخالف للأوامر، وأشهد ضابط ركنه الرائد الركن نجيب الصالحي على ذلك. إلا أن عملنا كان ضد الزمن فلم يبقَ لنا سوى ساعتين على آخر ضوء لذلك اليوم.

باستخدام الجهاز اللاسلكي، أصدرت أوامري لآمري السرايا وقوة إنجاز المعبر، وحسب الخطة المتفق عليها والحمد لله كان الأداء سريعاً ومتقناً، فدفعت أولاً رعيل الاستطلاع ثم مقري، فأسرنا سبعة جنود للعدو، ثم تدفّقت السرايا الأربع على شكل حركة مروحية ينتهي محورها عند نهير آخر يدعى مطيوي بمسافة 5 كم تقريباً وحين ظهرت دباباتنا خلف العدو، أصيب بذعر كبير، حيث قامت دباباتنا بتدمير عدد من الأسلحة المقاومة للدروع من عيار 106 ملم المركبة على عجلات جيب. وعندما أوشكنا على الوصول إلى هدفنا فوجئنا بقصف مدفعي شديد مصدره مدفعية الفرقة 6 المدرعة، ورمي مباشر لدبابات اللواء 30 المدرع بقيادة العقيد الركن قيس الأعظمي عبر نهر دجلة، وكانت عقدة لسواتر المبازل قد أفادتنا بالاستتار بها، فطلبت من مقرنا الاتصال بهم وإعلامهم أن ما يشاهدونه هي قطعاتنا بالوقت الذي كانت نيران أسلحة متوسطة وخفيفة معادية تطلق من جناحنا الأيسر عبر نهر المطيوي، ومن حسن الحظ أن قام المقدّم فاضل السعيدي آمر كتيبة مدفعية الإسناد المباشر بالتقاط رسالتي وكان بقربه آمر مدفعية الفيلق، فتوقّف فوراً ذلك القصف، بعدما علم أن القصف ينهال علينا. وكان تقديري للموقف ساعتئذ هو التراجع إلى الخلف لتفادي قصف مدفعية الفرقة المدرعة 6 ثم عبور ذلك النهير للقضاء على المقاومة المعادية قبل أن يخيّم الظلام علينا، كي لا يصبح صيد دباباتنا مؤكداً من قبل العدو، ويتحقق ما كان يخشاه آمر لوائي العقيد الركن أحمد ابراهيم حماش (كان آمر اللواء تصور أن مناورتنا من الجناح الأيسر ستفشل) وكانت تلك الساعة ليست ككل الساعات، فكرّرنا نفس آلية العمل، ولكنها تمّت ليلاً مع اقتحام مباشر باستخدام الضياء الأبيض لدروعنا، فتمّ احتلال

الهدف، وأُسر بعض عناصر مقر أحد أفواج اللواء 55 المظلي المعادي ومن ضمنهم ضابطان أحدهما برتبة نقيب جريح، والآخر برتبة ملازم يدعى حسن، وعشرة جنود، عندها أعطيت الموقف لمقرنا الأعلى، وطلبت التعزيز بالمشاة، فتمّ ذلك بعمل مشترك فيما بيننا قبل فجر اليوم التالي وبالتعاون مع الفوج 16 الآلي للوائنا الذي كان أداؤه رائعاً.

في الليلة 17-1985/3/18 شعرنا بانهيار العدو، وبدء عملية انسحابه، وسمعنا صيحات الجنود والنداءات التي تجري فيما بينهم، كما سمعنا أصوات سحب الأسلحة والآليات التي ملأت محيطنا، مما أكّد على إحكام دفاعنا لجميع الجهات، والاستمرار بالرمي باتجاه مصادر الأصوات المعادية، وكشف ما حولنا بواسطة ضياء البواعث، وما أن أشرقت شمس ذلك اليوم حتى تنفّسنا الصعداء، وتأكّدت لنا هزيمة العدو. عندها صدر لنا أمر بواسطة الجهاز اللاسلكي، وبأسلوب معنوي يؤكّد هزيمة العدو بالاندفاع السريع نحو الجنوب للوصول إلى منطقة الروطة كسباق ما بين الرتل الشمالي فرقة الحرس الجمهوري ورأس حربته كتيبتي، والرتل الجنوبي (الفرقة 6 المدرعة) ورأس حربته اللواء 25 مشاة آلي. كان الانطلاق رائعاً، وأثار منظر العشرات من جنود العدو المذعورين الذين يقفزون من مواضعهم الاعتزاز في نفوسنا، فمنهم من كان يركض هارباً، ومنهم من يرفع يديه مستسلماً، وقد تركوا قتلاهم وجرحاهم في أرض المعركة. وفي تمام الساعة 08:00، وصلنا الروطة، وبعدها بعشرين دقيقة رأينا طلائع الفرقة 6 المدرعة تصل إلينا، وقد شكل الالتقاء لوحة (دراماتيكية) مؤثرة جداً، فحمدنا الله العزيز القدير وشكرناه. وبعد دقائق حلّقت فوقنا عدة طائرات سمتية نوع (B0) عراقية لوّح لنا من فيها بحرارة، فهبط من إحداها نائب القائد العام الفريق أول عدنان خير الله وحيّانا جميعاً، وبعدها استمعنا إلى بيان القيادة العامة لزفّ بشرى النصر للشعب العراقي العظيم مبتدئ بعبارة (ياحوم أتبع لو جرينا)، وكان هذا مثلاً بدوياً يوحي بحجم خسائر العدو الكبيرة، وتأكّد لي عملياً وكذلك لرفاقي أن حركات الإحاطة للدروع واستخدام الدخان يحقّقان النجاحات بأقل الخسائر والتضحيات بالإضافة إلى تحقيق الصدمة في نفوس الأعداء، ففي معركة الرتل الشمالي لم نخسر أية دبابة، ولم نخسر

أي مقاتـل سـوى 17 جريحاً، بالإضافة إلى إعطاب دبابة واحدة فقط، في حين كلفتـنا معركة اقتحام الطريق شهيداً واحداً وسبعة جرحى وتدمير ثلاث دبابات وإعطاب رابعة، أما كتائب اللواء التي اعتمدت الهجوم المباشر فكان معدل التدمير فيها 17 دبابة لكل كتيبة في معركة الرتل الشمالي.

بعد ستة أيام أي صباح يوم 1985/3/24 غادرنا مسرح القتال إلى منطقة قلعة صالح جنوب مدينة العمارة، وفي يوم 3/25 عدنا إلى ثكناتنا في بغداد. وتعبيراً عن خيبته، أطلق العدو ولأول مرة عدة صواريخ أرض - أرض نوع (سكود بي) على بغـداد أصابت حياً مدنياً ومستشفى. وعندها، بدأت سلسلة من الاعتداءات بهذا الـنوع من الصواريخ تطال عاصمتنا العزيزة. وفي يوم 1985/4/10 تمّ استدعاؤنا آمري وحدات الحرس الجمهوري إلى نادي الفارس قرب المطار الدولي غربي بغداد للقـاء الـرئيس صـدام حسين، الذي كان قد أنهى اجتماعين لمجلس قيادة الثورة والقيادة العامة، وبعد المصافحة جلسنا واستمعنا له، حيث أخبرنا بوجود معلومات تـشير إلى قيام العدو بحشد فرقتين شرق هور الحويزة للمباشرة بعدوان جديد كردّ فعل على الهزيمة المرة التي تلقّاها في المعركة الأخيرة. ورغم أنه لا يميل إلى الاعتقاد بقـدرة العدو على المهاجمة من جديد، إلاّ أنه طلب إعادة تشكيلاتنا ووحداتنا إلى قاطع العمليات السابق زيادة في الاحتراس.

في 1985/4/11 تكامـل وصولنا في قلعة صالح، حيث كانت وسائط النقل الـسوقي (الاسـتراتيجي) جيدة آنذاك، وهذه المنطقة منطقة مستنقعات ومنطقة مـزروعة وموبوءة بالبعوض الذي جعل ليالي الشهر الذي قضيناه هناك ليالي سهر إجـبارية إلى أن عدنا إلى ثكناتنا في بغداد 1985/5/10، وخلال تلك الفترة شنّت طائراتنا وقواتنا الصاروخية سلسلة من الهجمات العقابية، ردّاً على هجمات العدو الصاروخية على بغداد وكركوك والموصل، ولعبت طائرات الميراج والميغ 25 دوراً مهمـاً في قصف العدو بالعمق وخاصةً العاصمة طهران. وكانت تلك المرة الأولى مـنذ أن أوقفت قاصفاتنا الاستراتيجية (تي يو 22) قصفها للعمق منذ بداية الحرب نتيجة للخسائر التي لحقت بتلك القاصفات، لأنها كانت تضطر للعمل دون حماية مـن الطائـرات المقاتلة التي لا يكفي وقودها لمرافقة القاصفات لأعماق كبيرة في

أرض العـــدو، إلا أن الطائرات أعلاه (أي الميراج والميغ 25) يمكن إجراء الارضاع الجــوي لهـــا مما جعلها قادرة على قصف الأهداف البعيدة واعتبر هذا الأمر بمثابة تطـــور تقـــني لطائـــراتنا في هـــذه المرحلة من الحرب. إن أسبوعين من القصف الاستراتيجي للأهداف المعادية العميقة، أشعرا العدو وخاصةً سكان طهران بوطأة الحرب.

في 1985/5/26 اســـتأنفت قواتنا الجوية والصاروخية قصفها للمدن الإيرانية ومـــناطق تحـــشد العدو، رداً على عملية انتحارية استهدفت موكب أمير الكويت الـــذي نجا من الحادث بعد إصابته بجروح طفيفة، وكانت إيران وراء تلك العملية، ثم توسّع القصف الاستراتيجي المتبادل، كما ازدادت فعاليات القوة الجوية في مجال هذا القصف حيث قصفت منشآت العدو البترولية كجزيرة خرج وأرصفة التحميل أو نـــاقلات النفط في شمال الخليج العربي. إلا أن ذروة هجومنا الجوي كانت يوم 1985/6/3، حين هاجمت 73 طائرة مقاتلة عراقية العاصمة طهران، وجزيرة خرج، ومجمع البتروكيماويات في (بندر خميني)، ومعسكر خانة الإيراني.

اســـتمر هـــذا القصف الشديد حتى يوم 1985/6/15 حين أعلن الرئيس صدام حـــسين إيقافه لمدة أسبوعين بسبب اقتراب موعد عيد الفطر المبارك، وذلك نـــزولاً عـــند رغبة المعارضة الإيرانية، صادف العيد في 1985/6/19 وسط إحساس عام بأن القوات المسلحة العراقية بلغت شأناً كبيراً في الأداء القتالي والتسليح العالي الحديث مع توســـع كبير في مجال التصنيع العسكري. واستمر تصاعد الفعاليات التعبوية الناجحة لقواتنا في ساحات العمليات المختلفة امتداداً للنجاح الكبير في تاج المعارك.

يـــوم 1985/7/17 شـــنّ العدو تعرضاً ناجحاً في ساحة العمليات الشمالية بأســـلوب التـــسلل بالتعاون مع الأكراد المناوئين هناك في المنطقة الممتدة من رأس العـــبد - ســـيدكان - كوشينة، قبل هذا التعرض كان رئيس أركان العدو صرح معلـــناً أن قـــواته ستسلك المحاور البعيدة، وبأسلوب قتالي يستثمر التفوق الإيراني بالمشاة. وفي الساعة 15:15 يوم 1985/8/15 هاجمت طائراتنا جزيرة خرج بشدة وأصبح ذلك من المهام القتالية الجوية الاعتيادية.

في 1985/10/1 شـــنّت الطائرات الإسرائيلية غارة جوية بعيدة المدى دمّرت

المقـــر المـــؤقت لمنظمة التحرير الفلسطينية في تونس. وكان مجمل التضحيات 152 شخصاً بين شهيد وجريح، إلا أن قائد المنظمة ياسر عرفات كان خارج ذلك المقر فسلم منها، وأعقب تلك الغارة حادث أجبر فيه تشكيل من طائرات أميركية نوع (F14) عائـــد للأسطول السادس طائرة ركاب مصرية على الهبوط في إيطاليا، وتمّ القبض على أربعة فلسطينيين من ركابها كان بينهم القيادي أبو العباس (الذي توفي في المعـــتقل الأميركـــي في العـــراق بعد الاحتلال) المخطط لعملية خطف السفينة الإيطالية (أشيل لارو)، فحدثت أزمة سياسية بين مصر وإيطاليا والولايات المتحدة الأميركـــية. في الـــوقت عينه أدرجت الحرب العراقية الإيرانية على جدول أعمال القمة الأميركية – السوفياتية بين الرئيسين ريغان وغورباتشوف.

أمـــا علـــى المستوى العربي، فكانت هناك محاولات فردية لإعادة العلاقات الدبلوماســـية بـــين ســـورية وكـــل من العراق والأردن. كما قطعت العلاقات الدبلوماسية بين العراق وليبيا لوقوفها إلى جانب إيران.

مـــن الناحية الاقتصادية تمّ إنجاز المرحلة الأولى من مشروع إيصال النفط العراقي إلى ميناء ينبع في السعودية على البحر الأحمر لزيادة القدرة على تصدير الـــنفط العراقي بعد انغلاق سبل الخليج العربي، في نفس الوقت عانى الاقتصاد الإيـــراني من وطأة الضربات العراقية المتلاحقة وخاصةً في شمال الخليج العربي. وللحقـــيقة أقول، كانت السعودية تصدّر من نفطها لحساب العراق قبل إكمال المـــشروع، وأعطـــت الأسبقية لناقلات النفط للتزود بالنفط العراقي في مينائها أعلاه.

يوم 1985/10/25 عيّن آمر جحفل لوائنا بمنصب قائد للفرقة 6 المدرعة بعد منحه رتبة عميد ركن لأغراض القيادة، وعيّن بدلاً عنه أحد الزملاء القدامى محمد يونس التكريتي.

وفي 1985/12/11 علمنا بقيام العدو بعمليات حشد كبيرة لقواته في القاطع الجنوبي، كما علمنا أن القوة الجوية العراقية تقوم بسلسلة من الغارات العنيفة على تلك التحشدات، حيث نفذت خلال ستة أيام 749 مهمة قتالية.

كما كنا نكثف من تدريباتنا التعبوية، وفي 1985/12/17 خرجنا لسلسلة من

مهـــام الاســـتطلاع لقواطـــع عمليات الفيالق 4، 6، 7، وشاهدنا إنجازات كبيرة لتحـــسين مسارح العمليات لأغراض الدفاع عدا المنطقة الدفاعية للفرقة 29 بقيادة العمـــيد الركن عبد الواحد شنان المدافعة في هور أم النعاج، وهذا الجهد كان على مـــستوى وزارات الدولة ذات العلاقة وجماهير الحزب، وخاصةً في عمليات قص نباتات القصب والبردي وعمل السداد الترابية، وخلال استطلاعي في قاطع الفرقة أعـــلاه آلمني مشهد انتحار ملازم في صنف الهندسة العسكرية كان يعمل في تسوية إحدى الطرق.

إلا أن دلائـــل الهجـــوم المعادي كانت واضحة في قاطع عمليات الفيلق 7، بعكـــس ما تشير إليه تقارير الاستخبارات بأن الهجوم المعادي المرتقب سيكون في قاطـــع عمليات الفيلق 6. وانتهى عام 1985 وبدأ عام 1986 ونحن نترقب تعرضاً واسعاً للعدو، إلا أن الشيء المؤكد لنا كان أن العام المنصرم كان عام الانتصارات لقواتنا المسلحة الباسلة.

خريطة معركة تاج المعارك

ملحق (جـ - 3)معركة تاج المعارك

قوات الحرس الجمهوري

الفرقة المدرعة العاشرة

الفرقة المدرعة السادسة

القوات الإيرانية المهاجمة

سقوط الفاو 1986

كـــان الحدث الأخطر عام 1986 سقوط مدينة الفاو وشبه جزيرة الفاو التي يشكل رأس المثلث فيها (رأس البيشة) ملتقى شط العرب وخور عبد الله في الخليج العربي، وقاعدة ذلك المثلث هي الخط المار شمال المملحة من شمال رصيف أم المعامر علـــى شـــط العـــرب حتى خور عبد الله عند نقطة دالة هي السفينة الجانحة قرب الـــشاطئ. واعتـــبرت معركة الفاو معركة المنعطف سواء وقت سقوطها أو عند تحريـــرها بعد عامين تقريباً مع تضحيات جسيمة بلغت قرابة ثلاثة وخمسين ألف شهيد في صفوفنا.

بعـــد ترقّب لأكثر من شهر، وفي الساعة 22:00 يوم 1986/2/9 شنّ العدو الإيراني تعرّضاً واسعاً من منطقة كشك البصري شمالاً حتى ميناء الفاو جنوباً. وفي الـــساعة 04:00 يوم 1986/2/10 أنذرنا بالحركة من بغداد إلى قاطع البصرة، ومن خـــلال الاستطلاع اللاسلكي، علمنا أن العدو قد احتل مدينة الفاو وهو في حال توســـيع نجاحاته الأولى، وتدمير قواتنا هناك، والاندفاع شمالاً نحو البصرة أو غرباً باتجاه ميناء أم قصر. عندما تكوّنت لي هذه الصورة عن الموقف، طلبت من مساعد الكتيـــبة أن يـــبلغ الجميع اعتماد قياس التنقل الكامل، فلا أظنّ أن هناك عودة إلى بغـــداد بعد الآن، كما كانت الحال في المعارك السابقة، فأجابني هل هذا تشاؤم؟ فقلـــت إن الفـــاو ليست كأي مدينة، فلها أبعاد سوقية (استراتيجية)، وسياسية، ونفـــسية تؤثّر على الوضع الجغرافي، والسياسي والاقتصادي للعراق. وفي الساعة 09:00 مـــن نفـــس اليوم حضرت مؤتمراً لآمر جحفل اللواء والذي أخبرنا بمعضلة التنقل السوقي لتشكيلات الحرس الجمهوري، فناقلات الدبابات خصّصت لجحفل اللـــواء 10 المدرع، فيما خصصت طائرات النقل العسكري والمدني المتيسرة لنقل كـــل من اللواء 3 قوات خاصة حرس جمهوري بإمرة العقيد الركن حمد الحمود، ولـــواء المشاة 4 حرس جمهوري بإمرة العميد الركن خضر العامري ما بين (مطار الرشـــيد العـــسكري ومطار الشعيبة العسكري) أما جحفل لوائنا فلم يتيسّر له إلا القطـــارات، والجاهز منها محدود الآن. وسيكون للفوج الآلي بقيادة المقدم الركن

رعـــد رشاد الأسبقية الأولى، ولكتيبتي الأسبقية الثانية وقد شكّلت محدودية رأس الـــسكة الحديدية في معسكر التاجي مشكلة يصعب حلها. وهكذا تحشدنا عندها وبإجـــراءات سريعة لتحضير حبال ربط الدبابات على شاحنات القطار، وفي جو ممطـــر بارد تمّت حركة القطار الأول ضمن تسلسل كتيبتي حاملاً مقري والسرية الأولى.

وخـــلال رحلـــة التنقل البطيئة نسبياً في القطار، كنت أحاول مراراً تكوين صورة مسبقة عن الموقف، إلا أن إحساساً سوداوياً جعل رؤيتي لتلك الصورة غير مـــتفائلة، حـــيث كان هجوم العدو مفاجئاً لتقارير استخباراتنا الاستراتيجية التي خطّـــأت ما نطقت عنه تقارير الاستطلاع الميداني لقاطع عمليات الفيلق 7 بقيادة الفـــريق الركن شوكت أحمد العطا، حيث كانت الدلائل واضحة لهذا الهجوم، إلا أن اســـتخباراتنا برئاســـة العميد الركن محمود شكر شاهين ومسؤول شعبة إيران العقيد الركن أيوب كانت قاطعة في أن الهجوم المرتقب سيكون جهده الرئيسي في قاطع عمليات الفيلق 6 بقيادة الفريق الركن سلطان هاشم، حتى أن قائد الفيلق 7 أصـــبح رديفاً لقائد الفيلق 6، ويعود سبب هذا الإصرار على ما أعتقد للمصداقية الـــتي يتمـــتع بها مصدر المعلومات والذي هو نفس المصدر الذي زودنا بمعلومات حـــول معـــارك العام السابق، إلا أن معطيات الموقف المنظورة كانت تخالف رأي اســـتخباراتنا، أي أن دلائل الهجوم المعادي تجاه الفيلق 7 كانت قوية، علاوة على عوامل ثلاثة أخرى أوّلها أن للعدو تواجداً على طول قطاع الاختراق أي في الضفة الشرقية لشط العرب ولذا سنكون ضمن مدى هاوناته ومدفعيته وأسلحته المتوسطة مما يجعل موضوع الإسناد الناري والإداري موضوعاً غير معقد، وثاني تلك العوامل هـــو طبيعة الأرض الرخوة والمحاطة من الشرق بغابات النخيل والأحوازات النهرية ومـــن الغرب بساحل خور خليج عبد الله الطيني. أما ثالث تلك العوامل فهو عدم الاســـتفادة من عمليات الإسناد للأسطول البحري في موضوع الإنـــزال الساحلي حـــيث المياه هناك ضحلة فلا مفر من حركة قواتنا أي التي تتحد حركتها بالطرق الـــثلاثة، الطريق الشمالي فيها منطقة واقعة تحت تأثير رمي أسلحة العدو، والطريق الوسطي والمسمى بالطريق الاستراتيجي الذي تكون الحركة محدودة على جانبيه في

هـــذا الموسم، والطريق الثالث (الساحلي) نقطة ضعفه عدم تيسّر جسر متين يربطه مـــن اتجاه أم قصر حيث يتمّ العبور بالعبارات المحدودة. وفي الساعة 07:00 يوم 2/11 وصـــل القطار الأول، ثم تلا ذلك وصول باقي القطارات. وفي اليوم التالي أكملنا تحشدنا في مفرق صفوان.

لقـــد دخـــل اللـــواء 3 قوات خاصة حرس جمهوري واللواء 4 مشاة حرس جمهـــوري المعـــركة دون استحـــضارات، وعلى ضوء معلومات مشوشة للغاية ومتضاربة. وكانت مسؤولية الفاو بالأساس تقع على عاتق الفرقة 26 بقيادة العميد الـــركن ماجد، والذي واجه تفوقاً كبيراً حقّقه العدو، بالإضافة إلى المباغتة السوقية (الاستراتيجية). وفي مثل هكذا مواقف، وفي معظم المعارك تكون حالة الإرباك هي الـــسائدة لعـــدة أسباب أهمها أن العدو قد ركّز تفوقه في المكان وفي الزمان الذي اخـــتاره هـــو، وكـــذلك استطاع أن يحدّد حرية الحركة للمدافع من خلال عدة اختـــراقات أو توجيه ضربات عنيفة بوسائط إسناده النارية، وغاراته الجوية، ومع انقطـــاع الاتصالات وإصابة المدافعين بالصدمة يتعذر عليهم تكوين صورة حقيقية عن موقفهم، فيحدث تهويل أو تبسيط وكلتا الرؤيتين غير صحيحة، وعليه سيكون ردّ الفعل للمقر الأعلى وبحكم طبيعتنا الشرقية متشنجاً، وفي أغلب الحالات تحجم المقرات المرؤوسة في البداية عن إعطاء مواقفها بصراحة لاعتبارات معنوية ونفسية، فتحدث المفاجآت والانقلابات الخطيرة في تقارير الموقف اللاحقة.

مـــن جهـــة أخرى، كانت وحدات اللواء الأول حرس جمهوري تقاتل في اتجـــاهين فمـــنها من كان على الطريق الاستراتيجي، ومنها من كان على الطريق الساحلي، وحالها لا يمتاز كثيراً عن حال لواءي الحرس الجمهوري أعلاه.

وســـط هذا الموقف الغامض دُفِعَ لواؤنا على الطريق الاستراتيجي عدا الفوج 16 الآلي، الـــذي كـــان يقاتـــل علـــى الطريق الساحلي، ونقل عجلاته القتالية بالعـــبارات. فكان تسلسلنا بعد اللواء 10 المدرع حرس جمهوري الذي اشتبك هو الآخـــر بالعدو، وجرت سلسلة من المعارك. وكان الموقف شديد الضبابية بالوقت الذي شعرنا فيه أن المقر الأعلى لا زال في حيرة من أمره ما بين ما يرى على أرض الواقع في الفاو، وما تخبره به تقارير الاستخبارات التي تظن بأن ما يجري هناك ليس

إلا هجوماً تضليلياً، أي خدعة، وأن الجهد الرئيسي للعدو سيكون في قاطع عمليات الفيلق السادس.

ليلة 12-2/13 سقط مقر الفرقة 26، وكان مقرها في منطقة المملحة. فنزلت اللعنات الغاضبة على هذا المقر السيئ الحظ حين بدأت تقارير الموقف تشير إلى خروقات متعددة للعدو من اتجاه رصيف أم المعامر وشماله، ومن اتجاه جنوب ميناء الفاو، علاوة على منطقة الميناء. وأفادت تقارير عن اندفاعات معادية تزداد سرعة باتجاه أم قصر وساحل خور عبد الله، بالإضافة إلى اختراقات عديدة لقواتنا التي بدأت بعملية إيقاف الخرق، وكانت الشبكات اللاسلكية مزدحمة بالاستغاثات، وفي كل اتجاه كانت هناك معضلة غير أن عملية العبور الصعبة للقطعات من اتجاه أم قصر عبر جزيرة أم حجام نحو شبه الجزيرة تجعل من حركة قوات الاحتياط شبه متعذرة لعدم وجود جسر، وأصيب الطريق الاستراتيجي بتخمة كبيرة بالسابلة والسابلة العرضية (السابلة هم مستخدمو الطريق من العجلات والدروع والأشخاص) بحيث توقّفت الاحتياطات هناك، ففي مسافة كيلو متر واحد تجد عشرات الدبابات، وناقلات الأشخاص المدرعة، والمدفعية بأنواعها، وعجلات القدمات الإدارية، وعجلات الإسعاف قد تداخلت فيما بينها وتكاد سرعة التقدم تقاس بعدة أمتار في الساعة، أما الطريق الشمالي المحاذي لشط العرب فكان منطقة مضروبة بنسبة 60%. ورغم القتال البطولي (الفردي والجماعي) للقوات المدافعة وقوات الحرس الجمهوري، إلا أن رؤوس الأرتال توقّفت في نقطة القنطرة على الطريق الساحلي. وكان اللواء الأول حرس جمهوري يتفانى بالقتال على هذه القنطرة، واللواء 10 المدرع حرس جمهوري يقاتل بقوة على الطريق الاستراتيجي بمسافة 3 كم شمال المملحة، وكانت قطعات الفيلق 7 تخوض قتالاً شرساً تحت مطرقة مدفعية العدو شمال رصيف أم المعامر على الطريق الشمالي، وعندها بدأت معدلات خسائرنا بالارتفاع، وازدادت نسبة المفقودين. وعلى سبيل المثال تكبّد اللواء الأول حرس جمهوري حتى هذه الليلة أكثر من ألف إصابة، وكان من بين المصابين آمر اللواء العقيد الركن وعد الله. وتصاعدت الخسائر في دروع ألوية الحرس الجمهوري. وحاولت قوتنا الجوية رأب الصدع،

وتقليل قدرة العدو على الاستمرار، إلا أن ذروة هجوم العدو على ما يبدو لم تتوقف، وأكّدت معلومات أن العدو ينصب جسوراً فوق شط العرب ليلاً لتعبر قطعاته المعقبة، ويفككها نهاراً تفادياً لقيام قواتنا الجوية بتدميرها.

كان التفوّق الإيراني حاسماً، وخاصة في رؤوس الجسور المعادية، وكان مصير قوات الفيلق 7 والتي قاتلت ببسالة قد تقرّر ليلة 13-2/14 حيث دمرت بعض القوات بالكامل، فيما تكبّدت قوات أخرى خسائر كبيرة، مما اضطرها لتنفيذ انسحاب غير منظم فيما عزلت قوات أخرى، وكان موقف كتيبة استطلاع الفيلق 7 يثير الشعور المزدوج بالفخر والإشفاق معاً، حيث عزلت في منطقة رأس البيشة على آخر رقعة من البر العراقي في شمال الخليج العربي. وكانت معنويات تلك القطعات المعزولة رائعة، حيث كانوا يطالبون بالتعزيز أو الاتصال بهم، وكانوا يقاتلون بروح معنوية عالية بالوقت الذي لم تتهيأ القوة البحرية لإنقاذهم أو لإسنادهم، وكنت أسمع النداءات اللاسلكية لآمر الكتيبة حتى الساعة الأخيرة التي قضي عليهم. إنه لمن الصعب وصف المشاعر، فالشعور بالانتكاسة واضح، وكان الإصرار على عدم قبولها مؤكداً، إلا أن النتائج تتفاقم سلباً علينا، لقد قام العدو بتحييد دور دروعنا المتفوقة، وأصبح 70% من تأثير مقذوفات مدفعيتنا وطائراتنا تمتصه الأرض الرخوة. إلا أن القيادة عادت واقتنعت ليلة 14-2/15 أن ما كان يجري هناك هو الجهد الرئيسي لهجوم العدو، وأن المعركة لا تزال في بدايتها، وأنه قد تكون هناك مفاجآت أخرى، وعليه زجّت بقوات كبيرة على المحاور الثلاثة ليلة 2/15، فالمحور الشمالي كانت تقاتل فيه الفرقة 6 المدرعة، والفرقة 5 الآلية وبقايا الفرقة 26. أما المحور الوسطي فقد كان يقاتل فيه اللواء 10 حرس جمهوري، وبعض وحدات اللواء الأول حرس جمهوري، واللواء 4 حرس جمهوري، واللواء 3 قوات خاصة حرس جمهوري بالإضافة إلى كل من الفرقة 2 والفرقة 4. أما المحور الثالث الساحلي فكانت تقاتل فيه قوات من اللواء الأول حرس جمهوري وقسم من وحدات اللواء الثاني حرس جمهوري بقيادة فرقة الحرس الجمهوري وتحت غطاء جوي وإسناد ناري كبير وهجمات بحرية مقابلة أدّت إلى إغراق 29 هدفاً بحرياً. ومن خلال استنطاق طيار برتبة نقيب أسقطت طائرته نوع (أف 5)، علمنا أن

هجوم العدو يقع تحت اسم رمزي هو (فجر 8)، وأن القَدمّة الأولى للعدو تجاوزت خمسين ألف جندي، وأن أكثر من 1500 جندي عراقي وقعوا في الأسر حتى ليلة 12-2/13. أما كتيبتي وكتيبة أخرى فقد كانتا في العمق على الطريق الاستراتيجي حيث كانتا محشورتين على الطريق العام، ولم تكن لهما القدرة على الانفتاح والمناورة، وكانت قذائف مدفعية العدو العشوائية تسقط على أطراف الكتيبتين وتوقع ما توقع من خسائر لا بد منها.

يوم 1986/2/14 أمِرَ جحفل لوائنا بقطع التماس فوراً، والتجمع قرب ساحة سعد جنوب مدينة البصرة، والتهيؤ للحركة السريعة إلى قاطع الفيلق الثالث شرق البصرة، حيث أكّد معاون رئيس أركان الجيش الفريق الركن سعدي طعمة الجبوري أنه في الليلة القادمة سيطوّر العدو هجومه باندفاع من قاطع غزيل لمهاجمة البصرة من شمالها ومحاصرة قواتنا الكبيرة بين فكي كماشة كبيرة من اتجاهين. وكانت معضلة قطع التماس والاستدارة معقدة وبطيئة للأسباب الآنفة الذكر، وتمكّنت كتيبتي من الانفتاح قبل فجر يوم 2/16 في منطقة كشك البصري على افتراض ضرب جناح العدو الأيسر الذي سيخرق من اتجاه غزيل. كنا نأمل بشدة أن تتاح لنا فرصة القتال هناك حيث القدرة متاحة لعمل القطعات المدرعة، إلا أن ما حدث لم يعدُ عن كونه تراشقاً بالمدفعية ومدافع الدبابات عبر الحدود الفاصلة. ودامت هذه المعركة البسيطة ثلاثة أيام، لأن العدو لم يقبل بالمعركة هناك، أو لأنه استطاع تضليلنا، أو لسبب نجهله. في ليلة 18-2/19 تمكّن العدو من صدّ هجمات قواتنا على المحاور الثلاثة، بل تمكّن أيضاً من دفع قواتنا إلى الوراء في اتجاهات مختلفة وبمسافات مختلفة، وكان يزجّ بقواته باستمرار للمحافظة على ما كسبه، وكانت مدافعه وأسلحته المتوسطة عبر شط العرب تزيد مشاكلنا وتعقّد خططنا، فكان العدو يقاتل بضراوة للمحافظة على ما كسبه على الأرض العراقية، وكان هدفه احتلال البصرة انطلاقاً من الفاو. إلا أن الانتصارات الإيرانية كانت باهظة الثمن نظراً لاستماتة قواتنا، ولقوة تأثير قوتنا الجوية، مما دفعهم أخيراً إلى التحول إلى الدفاع للاحتفاظ بما كسبوه، بعدما تلاشت ذروة هجومهم المكلف، ثم باشروا في تحصين مواضعهم بالعقد، والسواتر الترابية، وبإجراءات الإغمار، وبذل العدو جهداً هندسياً كبيراً، وتحمّل خسائر باهظة.

يــوم 1986/2/25 شنّ العدو هجوماً محدّداً في القاطع الشمالي، وذلك لإشغال قواتنا في أقصى الاتجاه المعاكس، ولتثبيت قواتنا هناك، حيث بدأت قياداتنا بأكبر نقل اســتراتيجي لقواتنا نحو الجنوب. وكان هجوم العدو تحت حملة إعلامية ونفسية كبيرة معــروف الغرض منها، وكانت وتيرة فعالياتنا القتالية تزداد يوماً بعد يوم إصراراً على تحرير الفاو، ودفع العدو عبر شط العرب، وأصبح القتال في الفاو بأسلوب غير نمطي، بعــد فــشل كل المحاولات السابقة للقتال بالأسلوب القتالي النمطي. وأبدى العدو شجاعة كبيرة بالصمود في الأراضي التي كسبها قبل أيام، فالأرض كما قلنا تحدّ كثيراً مــن الحــركة والانفتاح. وعلى سبيل المثال، كان فصيل الهاون المساند للفوج يضطر للانفتاح بالرتل، كما كان أسلوب الهجوم لا ينطلق من خط شروع واضح، مما جعل الحركة على مستوى الفصيل أو بالقفزات المتعاقبة والمفردة تكون الأجدى نفعاً، وكان قصفنا المدفعي شبه المستمر ليلاً ونهاراً لا يدانيه قصف من قبل. أضف إلى ذلك إطلاق أكثــر من 250 صاروخاً من نوع لونا أرض – أرض وذلك في الفترة الممتدة من 3/7 حتى 3/21 والتي شهدت طقساً شتوياً ماطراً للغاية، مما أثّر سلباً على عمليات التعرض، فأصــبح القــتال بطيــئاً للغاية مع حرمان القطعات من الإسناد الجوي، ورافق ذلك نجاحــات للفيلق الأول شمال القطر حيث تمّت استعادة مواضع اللواء 504 من العدو، مــع قيام الفيلق الرابع بقاطع شرق العمارة بهجومين متتاليين، فتمّت استعادة جزء من منطقة الشرهاني المحتلة، وجزء من مواضع الفكة ومنطقة نهر دويريج. وشن الفيلق الثاني هجــوماً آخــر علــى عدد من الرواقم في قاطع حران. لقد تمّت هذه السلسلة من الفعالــيات العسكرية الجريئة بهدف استثمار الفراغ الجزئي لبقية قواطع العمليات من قوات العدو، ولإجباره على سحب نسبة من احتياطاته. إلا أن العدو لم يعرْ أية أهمية لذلك. أعقب ذلك في 1986/3/22 هجومين للفيلقين الأول والخامس، وتمّت استعادة العديــد من الرواقم الجبلية في منطقة بنجوين وحاج عمران وأهمها جبل كردكو. وقد تــرافق الهجــومان مع قصف جوي استراتيجي لأهداف اقتصادية في العمق الإيراني كمــصافي النفط في أصفهان، وتدمير جسر قطورة السوقي الذي يربط إيران بتركيا، وكــذلك جــسر القطار الذي يربط إيران بالاتحاد السوفياتي. إلا أن العدو ظلّ يعزّز احتياطاته في قاطع الفاو للاحتفاظ بنجاحاته.

في 1986/5/4 شـــنّ اللواء المدرع 70 بقيادة العقيد الركن عبد الأمير خزعل هجوماً جريئاً وسريعاً، فاحتل مدينة مهران الإيرانية في القاطع الأوسط، وأعلن أن مهـــران هي مهر الفاو كعبارة ذات مدلولات واضحة. إلا أنه في 1986/7/1 أعلن عـــن قيام العدو بشنّ هجوم استعاد به مدينة مهران من أيدي قواتنا. بالوقت الذي اســـتقر فيه الموقف في قاطع الفاو بتمسّك العدو بشبه جزيرة الفاو بالرغم من كل العملـــيات الهجومية المقابلة لقواتنا، كانت فرصة احتلال العقدتين (15-16) من المواضـــع الإيـــرانية مناسبة لتجميد الفعاليات الهجومية، والاقتصار على الفعاليات الدفاعـــية، وســـحب قـــوات الحرس الجمهوري لإعادة تنظيمها مع قرار القيادة بالإعـــداد المُفـــصّل والطويل لتحرير الفاو بوقت مناسب لاحقاً، أعقبه قرار آخر بتوســـيع قـــوات الحرس الجمهوري، وذلك باستحداث تشكيلات قتالية عديدة مدرعـــة، وآلـــية، ومشاة، ومغاوير لزيادة قدرة الحرس الجمهوري، وذلك بهدف تحريـــر الفـــاو مـــع إعداد وتهيئة الفيلق السابع لنفس الغرض. وخلال هذه الفترة سقطت معظم مواضع الفرقة 17 المدرعة بقيادة العميد الركن مؤيد العاني في قاطع بـــدره في ظـــروف مناخية صيفية قاسية، فتحركت تشكيلات الحرس الجمهوري لاســـتعادة المواضع في المنطقة المحصورة بين مخفري السيحة القديم والجديد. وكان ســـوء الحـــظ مخالفـــاً للواء الرابع حرس جمهوري، حيث دمّر مقر اللواء بمقذوفة واحـــدة، فاستـــشهد آمر اللواء العميد الركن خضر العامري، وجرح مقدم اللواء خلـــف العبـــيدي. في يوم 1986/7/2 التحقت بوحدتي بعد قطع إجازتي المرضية حـــيث رقدت لمدة أقل من شهرين في المستشفى إثر انـــزلاق غضروفي حاد ناتج عـــن إصـــابتي في تاج المعارك قبل عام، وكانت درجة الحرارة في ذلك اليوم 56° مئوية، وكانت معركتنا تهدف للمحافظة على سلسلة الروابي المسيطرة على مدينة بـــدرة أسفل المرتفعات التي سيطرت عليها قوات العدو. وبلغت تضحيات لوائنا حتى بداية آب/أغسطس 90 إصابة بين شهيد وجريح.

يمكن تلخيص حوادث عام 1986 المتبقية كما يلي:

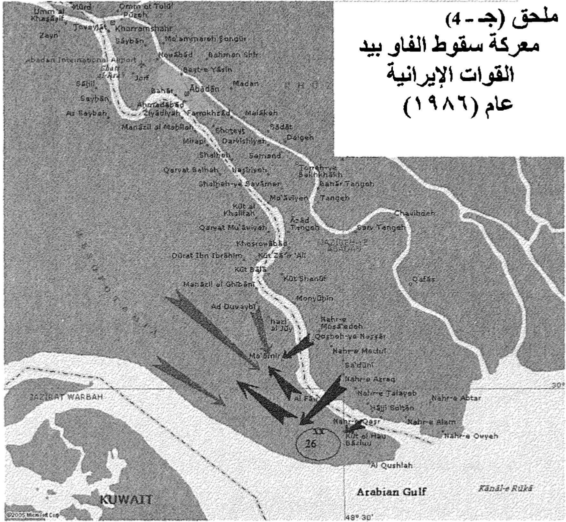
- في 1986/9/14 نقلت إلى قيادة فرقة المدينة المنورة المدرعة بقيادة العميد الركن أحمد الحماش المُشكّلة حديثاً بمنصب معاون مدير الإدارة والميرة الفرقة مراعاةً

لوضعي الصحي. وتألّفت هذه القيادة من التشكيلات المدرعة اللواء 2 المدرع حرس جمهوري بقيادة العقيد الركن قيس الأعظمي، واللواء 10 المدرع حرس جمهـــوري الـــذي أصبح بعد مدة بقيادة العقيد الركن ضياء ماهر التكريتي، وشُكّل لواء المشاة الآلي 14 حرس جمهوري بقيادة العقيد الركن عبد الصمد حسن يوسف، مع تشكيل فرقة المشاة بغداد بقيادة العميد الركن كامل ساجد بتـــشكيلات ألـــوية المشاة 4 و5 أولاً ثم 6 و7، ثم أعقب ذلك تشكيل فرقة حمورابي المدرعة بقيادة العميد الركن ابراهيم عبد الستار بتشكيلات اللواء 17 المـــدرع حـــرس جمهوري واللواء 1 حرس جمهوري في الأصل الذي واجه ظـــروفاً صـــعبة ومتقلـــبة منذ معركة الفاو، أهمها أن المشرف على الحرس الجمهـــوري حسين كامل أراد تصفية هذا اللواء لاعتقاده أن معظم عناصره تدين بالولاء إلى برزان التكريتي الأخ غير الشقيق للرئيس ضمن صراع الهيمنة إضـــافة إلى اللـــواء 8 المـــدرع حرس جمهوري واللواء 15 مشاة آلي حرس جمهوري.

- تصاعد كبير في واجبات القصف الجوي السوقي (الاستراتيجي) لقواتنا الجوية الـــتي اســـتفادت مـــن خـــصائص طائرة التفوق الجوي (ميغ 25)، وتطوير إمكانيات الإرضاع الجوي لطائرات (الميراج) بحيث وصلت إلى أهداف بعمق 1250 كم أي إلى جزيرة لاراك قرب مضيق هرمز جنوب الخليج العربي حيث ازدادت الخسائر الاقتصادية النفطية الإيرانية. وفي بعض الأحيان، كانت بعض طائـــراتنا تهـــبط بشكل اضطراري في مطارات الإمارات العربية بصورة غير معلنة.
- تركز ردّ الفعل الإيراني بإطلاق المزيد من صواريخ أرض - أرض نوع سكود بي علـــى بغـــداد والمراكز السكانية الأخرى والتي سقط ضحيتها العديد من المواطنين المدنيين.
- انطـــلاق فـــضيحة سياســـية في الـــولايات المتحدة الأميركية حول صفقات ســـلاح لإيـــران دون علم الكونغرس في 1986/12/6، سميت القضية إيران غيت.

- يـــوم 1986/12/24 شنّ العدو هجوماً كبيراً ومتوقّعاً في قاطع عمليات الفيلق الـــثالث الذي كان بقيادة اللواء الركن طالع الدوري في منطقة الشلامجة، وفي قاطـــع عمليات الفيلق السابع المجاور الذي كان بقيادة اللـــواء الركن ماهر عبـــد الرشيد في جزيرة أم الرصاص حتى شمال السيبة. وكان ردّ الفعل جيداً، وتكـــبّد العـــدو خـــسائر كبيرة، وتخلّل هذا اليوم قصف مدفعي على مدينة البصرة، وسمّي هذا اليوم باليوم العظيم. إلا أن المنافسة غير المبررة ما بين كلا القائدين أدّت إلى نتائج سلبية فيما بعد، وذلك عندما بالغا كثيراً بخسائر العدو حيث اطمأن الجميع بأن العدو لن يكون قادراً على شنّ هجوم كبير إلا بعد 6 أشـــهر علـــى أقل تقدير. انتهى هذا العام مع وجود دلائل لهجوم معادي محدود في العام التالي.

خريطة معركة الفاو لعام 1986



معركة الحصاد الأكبر

لقد تكلمت عن معارك عام 1986 من سفر الحرب العراقية الإيرانية، وكانت معركة الفاو أشهر معارك ذلك العام وأقساها نتيجة لسقوط تلك المدينة العراقية العزيزة بيد العدو بالرغم من كل الإصرار والتضحيات لتحريرها. وبرؤية حكيمة كان قرار القيادة الصبر والانتظار لبناء مشروع كبير ومضمون لتحريرها، مع استمرار حصار العدو فيها، وجعلها مقبرة كبيرة لجنوده. كان من أساسيات ذلك المشروع الكبير توسيع تشكيلات قوات الحرس الجمهوري وإعدادها لمعركة تحرير الفاو، وكبداية لمشروع أكبر هو تحرير كافة الأراضي العراقية التي احتلها العدو. سأتطرق فيما يلي إلى أحداث ومعارك عام 1987، ومن أشهرها معركة الحصاد الأكبر... لقد تركنا العام الماضي حيث انتهى بصد هجوم معادي محدود في المكان وخلال ليلة واحدة هي ليلة 1986/12/24 سمي بمعركة اليوم العظيم في قاطع الشلامجة (ضمن عمليات الفيلق الثالث) وجزيرة أم الرصاص التي كانت ضمن قاطع عمليات الفيلق السابع، وكان للتنافس غير المبرر بين قائدي الفيلقين آثار سلبية فيما بعد حينما بالغا كثيراً بحجم خسائر العدو في قاطعيهما، حيث كان كل منهما يحاول أن يصوّر للقيادة العليا أن فيلقه كان الأفضل (كلما أذاع أحد الفيلقين رقماً بخسائر العدو أذاع الفيلق الآخر رقماً أعلى وتكرّر ذلك أكثر من مرة) مما جعل الكل مطمئناً أنه لا إمكانية للعدو في شنّ هجوم كبير إلا بعد مدة لا تقل عن 6 اشهر كما ذكرنا فيما سلف. في 1987/1/6 جرى استبدال رئيس أركان الجيش الفريق أول عبد الجواد ذنون بالفريق أول الركن المتقاعد سعد الدين عزيز الذي كان يشغل منصب مدير الموانئ.

في ليلة 9-1987/1/10 شنّ العدو هجوماً كبيراً مستهدفاً نفس اتجاهات هجومه السابق تقريباً، الاتجاه الأول المحمرة - الشلامجة - التنومة - البصرة، والاتجاه الآخر الزاوية القائمة للحدود بحيرة الأسماك - التنومة - البصرة (ضمن قاطع عمليات الفيلق الثالث) حيث كانت الفرقة 11 بقيادة العميد الركن عبد الواحد شنان تدافع في الاتجاه الأول، بينما كانت الفرقة 8 بقيادة العميد الركن

ابراهيم الشيخ الآغا تدافع في الاتجاه الثاني علاوة على تشكيلات (الفرقة المدرعة 12) بقيادة العميد الركن رياض طه، وتشكيلات (فرقة المشاة الآلية 5) بقيادة العميد الركن حسن يوسف كاحتياط للفرقتين المدافعتين. و لم تكن الفرقة 3 المدرعة بقيادة العميد الركن سلمان حامد بعيدة عن مسرح القتال. فدارت معركة سريعة، تمكّن العدو فيها من تحقيق نجاحات بالاتجاهين (في بداية كل معركة يتمكّن المهاجم من تحقيق الأهداف الأولى في معظم الحالات لتحقيقه التفوق في النقطة المختارة وفي الزمان المختار من قبله) وعلى ضوء التطور السريع للمعركة، أنذرت فرقة بغداد حرس جمهوري بقيادة العميد الركن كامل ساجت المشكّلة حديثاً وبتشكيلاتها القديمة للتحرك السريع نحو قاطع شرق البصرة، كذلك تحرّك مقر قوات الحرس الجمهوري (الذي أساسه مقر فيلق الحرس الجمهوري السابق) وبعد شروع تلك القوات بالتحرك أنذرت (فرقة المدينة المنورة حرس جمهوري) بقيادة العميد الركن أحمد ابراهيم حماش والتي أساسها اللواءين المدرعين الثاني والعاشر. وفي نفس الوقت كان اللواء 2 المدرع حرس جمهوري بقيادة العقيد الركن أحمد الراوي قد تحرك سابقاً مع فرقة بغداد حرس جمهوري.

حال وصولنا كان خط الدعيج قد سقط بيد العدو، كذلك أصبح ما يصطلح على تسميته خشم البحيرة كوت سوادي والضفة الشرقية لبحيرة الأسماك تحت سيطرة العدو. وكانت فرقة بغداد واللواء المدرع 2 حرس جمهوري من قيادتنا يقاتلان بشجاعة وبإصرار عنيد بالاتجاه الشرقي من مسرح القتال. وكانت الفرقة 11 تدير معركتها (المسؤولة عن القاطع) ببسالة مع تعزيز مستمر لها من تشكيلات الجيش. وفي الساعة 13:00 يوم 20 كانون الثاني/يناير 1987، وضع نائب القائد العام خطة مستعجلة للهجوم المقابل لقائد الحرس الجمهوري العميد الركن حسين رشيد في مقر الحرس الجمهوري في منطقة الجباسي، والذي كلفت به فرقتنا ومن ثلاثة تشكيلات اللواء المدرع 10 حرس جمهوري بإمرة العقيد الركن ضياء ماهر التكريتي المتحشدة في الجباسي وهي قرية ما بين التنومة والشلامجة قرب منعطف الطريق إلى جسر خالد المؤدي إلى البصرة ولواء 6 المشاة حرس جمهوري بإمرة العقيد الركن غالب الشيخلي (أعدم من قبل جماعة الطالباني في العام 1992 عندما

كان قائداً للفرقة 36 في دوكان) الواصل تواً، واللواء 15 الآلي بإمرة العقيد الركن ياســين من فرقة المشاة الآلية الخامسة (جيش) والمتنقل من الزريجي من قاطع شرق البصرة. وكانت الساعة س (أي ساعة الهجوم) قد حُدّدت عند تمام الساعة 15:00 مــن نفــس الــيوم، بالوقت الذي كانت فيه القطعات تنتقل بصعوبة بالغة نتيجة السابلة العرضية للقدمات القتالية والإدارية، حيث أصبح دخول القطعات إلى خط شروعها (خط جاسم) قبل الضياء الأخير يحتاج إلى معجزة، فكيف يؤمّن وصولها قــبل الــساعة 15:00 التي اعتبرت ساعة الشروع في المعركة! كان الموضوع من أساسه محكوماً بمعطيات موقف غير دقيقة، حيث كان تصور نائب القائد العام أن القطعــات جاهــزة في مناطق اجتماعها. وكان مقرّ الحرس الجمهوري يتصوّر أن الطرق سالكة، إلا أن حساب الخرائط يختلف عن حساب واقع الحال على الأرض، وكــان لسوء تقدير القيادة العامة، وللحياء، وللمعنويات العالية عوامل مضافة في عــدم توضيح صورة الموقف أمام تصوّر القيادة بضرورة حسم الموقف قبل الضياء الأول للــيوم التالي. وما كان يحسب لساعات اتسع لأيام طويلة جداً، فتوالت بعد ذلــك المواقــف الــنحس، فجرح آمر اللواء 6 حرس جمهوري وهو يقود مقدمة وحداته، بالوقت الذي كان بديله يلملم قدماته الإدارية. فلقد قتلت قذيفة واحدة مــن مدفع 130 ملم معادي وجرحت أكثر من ثلاثين ضابطاً وجنديّاً من إحدى وحــدات مدفعيتــنا في صــدفة عجيبة (كانت مجموعة من الضباط والجنود تقوم بتــصحيح وضع مدفع خرج عن الطريق) وهي تتقدّم ببطء شديد خلف اللواء 10 المدرع حرس جمهوري المحشور في منطقة الجباسي. ثم أعقب ذلك جرح آمر اللواء 15 مــشاة آلي، وبــدأ التعثّر وتعالت الصيحات في الهواتف السلكية واللاسلكية مُهتكة أعصاب الآمرين والقادة، وكانت تلك الليلة من أسوأ الليالي في حياة فرقتنا الفتــية، حيث أشرقت شمس اليوم التالي، ولم تتكامل تشكيلاتنا بالشكل المطلوب علــى خــط الشروع للهجوم، مع ورود معلومات بانقطاع الاتصال بمقر الألوية (اللواء 45 من الفرقة 11، واللواء 46 من الفرقة 12 المدرعة، واللواء 429، واللواء 66 قــوات خاصــة) بالوقت الذي دمّر فيه أكثر من لواء مدرع في الليالي السابقة مــنها اللواء 37 المدرع بإمرة العقيد الركن علي الشيخلي الذي استشهد مع عدد

كبير من جنوده وضباطه. وتغطّي هذه المنطقة من جهتها الجنوبية غابات كبيرة من أشـــجار النخيل. وكان موقف القطعات في الاتجاه الشرقي يزداد سوءاً لأن العدو يدفع بقطعات كثيفة.

كان صباح يوم 1987/1/21 صباحاً غير سار، حيث تلاشى زخم اللواء 15 المـــشاة الآلي في منتصف المسافة ما بين نهري جاسم والدعيج. واشتبك اللواء 10 مـــدرع حرس جمهوري بشدة مع العدو أمام الخط الدفاعي الأول بقليل، وانقطع الاتصال باللواء 6 مشاة حرس جمهوري وهو ما يزال في غابات النخيل الأولى. وفي ظل هذا الموقف ضاع الأمل، وأيقن قائد فرقتنا أن الحظ لم يقف بجانبه كما عهدَه ســـابقاً، وسحقت عظامه شيئاً فشيئاً رنّات الهاتف، هذا الهاتف الذي يرنّ جرسه كل حين ليسأل قائد الحرس الجمهوري "ما الموقف؟ لقد تأخرتم كثيراً.. أسرعوا". فنهض مستغيثاً من يأتي بأخبار الموقف؟ من يأتيه بموقف اللواء 15 المشاة الآلي؟ من يأتـــيه بـــرأس هـــذا الذي يقوده؟ كان يقوده مقدم اللواء صباح، فتطوّعت لهذه الاستغاثة لأمرين: الأول أنه هالني حرج قائدي الذي وجبت عليّ مساعدته مهما كـــان الثمن، والأمر الثاني أنه حرام علينا أن نظلم الذين يقاتلون في هذه الظروف الصعبة. وفي اللحظة التي هممت بها بالخروج من غرفة الحركات، دخل علينا رئيس أركـــان الفـــرقة العقـــيد الركن قيس الأعظمي، وأعلن أن خط جاسم قد سقط باستثناء بعض النقاط المعدودة، وأنه قد عمل على إيقاف قطعاتنا على ذلك الخط. وحين علم بمقصد قائدنا، حاول ثنيه عن قرار إرسالي إلى اللواء 15 مشاة لأن العدو تجـــاوزه بكـــثير، فلم يستطع تغيير قراره للصمت الرهيب الذي ساد تلك الغرفة، فخـــرجت علـــى عجلة كي لا أحرج من أرسلني، فتوكلت على الله، وخرجت بعجلـــتي مسرعاً على الطريق الذي يوصلني إلى خط جاسم ثم خط الدعيج. وعند نقطـــة اختـــراق الطريق لخط جاسم، كان القصف شديداً. ولاذ من كان هناك بالمنعـــتين الكونكـــريتين الكائنتين على جانبي الطريق، فتلفّت ذات اليمين وذات الشمال فوجدت ناقلة أشخاص مدرعة متوقفة في موضع وعليها علامة اللواء الذي أنـــشده. وبعد مداولة قصيرة، اقتنع من فيها بأخذي إلى مقر اللواء، وبسرعة كبيرة اجتازت بنا تلك الناقلة ذلك الخط الدفاعي الأول نحو مقر اللواء 15، حيث توقّفت

الـــناقلة في أحـــد المواضع التي تبعد ما لا يقل عن 300 متر عن المقر، حيث أصبح الـــتقدم أكثر مستحيلاً نظراً للرماية المباشرة لدبابات العدو المتموضعة خلف ساتر علـــى شكل قوس (كيرف) يحيط بساتر مغلق. علمت أن مقرّ اللواء هناك، وبعد جهد تمكّنت من الوصول إليه، حيث وجدت وكيل آمر اللواء المقدم الركن صباح مـــع بضعة ضباط ومجموعة من الجنود وهم كل من تبقى تحت السيطرة. وكانوا بوضـــع نفسي صعب ليس خوفاً من موت أو أسر، بل خوفاً ممّا قد يُظَن بهم من قِبَلِـــنا، فأكـــبرت فـــيهم بطولتهم، وأخبرتهم أن سبب قدومي هو الاطمئنان على ســـلامتهم، ومن خلال حوار قصير، علمت أن هناك عدة مقرات معزولة في مقر اللـــواء 45 مشاة الفرقة 11 المحصن جيداً إلى يسارنا على مسافة غير بعيدة، فقادني حـــب الاستطلاع إليها، وخلال اجتيازنا المسافة الخطرة، شاهدت ثلاث دبابات معادية تقوم بالرمي المباشر بالرشاشات على المزاغل، ومن يتحرّك بالمنطقة. وبمدى قريب جداً حيث كانت اثنتان منها من نوع تي-55 وواحدة من نوع تي-62.

يصعب وصف وجود أولئك المقاتلين الذين كان نصفهم جرحى والمتسترين في مـــدخل ذلـــك المقر الهابط إلى الأسفل بسلسلة طويلة من الدرجات المؤدية إلى مجموعة غرف مظلمة، حيث أشار أحدهم بأن في تلك الغرفة المنارة بفانوس نفطي مجمـــوعة كـــبيرة من الضباط، وما إن دخلت حتى وجدت نفسي وسط مشاجرة كلامية حادة بين آمر اللواء 45 العقيد محمد سعيد، وآمر اللواء 46 مشاة آلي العقيد الـــركن يعمر زكي الخيرو (وهو رفيق سلاح قديم). وكان كل واحد منهما يحمّل الآخـــر مـــسؤولية الموقـــف. تساءلت مع نفسي كيف أنهي تلك الفوضى المؤلمة؟ فـــصحت بأعلـــى صوتي أنني مبعوث وزير الدفاع نائب القائد العام لأطلّع على الموقف. فساد الصمت الممزوج بالذهول، فشجعني ذلك أن أسترسل بهذا الادعاء (غـــير الـــصحيح)، ولـــتأمين المـــصداقية لما ادعيته، أخبرتهم بأن سيادته قد أشاد بـــبطولاتهم وشجاعتهم، وبأنه ما عليهم سوى الصمود هذه الليلة فقط حتى يتسنى لهم الانسحاب خلف (خط جاسم). وطلبت أن يكون أقدمهم رتبة آمراً للجميع، ولإعطـــاء المزيد من المصداقية لما ادعيته، طلبت منهم وثيقة موقعة من قبل كل آمر بمـــا يملك من قوة، وما هي خطة الآمر الأقدم في تأمين خطة دفاعه حتى يوم غد.

وكانت المفاجأة حين تبين أن في هذه الغرفة أربعة مقرات ألوية. فانصاع الجميع لإمرة آمر اللواء 45، الذي أثبت لهم بأنه أقدم العقداء، فسلموني الوثيقة المطلوبة، وخرجت مسرعاً وبنفس المسار الخطر الذي لا خيار لي غيره، وعدت إلى تلك الناقلة المدرعة التي التجأ إليها ثلاثة جرحى، فعدنا مسرعين إلى حيث انطلقنا. ولكن سقطت مقذوفة معادية بطرف تلك الناقلة، فأوقفتها إلا أننا كنا على بعد أمتار من المنعتين الكونكريتين المسيطرتين على مدخل الطريق في خط جاسم، بالوقت الذي كانت فيه أربع طائرات معادية نوع أف 5 تغير على قطعاتنا في تلك المنطقة.

لم يصدّق قائدي وضباط الركن (العقيد الركن عبد القادر عبد يونس، والرائد الركن سفيان عبد الله - أعدم على يد دليل كويتي عندما وقع أسيراً خلال احتلال العراق - علاوة على رئيس الأركان) أنني عدت إليهم، واستغربت للوقت الطويل الذي استغرقته رحلتي القصيرة. فلقد وصلت ما إن أسلمت الشمس نفسها لأفق المغيب، وعندها ذهبت إلى قائد الحرس الجمهوري متوسلاً تنفيذ ما وعدت به أولئك المقاتلين بعد أن ادعيت أنه وعد من وزير الدفاع، مقترحاً في حال الموافقة تأمين ناقلات أشخاص مدرعة لكي نؤمّن الانسحاب الأمين لهم، على أن يبدأ التنفيذ من الليلة التالية وليس من هذه الليلة نظراً لضيق الوقت. والحمد لله تمّ ذلك، ونجّا الله أولئك الرجال من مهانة الأسر.

لقد نجحت قواتنا في إيقاف ذروة الهجوم المعادي، وانحصر مسرح القتال بجبهة طولها عشرة كيلومترات باتجاه الشلامجة، وسبعة كيلومترات باتجاه بحيرة الأسماك وبأعماق متفاوتة. كان ذلك مسرحاً صغيراً للقتال، إلا أنه كثيف القطعات، فأثار ذلك عجبنا ماذا يريد العدو من قاطع الاختراق الصغير هذا، و لم تكن فيه بقعة من الأرض بمسافة أمتار قليلة، إلا وقد سقطت فيها مقذوفة مدفع، أو صاروخ راجمة، أو قنبرة هاون. كان تقديري لعدد فوهات مدافع الميدان، والراجمات، والهاونات، ومدافع الدبابات العاملة هناك قد زاد عن ثلاثة آلاف فوهة لكلا الطرفين. وتحوّلت المعركة إلى معركة استنزاف مكلفة. وكان الإصرار المعادي على استمرار شنّ الهجمات الصغيرة والميؤوس منها غير مقنع، ولا يتّفق مع

المنطق السليم للقتال. فلقد كان العدو يضخّ إلى جبهات القتال أرتالاً من القطعات النظامية وغير النظامية كجنود، وينتظرهم خلف مواضع القتال مجموعة من الآمرين الصغار فيكوّنون مجموعات قتالية صغيرة تحدّد لها أهداف صغيرة؛ ومنها ما قد يكون بمدى بعيد. وأي مجموعة تحرز نجاحاً ما، تدفع بمجموعات إلى العمق لاستثمار ذلك النجاح. كان قتالاً غير نمطي لم نألفه كجيش منظّم جيداً. ومن جانبنا كان الإصرار أكبر على الدفاع عن التراب الوطني، وبأسلوب التعزيز المستمر. وعلى سبيل المثال، دخلت بإمرة الفرقة 11 خلال تلك المعركة عشرات التشكيلات القادمة من العمق الوطني، وقد يكون نصيب كل لواء من تلك التشكيلات يوماً واحداً من القتال فقط، لأن معظمها كان من الوحدات المخصّصة للأغراض الدفاعية والحمائية، ومنها ما كان تابعاً لملاك وزارة الداخلية. كادت تلك الأساليب المعادية أن تحقّق شلّ تفكيرنا القيادي، لولا المرونة القيادية للرئيس صدام حسين الذي حضر إلى ساحة العمليات أكثر من مرة، ولولا تجاوزه القيود الأكاديمية في حلّ المعضلات الميدانية، وبسبب الصلاحية المطلقة التي امتلكها بالاعتماد على المنطق العام للحرب والسياسة وبمشورة نائبه وزير الدفاع الذي كان يتمتّع بشخصية قيادية رصينة وهادئة والذي كان يحضر دائماً جانباً من المعارك.

في 1987/1/27 استطاع العدو اختراق جناحنا الأيمن (كانت جبهة فرقتنا بطول 3 كم فقط) مستفيداً من نجاحاته المحدّدة في قاطع الفرقة 11 الكائنة على يمين فرقتنا، فكلّفني قائدي بالذهاب إلى مقر اللواء 10 المدرع لمعاونة آمر اللواء في إدارة معركة الهجوم المقابل. واقترحت على آمر اللواء أن يكون الهجوم المقابل من اتجاهين لتخفيف تأثير نار العدو وإرباكه، وخلال المعركة حضر قائدي مع قائد الفرقة الثانية العميد الركن أحمد راكان الشمري (المكلفة فرقته بتبديل فرقتنا). وبمعركة سريعة تمكّن اللواء من استعادة موضع الفوج الثاني من اللواء 81 وموضع الفوج الأول من اللواء 105 اللذين سقطا في الليلة السابقة، وتمّ أسر 19 جندياً معادياً. وكان لآمر الفوج الآلي للواء العاشر الرائد الركن عبد الحليم كاظم ولآمر سرية المغاوير من نفس اللواء دور مهم في هذا النجاح، ولقد لفت انتباهي قائد الفرقة الثانية بهدوء أعصابه ووفرة ملكته الشعرية.

في 29-1987/1/30 تمّ تبديل فرقتنا بالفرقة الثانية. وخلال عملية التبديل سقط موضع فوج من اللواء 36 الذي كان بقيادة العقيد الركن حسين الحلبوسي - هو من ضباط القوات الخاصة - بيد العدو، فحاول آمر اللواء استرجاعه، إلا أنه فشل بالرغم من الإسناد المدفعي الكبير المقدم له بسبب صمود العدو في الموضع الساقط. وبذلت وحدات هندستنا العسكرية جهوداً كبيرة تحت نار العدو، وكان آمرها المقدم قاسم مجيد مثال الجندي الحريص والشجاع.

تكامل انفتاح فرقتنا (المدينة المنورة حرس جمهوري ناقص اللواء 2 المدرع) في منطقة الزريجي النشوة بالوقت الذي ظلّ القتال سجالاً في قاطع بحيرة الأسماك، وخاصة في منطقة المعبر. أما في قاطع خط جاسم فاستمرت المعارك في نقطة التقاء مواضع الفرقة 11 بشط العرب... بشكل عام كانت الخسائر كبيرة وخاصة في جانب العدو. وأطلق على هذه المعركة الضيقة المساحة المتواترة بزج القطعات اسم معركة الحصاد الأكبر، وأمعن العدو في إيذائنا باستمرار قصفه لمدينة البصرة التي اضطر الكثير من سكانها إلى هجر بيوتهم لتجنب وقوع أطفالهم ونسائهم ضحية لذلك القصف اللاأخلاقي. كذلك طال عددٌ من صواريخ أرض - أرض مدينة بغداد انتقاماً لإخفاق الإيرانيين على جبهات القتال، مما اضطر قيادتنا لتكثيف القصف الجوي الليلي على العاصمة طهران، ونزولاً عند رغبة المعارضة الإيرانية، ونظراً للنتائج الخطيرة لقصف المدن الكبيرة، أوقفت قيادتنا القصف الجوي الذي راح ضحيته ذلك الكثير من الإيرانيين الأبرياء.

لقد أصبح الموقف الدولي أكثر وضوحاً في إدانة إيران لإصرارها على الاستمرار بالحرب، ودعمها للإرهاب الدولي. وقامت موسكو باستدعاء وزير خارجية إيران علي أكبر ولايتي، وأعقب ذلك استدعاء وزير خارجيتنا طارق عزيز للحث على إيقاف الحرب.

تحرّكت فرقتنا في 1987/2/24 إلى منطقة قلعة صالح في قاطع العمارة ثم صدر الأمر لها في اليوم التالي للعودة إلى تلك المنطقة مرة أخرى نظراً لتدهور الموقف. وكانت معركة اللواء 2 المدرع حرس جمهوري وخاصة الفوج الآلي 16 بإمرة

المقدم الركن عبد الرحيم المندلاوي رائعة في حسم موقف المعبر بالوقت الذي ظلّت فيه فرقة بغداد حرس جمهوري في قاطع بحيرة الأسماك.

لقد ازداد ضغط العدو في فترة 2-1987/4/4 باتجاهين، الأول جنوب خط جاسم، والآخر باتجاه رأس بحيرة الأسماك. واستطاع العدو دفع قواتنا لمسافة 500متر على طول الجبهة تقريباً، وجرت معركة استنزاف كبيرة، وازدادت خسائر كلا الطرفين، وأصبح التهديد قائماً باتجاه قناة التغذية الموصلة بين شط العرب وبحيرة الأسماك، حيث كلّفت قوات الحرس الجمهوري باستعادة الموقف على السدة الدفاعية المسماة بالسدة 1000، والتي سقطت هي الأخرى في آخر تطوّر للموقف مع استمرار سيطرة العدو بالنيران على مسافة كبيره من قناة التغذية. ففي ليلة 1987/4/7 تمّت استعادة السدة 1000 بالكامل بهجوم سريع، وذلك بإسناد ناري كثيف جداً. وبذكاء إعلامي صدر بيان مضخم للقيادة العامة لإعادة الثقة بالنفس ولإيقاف العمليات عند ذلك الحدّ، لتجنب حرب الاستنزاف التي يتقنها العدو جيداً. لقد تمّ تأجيل تحرير قاطع الشلامجة إلى وقت آخر، وذلك بهدف القيام بالاستعدادات اللازمة لذلك التحرير، وجرت مراسيم تكريم للعديد من القادة والآمرين حتى مستوى الجنود المقاتلين الذين أظهروا أداءً مميزاً، وتمّ ترفيع قائد الحرس الجمهوري إلى رتبة لواء ركن.

في 1987/4/13 عادت فرقتنا إلى منطقة قلعة صالح، وظلّ الموقف هادئاً، إلا أن الإيرانيين بدأوا سلسلة من الهجمات المحدودة في قاطع عمليات الفيلق الثاني وكان مصير معظم تلك الهجمات الفشل الذريع، فغيّروا اتجاهات هجماتهم إلى قاطعي الفيلق الأول والفيلق الخامس للاستفادة من وعورة المنطقة، وقلة القطعات المتواجدة فيها علاوة على معاونة الأكراد المناوئين للسلطة هناك.

إن الملفت في الأداء القيادي الميداني لقواتنا هو الزج السريع للتشكيلات الوافدة لقاطع العمليات من قواطع بعيدة، كما كان الحال في العام السابق، وقد كلفنا هذا الكثير من التضحيات، والخسائر، وتصدّع الروح المعنوية لأن الاستطلاع والاستحضارات تكسب نصف النصر في المعارك مسبقاً كما هو معروف. وبالرغم من تفوق سلاحي الطيران والدروع، إلا أن نمط الاستخدام ظلّ نمط معارك المشاة،

حيث استخدمت الفرق المدرعة كفرق إسناد عمق، وكان يفترض استغلال ذلك التفوق بمناورة الإحاطة الواسعة بفيلق مدرع يتألف من الفرق المدرعة (المدينة المنورة والثالثة، والآلية الخامسة) من منطقة غزيل نحو الجفير والانعطاف شرق المحمرة لحسم المعركة خلال الأيام الأولى. ولقد ناقشت هذا الموضوع مع الرئيس صدام حسين فيما بعد خلال إحدى اللقاءات لأن معركة الحصاد كانت حصاد لنا كما كانت حصاداً للعدو.

فجر 1987/5/18 هاجمت إحدى طائراتنا المقاتلة بالخطأ الفرقاطة الأميركية العاملة ضمن قوة بحرية أميركية أوروبية في الخليج العربي لتأمين التجارة البحرية وخاصة حرية ناقلات النفط التي تعرّضت إيران إليها بقوة. كانت الفرقاطة تدعى ستارك، وقتل فيها 37 بحاراً عسكرياً أميركياً، وأعلن العراق فوراً عن أسفه حكومة وشعباً لهذا الحادث غير المقصود مع الاستعداد لتعويض أسر الضحايا.

اتضح أن ثقل السوق المعادي سيتّجه شمالاً، وذلك للاستفادة من عناصر التفوق التي يملكها العدو في ساحات العمليات الجبلية وفق سوق التابع الذي انتهجه العدو منذ أربعة أعوام مضت من الحرب وأن تطوير مكتسباته هناك غير مكلفة بالوقت الذي أصبحت راوندوز تحت سيطرته. إن الكثافة السكانية للعدو تعتبر ميزة جيدة له مع إمكانيته لقبول الخسائر والاعتماد على صنف المشاة غير المكلف بالتسليح. لقد مضى عام ونصف العام، وفي هذه الفترة ارتفعت تضحياتنا وخسائرنا لأرقام أصبحت مقلقة جداً، وفي 1987/5/26 شعر العراقيون وهم في الأيام الأخيرة من شهر رمضان بوطأة الحرب، و لم تبدُ عليهم ملامح الفرح كالمعتاد في استقبال عيد الفطر. وأظهر الاقتصاد العراقي بعض القلق بسبب الانخفاض الحاد في القيمة الشرائية للدينار العراقي مقارنة بالعملة الصعبة.

في 1987/6/16 كانت نشرات الأخبار لا تزال تشير إلى المساعي الحثيثة لعقد اجتماع لمجلس الأمن الدولي لاستصدار قرار ملزم بإيقاف الحرب خلال فترة محددة. ورافق تلك الأحداث استدعاء الرئيس صدام حسين لقائد الحرس الجمهوري للاستعداد لعملية تحرير الفاو، وكان اتجاه عملنا المبدئي على المحور الشمالي المحاذي لشط العرب. إذاً كان هناك اتجاه سوقي نحو الجنوب عكس الاتجاه

الـــسوقي المعـــادي الذي صعد باتجاه الشمال؟ في 1987/6/21 خرجنا لاستطلاع محورنا باتجاه الفاو. وفي اليوم التالي طوّر العدو هجومه في القاطع الشمالي، واحتل جبل ماوت، وبدأ بعمليات توسيع مناطق احتلاله الأولى.

وعلـــيه صدر أمر القيادة بتحريك فرقة بغداد حرس جمهوري ولوائي قوات خاصـــة حرس جمهوري نحو القاطع، لصد العدو في قاطع الفيلق الأول في القسم الـــشمالي الشرقي من القطر. وفي 1987/6/26 أعلن عن انتصارات مهمة لقواتنا هناك. إلا أن المعارك استمرّت سجالاً، وكان موقف ألويتنا صعباً في الفترة الممتدة مـــن 87/7/5 ولحـــين عـــودهما في نهاية شهر آب/أغسطس؛ وهي اللواء 5 حرس جمهـــوري، واللـــواء 7 حرس جمهوري، واللواء 3 قوات خاصة حرس جمهوري، واللواء 16 قوات خاصة حرس جمهوري.

في 1987/7/11 أعلن بيان للقيادة العامة عن استعادة جزء من السدة الشرقية لحقـــل مجنون الجنوبي من قبل قوات الحسين وهي فرقة مشاة بقيادة العميد الركن يـــالجين عمر، وعن أسر أكثر من 50 جندياً معادياً. وبعد أسبوع استعادت الفرقة 22 بقـــيادة العميد الركن طارق عارضه كيسكة (الفيلق الثاني). وفي 1987/7/25 جـــرت تغييرات كبيرة في التركيبية القيادية العليا لقواتنا المسلحة، وكان من ضمن التغييرات تعيين الفريق الركن نزار الخزرجي رئيساً لأركان الجيش بدلاً من الفريق أول الـــركن ســـعد الدين عزيز (نتيجة حدوث مشادة بينه وبين معاونه للعمليات الفريق ثابت سلطان الذي سحب قدمه العسكري المكرم به وتّمت إعادته إلى رتبة أقرانه أي إلى رتبة عقيد، وإلى منصب آمر اللواء 16 المدرع لتجاوزه رئيس أركان الجـــيش، ومن هنا خرج الأخير عن ولائه للرئيس مّما كلفه حياته فيما بعد). وعُيّن قائد الحرس الجمهوري بمنصب معاون رئيس أركان الجيش للعمليات، وعيّن بدلاً مـــنه مديـــر الحـــركات العسكرية اللواء الركن أياد أفتيح الراوي وهو من القادة المشهود لهم بالشجاعة والإصرار على تحدي المعضلات.

في 1987/7/18 أعلـــن عن قرار مجلس الأمن الدولي رقم 598 بضمانة دولية لإيقاف الحرب بيننا وبين إيران. وبعد 48 ساعة وافق العراق على ذلك القرار و لم يرد شيء عن الجانب الإيراني.

في 1987/7/28 أعلن عن إسقاط طائرة سورية مقاتلة نوع (ميغ 21) فوق مجمع عكاشات الصناعي غرب البلاد، بالوقت الذي كانت فيه إيران تقوم بنشاطات سياسية لتسويف قرار مجلس الأمن الجديد بالمباحثات الثنائية لوزير خارجيتهم مع ديكولار الأمين العام، ووزير خارجية ألمانيا غينشر. ورافق ذلك زيادة الوجود الأميركي والأوروبي والسوفياتي في الخليج العربي.

خلال موسم الحج وفي يوم 1987/7/31 قام الحجاج الإيرانيون (معظمهم قوات شعبية) باستفزازات سياسية ذهب ضحيتها 420 قتيلاً و630 جريحاً في أقدس مقدسات المسلمين.

في 1987/8/15 أخبرني صديقي آمر الصنف الكيماوي حرس جمهوري حازم عبد القهار الراوي بأنني قد رشحت للنقل إلى مقر قيادة الحرس الجمهوري. وفي 1987/9/4 أعلنت الكويت أن منشاءاتها النفطية قرب العاصمة أصيبت بصاروخ إيراني؛ وفي ذلك اليوم دخلت حربنا العام الثامن. في نفس اليوم صدر بيان عن القيادة العامة أفاد بقيام القوات الجوية العراقية بضرب منشآت نفطية مهمة للعدو بواسطة طائرات متطورة تقنياً (تشكيل من طائرات ميراج ذات إمكانية إعادة الإملاء في الجو) وبمدى طويل جداً بلغ 1250 كم قرب مضيق (هرمز). وعندها عبّرت إيران عن صدمتها بهذا الإنجاز الكبير بقصف مدينة البصرة بشدة.

في 1987/9/13 زار العراق الأمين العام للأمم المتحدة ديكولار، وغادرنا بعد يومين إلى طهران وصرّح بأنه "غير متشائم وغير متفائل". وفي 1987/9/22 جرى أول اشتباك مسلح بين البحرية الأميركية والبحرية الإيرانية التي تقوم بمهام القرصنة والاعتداء على السفن التجارية. وفي 1987/10/9 أعلنت البحرية الأميركية عن إغراق ثلاث سفن حربية إيرانية (بأمر مباشر من وزير الدفاع الأميركي كاسبر واينبرغر). وقبلها بيوم، شنّت 64 طائرة مقاتلة عراقية هجمات على قوات معادية متحشدة أمام قاطع الفيلق الثاني في الوقت الذي استأنفت فيه إيران قصفها بغداد بصواريخ أرض – أرض. وبدأت إيران حملة إعلامية تؤكّد على التحالف الأميركي مع العراق ضدها.

كان يوم 1987/10/13 يوماً حزيناً حين سقط صاروخ إيراني نوع أرض - أرض على مدرسة بلاط الشهداء، وكان ذلك عند الساعة 8:15 عند اصطفاف الطلاب الصغار، فذهب ضحية ذلك 32 طفلاً، وجرح 182 طفلاً آخراً. وصاحب ذلك حملات استنكار دولية على ذلك العدوان. وفي 1987/11/8 كان موقف الاتحاد السوفياتي والصين غير إيجابي حول تطبيق قرار مجلس الأمن 598. وكان الأمين العام قد طلب حضور مسؤولٍ مخوّلٍ إلى نيويورك من كلا الطرفين.

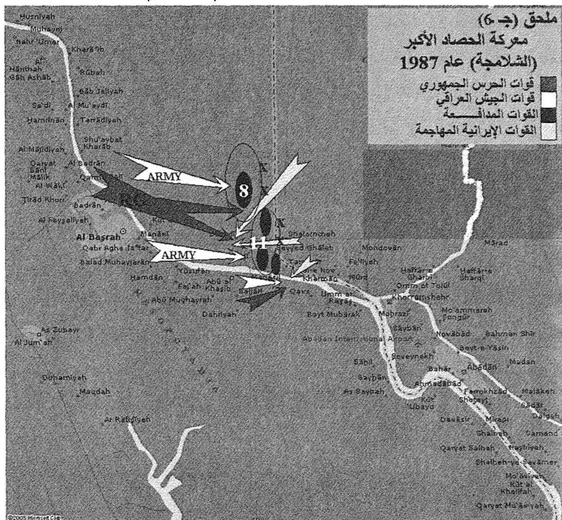
في مساء ذلك اليوم صدر الأمر بالتهيؤ للتخطيط لتحرير الفاو، وتقديم دراساتنا العملية مع باقي فرق الحرس الجمهوري.

وفي 1987/11/11 صدر البيان الختامي لمؤتمر القمة العربية في عمان، حيث سمي هذا المؤتمر بمؤتمر الوفاق والاتفاق.

في 1987/11/19 قدّم وزير خارجية ألمانيا الغربية غينشر اعتذاره وتبريراته للرئيس صدام حسين على ضوء اعتراضات الحكومة العراقية على تصريحات سابقة له؛ وكان ذلك خلال زيارته للقطر. وفي ذلك اليوم، أُعلن عن إسقاط طائرتين نوع أف 5، كما أعلن العراق عن ضرب مباني المفاعل النووي الإيراني (تحت الإنشاء) بقنابل موجهة بالليزر.

كذلك أعلنت إيران بشكل مفاجئ التعبئة العامة، وعليه أجّل العمل بمشروع تحرير الفاو إلى أجل غير مسمى مرة أخرى... وفي 1987/12/13 صدر أمر نقلي إلى مقر قوات الحرس الجمهوري. وبذلك انتهى عام 1987، ونحن نتابع تحشدات العدو في القاطع الشمالي.

خريطة معركة الحصاد الأكبر (الشلامجة)




ملحق (جـ-7)
مجموع الاختراقات الإيرانية في
عمليات التعرض المقابل
حتى بداية عام ١٩٨٨
TURKEY
SYRIA
IRAN
JORDAN
SAUDI ARABIA
KUWAIT
Arabian Gulf
NĪNAWÁ
AL ANBĀR
AN NAJAF
AL MUTHANNÁ
Baghdad
Mosul
Kirkuk
Al Başrah
Iraq
International boundary
Governorate (muḥāfaẓah) boundary
National capital
Governorate (muḥāfaẓah) capital
Railroad
Expressway
Road
Boundary representation is not necessarily authoritative.
Base 803069AI (C00459) 9-04



ملحق (جـ - 8)
معارك احتلال حلبجة وحوض بحيرة دربنديخان
من قبل القوات الإيرانية
بداية عام 1988
As Sulaymānīyah
Darbandikhan
Halabjah
Bāmūk
Shindirwē
Sharekān
Nowdesheh
Khānegāh
Bāwā Kūchak
Shaqmaydān
Hasan Āvah
Bīzawa
Tolābi
Shirshat
Kāwtah
Mordin
Būyn
Hertā
Shabalkhi
Nūryāb
Pāveh
Nosmeh
Marreh Kheyl
Dūdān
Bondarreh
Z A G R O S
M O U N T A I N S
K E R M Ā N S H Ā H
Qalājeh
Gavlieh
Qeshlāq
Sorkhbān
Jangaleh-ye Soflā
Dehtū-ye Bālā
Gerdak
Javānrūd
Kānī Rash
Vānīsar
Kileh Sefid
Qolqoleh
Sīānāb
Harsīn
Rūdbār
Dal
Kūlīj
Asparīz
Vorrā
Zarin
Qalb
Gilajal
Salāwā
Bilāsūr
Sheykh Salleh
Mishiyaw
Kānī Pāshā
Maydān Saray
Tappah Qalandarī
Darband
Hisār
Pungala
Bustāna
Darka-e Khwāra
Khunaqat
Qaslān
Hawrayn Shikhān
Papiacila Zairin
Arabakān
Shaykh Muhammad
Pakān Māmishān
Hājjilar
Chiā Rida
Deh-e Sūtak
Tīleh Kūh-e Bālā
Gor-e Gunush-e Zhūrū
Wālāna
Gurgader
Kānī Spikah
Shukeh
Dosta Dara
Rawshān
Banjwīn
Bouzan
Bāsāk
Zilzila
Dolasūr
Pēwala
Zardē
Zangisir
Mūriyās
Ablagh
Wirāwar
Qaratughān
Kōlābī
Khrinijān
Chaqalāva
Nāwgirdān
Chwārtāq
Kachāli
Shāh Nādirī
Gachens
Zorun
Faraj Āwah
Bahara
Kānī Spīka
Qaramān
Dēh Ramadān
Niskajo
Ali Āwah
Bakhān
Mir Yāsin-i Khwāri
Shaykh Hōmar
Qōmāsh-i Khwārū
Tepe Rash
Mastakān
Tappah
Darziyāyīn
Kharjana
Zarāyin
Ālān
Dollash
Shiw-i Qāzi
Āwagala
Duwanza Imām
Tazadē
Astēl Kānī Hanān
Balkān
Ahmad Āwah
Mīradē
Qalwaza
Kah Girdal
Khaqilān
Chinārah
Chaliga
Khwārū
Biyāwilleh
Balkha
Takiyah
Macah Kur
Bāwah Khōshayn
Birki
Anab
Shūshamī-ye Pā'in
Nāv
Faqilina
Tepe Garūs
Sarchāwa-i Hōmar Qalā
Gulān
Pisākān
Salim Pirek
Bakar Baif
Dara Duwēn
Bani Khaylān
Āwbār
Garmuk
Mansūr Āqā'ī
Qūri Qal'eh
Yāri
Pārīyāwla-e Khwārū
Sōfi Rahīm
Bawa Nor
Warmizyar
Bāvisī-ye Pā'in
46°
46° 30'
35°
©2005 Microsoft Corp

الفصل الرابع

المرحلة الرابعة والأخيرة - معارك الحسم عام 1988

معركة تحرير الفاو

كـان أهم حدث في العام السابع للصراع الطويل مع إيران في سفر الحرب الطـويلة، معـركة الحـصاد الأكبر، والتي كانت الجزء الأخير من المرحلة الثالثة الطـويلة، والـتي كـان للعدو فيها أفضلية المبادأة حيث شنّ سلسلة طويلة من الهجمات، والتي تمكّن من خلالها من احتلال أجزاء عزيزة من أراضي وطننا الغالي، ولم تكن نجاحاته سهلة بل مكلفة جداً.

سأتكلم هنا عن المرحلة الرابعة والأخيرة من هذه الحرب، وهي مرحلة تحرير الأجـزاء المغتـصبة من تراب وطننا، والتي بدأت بتحرير مدينة الفاو والتي أسماها الـرئيس صدام حسين حينها (مدينة الفداء وبوابة النصر العظيم)، وانتهت بمعركة توكلـنا علـى الله الرابعة التي أوصلتنا إلى الانتصار الكبير في هذه الحرب الطويلة جـداً، التي تمنّت القوى المعادية أن نخسرها مادياً ومعنوياً، بما يترافق مع ذلك من مهانـة للعراق لثنيه عن برنامجه القومي الطموح والداعي إلى إحياء ودعم مشروع تحريـر فلسطين من الاحتلال الإسرائيلي. غير أن نتائج الحرب بشكل عام كانت إيجابـية لصالح القوى العالمية الكبرى، وبعض القوى الإقليمية في المنطقة، فإضعاف العراق وإيران على المستويين الاقتصادي والعسكري، وإضعاف منظمة أوبك، مع دخـول تلـك القـوى عسكرياً إلى الخليج العربي، وإحكام سيطرهما عليه، تعتبر مكاسـب كـبيرة لها، ويقال في بعض الصحف الأميركيـة التي أجرت مقابلات

صحافية مع الرئيس صدام عام 1987 بأنه وعد بتعامل العراق بواقعية مع إسرائيل، وإعطـــاء الـــشركات الأميركية الأفضلية في مشاريع الإعمار، مقابل ضمان عدم اعتـــراض أميركا على دعم الدول النفطية العربية واسنادها للعراق، وبالتأكيد لن يكون هناك أي انتصار بالحرب من غير الدعم العربي وخاصة دول الخليج. إلا أن الرئيس صدام حسين على ما يبدو قد أخلّ بالشرطين الأخيرين فيما بعد إن صحت تلك التقارير.

في الفتـــرة المـــتدة بـــين 17-1988/1/22 شنّ العدو سلسلة من الهجمات المتلاحقة في قاطع عمليات الفيلق الأول. وسقطت عارضة جبلية مهمة تدعى أحمد رومي، وسقطت مواضع الألوية المدافعة فيها اللواء 83 واللواء 603. وتقع عارضة أحمـــد رومي في المنطقة الشمالية الشرقية المحاذية للحدود الإيرانية، وأبرز جبل فيها يدعـــى ماوت حيث كانت الظروف المناخية صعبة جداً بسبب الثلوج التي غطت المنطقة كلها، وأغلقت طرق الإدامة للقطعات، فلقد بلغت سماكة طبقة الثلوج فيها متـــرين، وأسر من جنودنا ما يقارب الألف، واستشهد وجرح أعداد كبيرة منهم. لقـــد شنّت قواتنا سلسلة من الهجمات المقابلة، إلا أن معظمها أخفق نظراً نتيجة لـــسوء الأحوال الجوية، وكان من بين قوات الحرس الجمهوري المشاركة في تلك الفعالية لواء القوات الخاصة 3. كان الموقف العسكري العام على جميع الجبهات في حالـــة ترقّب شديد مع وجود احتمال كبير بقيام العدو بتوسيع فعالياته في الشمال لتعزيـــز مكاسبه التي أفادت معنوياته بشكل كبير، وسط جو إعلامي مؤذٍ، حيث كانـــت تصريحات قادة الخصم السياسيين منهم والعسكريين تطلق بدون حساب، فـــساد الاعتقاد العام بأن شمال العراق وهو ساحة عمليات جبلية واسعة قد أصبح مفـــتوحاً ومـــشروعاً لعـــدوان مستمر. وساعدت ظروف المنطقة السياسية بكل خلفيـــتها في تعزيز ذلك الاعتقاد. وكان الموقف السياسي الدولي والإقليمي العام باهتاً بل جامداً، وكأن الجميع ينتظرون إعلاناً سياسياً يقرّ بخسارة العراق لحربه مع إيران. أما قرار الأمم المتحدة رقم 598 فيتصوّر الكثيرون أنه قد أهمل بالرغم من أن المـــندوب الأميركـــي في الأمم المتحدة والتر قد أكّد فاعلية هذا القرار الذي ينبغي تطبيقه خلال مدة لا تزيد عن عام واحد.

في 1988/2/19 أشيع في بغداد أن هناك حملة متوقّعة لإخلاء سكانها لاحتمال قيام العدو خلال ذوبان الثلوج بتدمير السدود المقامة في شمال القطر وإغراق العاصمة. بالمقابل، كانت تصدر بيانات من التصنيع العسكري تبشّر بتطوير صناعة صواريخ أرض - أرض بمديات طويلة تصل إلى 1000 كيلومتر.

في 1988/2/25 قصف العدو بغداد بصاروخين أرض - أرض نوع (سكود بي)، وكردٍّ على هذا القصف، شنّت طائراتنا المقاتلة يوم 2/27 غارة عنيفة على مصافي النفط في طهران العاصمة، كذلك قُصِفَت العاصمة الإيرانية بصواريخ الحسين أرض - أرض الجديدة التي يبلغ مداها 650 كيلومتر. وكان ذلك إنجازاً عظيماً للعراق وللصناعة العسكرية العراقية. وبعد ذلك بدأت أشرس حرب صواريخ بين البلدين المتحاربين، فوسّع العراق ضرباته المقتدرة بالقوة الجوية والصاروخية بحيث شملت طهران وأصفهان. وبالمقابل وسّع العدو ضرباته الصاروخية لتشمل الموصل وتكريت لأول مرة. وكانت نسبة الصواريخ لصالح العراق بمعدل 2/6 فعمّ الرعب أوساط المواطنين في كلتا الجهتين.

في 1988/3/10 أعلن العراق من جانب واحد إيقاف حرب المدن بإنذار 24 ساعة شرط أن تكون آخر ضربة عراقية تعبيراً عن الاقتدار حيث نُفِّذَت إحدى عشرة رمية صاروخ أرض - أرض، و26 غارة جوية على المدن الإيرانية فارتفع عدد الصواريخ العراقية القاصفة للأراضي الإيرانية إلى 68 صاروخاً من نوع حسين.

في ليلة 1988/2/13 شنّ العدو هجوماً محدوداً على قاطع الفيلق الثاني، إلا أنه باء بالفشل الذريع. وفي ليلة 1988/2/15 شنّ العدو تعرضاً واسعاً على القاطع الشمالي الشرقي مستهدفاً منطقة خور مال - حلبجة، وتمكّن من احتلالها، وأسر قائد الفرقة المدافعة (الفرقة 34 مشاة العميد الركن علي العلكاوي)، وعدد غير قليل من الضباط والمراتب، وشكّل ذلك صدمة سلبية في معنويات قواتنا. وبعد سلسلة طويلة من الهجمات المقابلة لقواتنا لم تكلل بالنجاح، كانت عارضة شميران الجبلية مسرحاً تراجيدياً لقواتنا، حيث اعتبرت العارضة الحيوية لاستعادة السيطرة على قضاء حلبجة المحتل، وأصبح الموقف مقلقاً جداً ومشابهاً لما حدث عام 1986 حين

خسرنا الفاو. وفي محاولة لوقف تردّي الموقف، أصدر قائد الفيلق اللواء الركن كامل ساجت، وبدعم من رئيس أركان الجيش الفريق أول الركن نزار الخزرجي، ورئيس الجمهورية أوامر بإعدام أعداد غير قليلة من الضباط والجنود، وخاصة من القوات الخاصة. ونفّذت فيهم تلك الأحكام ميدانياً، مما اضطر آمر اللواء 66 قوات خاصة العقيد الركن جعفر صادق إلى التسلل والوصول إلى بغداد، ومقابلة الرئيس الذي أوقف تلك الإعدامات. إلا أن مقدّم لوائه العقيد الركن وفاء وعدداً آخر من الضباط، و12 جندياً كانوا كل من تبقّى من لواء القوات الخاصة أعلاه الذي نفّذ به أمر الإعدام. ثم ازداد الموقف سوءاً، حينما تمكّنت الفرقة 84 الإيرانية من التوغّل في مدينة حلبجة زائد اللواء المظلي 55 الإيراني بهدف مهاجمة مرتفعات شميران المشرفة على مدينة حلبجة ثم الاندفاع نحو السليمانية عبر مفرق سيد صادق. فقاد المشرف على قوات الحرس الجمهوري اللواء حسين كامل من خلال مقر مسيطر فيه على عدد من الضباط الاختصاصيين كآمري المدفعية (العميد س)، والصنف الكيمياوي (العقيد الركن ح) لقوات الحرس الجمهوري قوةً مدفعية خاصة تتألف من ست كتائب مدفعية منها كتيبة راجمات صواريخ 134 محملة بصواريخ ذات رؤوس كيميائية نوع صقر 18 آمرها المقدم ر. م، فضربت الفرقة الإيرانية بآلاف المقذوفات، و720 صاروخاً، فتكبدت خسائر كبيرة جداً، مما اضطرها إلى إخلاء المنطقة، والانسحاب إلى داخل إيران. إلا أنه مع الأسف وقعت خسائر تقدر بأكثر من 150 ضحية في صفوف المواطنين الأكراد الذين لم يغادروا أماكن سكنهم هناك فقتلوا عرضاً، في الوقت الذي كان فيه معظم سكان حلبجة قد غادروها منذ بدء العمليات. وأكّدت بعض القيادات الكردية بالإضافة إلى مصادر جيشنا أن الإيرانيين أيضاً استخدموا الأسلحة الكيمياوية في تلك المعارك، وبنفس الوقت تمّ تنفيذ خطة عسكرية كبيرة مخادعة حين فتحت القيادة العامة مقراً لها في السليمانية مع تغطية إعلامية لوزير الدفاع نائب القائد العام عدنان خير الله في المنطقة ذاتها، لإبقاء الجهد الرئيسي المعادي في ذلك القاطع، ولتسهيل عمليات تحرير الفاو التي أصرّ الرئيس على تنفيذها بأقرب وقت ومهما كان الموقف في القاطع الشمالي الذي كان رئيس أركان الجيش يفضّل حسمه قبل التورط في معارك كبيرة في الجنوب.

في 1988/3/19 شـنّت المقاتلات العراقية سلسلة من الغارات العنيفة على أربـع مـدن إيرانية، وهاجمت جزيرة تصدير نفط خرج، وردّت إيران بضرب بغـداد بصاروخ واحد، وآخر على مدينة تكريت، وآخر ضربت به لأول مرة مدينة الكوت. في بغداد، أعلن عن نجاح هجوم صاعق على مواقع زعيم الحزب الـوطني الكردسـتاني جلال الطالباني قائد حركة التمرد في القسم الشرقي من شمـال القطـر، إلا أنه كان خارج مقره فنجا. كذلك قام العدو، بشنّ تعرض استهدف مواضع الفرقتين 16 و21 في ساحة العمليات الوسطى، إلا أنه لم يحقّق شيئاً يذكر.

في 1988/4/2 شنّت الفرقة المدرعة العاشرة، وعدد من التشكيلات الأخرى سلـسلة مـن الهجمات غير الموفقة لمعادلة الموقف السيئ في قاطع حلبجة، إلا أن الأمور سارت من سيئ إلى أسوأ، وكأن ليلاً طويلاً خيّم على طول ساحة الحرب، وبات الأمل بالنجاح ضئيلاً.

في 1988/4/7 طلب مني رئيس أركان قوات الحرس الجمهوري اللواء الركن ابراهيم الآغا الحضور إلى دائرته. وكنا آنذاك في القاطع الجنوبي في البرجسية جنوب البـصرة، ثم طلب مني أن أقسم على المصحف الشريف بكتمان التخطيط لمشروع عملـيات تحرير شبه جزيرة الفاو بالتعاون مع الفيلق السابع، والقوة الجوية، والقوة البحرية، وطيران الجيش. وكان مجمل تخطيط الحرس الجمهوري يقوم على الهجوم بجبهة فرقتين، وعمق فرقة ثالثة مع الاحتفاظ بفرقة رابعة كاحتياط.

كان نطاق عمل قوات الحرس الجمهوري في القاطع الغربي من المنطقة المحتلة أي مـن الطريق الاستراتيجي (داخل) إلى خور عبد الله (الساحل) داخل. وكنت العضو الثالث من فريق التخطيط الذي ضمّ بالإضافة إلى ضابط استخبارات قوات الحـرس الجمهوري العقيد الركن حازم مهدي، ثم العقيد الركن نظام طه، إضافة للقائـد ورئيس أركانه. كان عملنا مضنياً للغاية، إلا أنه كان مرغوباً به لسببين، الأول للـثقة التي حصلنا عليها، والثاني للرغبة بالمشاركة في إعداد المشروع الكبير لتحريـر جزء عزيز من الوطن، والذي كان قد بدأ قبل فترة طويلة، إلا أنه توقّف عـدة مـرات. وكـان التخطيط يجري وفق سياق التخطيط القياسي للعمليات

وبإشراف فريق محدود من القيادة العامة للقوات المسلحة برئاسة الرئيس صدام حسين.

بدأنا بهيكل الخطة العامة (فكرة العمليات)، ثم بجدول طويل من محاور الاستحضارات، مع وضع جدول زمني لكافة الفعاليات (خطة التحشد وخطة المخادعة)، وكان إجمالي الألوية المخصّصة لتنفيذ المشروع عشرين لواءً مختلفاً، و44 كتيبة مدفعية وصواريخ، بالإضافة لألاف الأطنان من مواد تموين القتال، وخمس كتائب هندسة. مع قيامنا بالاستطلاعات الرئيسية والتفصيلية لبعض المحاور والأهداف، صدر ثاني توجيه تخطيط للقادة المنفذين، وعرضت الخطة أمامهم، وطلب منهم عرض خططهم تحت غطاء تمرين تعبوي. وكانت المشكلة الأساسية هي معالجة معضلات التربة الرخوة، والقنوات المائية، والموانع المركبة لإنجاز الصفحة الأولى من القتال. وكان قد حدّد يوم 1988/4/15 يوم ي (أي يوم الشروع بالقتال) لقد كان الإعداد لهذا المشروع جارياً فيما المعارك مستعرة في القاطع الشمالي الشرقي من القطر. ورافق ذلك سلسلة من الإخفاقات، وكان الموضوع حساساً جداً، وعليه كان يتوجب على قواتنا تحقيق النصر المنشود، وإلا فإننا سنخسر الحرب لا محالة. إن القرار السوقي (الاستراتيجي) الخطير الذي اتخذه الرئيس صدام حسين (بإبقاء مركز ثقل السوق العراقي في أدنى الجنوب، بالرغم من أن مركز ثقل السوق المعادي الإيراني قد حقّق نجاحات كبيرة في أقصى الشمال الشرقي للعراق) كان بالتأكيد قراراً استراتيجياً شجاعاً مبنياً على حسابات دقيقة، مع مجازفة كبيرة في ظل الظروف القاسية. ورافق ذلك خطة مخادعة سوقية (استراتيجية)، أعدّت بدقة عالية، حتى أن رئيس أركان الجيش الفريق أول الركن نزار الخزرجي كان يعتقد أن تلك الخطة هي الحقيقة، وفقاً لما سمعناه من مدير الاستخبارات العسكرية (الغريب أن يستبعد رئيس أركان الجيش من المشاركة والإشراف على أخطر عملية في الحرب، في حين أشرك معاونه للعمليات الفريق الركن حسين رشيد، ومدير الاستخبارات العسكرية اللواء الركن صابر الدوري، ومعاونه العميد الركن وفيق السامرائي، وعدد آخر من ضباط وزارة الدفاع في عملية التخطيط هذه!) وهذا بالتأكيد أحرج رئيس أركان الجيش كثيراً، وأثّر على

نفسيته أو على ولائه للرئيس. وفي غرفة عمليات الحرس الجمهوري وحال تحرير الفاو قال الرئيس: لرئيس أركان الجيش بالحرف الواحد: "لقد دخلت التاريخ يا فريق نزار من أوسع أبوابه في هذه المعركة، لأنك رئيس أركان هذا الجيش العظيم". فرد عليه: "شكراً سيدي"، مع نظرة فيها الكثير من العتاب، فسرّها في لحظتها وأنا أراقب ملامح وجهيهما بأن ذلك نوع من الترضية لرئيس أركان الجيش، (ثم كشف الزمن فيما بعد حقائق مثيرة تحتاج إلى الكثير من التفسير. هروب المومأ إليه من العراق، والتحاقه بالمعارضة، وشابه هذا هروب وفيق السامرائي معاون مدير الاستخبارات العسكرية الحاصل على دعم ورعاية مميّزتين جداً من قبل الرئيس صدام. وأشيع وسط دهشة الجميع أن جلال الطالباني قد أغواه للعمل لصالحه منذ عام 1982، وهناك حادثة غامضة في إعادة أهم عملاء الاستخبارات من الإيرانيين ضمن تبادل الأسرى المرضى إلى إيران دون ترخيص رسمي، وبأمر من المومأ إليه. وقد يكون هذا قد أوشى حال وصوله بمصدر معلومات مهم جداً لاستخباراتنا يعمل بالقرب من القيادة العسكرية الإيرانية، فأعدم على الفور، فغضب الرئيس منه ونقله إلى منصب أدنى - ضابط استخبارات الفيلق السابع - وبعد فترة أعيد إلى منصبه الأول لثقة الرئيس العالية به حسب ما أشيع عنه في وقته).

كان للقرار السوقي (الاستراتيجي) الخطير بتحرير شبه جزيرة الفاو بالتأكيد ما يبرره:

- إن 70% من القدرة الإيرانية تعمل في ساحة العمليات الشمالية.
- إن 60% من القوة المدافعة في قاطع شبه جزيرة الفاو المحتل قد تحرّكت شمالاً.
- توفّر معظم قوات النخبة في القاطع الجنوبي ومنها قوات الحرس الجمهوري مركز ثقل الجيش العراقي.
- العدو في حالة غرور، وقد أعمت بصيرته نجاحاته الأخيرة في الشمال. وبات يعتقد أن زمام المبادرة لن يفلت من قبضته حتى نهاية الحرب.
- أصبحت الفاو أكثر من هدف سياسي ووطني، وشكّلت حاجزاً نفسياً صعباً للغاية، وعليه فتحريرها سيشكل بلا شك منعطفاً خطيراً في الحرب لصالحنا.

وفي ذلـك الوقت، أي في العام 1986، صرّح خامنئي أنه سيذهب إلى بغداد ليهنئ صدام حسين إذا ما تمكّن من استرجاع الفاو.

كانت المعلومات المحصلة عن القطاع المحتل في الفاو جيدة بل ممتازة، حيث إن آخر تصوير جوي للقاطع بتاريخ 1988/3/30 كان يحتوي على تفاصيل دقيقة جداً عن توزيع القطعات، والأسلحة، والعقد الدفاعية، والأسلحة الساندة. وعلى غرار المعلومات المحصلة سابقاً، تمّ إعداد وإنشاء مسرح قتال مشابه جداً في قاطع العمارة (الأهـوار)، وتـدرّبت معظم الوحدات والتشكيلات على طبيعة الأرض، وعلى أهـداف مـشابهة لمـا سـتواجهها في معركة التحرير. وثابر قائد قوات الحرس الجمهـوري علـى رفع قدرة قواته لبلوغ المستوى الذي يؤمّن لها الظفر في القتال لتحريـر الفـاو، وهي المهمة التي أقسم على تحقيقها حين استلم مسؤولية الحرس الجمهوري. وكان الرئيس صدام موفّقاً في اختيار هذا القائد المثابر والشجاع جداً.

تمّت مناقشة خطط القادة وفقاً للمهام التي أعطيت لهم حيث كانت مسؤولية تحريـر الجـزء الغـربي من شبه جزيرة الفاو من مهمة فرقة المدينة المنورة حرس جمهـوري والذي يبدأ من خور عبد الله، إلى نصف قاطع المسؤولية، وبالعمق إلى المـشروع 81 (مشروع قديم لصواريخ البحرية العراقية)، أما مسؤولية فرقة بغداد حـرس جمهوري فكانت من الطريق الاستراتيجي الذي يحدّ قاطع مسؤولية الفيلق السابع إلى الحدود الفاصلة مع فرقة المدينة المنورة حرس جمهوري وبالعمق إلى نهاية منطقة المملحة، بحيث تكون الصفحة الأولى لقوات الحرس الجمهوري هي احتلال قاطع المملحة (منطقة ملحية) المعقد والذي يستند على مشروع التغذية بالمياه (قناة لإيـصال المياه من شط العرب إلى مقربة من خور عبد الله كمانع صناعي لإغراق المـنطقة بالمـياه)، أما مهمة فرقة حمورابي حرس جمهوري فكانت الصفحة الثانية، وهـي تحريـر مديـنة الفاو بالتعاون مع جهد الفيلق السابع والاندفاع إلى (رأس البيـشة)، أي إلى رأس المـثلث البري العراقي المطلّ على الخليج العربي، أما فرقة الاحتياط فتكون فرقة نبوخذ نصر حرس جمهوري بقيادة العميد الركن أزهر سعد الله. وبعـد العـرض جـرت عدة تعديلات على خطتي فرقة المدينة المنورة حرس جمهـوري بقيادة العميد الركن أحمد حماش وفرقة حمورابي حرس جمهوري بقيادة

العميد الركن ابراهيم عبد الستار، أما خطة فرقة بغداد حرس جمهوري بقيادة العميد الركن عبد الواحد شنان فكانت مستوفية، وكانت أعقد الأعمال والمهام هي الجهد الهندسي الذي كان يتمحور على موضوعين أساسيين الأول فتح الممرات والمجازات في أكثف حقول الألغام في ساحة الحرب، والثاني هو تأمين إكساء المنطقة الرخوة لتسمح باندفاع الدروع والعجلات عبر فرش حُصّر معدنية وكذلك إكساء الممرات بمادة السبيس والحصى، هذا علاوة على تأمين الجسور الصغيرة، وتهيئة وسائد الأحذية العريضة لمنع غوص أرجل قطعات الصولة. وكانت الحسابات معقدة، وتأمينها معقد أكثر، ولكن الهمة كانت عالية، وتمّ تأمينها والحمد لله. وكان من ضمن واجباتي كضابط ركن العمليات عرض ما نتوصّل إليه على معاون رئيس أركان الجيش للعمليات المخوّل بذلك، ومنه إلى الرئيس صدام حسين حيث كنت أستقلّ طائرة مروحية إلى مديرية الاستخبارات العسكرية برئاسة اللواء الركن صابر الدوري لاطلاع الشخص المخوّل على الخطة وهو العميد الركن وفيق السامرائي، ثم أستقل إحدى عجلات ديوان الرئاسة إلى مبنى القيادة التي اتخذت آنذاك من أحد قصور الضيافة مقراً لها في بغداد (قصر بغداد). وبعد نضوج الخطة، وإكمال التحشد الكبير، ذهب قائدنا إلى القيادة العامة للإقرار النهائي للخطة، فعاد إلينا في اليوم التالي بعد المصادقة والإقرار، إلا أن يوم بدء العمليات أصبح يوم 1988/4/17 بتأخير يومين لعدم تكامل استحضارات الفيلق السابع بقيادة اللواء الركن ماهر عبد الرشيد، وكان هذا اليوم يصادف الأول من رمضان المبارك، فأطلق الرئيس صدام حسين على هذه العملية اسم عملية رمضان مبارك، وكانت هاتان الليلتان المضافتان ليوم (ي) ثقيلتين جداً، وذلك لخشيتنا من كشف العدو لنوايانا، وكانت عناية الله سبحانه وتعالى لصالحنا حيث ساءت الأحوال الجوية، مما حدّ من إمكانيات الرصد المعادي، حيث كان للعدو أكثر من 70 برجاً كبيراً للرصد والمراقبة.

ليلة الهجوم الكبير، حَضَر الرئيس صدام حسين ونائب القائد العام عدنان خير الله إلى مقرنا، وأدار جزءاً من المعركة من غرفة عمليات قوات الحرس الجمهوري، وقد كلّف نجليه بمشاركة قائدي الحرس الجمهوري والفيلق السابع

كمراقبين، فعدي كان مع قوات الحرس الجمهوري وقصي كان مع الفيلق السابع (لقـــد تزوج قصي في العام 1986 من ابنة اللواء ماهر، وقد التزم هذا الأخير أدبياً أمام الرئيس بتحرير الفاو نظراً لهذا التشريف الذي منحه إياه من خلال المصاهرة)، وفي الـــساعة 8:00 يـــوم 1988/6/16 أُبلغ آمرو التشكيلات والوحدات المقاتلة بالمهمة الكبرى، والذين لم يكن قد صرح لهم بالخطة من قبل (منذ 6 أشهر قبل هذا اليوم علم كل آمر وحدة، أو آمر لواء بهدفه وتدرّب على احتلاله في ميدان مشابه لقاطـــع الفاو كما ورد سالفاً) وذلك لأغراض الكتمان والمحافظة على أمن الخطة. ثم أجرينا التدقيق النهائي لمنظومة القيادة، والسيطرة، وموقف القوات بالوقت الذي عـــدّلت فيه الساعة (س) من الساعة 05:30 إلى الساعة 06:30، في الساعة 04:30 مـــن فجر يوم 1988/4/17 أطلقت أكثر من ألف فوهة نيران القصف التمهيدي المركّز، ومن ضمنها ضربة بالسلاح الكيميائي (لقد غيرت الريح اتجاهها مما اضطر قواتنا للاستمرار بلبس الأقنعة الواقية خلال القتال، وقد تأثّر مقر الحرس الجمهوري بذلك قليلاً). وبدءاً من الساعة 06:00 شاركت الدبابات المخصصة لتدمير النقاط الحـــصينة الأمامية من على منصات صنعت لها، وقد خصّص مدفع واحد لمشاغلة كل مرصد معادٍ بعتاد الانفلاق الجوي، وشاركت القوة الجوية، وعدد من زوارق البحـــرية في مرحلة القصف التمهيدي. وفي تمام الساعة 06:30، انطلقت وحدات الصولة لاقتحام الحاجز النفسي الكبير (إن حجم الخسائر الهائلة التي تكبّدها جيشنا خـــلال السنتين الماضيتين في الفاو أحدث حاجزاً نفسياً كبيراً أمام قواتنا) وحاجز مـــنظومة الموانـــع تحت ستر النار الساترة. بعدها لم ننتظر كثيراً، فسرعان ما بدأنا نـــستمع مـــن خلال الاتصالات (الأجهزة اللاسلكية) البشائر الأولى للنصر، ثم لم تتأخـــر القطعات المعقبة الأخرى من زف أخبار النصر الواحد تلو الآخر ونحن غير مـــصدقين من سرعة ذلك النجاح، وكنت بين الحين والآخر أنظر إلى وجه القائد فـــلا أجـــد فيه أثراً للمفاجأة، فكأنه كان واثقاً كل الوثوق من نتائج هذا الهجوم ســـلفاً. بعد مرور ست ساعات، كانت كل التشكيلات الأمامية في أهدافها عدا قاطـــع لواء قوات خاصة 16 حرس جمهوري الذي كان بإمرة العقيد الركن طلال القيسي حيث كان المانع المائي كبيراً وعميقاً، وقد تركّزت أمامه قوة معادية كبيرة

تمكّنت من إيقافه. ومن خلال مواطئ النجاح الأولى، تمّ دفع القدمة الثانية من قدمات الصولة، ومن خلال قاطع اللواء 6 بقيادة العقيد الركن رعد رشاد، تمّ الالتفاف حول مقاومة اللواء 16 قوات خاصة حرس جمهوري، فتمّ تدميرها، وانطلقت الألوية المدرعة والآلية بالاندفاع نحو العمق. ومع حلول ليل ذلك اليوم أكملت بشكل نهائي كافة تشكيلاتنا أهدافها للصفحة الأولى بكل مراحلها، كذلك وردتنا أخبار النصر في قاطع الفيلق السابع الذي كان يقاتل في القسم الشرقي حيث كانت غابات النخيل الكثيفة، إلا أن قواته كانت تتعرض لقصف جانبي من الضفة الشرقية لشط العرب.

في ليلة 17-18 نيسان/أبريل 1988 وبعد أن أكملت فرقنا الأمامية بشكل نهائي احتلال أهدافها وكذلك فرق الفيلق السابع، قام آمر مدفعية هذا الفيلق اللواء نايف قصب جنديل بزيارة مقرنا على ضوء توجيه الرئيس صدام حسين بضرورة تكثيف إجراءات التنسيق، فاطلع على موقف قواتنا، وأطلعنا على موقف قوات فيلقه، فرجا الموافقة على طلب قائده بإيقاف القصف التمهيدي على مدينة الفاو، وإيقاف قطعاتنا التي اقتربت من المدينة لإعطاء حرية عمل للفرقة 6، حيث كان اللواء 30 المدرع أيضاً قريباً من تلك المدينة (الهدف السياسي)، فقد كان هناك تنافسٌ شديدٌ لكسب شرف دخول الفاو بين الفيلق السابع وقوات الحرس الجمهوري. وعندما استأذن للعودة إلى فيلقه، رفض المومأ إليه استلام أية وثيقة من مقرنا لاعتبارات اعتبرها أدبية، لأنه برتبة لواء وليس ضابط ارتباط (هي مسألة طبيعية لو أخذت برؤية أخرى). وضمن هذا الموقف، أنّب حسين كامل بشدة رئيس أركان الفيلق السابع اللواء الركن حكمت عبد القادر الذي اتصل به هاتفياً وطلب منه إبلاغ قائده بكلمات مهينة برفض طلبه حيث كان حسين كامل يأمل أن يكسب شرف التحرير قبل غيره.

بعد ذلك ألحّ المشرف على الحرس الجمهوري حسين كامل لدفع اللواء 20 حرس جمهوري الذي يقوده جواد رومي الذي أراد من خلاله ضمان السبق بتحرير الفاو لاعتقاده أنه قريب جداً من مدخل المدينة وأقرب من اللواء 19 حرس جمهوري وكتيبة دبابات الفارس التابعة للواء المدرع 17 من فرقة حمورابي اللذين

كانـــا على بعد كيلومترين ومشتبكين مع العدو. في الحقيقة، كان اللواء 20 يبعد مسافة غير قليلة عن سياج المشروع 81 وكان يعتقد أن الفوج الثاني من اللواء 20 في شمال شرق المشروع أي أنه سيتمكن من تجاوز المقاومة ودخول المدينة سريعاً. لقد تمّ للمشرف ما أراد، رغم اعتراضنا المؤدب على تغيير الخطة لأن حركة المشاة في الليل بطيئة جداً، ولأننا آثرنا التمسك بأوقات تنفيذ الصفحة الثانية التي كانت مقــررة فجــراً، ثم تلحقها الصفحة الثالثة للاندفاع إلى منطقة رأس البيشة، إلا أن حسين كامل أصرّ على دفع ذلك الفوج ليلاً في حين وافقنا نائب القائد العام، غير أن الــرئيس أيّــد حسين كامل، و لم يجد هذا العمل نفعاً... وقد لاحظنا بشكل غــريب أن الــرئيس يأخذ بمشورة حسين كامل أكثر من نائبه الذي كانت آراؤه أصــوب وأكثــر احتراماً له من الأول، الذي كان في تصرفاته الكثير من الرعونة علاوة على الافتقار الشديد للخبرة.

بدأت الصفحة الثانية بقصف تمهيدي ونار ساترة فدارت معركة شديدة، إلا أن المقاومة المعادية كانت لا تزال قوية قرب عقدة التقاء الطرق قبل مدخل المدينة. وفي الـــساعة 12:00 أعلن اللواء 19 حرس جمهوري تتقدمه كتيبة دبابات الفارس التي يقودها المقدم الركن سالم حافظ من اللواء 17 المدرع حرس جمهوري دخول الفـــاو، ورفع العلم العراقي. وتداخل ذلك أيضاً مع دخول قطعات من اللواء 30 المـــدرع من الفيلق السابع، فزفّت البشرى الكبرى. وهنا أمر الرئيس صدام حسين دمج وتداخل الصفحة التالية دون انتظار مرحلة ترصين الهدف حيث اندفعت فرقة حمـــورابي حرس جمهوري لتحقيق وإكمال الصفحة الثالثة. فوصل لواء المشاة 23 حـــرس جمهـــوري بقيادة العقيد الركن صالح يوسف إلى (رأس البيشة). وهنا أمر الرئيس صدام حسين بالسماح للعدو المنهزم بعبور شط العرب على جسر الأنابيب المقام من قبله لإشاعة روح الهزيمة في قطعات العدو في الضفة الشرقية لشط العرب. وبعـــدها تساءل هل لنا الإمكانية لدفع قوة إلى الضفة الشرقية (الأراضي الإيرانية) لتأكـــيد الاقتدار العراقي؟ فرجى أعضاء القيادة العامة الحاضرون، وخاصة الفريق الطـــيار الحكم التكريتي الاكتفاء بتدمير ذلك الجسر بالقوة الجوية (المقصود جسر الأنابيب المشهور).

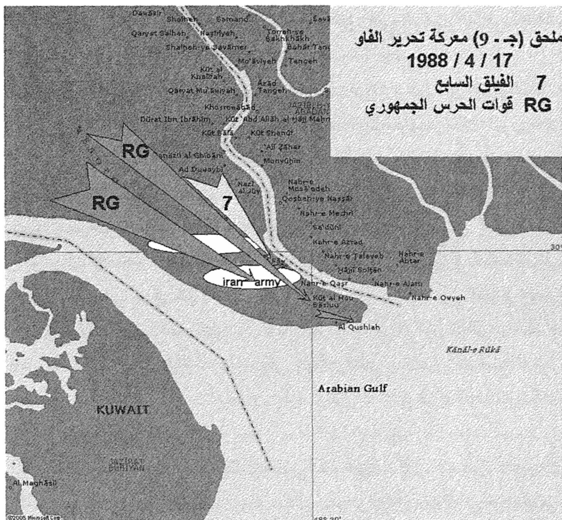
لقــد كتب الرئيس صدام حسين نص بيان النصر، وأملاه بالهاتف على وزير الإعلام لطيف نصيف جاسم، وأذيع البيان بعد قليل على الشعب العراقي المجاهد، فكان نصراً عظيماً، وكانت فرحة عظيمة، وكان حدثاً عظيماً.

قلب هذا النصر الموازين، وارتفعت معنويات قواتنا وشعبنا إلى عنان السماء، وحلــت الــصدمة بالعدو، وكأنه لم يصدّق ما حدث. وعصر ذلك اليوم، حلّق الــرئيس صــدام حــسين ووزير الدفاع فوق الأراضي المحررة بواسطة الطائرات المروحية. وكانت آثار القصف المدفعي والصاروخي إحدى الملاحظات التي تكلّم عــنها الــرئيس فيما بعد. وأثّر التخطيط والاستحضارات الجيدة في تحقيق النصر، والحق يقال كان نصراً للسوق (للاستراتيجية) قبل أن يكون نصراً في ساحة القتال، لأن الإبقــاء على مركز ثقل السوق العراقي الذي نفّذ الهجوم على الفاو في أقصى الجــنوب فاق قدرة الخصم على ردّ الفعل نظراً لبعد مركز ثقل قواته المتواجد في أقصى الشمال، أي أن هذا القرار السوقي (الاستراتيجي) الخطير والشجاع للرئيس صــدام حسين حقّق شرطين أساسيين لكسب المعركة (التفوق في الزمان والمكان، والحصول على حرية العمل).

كانــت تضحياتنا مقبولة فلم تتجاوز ألف شهيد بكثير، في حين سبق ذلك أكثــر من واحد وخمسين ألف شهيد خلال سقوط الفاو ومعارك الهجوم المقابل. وهــذا دليل على حبّ الوطن، وقدرة القوات المسلحة والشعب على التضحية من أجل كرامة الوطن وطهارة ترابه.

لقد حدث ما توقّعه الرئيس صدام حسين من أن معركة تحرير الفاو هي بوابة النصر الكبير، وأنها معركة المنعطف لكسب الحرب... أما إيران فاعتبرت خسارتها لهــذه الحــرب نتــيجة لمؤازرة أميركا والغرب للعراق. بل ذهب بعض المسؤولين الإيــرانيين بعيداً حينما قالوا إن الأميركيين شاركوا بالمعركة إلى جانب العراقيين، وادّعــى بعــض المحللــين العرب أن التخطيط لهذه المعركة يعود إلى ضباط ركن مصريين (في الحقيقة إن هذين الادعاءين باطلان).

خريطة معركة تحرير الفاو



معركة توكلنا على الله الأولى

كانت نتائج معركة تحرير الفاو (رمضان مبارك) ليلة 17-1988/4/18 رائعة وكبيرة من الناحيتين المادية والمعنوية، وكانت حقاً معركة المنعطف الكبير في مسار الحرب ومفتاح كسبها، وقد رافقها ضجة إعلامية كبرى على المستويين العربي والدولي، وعندها تمّت استعادة المبادأة، بل تمّ انتزاعها من العدو، الذي بدأ يترنّح ويفقد توازنه من هذه الضربة التي كسرت فكه الزجاجي. وحاول الإعلام المعادي أن يصوّرها كضربة تحت الحزام، ولكننا نعلم قبل غيرنا أن تلك المعركة تمّ التخطيط لها منذ أمد بعيد، حتى جاء القرار الاستراتيجي الشجاع والخطير للرئيس صدام حسين في الوقت والمكان المناسبين لتنفيذ أول وأخطر معركة لحسم الحرب لصالحنا.

صباح يوم 1988/4/27 أقسمت اليمين مجدداً للتخطيط لمهمة تحرير أخرى، ألا وهي مهمة تحرير الأراضي العراقية المحتلة في قاطع (الشلامجة) التي خسرناها في معارك العام الماضي. وبعد أن وضع قائد الحرس الجمهوري فكرة عملياته الأولية، خرجت معه لاستطلاع ذلك القاطع، وكان معظم استطلاعنا سيراً على الأقدام في الخنادق الأمامية لقواتنا المدافعة هناك، ومنطقة الشلامجة ومن ضمنها ناحية – عتبة – حتى نهر جاسم من الجنوب إلى الشمال، ومن كوت سوادي شرقاً حتى شط العرب جنوباً ومن ضمنها جزيرتي الفياض – وشلهة الأغوات وخشم البحيرة. فيها ثلاثة مقتربات، المقترب الشرقي ويمتدّ من الضفة الغربية لبحيرة الأسماك إلى طريق الشلامجة التنومة داخل. أما المقترب الوسطي فيمتدّ من طريق الشلامجة التنومة خارج حتى شط العرب الصغير خارج، والذي تكون الحركة فيه محدودة إلا على الطرق والسداد حيث الأرض بشكل عام مغمورة ومكسوة بنباتات القصب والبردى والبساتين المحروق معظمها، حيث أصبح معظم جذوع النخيل كأعمدة سوداء، وخاصةً في المنطقة المحصورة ما بين خط جاسم وعطفة نهر السليمانية وحتى شط العرب الصغير، أما المقترب الثالث (الغربي) الذي يوصل بين شط العرب الصغير والضفة الغربية لشط العرب التي تقع ضمنها جزيرتا الصالحية طويلة الفياض فيعتبر مسلكاً مائياً.

لقد تفحّصنا المنطقة جيداً، وحدّدنا مواقع العدو الأمامية وعمقها بدقة من خلال المراصد التي تشكل خط الدعيج، إلا أن المنطقة أصبحت معقدة جداً من حيث الموانع من عقد سواتر ترابية، وحقول ألغام مختلطة كبيرة، وموانع سلكية متنوعة.

كان التخطيط يجري بسرية عالية، كما كان في المعركة السابقة، إلا أن وضعنا النفسي كان مريحاً، وكنا متفائلين جداً، وجرى ذلك وفق السياق الأكاديمي من أول توجيه تخطيط وإلى إصدار سلسلة من الأوامر الخاصة بالاستحضارات والتنفيذ، فكان عملاً متكاملاً بالرغم من صعوبته، فكنّا نسهر عدة ليالٍ متوالية، وكان معدل الوثائق التي كنت أحرّرها أو أرسمها يزيد عن ثلاثين وثيقة كل ليلة، وكان ممنوع علينا استخدام الآلات الطابعة وأجهزة الاستنساخ لشدة ضوابط أمن الخطط. وخلال تلك الفترة، أعلن تلفزيون بغداد عن تجربة ناجحة لصاروخ عراقي أرض - أرض بمدى (900 كم) أطلق عليه اسم (العباس).

صباح يوم 1988/5/10 وخلال مؤتمر عرض الخطط من قبل القادة المنفذين، استلم قائد الحرس الجمهوري توجيهاً من القيادة العامة بأن موعد تنفيذ خطة تحرير الشلامجة هو 1988/6/1 بمشاركة الفيلق الثالث الذي سينفّذ مهاماً ثانوية باتجاه كوت سوادي، أما الجهد الرئيسي المحصور ما بين خشم البحيرة خارج إلى شط العرب داخل فسيكون من مسؤولية قوات الحرس الجمهوري. وبعد إجراء بعض التعديلات على الخطط تمّ إقرارها، وبدأنا بإعداد الوثائق النهائية مع رسم الشفافات الملحقة بها.

فجر يوم 1988/5/14 شنّت عدة تشكيلات من طائراتنا المقاتلة غارة جوية (استراتيجية) بعيدة بمدى 1200 كم عن البر العراقي على جزيرة لاراك الإيرانية النفطية عند مدخل الخليج العربي (كان هناك جهد استخباراتي عراقي في الإمارات العربية، يتابع حركات وتوقيتات السفن الإيرانية)، حيث أصبح للعراق ذراع طويلة يضرب فيها القدرات المعادية العسكرية منها والاقتصادية. وفي الساعة 09:00 يوم 1988/5/17 عقد مؤتمر تنسيق للخطط النهائية في مقر الحرس الجمهوري بمنطقة البرجسية جنوب غرب البصرة على ضوء تقديم يوم بدء العمليات

من 1988/6/1 إلى يوم 1988/5/26، فبدأنا بتسريع خطط التحشد، وتعديل أسبقيات التنقل للقطعات المنفذة، وكذلك تطوير خطط المخادعة. وقد ذهبت إلى بغداد كما في التحضير للمعركة السابقة بطائرة مروحية لأعرض تلك الوثائق على مديرية الاستخبارات العسكرية أولاً، ومنها إلى مقر القيادة العامة، وصادف ذلك خلال عيد الفطر المبارك، ثمّ عدت مساءً بنفس الطائرة إلى البصرة.

خلال مرحلة الاستحضارات وتحشد القطعات، تأكّدت لنا قوة العدو كالآتي: سبعة أفواج مشاة في خط جاسم، وستة أفواج في الساتر الحدودي شلهة الأغوات، وسبعة أفواج مشاة أخرى في خط الدعيج أي العمق، مع احتفاظ العدو بعشرة أفواج مشاة كاحتياط خلف خط الحدود الدولية بالإضافة إلى فوج دبابات في الخط الدفاعي الثاني من اللواء 3 المدرع الفرقة 92 المدرعة وبإسناد 40 مدفعاً وقاذفاً للصواريخ.

لقد بذلت وحدات الهندسة جهوداً كبيرة جداً، وقدّمت تضحيات غير قليلة في عمليات فتح الممرات والمجازات في حقول الألغام، وفي فتح الطرق لقطعات الصولة حيث كانت الألغام المختلفة تقدّر بمئات الآلاف وبدون خرائط.

في الساعة 03:45 يوم 1988/5/25 استلمنا أمراً وقع علينا كالصاعقة حيث قدّم يوم ي (أي يوم الشروع بالهجوم) إلى يوم 5/25 بدلاً من يوم 5/26، وصارت الساعة س (أي ساعة شروع القطعات بالهجوم) الساعة 08:30 بدلاً من الساعة 06:30. فيا للهول كيف نعدّل ونسرّع الخطط، بينما كل ما لدينا من الوقت هو ساعات قليلة! كان الموقف حرجاً جداً، بل يصعب وصفه، ولعبت أجهزة الاتصال دورها بكل الطاقة المتاحة، وكذلك اندفع ضباط الارتباط وضباط الركن في كل الاتجاهات لتبليغ وتسريع حركة القطعات، وتمّ تحقيق المطلوب. ثمّ جرى تعديلٌ آخر فأُجلت ساعة الشروع إلى الساعة 09:30 بدلاً من الساعة 8:30 لعدم كفاية الوقت، وجرى سريعاً تبليغ إضافة ساعة أخرى على موعد عبور خط الشروع. وفي اللحظات الأخيرة تمّ تبليغ الجميع باستثناء أحد تشكيلات فرقة بغداد حرس جمهوري حيث وصله التبليغ بعدما كان قد عبر خط الشروع بثلاثمائة متر، فأوقفت حركته. وكان ذلك أحرج موقف للواء يقف ما بين خط الشروع وخط الأماكن الدفاعية الأمامية للعدو بالوقت الذي استمرت به المدفعية بقصفها التمهيدي.

وكانـــت أعدادٌ كبيرة من دباباتنا ومن على دكات (مساطب) مهيئة مسبقاً قد بدأت بالرمي المباشر لتدمير مزاغل الرمي ومنعات العدو قبيل الساعة س (ساعة الهجوم أو ساعة الصفر) بقليل، أي قبل ضباب المعركة الذي سيحجب رؤية الدبابات.

في الساعة 09:30 يوم 1988/5/25 بدأت مئات المدافع وضمن منهج موقوت بـتأمين النار الساترة لقطعات الصولة وضمنها ضربة كيمائية، فانطلقت الفصائل الأمامـية بعبور الممرات التي فتحتها قطعات الهندسة في الليلة الماضية، حيث غطت سـحب الأتربة ودخان المقذوفات تلك الممرات وشكّلت حجاباً كثيفاً ستر تقدّم مقاتلينا نحو أهدافهم، وملأت صيحاتهم الجو بعبارة "الله أكبر" لتعلو على أصوات المدافـع، وبـدأت صفحة المهارشة بقتال عنيف. وما إن عبرت الأفواج الأمامية حقول الألغام حتى بدأت الهندسة العسكرية بتوسيع الممرات إلى مجازات، فانطلقت من خلالها الدبابات الأمامية للتشكيلات المعقبة.

في الـساعة 10:42 مـن نفـس اليوم استلمنا أول تقرير عن الموقف أفاد باحتلال الخط الدفاعي الأول نهر جاسم، فَعَلَتْ أصواتنا بالتهليل والتكبير وبحمد الله القديـر. وفي الـساعة 11:07 تكامل عبور جحفل معركة (كتيبة دبابات ضـمنها سـرية مشاة آلي) من اللواء 17 المدرع حرس جمهوري الذي يقوده العقـيد الـركن عزيز الحيالي شطَ (نهر) العرب بفجوة 500م على جسر نصبته كتيـبة تجسير الحرس الجمهوري. وكان شكل الجسر مقوّساً لسرعة تيار الماء. وتطلّب عبور الدبابات عليه مهارة عالية من سائقيها، وكذلك من قبل عناصر الهندسـة العـسكرية الذين بذلوا أقصى الجهود للمحافظة على سلامة الجسر، وكانـت قطعـات من الضفادع البشرية من اللواء 26 واجبات خاصة حرس جمهوري قد مهدت لهذا العبور، حيث قضت على المقاومات المعادية في الضفة الـشرقية للشط (للنهر). وكان إنجاز أفرادها رائعاً، فتمّت السيطرة على كتف جزيـرة طويلة. وأعقب ذلك احتلال الجزء الغربي من الخط الدفاعي الثاني (نهر الدعـيج)، في الـوقت الذي استطاعت فيه فرقة المدينة المنورة حرس جمهوري تحريـر الجـزء الـشرقي مـن نهر جاسم، وهي منطقة معقدة جداً تشبه بيت العنكبوت تصل إلى منطقة خشم البحيرة بالألوية 6 و19 و10.

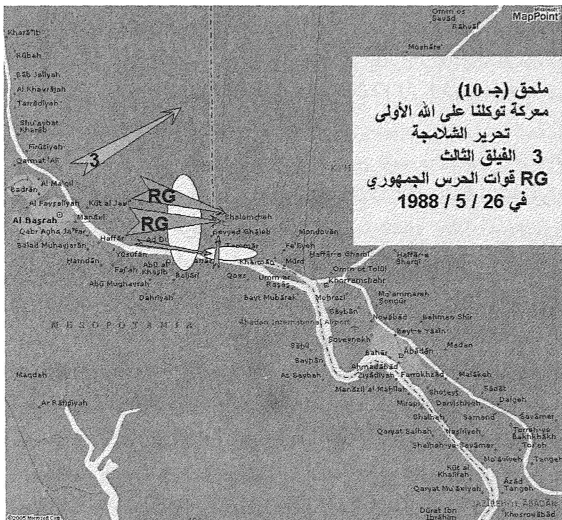
في الساعة 12:00 اندفع اللواء 16 قوات خاصة حرس جمهوري لإكمال احتلال وتحرير جزيرة طويلة مع توغّل فرقة المدينة المنورة حرس جمهوري نحو خط الدعيج. وكان لواء المغاوير 12 واللواء 22 يواصلان تحرير أجزاء أخرى من جزيرة إلى أخرى. وكان أداء اللواء 12 ممتازاً. في الساعة 12:30 زار الرئيس صدام حسين مقرّنا، وتمّ إعطاؤه إيجازاً عن آخر تطوّر للموقف.

في الساعة 12:50 شرعت فرقة بغداد حرس جمهوري بالاندفاع نحو خط الدعيج لإكمال الصفحة الثانية. وفي الساعة 13:25 تمكّنت فرقة المدينة المنورة حرس جمهوري من الوصول إلى أهدافها للصفحة الثانية، كذلك أكملت فرقة حمورابي حرس جمهوري أهداف الصفحة الثانية لها. وفي الساعة 14:45 تمّ احتلال السدة الحدودية التي تمرّ عبرها الحدود الدولية.

في الساعة 15:40 تمّ تحرير جزيرة الفياض، وفي الساعة 18:07 تمّ تحرير آخر نقطة في جزيرة شلهة الأغوات. وبذلك أكملت قوات الحرس الجمهوري مهمتها كاملة. في الوقت الذي أنجز فيه الفيلق الثالث بقيادة اللواء الركن صلاح عبود... مهمته بتحرير الأرض الوطنية المحصورة بين بحيرة الأسماك والسدة الحدودية، كان قاطع عمل فرقة بغداد حرس جمهوري كما قلنا يكتنفه الكثير من الصعوبات إلا أن اندفاع قطعاها حقّق إعجازاً، وكان معظم الآمرين في الأمام، وقد استشهد آمر اللواء 24 العقيد الركن بشير وهو في مقدمة قطعاته.

لقد تبادلنا التهاني بهذا النصر العظيم مع الرئيس صدام حسين، الذي انزوى في ركن من مقرنا مع نائبه وزير الدفاع ليكتب نص بيان القيادة العامة لزفّ البشرى للشعب العراقي الأبي من خلال وزير الأعلام الذي استلم نصه بواسطة الهاتف.

خريطة معركة تحرير الشلامجة



معركة توكلنا على الله الثانية

تحرير جزر حقول نفط مجنون

قاطع عمليات الفيلق الثالث

في 1988/6/12 وعلى ضوء توجيه الخطط المستلمة من القيادة العامة، بدأنا بالاستعدادات مرة أخرى لتحرير جزء آخر من تراب الوطن الغالي، والذي احتله العدو في معارك عام 1984. هذا الجزء هو عبارة عن مجموعة من الجزر الصناعية (سداد ترابية) في هور الحويزة (مستنقع)، يقع القسم الأعظم منها داخل حدود الوطن، وهذه الجزر بنيت لأغراض عمليات استخراج النفط وهي تنقسم إلى مجموعتين، شمالية وجنوبية. ترتبط المجموعة الشمالية بسداد ترابية مع إيران، وبسداد آخر يوصل إلى نهر دجلة يدعى لسان عجيردة الشهير، أما المجموعة الجنوبية فتتّصل بمنطقة السويب القريبة من قضاء القرنة ملتقى نهري دجلة والفرات كرمة علي.

بدأنا في أكثر من اتجاه، بدءاً من جمع المعلومات الدقيقة بالاستفادة من مصادر الاستخبارات السوقية (الاستراتيجية) وخاصة التصاوير الجوية، ومن عملية نقل قطعات ومعدات وأعتدة، إلا أن الموضوع الأكثر أهمية كان جمع وسائط العبور المختلفة إلى حيث يتطلبها مسرح القتال والذي هو عبارة عن مسطحات مائية مختلفة الأعماق تكسو معظمها نباتات المستنقعات الكثيفة، أو أجزاء ترابية رخوة. لقد شكلت مجموعة السداد الترابية العمودية والأفقية والمتقاطعة مجمل مواضع العدو الذي يتألف من لواء باسدران رقم 85 الذي يتكوّن من خمسة أفواج إضافة إلى سرية دبابات من اللواء 3 المدرع الفرقة 23 المدرعة باسدران حرس في حقول النفط الجنوبية، ومن 15 إلى 20 فوجاً من المشاة في حقول النفط الشمالية، وبإسنادها المباشر ثلاثة أفواج مدفعية علاوة على وجود خمسة أفواج باسدران شرق عقدة السداد رشيدة مع الفوج الآلي 145 من اللواء المدرع أعلاه.

كان الفيلق السادس بقيادة اللواء الركن سلطان هاشم يدافع على الحافة الغربية لجزر مجنون والمحاذية لنهر دجلة، أما الفيلق الثالث فكان يدافع على الحافة

الجنوبية لتلك الجزر. كانت مهمة الفيلق الثالث الاندفاع من منطقة كشك البصري المحاذية للحدود الدولية بهدف احتلال مفرق الشهيد باسم في العمق الإيراني، والوصول إلى عقدة الربط ما بين البر الإيراني وحقول نفط بحنون الشمالية، أي القيام بحركة إحاطة لقطع أهم طرق إدامة العدو، أما مهمة الفيلق السادس فكانت الاندفاع لتحرير لسان عجيردة، ثم احتلال عقدة الربط مع سدة الدسم.

أما المهمة الرئيسية لقوات الحرس الجمهوري، فكانت تحرير كامل جزر حقول نفط بحنون الشمالية والجنوبية بالاقتحام المباشر، وبإسناد جوي ومدفعي، وطيران الجيش (مروحيات نقل وهجوم).

كما قلنا، كانت المعضلة الكبرى هي تأمين وسائط العبور من قوارب صولة، وقوارب بمحركات، وأطواف، وبرمائيات، وجسور علاوة على استخدام عجلات القتال والناقلات البرمائية، مع التفكير في استخدام قوة نقل من الطائرات السمتية (المروحية)، ومن المؤكد أننا لم نكن نملك ما يؤمّن دفع كامل القطعات وبجبهة فرقتين عبر هذا المانع الكبير لتحقيق الصفحة الأولى. لقد كانت جهود صنف الهندسة العسكرية عظيمة كما كانت في المعركتين الكبيرتين السابقتين، وكانت معنويات مقاتلينا تيسّر الحلول لأكثر المعضلات. لقد أشارت الدراسة الخاصة لصنف الهندسة العسكرية إلى ضرورة تحديد أولويات دقيقة للغاية. وإن 70% من جهد العبور يجب أن يخصص إلى قطعات الصولة فيما يخصص 30% إلى القدمات المعقبة التي نظمت بثلاث قدمات رئيسية لتحقيق أهداف الصفحة الأولى.

لقد أعددنا خطط تنقل، وتحشد، وتجحفل دقيقة لحشد ثلاث فرق من الحرس الجمهوري في الأمام وفرقة في العمق.

ليلة 12-1988/6/13 قام العدو بشنّ هجوم مفاجئ على جزء من قاطع الفرقة 19 التي كانت بقيادة العميد الركن مجيد السامرائي من الفيلق الثالث في قاطع الشلاجمة المحرر، واستطاع إعادة احتلال منطقة كوت سوادي مخفر بوبيان. فوجّهت عدة تشكيلات من قوات الحرس الجمهوري، وشنّت هجوماً سريعاً طردت فيه العدو مرة أخرى من ذلك القاطع، وسلّمته إلى قوات الفيلق الثالث التي أجرت ترصين لمواضعها. وكان ذلك أول ردّ فعل للقيادة الإيرانية الجديدة

وللقـــوات المسلحة برئاسة رئيس البرلمان هاشمي رفسنجاني بعد إقصاء القائد العام ورئيس أركان الجيش الإيراني.

كانـــت خطـــة الحـــرس الجمهوري تقوم أساساً على استعادة حقول النفط الجنوبـــية بمجنون الجنوبي كصفحة أولى، ثم الاندفاع إلى منطقة حقول نفط مجنون الشمالية كصفحة ثانية بقوة فرقتين لكل صفحة بالاستناد إلى إسناد ناري كبير في مـــرحلتي القصف التمهيدي والنار الساترة (وكان قائد الحرس الجمهوري في وقت ســـابق قد أشرف شخصياً على تدريب مدفعية الحرس الجمهوري على نوعين من الـــنيران الساترة؛ تمركزات نارية ورميات خطية) مع إنـــزال قوة لا تقلّ عن فوج قوات خاصة لقطع طريق انسحاب العدو، ولأسر أكبر عدد ممكن من جنوده، مع تأمين الاتصال مع قطعات الفيلق السادس باتجاه سدة الدسم لسان عجيردة.

بعـــدما أكملنا كافة أعمال الحشد، وإنشاء أرصفة إنـــزال القوارب، وفتح المقرات التعبوية، وتأمين الاتصالات السلكية واللاسلكية.

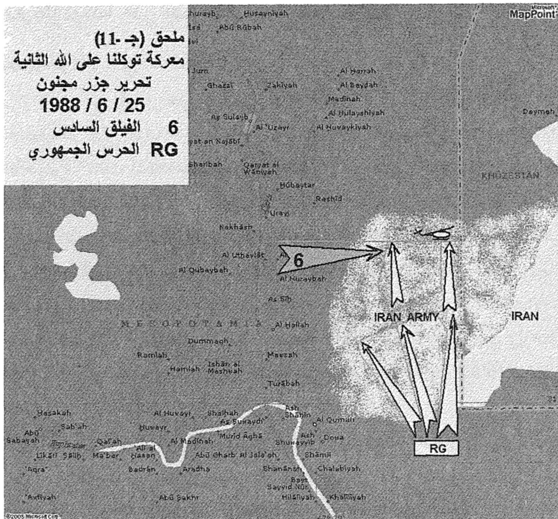
تمّ تدقيق الجهد الهندسي والذي وزّع إلى قطعات الصولة كما يلي:

- 136 طوفاً من القوة البحرية.
- 1460 زورق صولة منها 260 زورقاً مطاطياً.
- 220 زورقاً حاملاً لأسلحة ساندة.
- 2700 دعامة جسر فليني للمشاة.
- 830 دعامة جسر خفيف للعجلات.
- 12 دبابة تجسير.
- جسر بانتونات PMP بطول 500 م.
- إنشاء خمسة أحواض (أرصفة) إنـــزال قوارب.
- 48 طوفاً وبرمائية.
- 138 عجلة قتال PMPI.

في الـــساعة 03:45 يـــوم 1988/6/25 بـــدأ القـــصف التمهيدي للمدفعية والـــصواريخ بحوالى 400 فوهة سلاح. وفي الساعة 04:15 شرعت قطعات صولة

القدمـــة الأولى بعبور خط الشروع. وفي الساعة 06:25 بتاريخ 6/25 أنجزت فرقة حمـــورابي حـــرس جمهوري الصفحة الأولى بخسائر قليلة منها استشهاد آمر لواء المغاويـــر 12 المقـــدم الركن أحمد عكلة فخلفه وكيله وليد توفيق، وشرعت بتنفيذ الصفحة الثانية. وفي الساعة 07:30 من يوم 6/25 أنجزت فرقة المدينة المنورة حرس جمهـــوري احـــتلال أهداف الصفحة الأولى، وشرعت باحتلال أهداف الصفحة الثانـــية. وفي الـــساعة 09:15 مـــن يوم 6/25 أكمل لواء المشاة الآلي 15 حرس جمهـــوري أهداف الصفحة الثانية من أهداف فرقة حمورابي حرس جمهوري. وفي الـــساعة 19:30 تمّ تحرير جزر مجنون بأكملها، وتمّ إنـــزال فوج قوات خاصة من اللـــواء 16 قـــوات خاصة حرس جمهوري خلف خطوط العدو، وتمّ الاتصال مع قطعات الفيلق السادس في سدة الدسم، وكانت تقارير الموقف على مدار ساعات الهجوم تأتي لتؤكد الانتصارات الواحد تلو الآخر في أعقد عمل تعرضي في تاريخ القـــوات المسلحة العراقية، وكالعادة زارنا الرئيس صدام حسين ونائب القائد العام وزيـــر الـــدفاع في مقرنا، وأشرف على سير القتال بقلب مطمئن وواثق بالنصر. والحمـــد لله، أنجـــزت قواتنا تحرير جزء عزيز ومهم من ترابنا الغالي، وبدت ساعة إعـــلان كسبنا للحرب قريبة جداً، وكالعادة أيضاً تناقلت وسائل الإعلام العربية والعالمية وعبر الأقمار الصناعية صوَراً عن ذلك النصر العراقي الجديد.

خريطة معركة تحرير جزر مجنون



معركتا توكلنا على الله، الثالثة والرابعة 1988

معركة توكلنا على الله الثالثة

لقد تأكّد بشكل جلي الاقتدار العراقي، كما تأكّد أن الحرب الطويلة التي خضناها مع إيران قد كسبناها بعون الله. إن نتائج معارك التحرير الثلاث الأخيرة أكّدت بداية انهيار العدو، وفقدانه الإرادة على القتال، وأن معنويات قادته ومقاتليه أصبحت في الحضيض. وتأكّد لنا أيضاً إصرار قيادتنا على إدامة زخم التعرض المقابل العام الذي بدأته قواتنا في 1988/4/17، وذلك بهدف استثمار الروح المعنوية العالية لقواتنا إثر الانتصارات السابقة، ولعدم إعطاء العدو الفرصة لالتقاط أنفاسه، وإن القرار على استمرار التعرض ليس بالأمر الهيّن وهو مجازفة محسوبة بدقة. وتجنب ما يفرضه الواقع من تعب وإرهاق القوات الاستراتيجية قوات الحرس الجمهوري إلا أنه كما يقال "المكافأة تستحق المجازفة".

استلم قائد الحرس الجمهوري توجيه الرئيس صدام حسين بالتهيؤ السريع لتحرير الأجزاء المحتلة من تراب العراق العظيم في قاطع عمليات الفيلق الرابع - قاطع الزبيدات - بالرغم من قساوة المناخ الحار، وتعب القطعات التي أنجزت ثلاث معارك كبرى. وذلك بالتشارك مع قوات من الفيلق الرابع بقيادة اللواء الركن أياد خليل زكي.

إن ساحة العمليات الجديدة ذات أراضٍ متموجة، وكانت سلسلة حمرين تشكل الجزء الوعر منها، ويعتبر نهر دويريج المحاذي للحدود الدولية مانعاً لعمل القطعات المدرعة، حيث يتحدّد العبور بالجسور أو من خلال المخاضات المحدودة. وأهم الطرق في هذه الساحة هو طريق الزبيدات - الشرهاني - عين الخوش. وكان هناك عدة طرق ثانوية أهمها الطريق الموصل إلى منطقة جم هندي، وجم صريم، وموسى الحاوي من مخافر عنكيزة والبجيلية وقد شكلت الأراضي الرملية في درجات حرارة عالية وصلت إلى 56 درجه مئوية عائقاً لقوات المشاة وانهكت محركات المسرفات والمدولبات.

كانـــت قـــوة العـــدو في هذا القاطع تتألّف من فرقة المشاة 21 المعززة بلواء مدرع، وفرقة 77 المشاة الآلية المعززة بلواء مدرع آخر، إضافة إلى اللواء 40 الذي يدعـــى سراب الكون من الباسدران (الحرس) مع خمسة أفواج جندرمة، وكانت تسند هذه القوات مدفعية قوتها 16 فوجاً.

كـــذلك زوّدتـــنا الاستخبارات العسكرية بصور جوية جيدة. بشكل عام، كانـــت القوات المعادية بقسمها الأعظم في العمق الإيراني، أما الدفاعات الأمامية فكانـــت عبارة عن وحدات دفاع خطي مع سلسلة الروابي الحدودية في الأراضي العراقية أو في الأراضي الإيرانية التي يمرّ وسطها خط الحدود الدولية.

كما في المعارك السابقة بدأت آليات العمل في تواتر سريع، ولم يكن مبدأ أمن التخطـــيط والتحشد بنفس الدرجة العالية التي كان عليها في المعارك السابقة. لقد اتـــضح كـــل شيء، وأصبحت المباغتة لا تتحقّق إلا بسرعة إنجاز مراحل العمل، وتجاوز العقبات، فيما العدو لا يزال في حالة صدمة من انتصاراتنا، ولم تعد وسائط نقـــل الدبابات والمسرفات تكفي لحشد هذه القوات الكبيرة وفق توقيت مضغوط جـــداً، مما اضطر قائد الحرس الجمهوري أن يصدر أمره بحركة القطعات وخاصة المدرعة على السرف، وعدم انتظار وسائط النقل السوقي.

كانت مهمة قوات الحرس الجمهوري التي حدّدها توجيه الخطط للقيادة العامة تتمـــثّل بالهجوم على مواضع العدو في منطقة الشرهاني لاستعادة الأراضي العراقية المحتلة من شمال مرصد القائد بحوالى 2 كم وإلى منطقة الحدود الدولية جنوب مخفر الـــشرهاني داخـــل، وتدمير العدو داخل الأراضي الإيرانية من مخفر عنكيزة وحتى شمـــال جم صريم بحوالى 2 كم، ثم الاندفاع إلى منطقة عين الخوش لتدمير مدفعية العدو، ومناطقه الإدارية، وأسر أكبر عدد ممكن من قواته.

إن الإطار العام لفكرة عمليات قائد قوات الحرس الجمهوري، وخطة المناورة لتنفيذ المهمة المستلمة لتحرير الأراضي العراقية المحتلة، وضعت بهدف تنفيذ الاندفاع لأسر أكبر عددٍ ممكن من قوات العدو وذلك بهدف معادلة عدد الأسرى العراقيين في معـــسكراتٍ اعـــتقال العدو. لقد عرضت خطط القادة المنفذين، وبعدها اتخذ القـــرار على أن تُنجز مهمة الحرس الجمهوري بصفحتين. الصفحة الأولى، تهجم

فيها فرقة بغداد حرس جمهوري وفرقة المدينة المنورة حرس جمهوري وفرقة نبوخذ نـــصر حرس جمهوري مع الضياء الأول ليوم 1988/7/12 من مرصد القائد وحتى مخفـــر عنكيـــزة، وتصل إلى منطقة جم صريم، وتبقى فرقة القوات الخاصة حرس جمهوري كاحتياط.

أمـــا في الـــصفحة الثانية، فتهجم فرقة بغداد حرس جمهوري، وفرقة المدينة المـــنورة حرس جمهوري، وفرقة نبوخذ نصر حرس جمهوري على مواضع العدو في مفرق الطريق العام ونهر دويريج وتصل إلى عقدة الطرق شمال جم صريم للوصول إلى عين الخوش، وموسى الحادي في العمق الإيراني.

بعـــد ذلـــك خرجت مع قائد الحرس الجمهوري لاستطلاع نهائي لأهدافنا، وذلـــك على مرحلتين. الأولى بواسطة طائرة مروحية نوع (Bo)، والثانية بواسطة عجلـــة استطلاع صغيرة. وكان كل شيء هادئاً، عدا مدفع عيار 106 ملم رمانا بمقذوفة واحدة، سقطت على مقربة منا، ولم يصب أي منا بأذى.

بعـــدما أكملنا تحشد قواتنا، فتحنا مقرنا التعبوي، ودقّقنا الاتصالات وأماكن قطعاتنا الأماميـــة. لقد بدأت عمليـــة توكلنا على الله الثالثـــة بالساعة 06:45 من يـــوم 1988/7/12 بقصف تمهيدي شديد من مدافع وصواريخ أكثر من 40 كتيبة مدفعية، وفي الساعة 07:15 عبرت قطعات الصولة خطوط شروعها تحت ستر نار المدفعية والدبابات. وفي الساعة 07:42 من يوم 7/12 أكمل لواء المشاة 19 حرس جمهـــوري واللواء 11 (مغاوير) احتلال الساتر الأول، واندفـــع لواء المشاة (20)، ولواء المشاة (5)، ولواء المشاة (22) لاحتلال الساتر الثاني. وفي الساعة 08:00 بدأ القـــتال في الساتر الثاني، وفي الساعة 9:15 تمّ احتلاله، وفي الساعة 10:40 أكمل الفـــوج 1 مـــن اللـــواء 16 قوات خاصة حرس جمهوري احتلال هدفه شمال نهر دويريج، وفي الساعة 11:32 بدأ قتال الصفحة الثانية.

في الساعة 12:57 أكملت أهداف الصفحة الثانية، وشرعت وحدات الهندسة بإزالة السواتر فوراً.

حضر الرئيس صدام حسين إلى مقرنا للإشراف على تنفيذ العمليات، وكان كعادته هادئ الأعصاب، يتفحّص تقارير الموقف بدقة، ويستمع جيداً لإيجاز قائدنا

عـــن سير العمليات، ويبدي ملاحظاته، ثم يتصل بالقادة المنفذين واحداً بعد الآخر ويبارك انتصاراهم، وكواثق بالنصر أشار إلى ضرورة تطوير الموقف لأسر أكبر عدد ممكـــن من قطعات العدو، وتدمير ما يمكن تدميره من أسلحته وأعتدته التي يتعذّر إخلاءهـــا. وكـــان مقدراً جداً لتأثير درجات الحرارة العالية، ومؤكّداً الإجراءات المتخذة لتقليل تأثيرها على القدرة البدنية للمقاتلين.

في الـــساعة 08:40 يوم 7/14 تمّ دفع لواء المشاة الآلي 14 حرس جمهوري بمـــسافة 2 كم باتجاه دهلران، وأعقبه لواء المشاة 19 حرس جمهوري، ثم أعقبه لواء المشاة الآلي 18 حرس جمهوري باتجاه عين الخوش، وتمّ احتلالها عند الساعة 12:58. وفي نفـــس الـــيوم تمّ احتلال مقر الفرقة 21 الإيرانية، ومقر عمليات الغـــرب الإيـــراني، وسبق ذلك إنـــزال فوج قوات خاصة من اللواء 16 قوات خاصـــة حرس جمهوري بواسطة الطائرات السمتية في عين الخوش، وكذلك تمّ الوصـــول إلى منطقة جنانه. وكان مجموع أسرى العدو قد بلغ مساء ذلك اليوم 7221 أســـيراً بـــين ضابط وجندي، وكنّا نتابع عمليات تطوّر الخطة بواسطة الطائـــرات السمتية، وكنت أستقلّ طائرة نوع غزال، ومن خلال تلك الطائرة كـــان يتم عبور المواقف إلى المقر التعبوي أو النـــزول عند التشكيلات بهدف تـــسليمها أوامـــر تعديل الخطط. وكنا نضطرّ أكثر من مرة للهبوط عند تسلم الطـــيار تحذيراً بطيران معاد، وكانت التحذيرات تلك تختلط بدخول الأهداف الـــصديقة (قواتـــنا). وقـــد حدث القتل بالنار الصديقة حينما هاجمت إحدى طائـــراتنا المقاتلـــة زمـــرة إخلاء تتألّف من عدة ضباط ومراتب، وسقط أحد أصـــدقائي القدامى شهيداً في تلك الهجمات على زمر الاخلاء، وكان قد عمل مـــساعداً لي لأكثـــر من عامين عندما كنت آمراً لكتيبة دبابات الحمزة، وهو المقدم قدري شاكر صالح. ومن الحوادث المؤسفة أيضاً استشهاد أحد الصحفيين العرب الذي كان يتجوّل بين قطعاتنا.

لقد كان لمعركة توكلنا على الله الثالثة عدّة ميزات عن المعارك السابقة حيث جـــرت بأقـــل وقت من التحضيرات، كما أن نطاقها كان واسعاً وتطوّر خلال مراحل التنفيذ، كما أنها المعركة التي أسر فيها أكبر عدد من ضباط وجنود العدو،

وهـــي المعركة التي نفّذت فيها قواتنا المدرعة أكبر نطاق مناورة (كمفخرة للجيش العراقـــي تسجل أنه ناور بفيلقي عمليات ثقيلين بتوقيتات وظروف عملياتية تعتبر قياسية جداً تعجز عنها جيوش دول كبرى).

عـــلاوة على ظروف المناخ القاسية حيث كانت درجات الحرارة في الظل لا تطاق فكيف الحال في العراء؟ مع سكون للريح. وخلاصة القول لقد كانت معركة سريعة وكبيرة في ربحها وقليلة في نسبة التضحيات والخسائر، وكانت هذه المعركة عظـيمة في النـتائج غير المباشرة حيث اضطر العدو للانسحاب الذاتي من القاطع الشمالي من قواطع حلبجة - وبنجوين - وماوت - وحاج عمران.

كذلك كان الامتياز الآخر لهذه المعركة هو تأكّد بوادر فقدان العدو لإرادته على القتال، حيث كان أفراده لا يبذلون جهداً كبيراً للتخلص من الأسر.

الملحق (ج 12)



ملحق (جـ-12)
معركة توكلنا على الله الثالثة
عام (١٩٨٨)
قوات الحرس الجمهوري
ILAM
Dehlorān
Dezfūl
Andīmeshk
Shūshtar
KHŪZESTĀN
Al Amārah
Ahvāz
Hawr al Hawīzah
Shūsh
Bayāt
Abū Ghurāb
Yarrai
Abū Qūyer
Sheykh Qandī
Ashīreh-ye Zāmel
Fakkeh
Al Mazlaq
Qal'at Sālih
Al Kahlā'
Al Qubūr
Mūsīān
Dasht-e Azādegān
Hamīdīyeh
Susangerd
©2005 Microsoft Corp

معركة توكلنا على الله الرابعة

قاطع عمليات الفيلق الثاني قاطع سربيل زهاب كيلان غرب

صـــباح يوم 18 تموز/يوليو 1988 بدأت قوات الحرس الجمهوري بالتنقل من قاطع عمليات الفيلق الرابع إلى قاطع عمليات الفيلق الثاني خانقين - جلولاء على أثـــر صدور توجيه الخطط للقيادة العامة بالتهيؤ للهجوم على العدو في أراضيه بين مـــنطقتي إمـــام حسن - وسربيل زهاب، لتدمير وأسر أكبر عدد ممكن من قواته، والاســـتيلاء علـــى آلاف الأطنان المكدسة من عتاده والمتواجدة في ذلك القاطع، وإجـــباره على إيقاف الحرب. أكّدت توجيهات القيادة العامة على سرعة التنقل، وإكمـــال التحشد، وتنفيذ الهجوم بأسرع ما يمكن وكان هذا بالتأكيد أمراً صعباً علـــى قطاعـــات مضى عليها ثلاثة أشهر في القتال والتنقل العملياتي، وفي ظروف مناخـــية قاســـية حيث كانت درجات الحرارة في أعلى مستوياتها. إلا أن الروح المعـــنوية العالية نتيجة تلك الانتصارات الباهرة، وظهور بوادر فقدان العدو لإرادته على القتال نهائياً، وإشراف الرئيس صدام حسين على تلك المعارك سهّل الكثير من تلك المعضلات.

قـــبل ذلك اليوم، وخلال تنقّلنا، استمعت من راديو السيارة التي استقلها أن إيـــران قد أعلنت قبل قليل قبولها بقرار مجلس الأمن رقم 598، الداعي إلى إيقاف القتال، وإنهاء الحرب بين العراق وإيران. وكان هذا البيان قد صدر قبل عام، إلا أن إيـــران رفـــضته بغطرسة جوفاء، حيث كان وضعها الاستراتيجي يوحي بأنها هي المنتصرة، حيث إنها لم تكن تنوي وقف القتال، إلا بعد إسقاط النظام السياسي في العـــراق، وبعد هذا الإعلان بدأت القيادة العامة تضغط كثيراً حول سرعة إكمال التحـــشدات، كي لا يتعرّض العراق إلى ضغوط دولية لإيقاف الحرب قبل أن نحرم العدو من إمكانياته المادية، وكذلك أسر أكبر عدد ممكن من قواته لمعادلة موضوع الأسرى بين الطرفين.

وقد علمنا بعبارات اليأس الذي أطلقها زعيم الثورة الإيرانية (التي دامت تسع سنوات حتى هذا التاريخ منها ثمان سنوات حرب) حين توسّل إليه قادته والمقربون

ومستشاروه، وهم ينقلون حقائق الموقف العام، ويطلبون منه الموافقة على قبول قرار مجلس الأمن 598.

قال آية الله الخميني أخيراً: "إني أخوّلكم قبول هذا القرار، وكأني أتجرّع كأس السم الزعاف". وكان صادقاً في وصفه.

لقد كانت ساحة العمليات هذه عبارة عن منطقة جبلية تكتنفها عدة سهول كبيرة تقع بين سلاسل متعدّدة من الجبال، وأهم هذه السهول سهل سربيل زهاب، وسهل أمام حسن. وكان يخترق ساحة العمليات نهر الوند وبعض الوديان الكبيرة كوادي كيلان غرب، ونفط تولك، وكنكانوش. وتمرّ في هذه الساحة عدة طرق أهمها الطريق الدولي طهران - بغداد عبر سربيل زهاب - قصر شيرين - خانقين وكذلك الطريق الحدودي جاي حمام - كوهينة - قصر شيرين وطريق قصر شيرين - خانقين.

إذاً هذه الساحة تتحدّد الحركة فيها بشكل عام على الطرق، وكانت المعضلة تتمثّل بوجود حقول ألغام مهمة قادرة على إعاقة الحركة في نقاط تقاطع الطرق مع خط الحدود الدولية. واعتبر طريق المنذرية - قصر شيرين أفضل الطرق لاقتحام الأراضي الإيرانية. كانت درجات الحرارة في أعلى معدلاتها، حيث وصلت درجة الحرارة يوم الهجوم إلى 58 درجة مئوية في العراء.

لقد حدّدت مهمة قوات الحرس الجمهوري الهجوم عند الساعة 07:15 من يوم 21 تموز/يوليو 1988 لحصر وتدمير العدو بين هوات داخل، وحتى مخفر جاي حمام خارج، والوصول إلى خط جبل كوميشان - جبل كرموش قرية قره بلاغ - جبل ساندي باز - جبل كمكو - خط التشريق 59، وتدمير مقرات العدو ومدفعيته وأسر أكبر عدد ممكن من قطعاته.

إلا أنه وبالرغم من كل الجهود المضنية لإكمال التحشد قبل يوم 7/21 اضطر مقرنا لتأجيل الهجوم يوم آخر، إلى يوم 1988/7/22 حيث حصلت الموافقة على ذلك.

في الساعة 06:45 بدأت مدفعية الحرس الجمهوري بالقصف التمهيدي على المواضع الأمامية، وعلى بعض المواضع التعبوية في العمق، وأسكتت عدداً من

مدفعية العدو من خلال معلومات التصاوير الجوية، وبمشاركة القوات الجوية. وفي الساعة 07:15 من يوم 22 تموز/يوليو شرعت قوات الحرس الجمهوري بتنفيذ خططها التي أعدّت على عجل، وبدقة أقل من المعارك السابقة. وكانت جبهة الهجوم بأربع فرق وفرقة احتياطية من القوات الخاصة، فاخترقت قطعات الصولة خط الحدود الدولية باتجاه سربيل زهاب - وإمام حسن على مراحل بالوقت الذي شرع فيه الفيلق الثاني (الفرقة 10 المدرعة والفرقة الآلية 5) بالاندفاع على محوري مندلي - سومار - ونفطخانة - جبل دارمان.

بعد قليل بدأت سلسلة من تقارير الموقف تعلن عن الانتصارات الأولى، وتؤكّد عدم جدية العدو بالقتال، وكأن قواتنا الكبيرة هذه تنفّذ تمريناً تعبوياً بقطعات وبجانبين. وعند الضياء الأخير لهذا اليوم وصلت قواتنا إلى (سرتتان - قره - بلاغ - سربيل زهاب) بعدما أصبحت قصر - شيرين - كوهينة - جبل كمكو - الراقم 1172 (أهداف الصفحة الأولى) كقواعد انطلاق نحو العمق. لقد كانت حركة تشكيلاتنا سواء كانت مشاة، أو مشاة آلية، أو مدرعة ذات انسيابية سهلة في جميع طرق ساحة العمليات، إلا أن الهدف المهم كان سربيل زهاب الذي أنجزته تشكيلات المشاة والمغاوير بعد تطويقه من قبل اللواء 17 المدرع وبدا الطريق مفتوحاً بالعمق نحو باي طاق عبر كلي داود الذي وصلته قطعاتنا شمال شرق سربيل زهاب. وقد كلّفتُ بتدقيق الموقف هناك، وقد جال نظري، وأنا في مقر اللواء 25 في هذا السهل حيث احتلته قواتنا في بداية الحرب قبل ثمانية أعوام، وكانت آثار القصف والمعارك السابقة واضحة هناك حيث المخيم السياحي الكبير المدمّر والممتد على السفح الشرقي المطلّ على هذه المدينة التي كانت في القرون الغابرة منطقة توقّف القوافل لإكمال لوازمها لمواصلة السفر نحو العراق غرباً، أو نحو خراسان شرقاً. ثم اندفعت شرقاً نحو كلي داود، ثم عدت إلى سربيل زهاب حيث تمركزت هناك معظم تشكيلات فرقة نبوخذ نصر حرس جمهوري، ثم رجعت إلى مقرنا التعبوي عبر مدينة قصر شيرين ثم المنذرية.

في الساعة 10:37 يوم 7/22 زارنا الرئيس صدام حسين ونائبه القائد العام حيث أصدر عدة توجيهات لقائدنا حول تطوير الموقف بجميع الاتجاهات، وخاصة

باتجاه كيلان غرب واحتلالها، والاتصال بطلائع الفيلق الثاني الفرقة الآلية 5، وأسر ما لا يقل عن عشرة آلاف شخص من ضباط وجنود العدو وأن ذلك قد يستغرق من ثلاثة إلى أربعة أيام، لذا رأى الرئيس ضرورة إنجاز أكبر ما يمكن للاستيلاء على المناطق الإدارية للعدو لحرمانه من عتاده وأسلحته، وأشار إلى ضرورة استخدام القوات المحمولة لإحكام السيطرة على عقد الطرق، وضمان أسر أكبر عدد ممكن من قوات العدو، وعليه جرت خطة التطوير بدفع اللواء 2 المدرع إلى منطقة حاجين والوصول إلى مضيق كورك للسيطرة عليه بعد ذلك بوحدات المشاة وهذه المنطقة كانت قد وصلتها قواتنا في بداية الحرب (الفرقة 8) فتحقّق ذلك قبل الساعة 12:00 يوم 7/23.

كذلك كلفت فرقة القوات الخاصة حرس جمهوري بقيادة العميد الركن وعد الله مصطفى حنوش بالاندفاع لاحتلال محافظة كيلان غرب، على أن يؤمّن اللواء 18 مشاة آلي حرس جمهوري الاتصال بها. وفي الساعة 18:30 تمّ إنـزال اللواء 16 قوات خاصة حرس جمهوري ناقص فوج بواسطة مئة طائرة نقل سمتية على المرتفعات المطلة على مدينة كيلان غرب.

وفي الساعة 19:00 قبل الغروب، دخل أحد أفواج القوات الخاصة مدينة كيلان غرب. وكانت قطعات العدو قد تركتها بالوقت الذي كانت فيها أعداد قليلة من السكان، مما تطلّب أيضاً دفع لواء المشاة الآلي 15 حرس جمهوري للاتصال بالقوات الخاصة لتعزيز نجاحاها.

في اليوم التالي 7/24 دفع اللواء 9 المدرع حرس جمهوري نحو قلعة شاهين لتدمير قوة تعادل سرية دبابات معادية هناك، وكان هذا اللواء متجحفلاً مع فرقة بغداد حرس جمهوري. وحين أكمل مهمته عند الساعة 11:00 تمّ الاتصال بين قوات الحرس الجمهوري والفرقة الآلية 5 بعد ذلك بقليل، بالوقت الذي قامت فيه سرايا التموين والنقل للقيادات بأقصى جهد لنقل الأعتدة المستولى عليها، وكانت بأرقام فلكية مما اضطر مقرنا إلى اتخاذ قرار بتدمير ما لا يمكن إخلاؤه.

كانت أعداد الأسرى من ضباط وجنود العدو تتضاعف، وقامت الطائرات السمتية بنقل أعداد منهم من المناطق البعيدة، وكان منظر جنود العدو وهم

يلوّحـــون للطائـــرات السمتية ولقطعاتنا الأمامية بهدف إخلائهم كأسرى شيئاً لا يصدّق. لقد كان شيئاً يصعب تصديقه، فعند نـــزول طائرة سمتية وسط مجاميع من أفراد العدو كانوا يصعدون إليها متدافعين بالمناكب، وقد أفاد أحد الأسرى، وكان بـــرتبة رائد، أن القائد العام رفسنجاني قد زار القاطع يوم 1988/7/18، وكان من ضـــمن توجيهاته أن يبذل الجميع أقصى جهدهم لعدم الوقوع في الأسر، حيث كـــان يعـــتقد بأن العراقيين سوف لا يتجاوزون كثيراً في العمق الإيراني، وهذا دلـــيل قاطع على الحالة السوداوية التي كان يعيشها قادة العدو، واقتناعهم بأنهم خسروا الحرب. وقد بلغ عدد الأسرى ضمن مسؤولية قوات الحرس الجمهوري 12100 أســـير. وقد التقيت بمجموعة كبيرة منهم، وكانوا بحالة لا توصف من اليأس، وقد هزهم شجاعة مقاتلينا، وسرعة حركتهم، وكذلك الروح الإنسانية العالية التي عوملوا بها.

كان الرئيس صدام حسين قد أصدر في اليوم التالي لهجومنا هذا توجيهاً لكل فيالق الجيش بالتعرض اللامركزي لاستعادة أي شبر من تراب الوطن لا زال خارج سيطرتنا، فاندفعت عدة تشكيلات من كل فيلق ومنها الفيلق الخاص (المتقاعدون) بقيادة الفريق الركن إسماعيل تايه النعيمي، فاستعادوا كل الأجزاء المحتلة في معارك ســـابقة. إلا أن الفيلق الثالث قد ذهب بعيداً على ما يبدو نحو الأحواز إلى معسكر حميد الإيراني، ودخل معركة غير مبرّرة خاصة اللواء 12 المدرع بإمرة العقيد الركن محمد يونس أمين. وقد استشهد قائد الفرقة 3 اللواء الركن طاهر عبد رشيد بحادث طائرة كان يستقلها.

لقـــد استعدنا قمم سيف سعد، وسانوبا، وبعض الروابي (جلات – الدراجي – الـــصدور). وكـــان التطوير المضاف باندفاع قوات من مجاهدي خلق – المعارضة الإيـــرانية – نحو مضيق باي طاق، ثم احتلال مدينة كرند الجبلية، ثم الاندفاع نحو إســـلام أبـــاد (شاه أباد) وكان هدفهم محافظة كرمنشاه، حيث اندفعت منهم 22 مجموعة قتال، كل مجموعة تتألف من 500 مقاتل، وكانت نسبة النساء فيهم تصل إلى 20%، ودارت معارك شديدة حيث جمع الإيرانيون ما يعادل 15 فرقة من قوات الباسدران (الحرس) مما اضطر قوات المعارضة للتقهقر نحو الغرب.

في ليلة 25-7/26 وفي ساعة متأخرة، اتصل وزير الدفاع نائب القائد العام - وكنت آنذاك ضابط ركن خفر العمليات - مستفسراً عن الموقف، وقد طلب عدم إيقاظ قائد الحرس الجمهوري، وعدم إزعاجه تقديراً منه لراحة قائد يدير معركة، فأعطيته الموقف وقد خمّنت وجود الرئيس صدام حسين بقربه، وكانت لدماثة خلقه أثراً كبيراً في نفسي. في ليلة 27-7/28 صدر توجيه القيادة العامة بالانسحاب من الأراضي الإيرانية التي انتشرت فيها قواتنا بعمق وصل إلى 70 كم، مع تدمير كافة الأعتدة والأسلحة التي عجزت قواتنا عن إخلائها. واستغرقت عملية الانسحاب 48 ساعة، وكانت مشاعر الجميع لا توصف. لقد انتصرنا وتأكّد نصرنا والحمد لله.

في 1988/8/6 تحرّكت قواتنا باتجاه الجنوب (العمارة والبصرة)، وقد رفعت أعلام النصر، أعلام العراق العظيم على رؤوس أرتالها. ومساء 8 آب/أغسطس 1988 أعلن الرئيس صدام حسين عبر رسالة متلفزة أن العراق وافق على الدخول بمفاوضات مباشرة مع إيران، مع إيقاف القتال، وإنهاء الحرب التي استمرت ثمان سنوات. تلك الحرب التي كانت توقعات الخصوم قبل ثمانية شهور تقول إنها ستنتهي لصالح إيران.

على أثر هذا الإعلان خرجت جماهير العراقيين في كل مكان تعبّر عن فرحها الغامر بهذا النصر العظيم بشيء لا يصدق، موجات لا تنتهي من العراقيين تخرج إلى الشوارع والساحات العامة، وكان الرئيس صدام حسين بسيارته الشخصية يشقّ طريقه بصعوبة وبدون أدنى إجراءات حماية تقليدية وسط الجماهير المحتفلة.

وفيما أنا أتابع هذا المنظر الرائع للنصر من خلال شاشة التلفزيون، وأنا في مقر الحرس الجمهوري بالبرجسية تراءى لي كل الشهداء الأبطال الذين جادوا بدمائهم الزكية ليصنعوا هذا النصر مع من ظلّ من رفاقهم المقاتلين، وتراءت لي صور لا تنتهي من صور البطولة والجهاد لجيشنا، صور عظيمة من الصبر والمطاولة التي كانت أسيرة في تاريخنا، وظنّ الكثيرون أن ذلك موقوف على الماضي المجيد.. لقد تحرّرت طاقة شعب كانت كامنة، ولقد كان هذا الشعب لا

يصدق أنه يمتلكها، بل استعادت الأمة العربية زهوها في هذا النصر العظيم بعد سلسلة من الأزمات والهزائم التي منيت بها أمتنا نتيجة ما أثقلتها به سبعة قرون سوداء مضت. وليس كل ما ظهر في صور البطولة هو ما ظهر، بل هناك صور عظيمة للبطولة، لم يسعف القدر والحظ على إبرازها، فكان هناك كما في كل حرب جنود وأبطال مجهولون... وللإنصاف ينبغي احترام أعدائنا الذين قاتلونا طـيلة تلـك الـسنين الطـويلة. والحق يقال إن الجندي الإيراني كان يتّصف بالشجاعة، والإقدام، والصبر، والتحمل العالي، والمطاولة، وقبول التضحيات... وتحمّل الشعب الإيراني قساوة الحرب بكل شجاعة وصبر، وآزر جيشه بكل ما أوتي من قدرة. ولكل حرب أسرارها فهذا ما شاهدته وما عرفته في هذه الحرب الضروس.

ملحق (ج 13) معركة توكلنا علي الله الرابعة:



الفصل الخامس

الحرب على الكويت عام 1990

القوة تعبّر عن ذاتها

لم يكن أحد منا يتوقع أن تمتد الحرب مع إيران لتلك المدة الطويلة جداً! وأن تمـرّ هذه الحرب بتلك المراحل العديدة والمتقلبة ذات الانعطافات الحادة والخطيرة! لقـد تقاسم كلا الطرفين أفراح النصر وآلام الهزيمة لمرات عديدة. لقد أجاد ملاك الخـير وشيطان الشر لعبة القفز العالي فوق حيطان الحدود وفوق مواضع وخنادق الجبهات.

والحمـد لله لقد خرج العراق منتصراً في نهاية تلك الحرب... خرج العراق مزهواً وفخوراً بما حققه. لقد أصبح الحلم حقيقة، وهذه الحقيقة أيقظت العرب من رقـادهم، وحـركت كـل الآمال وكل الأماني، وصار اليقين أن أحلام العرب وأمانـيهم قابلـة للتحقـيق. غير أن الحقائق الأخرى ظلت مستترة، ومنها حجم الخـسائر البشرية وما يتبعها من عقابيل نفسية وأخلاقية واجتماعية، وضياع عمر جـيل كامـل من الشباب، وعقد من الزمان ناهيك عن الخسائر المادية، وخسائر أخرى غير منظورة.

خـرج العـراق من تلك الحرب وهو يظن أنه سيكون المقتدر في ريادة هذه الأمة بمسيرتها نحو أهدافها وأمانيها المشروعة.

خـرج العراق وهو يمتلك الثقة والقدرة بنفسه، فهو يمتلك أكبر جيش عرفته المـنطقة في تاريخها. خرج العراق من تلك الحرب، وهو يمتلك أكبر قاعدة تصنيع عـسكري، وخـبرة قتال عالية... خرج العراق والشعب أكثر تماسكاً والتصاقاً بقيادته وفق ما يرى في الظاهر.

لقد انتبهت جماهير الأمة العربية بعد أن أيقظها النصر العراقي، ورأت في العراق طليعة تقود الأمة بإمكانياتها الكامنة لتحقيق الحلم الأكبر ألا وهو تحرير فلسطين من الاحتلال الإسرائيلي، ذلك الاحتلال الذي كان ثمرة الاستعمار الغربي للوطن العربي.

لقد عبّرت القوة العراقية عن نفسها بكل صراحة ووضوح، وحركت هذه القوة جماهير الأمة، فأصبح لها ما يسمى بالرأي العام الذي بدأ يضغط على سياسات بعض حكومات المنطقة، وأحرجها كثيراً. كذلك أيقنت الصهيونية السياسية، والقوى الدولية والاقليمية الكبرى، أن ما علا وأضاء في سماء المشرق العربي هو إنذار بخطر متنامٍ وأكيد، وتغيير مقلق في توازن القوى مما يتطلب مراقبة شديدة لطبيعة وتصرفات القيادة العراقية وطبيعة نظامها السياسي.

لعلي لا أفشي سراً عن بداية توظيف تلك القوة التي أظهرت نفسها في المشروع القومي الأكبر (الحلم) ألا وهو مشروع تحرير فلسطين الذي تبناه الرئيس صدام حسين وبما ينسجم وحجم خياله وطموحاته - خارج حقائق الواقع - على ما عرف به. ما إن انتهت تلك الحرب، وان لم تنته ذيولها بعد، حتى طلب الرئيس صدام حسين الذي أسكره النصر على إيران لقاء قائد الحرس الجمهوري الفريق الركن اياد أفتيح الراوي في بغداد. وظن الجميع وأنا منهم أن سبب الاستدعاء هو تحليل نتائج الحرب وعلى ضوء ما لمسته من اختلاف في وجهات النظر ما بين رؤية المقر العام وقيادات الفيالق حيث كنت ممثلاً للحرس الجمهوري في موضوع تحليل المعارك، وكان لي مساهمة واضحة، حيث خولني قائدي بالكلام عن قوات الحرس الجمهوري. وكان التنافس الشديد ما بين الأطراف المشاركة لكسب القسم الأعظم من شرف النصر. لقد كانت مسألة توظيف الخبرة هي نقطة الضعف العامة للجهات المعنية ولم تكن تتناسب مع نطاق وعمق التجربة العسكرية العراقية، وكملاحظة شخصية خلال تلك المناقشات تأكدت من صدق المقولة التي تقول "إن للنصر آباء كثيرين والهزيمة طفل لقيط".

لقد استدعاني قائد الحرس الجمهوري على الفور بعد أن عاد إلى مقره في البرجسية غرب البصرة، وكان بمزاج جيد ومبالغ فيه، ومن خلال معرفتي

الشخصية بقائدي، اعتقدت أن قائدي قد استلم توجيهاً خطيراً أو مهمة كبيرة، ومما زاد في اعتقادي هذا كان رؤيتي له وهو يقفز بحديثه من موضوع إلى آخر دون رابط مقنع، وما لبث أن انتقل بحديثه إلى موضوع قدرات إسرائيل العسكرية ومقارنة قدراتها بقدراتنا...

وركّز على الأسلحة السوقية (الاستراتيجية) وخاصة صواريخ أرض/أرض بعيدة المدى، وأمرني بلقاء قائد سلاح الصواريخ العراقية العميد الركن حازم عبد الرزاق شهاب. في ذلك الوقت كان سلاح الصواريخ سلاحاً فتياً، إلا أنه كان يقفز قفزات متواترة نحو امتلاك ما يسمى بالذراع العراقية الطويلة مع القوة الجوية العراقية التي تطورت في نهاية الحرب كثيراً - لكي أعرف من قائد ذلك السلاح أية معلومات عن انفتاح بطاريات العدو (الإسرائيلي) ومواقع أسلحته النووية. بعد ذلك اللقاء أيقنت أن القيادة العراقية بدأت بالتفكير الجدي للمشروع القومي بتحرير فلسطين لأنه محور نظرية حزب البعث العربي الاشتراكي، والمعلن عنه بكل وضوح، أضف إلى ذلك أن طموح الرئيس صدام حسين الكبير، لن يدعه يترك تلك الفرصة الذهبية تفلت منه.

في لقائي مع قائد سلاح الصواريخ في مقره في جنوب بغداد (ناحية المشروع) أخبرته بما طلبه قائدي، فانعقد لسانه لشدة دهشته، وهو من العقول الذكية في جيشنا، وله طاقة كبيرة على الحديث المستمر، فظهر الارتباك عليه حيث استنتج سريعاً خطورة الموضوع، ولم تكن قيادة هذا السلاح قد فكّرت أو وضعت في حساباتها العمل باتجاه الغرب على ما يبدو. وفي حوار سريع مع أحد ضباط ركنه، أخبرني معتذراً أنه لا يملك شيئاً يفيدني، ووعدني ببذل كل الجهود للحصول على المعلومات المطلوبة وبالتعاون مع الجهات ذات العلاقة ومنها مديرية الاستخبارات العسكرية - شعبة إسرائيل.

في اليوم التالي، وعلى مائدة العشاء، طرحت بشكل عام مجموعة من المعضلات أمام قائد الحرس الجمهوري، وأشرت إلى أنه لو كان لدينا اهتمام بالإعداد للمعركة القومية الشاملة ضد إسرائيل، فإني أعرض الاستفادة مما أملك من متابعة لتطور القدرات الإسرائيلية تلك الدولة الحليفة الاستراتيجية القوية للولايات

المتحدة. وبعد عرض المعضلات، قام القائد بتبسيطها. ومنها على سبيل المثال كيف يـتم اخفاء تنقلاتنا السوقية وتحشداتنا في الساحتين الأردنية والسورية على وسائط الكـشف الدقيقة المتاحة للإسرائيليين، وكيفية تجنّب الضربات الوقائية المعادية التي هـي جزء من الاستراتيجية العسكرية لدى إسرائيل. إلا أنني خرجت بأن تبسيط القائد لا ينم عن حقائق الموضوع الذي لا يقبل اختلافات كبيرة بالرأي، لأن هذا الموضـوع دقـيق وعميق وليس مطروحاً في مجال الإعلام بل إنه في إطار الدرس والتحليل.

في بدايـة العـام 1989 بدأت تشكيلات الحرس الجمهوري بإعداد وتنفيذ سلـسلة من التمارين التعبوية (التكتيكية) على ضوء خبرتنا مع (إيران وإسرائيل)، وكـنت آنذاك آمراً لجحفل اللواء المدرع 17 حرس جمهوري والذي أساسه لواء الحرس الجمهوري الأول الذي حُلّ، وأعيد تشكيله بعد معركة الفاو في العام 1986 وهـو لواء يمتلك خبرة متراكمة كبيرة بالإضافة إلى مقاتلين من الطراز الأول. وفي 1989/4/7 تحـركنا إلى بغـداد، وعسكرنا في معسكر الراشدية شمال شرق بغداد لغـرض التهـيؤ وإجراء الممارسات لتنفيذ الاستعراض العسكري بالذكرى الاولى لتحريـر الفـاو وبدايـة معارك التحرير الكبرى. وأثناء تلك الممارسات، كلفت بالانـضمام إلى زمرة استطلاع لساحة العمليات الأردنية - الإسرائيلية الفلسطينية ضمن سلسلة من زمر استطلاع تشمل قادة الفيالق، والفرق، والتشكيلات، وذلك في منتـصف شـهر نيسان وصادف شهر رمضان المبارك، وكان المناخ في الأردن أكثـر ملائمة للصوم من العراق. لقد استقبلنا بكثير من الحفاوة والاحترام من قبل الأشـقاء الأردنيين، حيث أنزلنا في فندق من الدرجة الأولى في العاصمة عمان التي ازدادت جمـالاً بطـراز عمرانها الجديد، وقد توسعت كثيراً بحيث شملت بعمرانها المـرتفعات (التلال) السبع المحيطة بعمان الأم والتي مركزها جامع الحسين الكبير. وقـبل البدء بمنهج الاستطلاع الكبير الذي شمل ما يقارب الستمائة كيلومتر وهي معظـم الحدود المشتركة مع فلسطين المحتلة، استقبلنا رئيس أركان الجيش الأردني الفريق الركن فتحي أبو طالب وبعض معاونيه وقد بدا الاحترام الكبير الذي نحظى به من لدنهم واضحاً. كما يمكنني أن أسجل دقة مواعيدهم، والتزامهم بالتوقيتات،

وتمسكهم بالتقاليد العسكرية وكلها دلائل على مستوى تحضر هذا الجيش العربي، إلا أنهم كانوا بعيدين جداً من فكرة الحرب ضد إسرائيل.

وهضبة أم قيس ملتقى الحدود السورية الأردنية الفلسطينية في محافظة أربد بدأنا استطلاعنا، حيث نهايات نهر اليرموك وبحيرة طبريا وإمتدادات المرتفعات السورية المحتلة (الجولان) مع شمال الأردن وفلسطين. لقد كنت على معرفة جيدة بجغرافية المنطقة على ضوء خبرة سابقة وقد أثار هذا الأمر انتباه قائد الفرقة الأردنية وضباطه. ومن الطريف أن أذكر ملاحظة إحدى النساء الأردنيات وهي فلاحة تناهز الخمسين من العمر والتي اقتربت مني وأنا انهي صلاة الظهر أسفل أحد المراصد القريب من إحدى القرى وبعد الترحيب قالت "ألست ضابطاً عراقياً؟" فأجبتها نعم. فقالت ما الذي أتى بكم إلى هنا؟ أجبتها وهل يسأل المرء أو يكرم في داره؟ قالت والله أنتم وصدام حسين على رؤوسنا، أنتم شرفنا، ولكن نظن ما جئتم به هنا إلا للحرب! الله يعطيكم العافية ما بدنا حرب! وخلال استطلاعنا القريب من نقاط التماس، فاجأنا جنود العدو الإسرائيلي بالتقاط الصور الفديوية والفوتوغرافية، ونحن نرتدي ملابس الجيش العراقي، وكانت سلسلة جبال فلسطين الشرقية حتى البحر الميت تحتوي على سلسلة طويلة من المنعات الدفاعية (نقاط حصينة)، علاوة على امتداد المستعمرات الصهيونية وانحدارها نحو ضفة نهر الأردن الغربية، حيث كانت الأسيجة السلكية والطرق العسكرية للدوريات تحيط بها، إلا أن ما لفت انتباهي هو عدم توفر ما يجابهها من تهيئة لساحة العمليات في الجانب الأردني بل امتدت القاعدة الزراعية والصناعية الأردنية في طول وعرض خط المواجهة مع إسرائيل باستثناء بعض المراصد ونقاط المراقبة البسيطة للجيش الأردني. أما المشهد الذي أثّر بنا جميعاً فكان مسجد قبة الصخرة على حافة المسجد الأقصى المبارك وبنايات القدس الشرقية المحتلة. وخلال تلك الفترة، حدثت في الأردن الكثير من مظاهر الشغب في المحافظات الجنوبية مركزها معان نتيجة الافتقار إلى الأغذية الأساسية وارتفاع أسعارها كجزء من أزمة اقتصادية حادة مرت بها المملكة الأردنية، وخلال زيارتنا للقاعدة الجوية في الزرقاء قاعدة الشهيد نزار السلطي - وهذه القاعدة الجوية الكبيرة بناها العراق سابقاً خلال دعمه للجبهة

الشرقية آنذاك (بعد عام 1967) كإسناد لقواته العاملة في الأردن - شاهدنا انفتاح سربين من الطائرات المقاتلة نوع (أف 5) أميركية الصنع وأثناء تجوّلنا في القاعدة حاورني أحد الضباط المرافقين لنا وكان برتبة رائد وسألني "هل أنتم جادون في مشروع قومي لتحرير فلسطين من هنا؟" وكان يقصد (هنا) الأردن، وتابع "ألستم مدركين للضغوط السياسية الدولية للولايات المتحدة والى الخطوات الكبيرة والجادة نحو القبول بمشروع سلام مع إسرائيل؟" ولقد تأكد لي ما أشار إليه الضابط المرافق في هذه القاعدة الجوية من خلال طبيعة انفتاح الفرق الأربع التي هي أساس القوات البرية الأردنية فأفضل الفرق معززة بقوة مضافة كانت منفتحة على الحدود الشمالية مع سوريا - في تلك الفترة كان هناك أزمة سياسية بين البلدين - بينما كانت باقي الفرق في العمق، وبوضع لا يوحي بأي قلق حالي أو مستقبلي من أي تهديد قد يأتي من جهة فلسطين كما أن ساحة العمليات الأردنية الطويلة لم تهيئ بأي شكل من الأشكال لأي صراع مع الإسرائيليين، بالتأكيد الأردن معذور في هذا الموقف الاستراتيجي المعقد والصعب للغاية، كذلك لا أحد ينكر دور الحكمة السياسية التي يتمتع بها ملك الأردن وقيادته في المحافظة على هذا البلد العربي وتطويره إلى هذا المستوى الراقي من التحضر بالرغم من افتقاره إلى الموارد الطبيعية وخاصة في مجال الطاقة.

بعد عودتنا إلى العراق بقليل، نفذنا الاستعراض العسكري الكبير في مدارج مطار المثنى وسط بغداد؛ أول مطار مدني في بغداد وعلى الفور عدنا من المطار وبواسطة ناقلات الدبابات إلى محافظة البصرة حيث معسكراتنا الوقتية (لقد أحبطت مؤامرة لقتل الرئيس صدام حسين على غرار حادثة قتل الرئيس المصري أنور السادات قبيل تنفيذها من قبل بعض ضباط الحرس الجمهوري من عشيرة الجبور). وبعد استقرار بسيط، شرعنا بإعداد تمارين تعبوية (تكتيكية) لاقتحام خطوط الدفاع الأولى لإسرائيل كصفحة أولى وهذه الخطوط عبارة عن سلسلة من المنعات الدفاعية المقامة على المرتفعات الحاكمة والمسيطرة على المقتربات الأردنية.

في 1989/5/4 نعى الرئيس صدام حسين نائب القائد العام وزير الدفاع الفريق الأول الركن عدنان خير الله الذي وافاه الأجل بحادث سقوط طائرته السمتية في

موقــع جــنوب أربيل عند عودته إلى بغداد، فحزن معظم العراقيين قيادة وجيشاً وشــعباً لما امتلكه المغفور له من قيم أخلاقية عالية، ونفس كريمة، وما سطره من تــاريخ مجــيد، وأداء قيادي للحرب اتسم بالشجاعة والمسؤولية الأخلاقية العالية، وكــان الساعد القوي والأمين للرئيس صدام حسين. لقد خيم جوّ كئيب وثقيل علــى قواتنا المسلحة بعد فقدانه، وسمي الموقع الذي سقطت فيه الطائرة المشؤومة بالعدنانــية، وبني فيه جامع كبير سمي بنفس الاسم تخليداً لذكراه فوري التراب في تكريت أولاً ثم نقلت رفاته فيما بعد إلى مقبرة خاصة به قرب نصب الشهيد شرق بغــداد. (لقد حامت الشبهات حول حسين كامل بأنه كان وراء الحادث، وروى لي فــيما بعد أحد أصدقاء المغفور له وهو طبيب عسكري معروف (ع، ك) بأنه ذهــب إليه حسب طلبه لغرض إجراء فحوصات طبية له قبل أيام من مقتله، وبعد أن رفــض فحصه لأنه على يقين من أن صاحبه غير مريض وبعد حوار قصير قال عدنان خيرالله للطبيب وهو يشير إلى صورة للرئيس يظهر خلفه حسين كامل، انظر إلى وزيــر دفاعكم القادم! لقد كان مرضه الحقيقي نفسي وناتج عن دسائس هذا الــرجل ضــده، والله أعلم؟ لقد أكد لي بعض الأصدقاء ممن كانوا في أربيل ذلك الــيوم أن الطقس لم يكن مستقراً، وأن احتمال سقوط الطائرة نتيجة دوامة ترابية كان وارداً. في معارك التحرير لاحظت عندما كان الرئيس صدام يحضر لمقرنا حبه المفــرط لحــسين كامل، وميله للأخذ برأيه في كثير من الأحيان، وإن كانت آراء حــسين غــير ســديدة، ولا تقارن بآراء وزير الدفاع الذي كان شديد الاحترام للــرئيس. علــى كل حال، لقد قام التلفزيون العراقي في الليلة السابقة لمقتل وزير الــدفاع بعرض فيلم لرحلة عائلية ترفيهية للوزير مع الرئيس في شمال البلاد، وبدا على الرئيس عمق محبته لابن خاله وصديقه الحميم عدنان خير الله، لقد ظهر على الــرئيس الحــزن الشديد خلال مراسيم التشييع المستعجل وما بعدها، وقد عاقب الــرئيس آمــر الانضباط العسكري العميد الركن محمد ابراهيم وهو من الضباط الكفوئين لسوء مظهر التشييع لعجالته.

في 1989/7/5 نفذ لوائي أول تمرين في صحراء اللحيس جنوب العراق في طقــس شديد الحرارة، وذلك بهدف تحقيق الغاية المشار إليها في أعلاه، وكان

التمـــرين مـــن إعدادي الشخصي، إلا أن قائد الحرس الجمهوري وبحضور ما يقـــرب من مائتي ضابط، اعترض على فكرة وأسلوب التنفيذ، حيث كانت له وجهة نظر مختلفة، وقد حاولت جاهداً أن أقنعه أن يسمح لنا بإكمال تنفيذ هذا التمـــرين إلا أنه رفض، وأصر على ذلك. وقد آلمني ذلك حيث ضاعت فرصة كـــنت اعتقدها مهمة في إبراز الأسلوب الأمثل لقتال هذا النوع من الدفاعات، ولقـــد أشعرني قائدي المباشر العميد الركن قيس الأعظمي بأني أسأت للضبط العـــسكري خـــلال نقاشي مع قائد الحرس الجمهوري، حيث إن طبيعة تربيتنا العسكرية لا تميز كثيراً ما بين النقاش وعدم إطاعة الأمر، وبعد ذلك عرفت أن قائدنا الأعلى الذي أحترمه كثيراً لم يفرق ما بين النقاط الحصينة والمستعمرات الإسرائيلية بل جعلها موضوعاً واحداً.

في 1989/8/4 صدر منهج مكثف لاستطلاع المنطقة الشمالية من القطر لقادة وأمـــري تـــشكيلات الحرس الجمهوري، وذلك باستخدام العجلات والطائرات السمتية، وكان شمال الوطن ينعم بسلام واستقرار نادرين، لأن تلك المنطقة كانت ولا تـــزال منطقة تكثر فيها أطماع النفوذ الإقليمية والدولية، وكانت هذه الجهات تغذي أعمال العصيان للنيل من سيادة العراق، وما الاعترافات الأخيرة الصادرة في الوثائـــق المخابراتية الأميركية والإسرائيلية والإيرانية إلا دليل يثبت ذلك بالنصوص الـــصريحة وبالأرقام والصور. وقد عملت تلك الأطماع وحركات العصيان على استنـــزاف البلد لعقود طويلة وعلى حساب سكان المنطقة الشمالية.

كـــنت أعـــرف المـــنطقة الشمالية جيداً، وذلك من خلال حدود ونطاق العمليات العسكرية التي شاركت فيها عامي 1974 و1975، وكذلك من خلال جـــولات كلية الأركان عام 1979، إلا أن البعد الثالث لرؤية المنطقة من خلال استخدام الطائرات السمتية والوصول إلى مناطق لا تصلها العجلات عزّزت من معـــرفتنا بهذه المنطقة الرائعة، وكانت المناظر الخلابة للمنطقة الجبلية عصية على الوصـــف، وهي من أجمل بقاع الأرض، وخاصة مثلث الحدود العراقية الإيرانية التركية، وكان الجو لطيفاً، ولم تكن درجات الحرارة لتقارن مع حرارة صحراء الجنوب التي قدمنا منها.

لقد كانت قواتنا قد انتشرت بما يؤمن المشروع التنموي الكبير الذي عزمت عليه القيادة، وكانت الطرق الحديثة مثار إعجاب، حيث ربطت الأماكن النائية والمقطوعة ببعضها البعض، إلا أن بعض الاجراءات كانت مضرة بسكانها الأكراد كجعل شريط حدودي بعرض 30 كم خالٍ من السكان، وعلمت أن هناك عمليات إسكان قسري لشرائح من الأكرادٍ خارج مناطق إقامتهم الأصلية كمجمعات سكنية.. ومن خلال لفتة لطيفة لقائد الفرقة 38 ورئيس أركانه وهما صديقان قديمان لي وضعا بيتيهما في سرسنك بخدمتي، فشجعني ذلك على أخذ عائلتي للاصطياف هناك في أقرب إجازة، وحدث ذلك يوم 1989/8/23 وكانت أياماً لا تنسى.

استمرت فعالياتنا التدريبية من محاضرات، وإيضاحات، وتمارين لرفع كفاءة قواتنا لمنازلة الإسرائيليين بجدية عالية، ومما لا شك فيه أن للعدو آذان وعيون وعقول تسجل وتستنتج الكثير. وقد زارت خلال تلك الفترة ساحات العمليات التي جرت فيها المعارك الكبرى في الحرب العراقية الايرانية سلسلة من الوفود العسكرية العربية والأجنبية ومن ضمنها وفود أميركية للاطلاع على الخبرة العسكرية العراقية وبالتأكيد كان لقسم من تلك الوفود العسكرية غايات أخرى بالوقت الذي كانت فيه حملة عمرانية كبرى تجري لاعمار المناطق الحدودية المتضررة ومنها مدينة الفاو والتي جرت بطراز رائع سجل مأثرة من مآثر التقدم الحضاري للعراق المنتصر وزارنا الكثير من الرؤساء والملوك العرب.

إلا أن نغمة الإعلام الغربي وخاصة الأميركي بدأت تختلف، وصارت عبارة عن نغمة مزعجة، تثير سلسلة من الشكوك بالقيادة العراقية وبقدرات العراق وذلك من خلال التقارير الاذاعية والمتلفزة، وكانت تحتوي الكثير من التضخيم والمبالغة المقصودة، وكانت كلها تصب في مصلحة إسرائيل، وأثّر ذلك في مسار تطبيع العلاقات مع إيران في موضوع تصفية آثار الحرب للصالح العام، وتوقفت عمليات تبادل الأسرى وغير ذلك، وبالتأكيد جرى ذلك من خلال الإيحاءات الواضحة من دول الغرب المعادية لنا، وكان التناقض كبيراً ما بين التصريحات الرسمية والإعلامية لمسؤولي تلك الدول، لقد احتارت دوائرنا الدبلوماسية والاستخبارية في تفسير

ذلك، ثم انطلقت سلسلة من الإشاعات حول احتمال قيام إسرائيل بضربات وقائية ومنها تدمير السدود المائية الكبيرة لإغراق بغداد وباقي المحافظات الواقعة على الأنهر الرئيسية، وكان موضوع السلاح البيولوجي والنووي العراقي والأسلحة ذات المديات الكبيرة كالصواريخ صلب التقارير الإعلامية، فيما بعد أخبرني أحد التجار العراقيين وهو صديق (ج خ الدليمي) وبحكم نشاطاته التجارية في الامارات العربية أن مؤسسة اقتصادية أميركية ذات صلات وثيقة بالإدارة الأميركية قد اتصلت به تطلب لقاءً خاصاً بالرئيس العراقي حصراً لأمر خاص عرف فيما بعد (بمشروع اتفاقية اقتصادية استراتيجية بعيدة المدى ما بين العراق وأميركا) وقد وافقت الرئاسة العراقية على ذلك اللقاء، إلا أن الجانب الأميركي ألغى الزيارة عشية إعلان العراق عن تجربة ناجحة لاطلاق صاروخ سمي العابد تألف من ثلاث مراحل (كان في الحقيقة بمراحله الأولية وبولغ فيه لأسباب شخصية من قبل حسين كامل) فما كان من الحملة المعادية إلا أن ازدادت شراسة، لقد شكلت تلك الحملات الإعلامية السياسية ضباباً كثيفاً حول حقائق الأمور في العراق، بالوقت الذي تصاعدت وتائر الصناعة العسكرية والاستراتيجية العراقية، وخاصة في موضوع الصواريخ والمدافع بعيدة المدى (كان هناك مشروعاً لتصنيع مدفع عملاق ثابت بخبرة المانية ويعتبر مشروعاً غبياً في ظل التطور الهائل في عمليات الكشف والاستشعار عن بعد ومنظومات الاسلحة الذكية والموجهة ذات المديات البعيدة) فاعتبر ذلك تجاوزاً عراقياً للخطوط الحمراء. وحل عام 1990 مع نشاط سياسي كبير للعراق أدى إلى قيام اتحاد عربي (في مقابل مجلس التعاون الخليجي بعد رفض تلك الدول لانضمام العراق إلى ذلك المجلس) مع مصر واليمن والأردن في 1990/2/16. لقد نبه العراق من مغبة قيام بعض الدول - خاصة الكويت - بزيادة انتاجها النفطي الأمر الذي سيؤدي إلى تدهور أسعار النفط مما سينعكس بدوره تدهوراً في الاقتصاد العراقي، وقد أشار إلى قيام شركة أميركية بسرقة النفط العراقي من شمال الكويت ولصالح حكومة الكويت وذلك من خلال الحفر المائل، والغريب في الأمر أن الشركة الأميركية هي من قامت بإبلاغ العراق بهذا الأمر، ومما زاد الأمر سوءاً قيام الكويت ببيع النفط لإيران بأسعار رمزية. ظن العراق أن مؤامرة اقتصادية دولية تحاك ضده،

وفي نهايـــة نيسان عام 1990 حذّر الرئيس صدام حسين خلال تقليده بمجموعة من الـــضباط أنواط الشجاعة من حرق نصف إسرائيل بالسلاح الكيماوي المزدوج إذا مـــا هـــدد العراق أو ضرب بأي سلاح ذري سواء أميركي أو إسرائيلي كضربة وقائية، فقامت الدنيا و لم تقعد، وتخلل ذلك أكثر من حادث استفزازي لاستدراج العـــراق في هذه الأزمة السياسية والاقتصادية لجر العراق لاتخاذ قرار خاطىء، ومن تلـــك الاستفزازات قضية الجاسوس البريطاني بازوفت (الايراني الأصل) ومساعدته الـــبريطانية التي تعمل في مستشفى ابن البيطار حيث تحدّت رئيسة وزراء بريطانية الـــسيدة تاتشر صدام حسين أن يأمر بإعدام هذا الجاسوس، وبالطبع أمر بإعدامه على الفور لأنه شخصية يسهل استفزازها، فأصبح العراق وأخباره القاسم المشترك الأعظـــم لكـــل الإذاعـــات الدولية، وبات العراق وسط إعصار إعلامي مبرمج ومـــضخم غير أن الفجوة قد اتسعت كثيراً ما بين العراق ودول الخليج العربي فما كـــان لأشهر العسل بينهما أن تستمر وسط حماقة السياسة العراقية وخضوع تلك الدول للضغوط السياسة الدولية، و لم تعد أوسمة الرافدين السامية التي قلدها الرئيس صدام حسين للملك فهد ولأمير الكويت قبل أشهر عرفانا بجميلهما تعني شيئاً!

ما قبل الانفجار

في 1990/7/2 اجـــتمع الرئيس صدام حسين بقيادة الحرس الجمهوري، وفي الـــيوم الـــتالي وخـــلال لقائي بقائدي المباشر للاستفسار عما دار في ذلك اللقاء، علمـــت أن حـــديث الرئيس بدأ باستعراض عام للمؤامرة الاقتصادية والإعلامية الدولـــية الـــتي يتعرض لها العراق بشكل ظالم وسافر، وكان الرئيس بحالة نفسية صـــعبة، وأضـــاف أن القـــيادة العراقية مستاءة جداً من موقف الكويت وأميرها، واعتـــبره جزءاً من تلك المؤامرة بشكل لا لبس فيه، وأشار إلى أن العراق ما كان ينتظر من أشقائه إلا العرفان بالجميل، حيث قاتل دفاعاً عنهم جميعاً، ودفع من أجل ذلـــك أعـــز ما يملك من دماء أبنائه ورجاله، بالإضافة إلى قدراته المادية المختلفة (عسكرية ومدنية) مما أدى لضياع الكثير من فرص التقدم الحضاري والاقتصادي. وقد أنهى الرئيس كلامه مستفسراً عن قدرات الحرس الجمهوري ودرجة استعداده

للقتال، فأكد له القادة أن الحرس الجمهوري بأعلى درجات الاستعداد. وخرج الجميع من ذلك الاجتماع بعدد من التكهنات التي لم تتجاوز الحدود الطبيعية.

في الساعة 03:30 من 1990/7/15 اتصل بي هاتفياً العقيد الركن معتمد التكريتي رئيس أركان الفرقة (فرقة حمورابي حرس جمهوري - كان معسكرها آنذاك في الصويرة) وطلب مني تهيئة جحفل لوائي - جحفل اللواء المدرع 17 حرس جمهوري - كان معسكره في ذلك الوقت في الكوت - وبإنذار قصير وفق أمر من المراجع العليا للحركة نحو القاطع الجنوبي (البرجسية قرب جبل سنام - جنوب غرب البصرة) وأخبرني أن ناقلات الدبابات ستصل في الصباح، وعلى الفور أنذرت جحفل اللواء، واستدعيت المجازين بالوقت الذي قمت بتهيئة عائلتي لاعادتها فوراً إلى بغداد حيث كنت أسكن في دور ضباط معسكر الكوت. وخلال تفقدي استعدادات وحداتي للحركة، كنت أضرب أخماساً بأسداس للخروج باستنتاج منطقي لهذه الحركة المفاجأة إلى منطقة محاذية للكويت، وخلال تبادلي الأحاديث مع مقدم اللواء العقيد الركن شباط علي مطر وبعض آمري الوحدات وكإجابة لاستفسارهم عما أتوقعه أشرت إلى أن التلويح بالقوة أو استعراضها هي وسيلة من وسائل السياسة وورقة ضغط تساعد في حل الأزمة السياسية والاقتصادية التي تعاظمت في الفترة الأخيرة مع الكويت، وبدأت أشرح لهم موضوع الأزمة السياسية وبعض أساليب إدارتها وصولاً إلى ما يسمى بسياسة حافة الحرب التي يلجأ إليها من أجل الوصول إلى حلول سلمية لتلك الأزمات، وأشرت إلى أن هذه الأزمة في طريقها للحل خلال بضعة أسابيع، وأن الأسرة العربية ستسعى جاهدة لاحتوائها والمساعدة في حلها بالتأكيد... كان ذلك أقصى ما وصل إليه تفكيري وقتها.

في صباح 7/15 ودعت عائلتي، ثم أشرفت على تحميل دروعنا على الناقلات وعلى ترتيب تسلسل الأرتال، وأصدرت الوثائق الخاصة بذلك، وقمت بتأمين الشؤون الإدارية ثم سلكنا طريق الكوت - الناصرية - البصرة وكان التنقل صعباً، نظراً لارتفاع درجات الحرارة، وكثرة تعطل ناقلات الدبابات بحيث اختل ترتيب المسير للأرتال وتداخلت، ولكن لم يكن هناك مشكلة في ذلك لأنه لم يكن لدينا

وقت محدد للتنقل، كما لم يكن هناك من تداخل أرتال أخرى، وكانت حجة (غطاء) تلك الحركة التي بُلّغت بها هذا الصباح هو التحشد لتنفيذ مشروع تمرين كبير أطلق عليه اسم التعاون العربي كاسم رمزي. وخلال تنقلنا، علمت أن باقي تشكيلات الفرقة قد أنذرت بالحركة وطلب مني إعادة الناقلات بسرعة، بل زاد الموضوع حجماً عندما علمت بحركة عدة تشكيلات من فرق أخرى حتى شملت الحركة كافة فرق الحرس الجمهوري. وقد تكامل جحفل لوائي بشكل تام صباح 1990/7/18 في منطقة البرجسية بموازاة طريق البصرة - سفوان - جبل سنام. وشرعنا بإكمال الاستعداد القتالي من الناحيتين الفنية والإدارية بالوقت الذي زاد اللغط بين الجميع للوصول إلى استنتاجات معقولة، وكانت حركة عجلات المسافرين مستمرة ما بين العراق والكويت، وغالباً ما يتوقف المسافرون عند أي عجلة عسكرية واقفة ليسألوا سؤالاً واحداً "إلى أين أنتم ذاهبون؟" وكانت الإجابة واحدة أيضاً "ذاهبون للاشتراك بتمرين". وكلا السائل والمسؤول غير مقتنعين بالإجابة! وقد لاحظت سيارتين نوع كابرس بلوحات كويتية تتجولان على الطريق المحاذي لتنقلنا عدة مرات فظننت أن راكبيها من المخابرات الكويتية لأن تصرفاهم كانت غير طبيعية، فأرسلت من ينذرهم ليتركوا المنطقة، فغادروا على الفور.

في الساعة 11:00 من يوم 1990/7/19 طُلب حضوري في مقر الفرقة الذي انفتح لتوه في القاطع نفسه، وحال دخولي على القائد في دائرته المتنقلة (كرفان) وجدت مصحفاً على طاولته بشكل بارز على غير العادة، وبعد تبادل حديث قصير حول عمليات إكمال التحشد، طلب مني أن أقف للقسم على كتمان مشروع يحمل الرقم 17، ويتعلق بتحرير الكويت! وأن مهمة جحفل لوائي تشكل الجزء الأعظم من مهمة الحرس الجمهوري بشكل عام؛ قوة الواجب الأولى لقوات حرس جمهوري وهذا مما تطلب إعلامي بالمهمة قبل آمري التشكيلات الأخرى، فأصابتني الدهشة لحجم المهمة وعمقها، وقد كانت أكثر توقعاتي لا تتجاوز قيامنا باحتلال الشريط الحدودي التي تجاوزت الكويت عليه والذي جرى الحديث عنه مؤخراً أو الاندفاع لبضعة كيلو مترات جنوباً ليشمل الإندفاع جزءاً كبيراً من القبة

النفطـــية لحقـــول الرميلة الجنوبية العراقية، فقلت مستغرباً أن تحتل الكويت البلد الشقيق؟! بعد أدائي للقسم، طلب مني تقديراً سريعاً للموقف، فأسرعت في ترتيب أفكاري لجدية الموضوع وخطورته، فدرست الخريطة في مكان قريب، وبدأت في حـــسابات تقدير الموقف السريع وتسألت أين العدو؟ ما هي قوة وطبيعة انفتاحه؟ وكانـــت المعلومات شحيحة للغاية، فركّزت على دراسة الأرض جيداً متخيلاً لو كـــنت القائد الكويتي أين أدافع؟ وأي المحاور أفضل للتقدم؟ وسيطرت عليّ فكرة أساسية وهي أن عامل السرعة أهم عوامل تحقيق المباغتة، والمباغتة أهم مبدأ لتحقيق الـــنجاح في مهمتـــنا، والمـــشكلة أننا كمقاتلين ليس لنا روح عدائية تجاه القوات الكويتية! وهي مسألة مهمة تحتاجها القوات في الحروب لرفع الروح المعنوية لغرض القـــتال. وكـــان الشغل الشاغل لنا ألا نوقع خسائر في شعبنا بالكويت فهم أهلنا وإخوانـــنا وكنا متفقين على أمرين: الأول، الحاجة الماسة للمعلومات الدقيقة، وأن الخـــرائط التي بين أيدينا هي بقياس 100000/1 وهي معدة في العام 1977 ولا تلبي حاجتنا. والأمر الثاني، تجنب الحسابات التقليدية للعمليات التعرضية وعدم الحاجة إلى القـــصف التمهيدي للمدفعية ولنيرانها الساترة أو لاسناد القوة الجوية عدا تحييد الجو.

في الـــيوم الـــتالي بدأت بأول استطلاعاتي لخط الحدود الدولية مع الكويت، والأرض هـــناك بـــشكل عام صحراوية منبسطة أهم عارضة فيها هي جبل سنام المشرف على كامل المنطقة وفيها منطقة العبدلي وهي أول مدينة في أرض الكويت مـــن جهة العراق وهي مدينة حدودية، وما لبثت أن شرعت بتدقيق الاستعدادات القتالـــية لجمـــيع الـــوحدات، وبدأت أفكر بالتفاصيل لقطع مسافة 160 كم التي ستوصلنا إلى نهاية الهدف (رأس الأرض) المطلة على مياه الخليج العربي والتي تشكل أكـــبر نتوء لساحل العاصمة نحو البحر، وبعد ثلاثة أيام وجدت من الضروري أن أجمـــع آمري الوحدات لأقرب لهم صورة الواجب القادم، وبافتراض معقول قلت لهـــم "تـــصوروا لو كلفنا بتحقيق هدف خيالي قدتم ألا وهو ضم الكويت للعراق بالقوة وأن لوائنا قد كلف كقوة واجب أولى... كيف يكون تخطيطنا لتلك المهمة" فقمنا بإنشاء منضدة رمل، وأوضحنا فيها محور عملنا بالكامل، وبدأنا بنقاش عام،

ثم دخلـــنا بالتفاصيل وتوزيع المهام والواجبات، وخرجنا بخطة معقولة، وقد أكدت على موضوع الاكتفاء الذاتي لمواد تموين القتال، وترك القدمات الإدارية بفاصلة 24 ســـاعة كي لا تكون عائقاً للقطعات المعقبة لنا مع الاستفادة من منشآت الوقود والمستـــشفيات ومـــصادر المياه على محور العمل، وكان جوهر خطتي كيف نعبر مضيق المطلاع وهو منطقة حرجة. وكان قائد فرقتنا العميد الركن قيس الأعظمي قد قدر عملي جداً، وركّز على مواضيع الملاحة، وضبط الاتجاه، وقد منحنا فسحة كبيرة للعمل الذاتي بما يتناسب وعمق الأهداف وقلة المعلومات.

فجـــر 1990/7/30 ذهـــبت برفقة عدد من الضباط إلى مديرية الاستخبارات العسكرية للحصول على المعلومات المطلوبة للتعرض المحتمل، وتأكد لنا وجود ستة ألوية كويتية أمامنا.

- لـــواء المشاة الآلي السادس أمام عارضة المطلاع الشهيرة بعشرة كيلومترات في منطقة ظهر اللياح، وكان مجهزاً بدروع حديثة.
- لواء المغاور رقم 80 خلف عارضة المطلاع مباشرة.
- اللواء المدرع 35 على طريق السالمي 40 كم عن المطلاع.
- اللواء الأميري مجهّز بناقلات أشخاص مدرعة (مصرية الصنع) تدعى الفهد.
- اللـــواء المـــدرع 15 في الأحمدي على الطريق الدولي نحو السعودية والمحاذي للساحل.
- لواء الحدود موزع على الحدود الدولية مع العراق.

وكـــان مـــن المقرر أن أدخل للكويت للاستطلاع كسائق شاحنة عسكرية كـــبيرة تقـــوم بـــنقل حمولة عسكرية موردة للعراق من ميناء الأحمدي الكويتي. إلا أنـــني اعترضـــت على ضابط المخابرات المرافق العميد الركن سنان عبد الجبار لأنـــني أردت مـــرافقاً (معـــاون سائق) يجيد معالجة الأعطال الفنية التي قد تصيب الشاحنة.

صـــادف في هـــذا الوقت محادثات على مستوى عالٍ بين العراق برئاسة عزة الـــدوري نائـــب رئيس مجلس قيادة الثورة وبين الكويت برئاسة ولي العهد سعد العبدالله الصباح وبرعاية الملك فهد ملك السعودية.

في الساعة 01:00 من يوم 1990/7/31 أخبرنا بضرورة العودة إلى وحداتنا فوراً وبأقصى سرعة، حيث وصلت مقري بالساعة 11:00 لنفس اليوم بعد أن قطعت مسافة 600 كم في طريق العودة من بغداد.

وكان قائدي ينتظر وصولي بفارغ الصبر، وعند ذهابي إليه كان مطلوباً في مقر الحرس الجمهوري وكان قائد الحرس الجمهوري قد أرسل أحد ضباط ركنه العقيد الركن فوزي ابراهيم اللهيبي مستتراً بصفة تاجر إلى الكويت للاستطلاع وقد وضع الفريق الركن اياد أفتيح الراوي خطة التعرض بجبهة أربع فرق:

1. فرقة حمورابي حرس جمهوري (درع)، تهاجم على الطريق العام سفوان - العبدلي - المطلاع - الجهراء - الكويت العاصمة يتقدمها جحفل لوائي بالتنسيق مع اللواء 16 قوات خاصة والقوة الهابطة من الجو في المطلاع من اللواء 3 قوات خاصة حرس جمهوري كقوة واجب أولى مهمتها احتلال العاصمة الكويت بالتركيز على (قصر السيف الأميري، وقصر بيان مقر مجلس الأمة، وبناية مجلس الوزراء، ووزارتي الداخلية والدفاع). تعقبها فرقة نبوخذ نصر حرس جمهوري مشاة بقيادة العميد الركن محمود دهام بديوي على نفس المحور لاحكام السيطرة على العاصمة.
2. تندفع فرقة الفاو حرس جمهوري مشاة على الطريق الساحلي أم قصر - الطريق الساحلي - شمال الكويت العاصمة، وتمسك بجزيرة بوبيان. والمناطق الساحلية شمال العاصمة وتكون بقيادة العميد الركن ميسر فاضل الجبوري.
3. فرقة المدينة المنورة حرس جمهوري (دروع) تندفع على محور الرميلة المعبر 11 - الأبرق - قاعدة علي السالم - الأحمدي للسيطرة على منطقة جنوب العاصمة. وتكون بقيادة العميد الركن ضياء ماهر التكريتي.
4. فرقة توكلنا على الله حرس جمهوري (دروع) تندفع على المحور الوسطي منطقة المقالع ما بين فرقة حمورابي حرس جمهوري وفرقة المدينة المنورة حرس جمهوري للسيطرة على المنطقة الغربية من الكويت وتكون بقيادة العميد الركن أحمد عبد الله صالح.

أمـــا فـــرقة عدنان حرس جمهوري مشاة فتندفع بقيادة العميد الركن فوزي التكـــريتي معقبة فرقة المدينة المنورة حرس جمهوري للامساك بالمنطقة الساحلية من الأحمدي إلى الحدود السعودية.

ثم تـــندفع فرقة بغداد حرس جمهوري بقيادة العميد الركن محمود معقبة على محور العبدلي - الجهراء - العاصمة الكويت - الوفرة للامساك بالقسم الجنوبي من الكـــويت. أما لواء الواجبات الخاصة 26 (الضفادع البشرية) فهو احتياط مع مقر فـــرقة القـــوات الخاصـــة حرس جمهوري بقيادة العميد الركن وعد الله مصطفى. وعلمـــنا بمهام بحرية ستنفذها القوة البحرية، وستؤمن القوة الجوية تحريم المطارات الكويتية وتحقق التفوق الجوي على سماء الكويت وأنه لا داعي لتدمير القوة الجوية الكويتية.

في الساعة 18:00 من يوم 1990/7/31 حضرت مؤتمر الأوامر النهائي مع باقي آمـــري التشكيلات في مقر الفرقة، فعلمت سبب إلغاء عملية الاستطلاع المموهة حـــيث حـــدد يوم التعرض بالساعة 04:00 يوم 1990/8/2. بالتأكيد كان علينا معالجة أمر المخافر الحدودية والاستيلاء عليها دون اعطائها الفرصة لإنذار قطعات العمق، وهذه المخافر عبارة عن قلاع قوية وحديثة جداً، وكان قائد قوات الحرس الجمهوري الفريق الركن أياد أفتيح الراوي قد أصدر الكثير من التعليمات الدقيقة والخاصـــة بتحديد الاتجاهات وضبط المسير علاوة على التعليمات الفنية والإدارية، كـــذلك أضاف قائدي العديد من الوصايا التي تؤكد على الجوانب العملية لتحقيق نجاح التعرض.

وفي هـــذا الـــيوم حصلنا على وثيقتين مهمتين جداً ألا وهما التصاوير الجوية لعمـــوم نطاق التعرض من خلال آخر استطلاع جوي لطائرة نوع ميغ 23 بتاريخ 30 تمـــوز، وخارطة سياحية للعاصمة الكويت، وكانت مفيدة جداً، وبدونها كان عمل جحفل لوائي صعباً للغاية داخل العاصمة، لأن خرائطنا فقيرة جداً بالمعلومات الدقـــيقة، وكانـــت معلومات عناصر الاستخبارات العسكرية يعتريها الكثير من النقص، وعليه ضمنت نجاح تنفيذ خطتي، بالاعتماد على عنصر السرعة الذي غلّبته علـــى باقي العناصر، وخاصة في عبور مضيق المطلاع مفتاح النجاح، دون اعطاء

الفرصة للواء 6 مشاة آلي الكويتي المدافع أمام هذا المضيق بعشرة كيلومترات للانسحاب والدفاع فيه، كذلك عبورنا له قبل إعطاء الفرصة للواء 35 الكويتي المدرع من الوصول إليه (المضيق) من معسكره على طريق السالمي (كان يبعد عنه 40 كم) وكان يشغل تفكيري أيضاً قدرة لواء المغاور 80 الكويتي في الدفاع المضيق؟ كانت خطتي كما يلي:

- تقوم سرية مغاوير اللواء بالتسلل بدءاً من الساعة 01:00 يوم 8/2 وتقتحم قلعة (السديرية) التي تدافع عنها سرية حدود، وتقوم بأسر من فيها دون إراقة دماء.
- تقسيم جحفل اللواء إلى رتلين متوازنين ومتوازيين في الحركة تفصل بينهما مسافة بمعدل 500م ليلاً و1000م نهاراً والقيام بمناورة ليلية في الصحراء لمسافة (50 كم)، ثم الانحراف شرقاً مع الضياء الأول على تقاطع الروضتين وأم العيش (محطة الأقمار الصناعية) بالطريق العام العبدلي - الجهراء، ثم ينحرف الرتل الأيسر على الطريق العام لإزاحة المقاومات المتوقعة من اللواء 6 مشاة آلي الكويتي فيما يستمر الرتل الأيمن بالتقدم السريع بموازاة الطريق العام لتحقيق اجتياز مضيق المطلاع قبل وصول اللواء المدرع 35 الكويتي، كما يقوم بطرد لواء المغاوير 80 من منطقة المضيق أعلاه بالاستفادة من عملية الانزال التي سيقوم بها اللواء 3 قوات خاصة حرس جمهوري على العارضة.
- بعد اجتياز جحفل اللواء عارضة المطلاع وبالاستفادة من الخارطة السياحية التي استنسختها للجميع، قسّمت جحفل لوائي إلى ثلاثة جحافل معركة.

الجحفل الأول، (الفارس) بقيادة المقدم الركن أحمد كمون، وتكون مهمته الطريق الدائري الخامس نحو (الصليبخيات - ميناء الشويخ - رأس الأرض) واحتلال القصر الأميري (قصر السيف) مع السيطرة على منطقة الفنادق الكبرى ووزارة الدفاع مع تجنب الاشتباك العنيف قدر الإمكان للمحافظة على الأرواح والممتلكات، حيث يتوقع قيام الحرس الأميري بالقتال هناك.

الجحفل الثاني (17 تموز) يندفع خلف القسم الأكبر من الطريق الدائري السادس، ثم ينحرف يميناً ليسلك الطريق الدائري السابع، ويتمثل هدفه باحتلال مطار الكويت الدولي، والذي يتضمن قاعدة جوية عسكرية كما يقوم أيضاً بالسيطرة على منطقة الفنطاس.

الجحفل الثالث (القسم الأكبر) يكون تحت قيادتي المباشرة، وهو يتضمن (كتيبة دبابات القائد زائد فوج المشاة الآلي 23، وسرية هندسة الصولة، وكتيبة مدفعية ذاتية الحركة 116 وبطارية مقاومة الطائرات المستقلة 17) ومهمة هذا الجحفل الاندفاع على الطريق الدائري السادس، واختراق الجهراء، ثم العاصمة، وإزاحة كافة المقاومات - إن وجدت - وقوات الشرطة والحرس الأميري وصولاً إلى الخليج العربي عند فندق (المسيلة)، ثم ينحرف شرقاً على الطريق الحولي الساحلي شارع الخليج العربي، حيث يلتقي مع الجحفل الأول عند منطقة رأس الأرض - الأبراج ويحكم تطويق العاصمة، ثم يساعد في علمية إلقاء القبض على القيادة الكويتية (وهذه مهمة شبه مستحيلة لعدم الموافقة على إنزال قوة محمولة لقطع الطريق المؤدي نحو الحدود السعودية) ولحين تكامل فرقة حمورابي حرس جمهوري ثم فرقة نبوخذ نصر حرس جمهوري وكانت أمنيتي الكبيرة أن ننفذ مهمتنا بدون إراقة للدماء، وأن لا يكون قتالنا إلا للدفاع عن النفس، وعليه أمرت بأن يكون الآمرون في الأمام مع عدد كاف من الأعلام البيضاء للتلويح بها للقوات الكويتية لتجنب الاشتباكات قدر الامكان، كما توجب عليّ ضبط بداية العمل، وذلك بقيامي باستطلاع قريب ودقيق لقلعة السديرية الحدودية مع آمر سرية المغاوير النقيب مثنى الذي جعلته سائق العجلة، وارتديت رتبة - رتبة نقيب - وذلك حتى نصل إلى أقرب مكان من القلعة، ونتظاهر بأننا أضعنا الطريق، وأننا بحاجة ماسة للماء نظراً لارتفاع حرارة محرك العجلة بسبب الحرّ، وبذلك تعرفنا إلى المدخل الرئيسي، وأبراج الحراسة، وهوائي الإرسال اللاسلكي، والعدد التقريبي للمدافعين هناك، وعدد كلاب الحراسة السائبة حول القلعة وخلال تنظيم مسير التقدم وتشكيل القتال جعلت مقري في أقصى الأمام وكذلك

الآمرين لمنع الاجتهادات الخاطئة ولتجنب الاشتباكات غير الضرورية مع التأكيد باستخدام عتاد المهداد المخصص للمشاة تجاه الدروع الكويتية في المشاغلة الأولى لتجـنب تـدميرها والاكتفاء بإرهاب طوائفها مع ضبط جدول المسير والملاحة ومـنها استخدام عتاد التنوير لمدفع 130 ملم على محور التقدم ليلاً للمساعدة في ضبط الاتجاه ولأقصى مدى ممكن خلال المناولة الليلية في الصحراء قبل الفجر.

بعـد أن أكملت استطلاعاتي النهائية، طُلِبَ حضوري في المقر الجوال لجحفل اللواء 8 المدرع المعقب لجحفل لوائي، فالتقيت فيه قبيل الغروب بقائد الفرقة الـذي أقنعته بسهولة بعدم التدخل بتفاصيل خطتي، وترتيب المسير، وتشكيل القـتال حيث كان لتوه قد أصدر بعض التعليمات بهذا الخصوص في وقت لا يـسمح لـنا بأي تعديل جديد تجنباً للارتباك. لقد كان هذا الرجل رائعاً في سلوكه القيادي الذي يعطي حرية عمل جيدة لمرؤوسيه، ويمتلك قدرة كبيرة علـى المناقشة، والقبول بالمنطق العام للحقائق. ثم جاءت التقارير النهائية في تدقيق الخطة والإجراءات الفنية والإدارية لإنجاحها، وكانت حرارة الجو عالية جداً، مما دعاني إلى شراء كمية كبيرة من الرقي وبمعدل ثلاث رقيات بطيخات لكـل دبابة، وست رقيات لكل عجلة قتال مع حمل كميات كبيرة من الماء والوقـود الإضافي مع عجلات القتال لتفادي الصرفيات العالية للوقود خلال الاندفاع في صحراء شبه رملية.

وخلال تناولي العشاء مع آمر جحفل اللواء 8 المدرع حرس جمهوري العميد الركن عبد القادر عبد يونس، شاهدنا على شاشة التلفزيون الأخبار الكويتية المـصورة ومـنها خبر وصول ولي العهد الكويتي المطار قادماً من السعودية، وأشار في سياق حديث إلى أن الموضوع لم يحسم، إلا أنه غير متشائم في إيجاد حـل للأزمة مع الأخوة العراقيين... (وأظن أن قيادتنا تمنت ألا يكون هنالك حل سياسي) وهنا تبادلنا بعض التعليقات حول تصريحات ولي العهد حين قال "نـتمنى أن ينـزع فتيل الأزمة مع العراق" في حين كان اصبعنا على الزناد، وعـند الـساعة 23:00 ليلة التعرض أجبرت نفسي على النوم لمدة ساعتين لأغراض الراحة والتهيؤ ليوم العمل الكبير.

توقّع ما ليس متوقعاً - معركة احتلال الكويت

لا أعرف كيف نمت ساعتين كاملتين باطمئنان، وحين استيقظت عند الساعة الــواحدة من يوم 1990/8/2 (خلال الحياة العسكرية يعتبر الوقت ذا قيمة حاسمة، وأصبح لدى الكثيرين منا القدرة على الاستيقاظ الذاتي في الوقت المحدد)، فتوضّأت وصــليت صــلاة التوكل متوسّلاً إلى الله العزيز القدير أن يوفّقنا في مهمتنا، وأن ننجــزها دون إراقة دماء، بعدها تحرّكت إلى عجلة القيادة، فأطلقت العنان لسرية المغاويــر لتقتحم هدفها قلعة السديرية، وبعد انتظار ساعتين جرى خلالها التدقيق النهائي للقطعات، شاهدنا جميعاً ثلاث طلقات تنوير خضراء، وهي الإشارة المتفق علــيها بأنــه تمّ احتلال الهدف دون إراقة دماء. في الساعة 3:30 أعطيت الكلمة الجفــرية للــشروع بالتحرك نحو الحدود الدولية، فتمّ اجتيازها عند الساعة 4:00. فبدأت المناورة الليلية لرتلي جحفل اللواء، وخلال مسير الاقتراب الطويل كنت في كــل عــشرة كيلومتــرات أدقّق الاتجاه بواسطة آلة الملاحة اليدوية، وبالرغم من ضوضــاء محركات دروعنا الهادرة، والغبار المتصاعد من سرافها الذي شكّل خطاً سمــيكاً وطويلاً في السماء الصافية، كنا نشعر بصمت رهيب، حيث لم نلتقط أية إشــارة على الأجهزة اللاسلكية ذات التردد العالي (HF) من مقرنا الأعلى، أو من التشكيلات الأخرى، مما حدا بالرائد الركن ابراهيم الجبوري ضابط الركن المرافق لي علــى الاعــتقاد الجازم بإلغاء المهمة، وأن لواءنا وحده في طريقه إلى الكويت العاصــمة، فطمأنته وطمأنت نفسي بالقاعدة الفقهية العسكرية (الأمر لا يلغيه إلا أمر) فليس لنا أية حجة للاجتهاد. وإن سبب إصداري الأمر بالشروع بالحركة قبل نصف ساعة هو فهمي لساعة (الشروع بتنفيذ المهمة) والمحددة بالساعة 4:00 على أنها الساعة المحددة لاجتياز خط المخافر الحدودية الكويتية وليس هذا الوقت وقت شروع بالحركة كما فهمه الآخرون.

ما إن شارفت الساعة الخامسة والنصف ونحن نسير بسرعة 30 كم/سا حتى بــدأ فجر ذلك اليوم بنشر ضيائه الخافت من اتجاه الشرق، حيث تلألأت مصابيح منطقة الروضتين من بعيد. وما إن شاهدنا ومضات حمراء وخضراء فوقنا تشير إلى طيران (هليكوبترات) سمتيات نقل القوات الخاصة، حتى سرى في أعماقنا اطمئنان

زاد من ثقتنا بأننا بالاتجاه الصحيح، فأطرقت على يد ضابط الركن المرافق، وطلبت منه أن يوعز للرتلين بزيادة السرعة إلى 50 كم/سا. وفي الساعة 5:45 تمّ الوصول إلى تقاطع الطريق العام المعبد، فانحرفنا بأقصى سرعة نحو الجنوب. وكان جحفل معركة الفارس يقود الرتل الأيسر بانفتاح رائع. وفي الساعة 6:00، وحال وصولنا وادي اللياح فتحت نار كثيفة من اتجاه الشرق مع إصابة إحدى الدبابات الأمامية بصاروخ مقاوم للدروع، فاشتعلت النار فيها، وبحسب الخطة جرى تطبيق أسلوب العمل الفوري للمجابهة. تقدّمت نحو يسار الشارع العام، فرصدت ما يقرب جحفل معركة كويتي وهو بالتأكيد من وحدات لواء المشاة الآلي 6 الكويتي، وعجبت لما يمتلكه من عجلات قتال روسية نوع (بي أم بي 2) المجهزة بصواريخ (فاكوت وكونغرس بمدى 2-4 كم)، علاوة على دبابات الفيكرس البريطانية الأحدث. وهناك جرت معركة سريعة، وأجبرت القوات المقاومة على ترك مواضعها، ولقد تكبدت بعض الخسائر بالدبابات وبالعجلات المدرعة (استغربت جداً لما أحدثته مقذوفات دباباتنا ضد المشاة بتلك الدروع من تأثير، فكيف إذا استخدمنا مقذوفات ضد الدروع). وقد سبق تخطي تلك المقاومة بالرتل الأيمن، وخلال اندفاعنا بأقصى سرعة نحو المضيق، ظهرت على مقربة منا وإلى جهة اليسار مجموعة من العجلات المُسرّفة والمدولبة نوع قيادة واعتقدت متأكداً أنها تمثّل مقر ذلك اللواء الكويتي، فاستدرت بعجلتي نحوها ثم توقّفت على مرتفع قريب، ولوّحت لها بعلم أبيض كبير، فتوقفت العجلات، ثم استدارت نحو الشرق، وكان تخميني أنها ستستسلم إلى فرقة الفاو المتقدمة على المحور الساحلي، وقد قطعنا عليها طريق الانسحاب (وتحقّق ظني. وفيما بعد تمّ سد نقصنا من عجلات (pmp2) للأفواج الآلية، وقد شكّلت فرقة مدرعة حرس جمهوري من الغنائم الكويتية) وعندها واصلنا تقدمنا حتى وصلنا إلى عارضة المطلاع البيضاء، وهي سلسلة من التلال الهضبية العالية الكلسية الصخور، والتي يصعب اجتيازها إلا من خلال مضيق الطريق، فعقدت الدهشة لسان سائقي الشاحنات المدنية الذين كانوا يجتازون تلك المنطقة باتجاه العراق. وما إن تجاوزت دروعنا ذروة المضيق، وبدأت الأرض تهبط بنا، حتى شاهدنا أول سرية دبابات من اللواء 35 المدرع الكويتي نوع جفتن

البريطانية الصنع تتقدّم بالرتل نحو المضيق، وما إن شاهدتنا تلك السرية بعد أن أطلقت دباباتنا الأمامية بعض مقذوفات (المهداد) التحذيرية على جوانبها حتى لاذت طوائفها بالهرب، وترك جنودها دباباتهم وهي في حالة اشتغال وبسرعة احتزنا ذلك المضيق، حيث تنفست الصعداء، وحمدت الله كثيراً، لأننا أنجزنا المرحلة الأولى بنجاح كبير. وكانت المرحلة الثانية تحصيل حاصل ليس إلا، وحينما التفتّ إلى اليسار رصدت بمنظاري مجاميع من لواء المغاوير رقم 80 الكويتي تلوذ بالفرار، وأخرى تفترش الأرض جلوساً، فأشرنا لهم بالأعلام بترك المكان ففعلوا.

كانت الساعة تشير إلى 6:40 وقد أكملنا احتياز مضيق المطلاع. عندها أوعزت إلى إحدى عجلات القتال المدرعة بتدمير منطاد المطلاع الأبيض الكبير بمدفعها عيار 30 ملم، إلا أنه لم ينفجر، فتركت أمر تدميره للمعقبين، وأمرت آمر جحفل معركة الفارس بالانطلاق على الطريق الدائري الخامس نحو ميناء الشيوخ ورأس الأرض، حيث بدأت لوحات تعريف الطرق، والمناطق الزرقاء والخضراء تسهّل أمر الاستدلال علينا، فباشرنا التقدم على الطريق الدائري السادس، وما هي إلا دقائق حتى اصطدمنا بمقاومة شديدة في (مفرق السالمي - واحة الغانم) منطقة استراحة الحجاج، وكان يقودها جحفل معركة كويتي من اللواء 35 المدرع بالتأكيد، فأشرنا لهم تجنباً للقتال، إلا أن دباباتهم استمرت بالرمي غير الدقيق، بشكل يدلّ على عدم كفاءتهم أو شدة ارتباكهم. وحسب سياق العمل تمّت إزاحة المقاومة بسرعة، فتراجعت معظم القوة نحو الغرب على طريق السالمي، وظنّت أنهم سيقعون بأسر فرقة المدينة المنورة حرس جمهوري أو فرقة توكلنا على الله حرس جمهوري المتقدمة من ذلك الاتجاه، وقد خسرنا في تلك المعركة مدرعة واحدة، فانطلقنا سريعاً حتى بدأ الطريق الدائري السابع، فتحرّك جحفل معركة 17 تموز/يوليو نحو هدفه المتمثل بالمطار الدولي، والقاعدة الجوية، والفنطاس، في هذا الوقت قدت القسم الأكبر من القوات على الطريق الدائري السادس، ثم احتزنا طرف محافظة الجهراء، فهالني شدة ارتباك المواطنين الكويتيين، وبعض الخليجيين على الطريق. وازدحم الطريق بالسيارات المدنية وكانت الدهشة والرعب يعتريان وجوه ركابها المدنيين، وقد حاولنا جاهدين بعث الطمأنينة في نفوسهم، وإيقاف

الـــسير إلا أن الارتباك كان عظيماً. وكنت أخشى أن تصطدم بعض دروعنا بتلك العجلات المدنية، وكنت أترك في كل تقاطع كبير فصيل مشاة آلي للسيطرة عليه، إلا أن مفـــارق الطرق الرئيسية كانت كثيرة، وكانت مفاجأتي كبيرة لكبر حجم هذه العاصمة الحديثة، فلقد كانت عبارة عن كل الكويت، وقد بذل ضابط الركن المرافق لي مع زمرة من الجنود جهوداً كبيرة للحدّ من حالة الرعب هذه، والسيطرة علـــى المدنيين الذين ازداد تواجدهم نظراً لأن ذلك اليوم كان يوم الخميس، وهو عطلـــة إضـــافية لـــيوم الجمعـــة، حيث يخرج معظم الناس حسب العادة إلى البر الصحراوي أو لزيارة أقاربهم في السعودية أو بالعكس. إلا أنني لم أتمكن من إمعان النظر في وجوه الكويتيين من شدة الخجل لما نفعله بهم رغماً عن رغباتنا وخاصة في وجه تلك المرأة المفزوعة من رؤية دباباتنا وهي تضمّ أولادها إلى صدرها.

في الساعة 8:30 تقريباً كان تداخلنا مع أرتال السيارات المزدحمة قد بلغ حداً لا يوصـــف، وتـــوقّفت عجلتيّ القيادة مع عجلة المحطة اللاسلكية المعقبة في مفرق طـــرق حديث (تحت الإنشاء فيه أقواس عالية) وكان هناك سهم بالقرب من هذا التقاطع يشير إلى (جمعية شعراء النبط) حيث توقّفت مدرعتان مملوءتان بالجنود من الحـــرس الأميري (نوع فهد) المصوبين أسلحتهم نحونا، إلا أنهم كانوا كالتماثيل، كـــذلك تـــواجدت ثلاث سيارات لشرطة المرور، ونبهني ضابط الركن إلى سياج ثكـــنة قريب ذي أبراج مع وقوف عدة سيارات نوع رانج روفر أظنّ أنها كانت تحمل أسلحة مقاومة للدبابات، وعلى يسار الثكنة كان يقع حي الفردوس السكني، وكـــان يـــوجد إلى جانبنا أحد المصارف، وقد تدافع الناس إليه في جمهرة كبيرة لسحب الأموال على ما أعتقد. وكان رجال الشرطة، وبعض رجال الجيش ينادون بأجهـــزة اتصال (توكي وكي). والمصيبة أن رتل كتيبة دبابات القائد الذي يقوده المقـــدم الـــركن عبد حماد قد توقّف بعيداً عنا، وكان الازدحام رهيباً ولا يوصف والموقف صعب للغاية، إلا أن الله العزيز قد منحنا هدوءاً غير طبيعي، وكان الوقود قد نفد من سيارتي، كما أوشك وقود عجلة المحطة اللاسلكية على النفاد، فناديت ضـــابط الـــشرطة القـــريب - وكان برتبة ملازم أول - وكان يتحدّث بالجهاز اللاســـلكي بانفعال شديد، وطلبت منه أمرين، الأول أن يساعدنا في فتح الطريق

لأن هناك ألف دبابة (رقم مبالغ فيه جداً) يجب أن تتقدّم، وقد تدهس الآلاف من الأبـــرياء. والأمـــر الثاني أن يساعدنا في ملء حوضي وقود عجلتينا. كان الملازم مـــرتبكاً جـــداً، ولّما طمأنته استجاب لي، وبينما كان سائقه (العريف) يقوم بملء عجلتي بالوقود سألته عن عائديه هؤلاء الجنود الراكبين بالمدرعتين وعن المسافة التي تفـــصلنا عـــن البحر عند فندق المسيلة، فأجابني بكل ممنونية. فشكرته على ذلك، وتقـــدّمت إلى الناقلة المدرعة الأولى قائلاً لراكبيها هيّا ارجعوا إلى ثكناتكم لصدور أمر بإعادة قوات الحرس الأميري إلى الثكنات. فانسحبوا على الفور بعد أن أجابني آمرهم برتبة عريف (أمرك سيدي)، وبعد انتهائنا من التزود بالوقود، قامت مفرزة من الشرطة بتنظيم المرور، وفتح الطريق لنا، فأسرعنا نحو هدفنا. وعند أول الطريق الصاعد (طريق مجسر) والذي يمرّ من تحته طريق الغرب السريع نحو السعودية مارّاً بمنطقة الأحمدي، شاهدت رتلاً طويلاً من العجلات الحكومية سوداء اللون تتخلّلها مـــدرعات الفهـــد للحماية، فأيقنت بأن الحكومة الكويتية قد أفلتت من الأسر. وبالتأكـــيد كان الطاقم الأميري قد سبقهم. في هذه الأثناء، مرّ إلى جانبي ضابط كويتي برتبة عقيد ركن بعد أن ترك عجلته نوع كابرس، فطلبت منه المساعدة في إفساح السير لنا، إلا أنه أشار إلى سائقه العسكري مع ابتسامة خجولة، وبعد قليل وصـــلت العجـــلات المدرعـــة لمقـــري، وكان فيها مقدم اللواء مع عجلة القيادة للمدفعـــية، وكـــان حجمها الكبير يثير رعب عناصر الشرطة والمواطنين، فانفتح الطريق تلقائياً أمامنا، وانطلقنا باتجاه البحر.

في الـــساعة 9:30 وصـــلنا إلى فندق المسيلة فشاهدت مياه الخليج العربي الزرقاء وحمدنا الله على هذا النجاح السريع. وحاولت جاهداً إخبار الموقف إلى مقـــر الفرقة، إلا أن الاتصال كان لا يزال مقطوعاً بشكل غريب، وظننت أن هـــناك عملاً مضاداً من جهة ذات قدرات عالية كالأميركيين على سبيل المثال. ومـــن حسن الحظ، وصلت دبابات كتيبة دبابات القائد، والفوج الثالث قوات خاصـــة حـــرس جمهوري الذي هبط بواسطة الهليكوبترات على هضبة المطلاع فجـــر هـــذا اليوم، فانطلقت سريعاً في طريق الخليج العربي الحولي رأس الأرض للالـــتقاء بجحفـــل معركة الفارس الذي أخذ بتدمير سرية مدرعات حماية قصر

السيف مقر أمير الكويت حين أصرت على القتال وقد أكمل أهدافه جميعاً. إلا أنــه أخــبرني بمواجهة مقاومة شديدة عند وزارة الدفاع، وكذلك عند وزارة الداخلــية، فطلبت منه معالجة الأمور بروية قدر الإمكان مع تقديم الإسناد إلى اللواء 16 قوات خاصة، والتنسيق معه. وأشرت عليه إلى أنه من الأفضل إعطاء المقــاومين الفرصة للهرب مع المحافظة على منطقة الفنادق، والأسواق الثمينة، وإغلاق مداخلها كما فعل في الميناء لحين تسليم العاصمة إلى فرقة نبوخذ نصر غــداً عند تكاملها. ثم تركته وعدت إلى رأس رتل كتيبة الدبابات الذي ينتشر على امتداد الطريق الحولي بموازاة الساحل طالباً من آمرها ترك دبابة واحدة عند كــل مفــرق طريق، وبسرعة عالية تمّ انفتاح الكتيبة إلى منطقة السالمية موقع السفارة العراقية وباقي السفارات. كانت سيارات شرطة المرور والنجدة تسرع في كــل الاتجاهات، وكلها تطلق صفارات الإنذار. وكان منها ما ينقلب من شــدة الارتــباك أو عند تفادي دروعنا، وقد طلبت من الفوج 2 قوات خاصة بقــيادة الــرائد الركن ابراهيم الذي التحق بإمرتي السيطرة على الطريق لإلقاء القــبض علــى عناصر الحكومة، وضباط الجيش، ومن يراه مهماً، وبعد إزاحة المقاومــة قــرب السفارة العراقية تمّ الاتصال بجحفل الفارس في رأس الأرض، وكانــت في هــذا النتوء الأرضي الممتد قليلاً في البحر أبراج الماء الثلاثة ذات التــصميم الــرائع، فأكملنا مهمتنا ثم اتخذت من الساحة الأمامية لنادي بدع البحري مقراً لنا. وفي ظهر ذلك اليوم تجمّع في مقري عدد كبير من العسكريين الكويتيين أقدمهم برتبة عميد ركن يدعى عدنان وكان صائماً لحلول الأول من رجب، فطلبت منه المساعدة في إيجاد مكان ملائم لهم، فأشار لي بنادي الطيران الواقــع في شــارع الخلــيج العربي، فأخذناهم جميعاً إلى هناك بعد إلقاء كلمة طمأنتهم جميعاً. وقد طلب البعض منهم الاتصال بأهله أو زيارة مريض له راقد في مستــشفى فأجبت طلباتهم، وأبقيت الحرس الكويتي بكامل أسلحتهم لحماية هــؤلاء مع طاقم الضيافة بعد عزل ضابطين بريطانيين أحدهما برتبة رائد صنف هندســة عسكرية، والآخر طيار هليكوبتر برتبة نقيب في غرفة خاصة بعد أن كنت قد سمحت لهما بالاتصال بالسفارة البريطانية.

في حدود الساعة 13:30 التقيت مع قائدي وضابط ركنه العقيد الركن صلاح مجيد الذي هنئني بهذا الإنجاز الكبير والسريع واستفسرت منه عن أمرين الأول انقطاع الاتصال الرئيس، والثاني ما سبب الصولة الجوية بالسمتيات حوالى العاشرة صباحاً، وكنت لا أرى جدوى منها، لأننا أكملنا الواجب، ولا داعي لهذه الخسائر بالطائرات السمتية في وسط العاصمة (شاهدت سقوط طائرتين منها). فأكّد حدوث الأمر الأول وهو أيضاً لا يعرف السبب، وأيّد قيامي بوضع إحدى المحطات اللاسلكية فوق إحدى العمارات العالية، وأخبرني أن سبب تلك الصولة كان البحث عن الإذاعة والتلفزيون الكويتيين اللذين كانا مستمرين بالبث، وإطلاق نداءات الاستغاثة، واتضح فيما بعد أن مرسلاتهما كانت في جزيرة فيلكة. وبعد ظهر ذلك اليوم الحار والرطب جداً تكاملت مهمة فرقة نبوخذ نصر حرس جمهوري، وأمسكت بالمرافق الحيوية في العاصمة، كما علمت بتأخر فرقة المدينة المنورة حرس جمهوري، مما تسبّب في عودة قوة مدرعة من اللواء 35 المدرع الكويتي إلى مفرق السالمية، واشتباكها بذيل الرتل الذي اشتمل على كتيبة المدفعية ذاتية الحركة، حيث خسرنا ثلاث دبابات، وخمسة مدافع (ذاتية الحركة تشبه الدبابة) علاوة على الدبابة الأولى قبل المطلاع. وبالرغم من تدمير تلك القوة من اللواء 35 المدرع، إلا أن ذلك كان حدثاً مؤلماً، وبعد ذلك عدت لتفقد جميع وحداتي وقد طلبت من أحد آمري الرعائل الخروج من مفرق سلوى، وإرجاع الدبابات إلى الخلف للمحافظة على هذه الساحة الجميلة، وذلك قبل غروب شمس ذلك اليوم الطويل، وبعد تأكدي شخصياً من موقف جميع وحداتي (عدا جحفل 17 تموز/يوليو الذي احتل القاعدة الجوية، والمطار الدولي، والذي منع طائرة من نوع بوينغ 747 من الإقلاع تابعة للخطوط الجوية البريطانية وعلى متنها 400 مسافر أجنبي حيث اكتفيت بالاتصال اللاسلكي به لبعده النسبي عني، وأصدرت أمراً بتبديله مع جحفل الفوج 23 في اليوم التالي، وبإشرافي ولحسم موضوع ركاب الطائرة البريطانية أيضاً) فعدت إلى مقري في ساحة نادي بدع البحري وبعثت إلى مراكز الشرطة طالباً منهم مزاولة أعمالهم لحفظ الأمن الداخلي، كما طلبت من جميع الدبابات المطوقة للعاصمة توجيه مدافعها باتجاه البحر، وإبقاء الرشاشات

المقاومة للطائرات نحو الداخل فقط لإشعار المواطنين بالأمان. وعند المساء تناولت العشاء في حجرة حارس نادي بدع البحري مع الضابطين البريطانيين، وذلك لمعرفة سبب تواجدهما في الكويت وهما:

الرائد صنف هندسة عسكرية - ALEXNDER THOMAS BOYD، والنقيب طيار سمتيات - COLEN DASCOM لقد أدعيا أنهما ضمن طواقم تعليمية مشتركة، وبعد انتهاء العشاء، أرجعتهما إلى دار الضيافة الفخم في نادي الطيران، وقد أعربا عن احترامهما للجيش العراقي، وإعجابهما بالسلوك الحضاري الذي عاملناهما به.

في حدود الساعة 23:00 جاءني صديقان من ضباط المخابرات العراقية العقيدان محمود الدفاعي وحسيب الرفاعي، وقد أعلماني أن مدير المخابرات الدكتور سبعاوي ابراهيم الحسن الأخ غير الشقيق للرئيس قد طلب حضوري إليه والذي كان قد اتخذ للتو من السفارة العراقية مقراً له، وبعد عبارات ترحيب وثناء على قوات الحرس الجمهوري، أطلعني مدير المخابرات أن لديهم معلومات تفيد بأن ولي العهد قام بجمع قوة تقدّر بلواءين قرب الحدود مع السعودية، وأنه ينوي الهجوم غداً، وبما أنه لم يتمّ تأمين الاتصال بقائد الحرس الجمهوري بعد، فإنه يحمّلني مسؤولية إيصال هذا التبليغ، واتخاذ الإجراءات اللازمة لصد الهجوم المتوقع. وقد أبديت وجهة نظري بأن هذا الرجل كان يملك ستة ألوية فجر هذا اليوم، و لم يتمكّن من صدنا، فكيف يمكنه إعادة تنظيم قواته المهزومة والمتشردة خلال هذه الليلة، ثم ينفّذ عمليات تعرضية تتطلّب ثلاثة أضعاف المدافعين، ونحن قد أمسينا اليوم كما يفترض ثماني فرق حرس جمهوري في الكويت. فأجابني بأن هذه هي المعلومات والتصرف تصرفكم، ورأيت من المناسب إعطاءهم محطة لاسلكية (HF) لتأمين الاتصال بمقر الحرس الجمهوري إذا ما تمّ إعادة عمل الشبكة إلى وضعها الطبيعي.

صباح يوم 1990/8/3، ومن خلال وصول القدمات الإدارية لجحفل اللواء التي وضعتها في غابة بالقرب من مشروع تربية الأبقار بمنطقة الصليبية، علمت أن بعض وحدات فرقة بغداد حرس جمهوري المعقبة لفرقة نبوخذ نصر حرس جمهوري

قد تكبدت بعض الخسائر نتيجة غارة جوية لإحدى الطائرات الكويتية المقاتلة نوع ميراج، والتي يحتمل أن تكون قد أقلعت من قاعدة أحمد الجابر جنوب العاصمة أو من قاعدة علي السالم عندما تأخّرت فرقة المدينة المنورة في شروعها بالتعرض، فأغارت على تلك القطعات في مضيق المطلاع حيث كان هناك تكدّس كبير للقطعات المعقبة، وما لبثت تلك الطائرة أن هبطت خارج الكويت. كذلك علمت من فوج القوات الخاصة الذي بإمرة لوائي، أن القوة الهابطة في فجر يوم 90/8/2 لم توفّق في الهبوط بالأماكن الصحيحة لعدم توفّر الوقت لطياري السمتيات للحصول على المعلومات التعبوية المطلوبة إضافة إلى قلة الاستحضارات الفنية. وكانت أعمدة خطوط التوتر العالي العابرة على عارضة المطلاع قد سبّبت الكثير من الإخفاق والخسائر بالطائرات نتيجة الظلام مما أدّى إلى عدم رؤيتها بوضوح. وقد علمت أنه ولأسباب أمنية لم تبلغ قيادة طيران الجيش بهذا الأمر إلا قبل ساعات، كما علمت أن وقتاً مهماً قد هُدر في البحث عن القائد حسين زبن الذي كان مدعواً لحفل خاص. كذلك علمت من مصدر آخر سبب تأخّر فرقة المدينة المنورة في شروعها بالتعرض، وهو أن قائد الفرقة العميد الركن ضياء ماهر التكريتي أراد التأكد من الآمر التنفيذي قبل الشروع، وبالنظر لانقطاع الاتصالات اللاسلكية أرسل ضابط ركن إلى مقر قوات الحرس الجمهوري الذي يبعد عنه كثيراً، وصادف أن قائد الحرس الجمهوري قد هبط بطائرة القيادة في اللواء 14 مشاة آلي الذي كان بقيادة العقيد الركن نوري الدوري العائد للفرقة مستفسراً عن هذا التوقف، فعلم السبب فأوعز بالانطلاق فوراً بعد تأخير 3 ساعات. إلا أن الحظ النحس لهذه الفرقة استمر لأبعد من هذا، حين أخطأ لواء المقدمة اللواء 10 المدرع بقيادة العقيد الركن نظام طه الاتجاه فانحرف غرباً باتجاه العربية السعودية لعشرات الكيلومترات ثم صحّح اتجاهه وقد سبب ذلك نفاد وقود العشرات من دباباته، ففي ليلة الانفتاح الماضية تغيّرت الأماكن لأكثر من مرة مع هدر بالوقود دون إمكانية تعويضه. وعلى أثر ذلك أحيل قائد الفرقة إلى التقاعد ونقل آمر اللواء 10 المدرع خارج قوات الحرس الجمهوري إلى منصب رئيس أركان الفرقة المدرعة 17 (التي كانت بقيادة العميد الركن وضاح الشاوي الذي أعدم فيما بعد بتهمة التستر

علـــى تآمر نسيبه وهو مقدم ركن أسر في حرب الخليج الثانية، وعمل ضمن قوى المعارضة لصالح المخابرات السعودية).

في الساعة 10:30 يوم 90/8/3 ألقت إحدى السيطرات العائدة لجحفل لوائي القبض على الشيخ سالم الفهد الصباح وهو صهر ولي العهد، وكان يرتدي ملابس الكاوبـــوي، فاســـتقبلته باحترام. إلا أنه حاول الظهور أمامي بمظهر غير الموزون، وأعلمني أنه رجل مدمن على الكحول، وطلب مني أن أطلق سراحه لأن ذلك خير من بقائه. فأفهمته أنه من الأفضل له الظهور بالشخصية الحقيقية، كما أفهمته أنني مقـــدّر لظـــروفه، وعلمت منه تفاصيل ردود فعل القيادة الكويتية عندما علمت بتعرضنا فجر اليوم السابق، كما علمت منه كيف هربت العائلة الحاكمة. وبعد أن اطمـــأنّ طلب مني الذهاب إلى قصره لإحكام إقفاله، وإيجاز خدمه، فاستجبت له. ورافقـــه ضابط ركن من مقر اللواء مع عنصر حماية، وبعد ما أنجز ما أراده تناول الغـــداء معـــنا، ثم سلّم إلى ضابط أمن الفرقة المقدم رياض حسين الذي قاده بكل احترام. وعندها شكرني بشكل شخصي وأهداني هويته كتذكار، إلا أنه كان يحمل أربع هويات شخصية، وعلمت أنه من مواليد 1954 وقد وصف نفسه بأنه مترف ومـــاجن كـــبير. بعد ظهر هذا اليوم أصبح جحفل لوائي بإمرة فرقة نبوخذ نصر حـــرس جمهوري بقيادة العميد الركن محمود دهام والتي أصبحت مسؤولة عن أمن العاصمة الكويت. وفي ذلك اليوم تمّ القضاء على بعض المقاومات الطفيفة المعزولة في مـــنطقة وزارة الـــدفاع ووزارة الداخلـــية من قبل اللواء 14 مشاة آلي حرس جمهوري، وعندها أصبحت كل الأراضي الكويتية تحت السيطرة التامة، بما في ذلك القاعـــدتين الجويتين؛ أحمد الجابر قرب منطقة كبد جنوب الكويت، وعلي السالم علـــى طـــريق الـــسالمي. وبعد صلاة الجمعة جاءتني مجموعة من الشباب العرب، وأخـــبرت عن عمليات توزيع أسلحة في مخفر شرطة السالمي، وعن حدوث بعض حـــوادث الـــسرقة الـــتي قام بها بعض أفراد العمالة الوافدة هناك، فقمت باتخاذ الإجـــراءات المناسبة ومنها إعادة سيارة مسروقة لصاحبها (يمني الجنسية)، وطلبت التأكـــيد على عناصر المخفر للبقاء في واجباتهم الأصلية، وتجنّب التورط في أعمال أخرى لأننا مغادرون بعد أيام.

الساعة 7:30 يوم 90/8/4 أصبح مقري في نادي النصر الرياضي. ولقد اخترته لأسباب عديدة منها أنه غير محاط بمنطقة سكنية، كما أنه واسع بحيث وضعت مقري فيه كاملاً مع تأمين الحماية من جميع الجهات. حاولت الاتصال بإدارة النادي حسب أرقام الهواتف الموجودة في دائرة النادي، إلا أنهم كانوا يخشون القدوم، ومن خلال طاقم الخدمة وهم من الجنسيتين البنغلادشية والمصرية تمّ جرد كل التفاصيل بقوائم أمامهم، وكان الحي المقابل لنا حي خيطان، وقمت بمنع أي جندي من جنودنا من الدخول إليه كما فعلت في الأماكن السابقة التي كنا فيها وذلك لإشعار السكان بالأمان، إلا أن ذلك لم يجدِ نفعاً. فلقد التهمهم الإعلام الخارجي، وملأهم رعباً، إضافة إلى سوء تصرف بعض العناصر غير المسؤولة والفوضوية في تأكيد ذلك، ومنها على سبيل المثال لا الحصر أن عائلة فلسطينية اشتكت في مقرنا من أن جنوداً عراقيين قاموا بسرقتها حسب ادعائها، إلا أننا فشلنا بالعثور عليهم. وبدأت عمليات الهروب نحو السعودية. وكنّا نحاول إقناع من نصادفهم بالعدول عن ذلك دون جدوى ونفهمهم أن هروبهم سيخلق فراغاً قد يساء التصرف به... وكنت أفكر وأتساءل متى ستشكل الحكومة العسكرية للشؤون المدنية لأن الأمن بالتأكيد سيفلت، وسينطلق الشر من عقاله، وهذا البلد فيه من الوافدين أكثر من المواطنين، ونحن قد نمسك بزمام الأمور الخارجية، ولكننا لا نصلح لأعمال الشرطة والأمن الداخلي.

في الساعة 12:00 يوم 90/8/4 زرت جحفل معركة الفوج الذي كلفته حماية منطقة المطار الدولي، ومقترباته، ومنطقة الفنطاس بدلاً من جحفل معركة 17 تموز/يوليو، وقد حاولت التعامل المباشر مع قضية ركاب الطائرة البريطانية الأربعمائة، وبمساعدة مدير فندق المطار الفلسطيني الجنسية استطعت كسب وقت آخر في حسم موضوع الطائرة وركابها عندما تأمن لهم السكن والطعام في فندق المطار وكان قبطان الطائرة يقرأ عليّ بعض اللوائح الدولية بخصوص المسافرين من مختلف الجنسيات، وبعد ذلك حذّرني من شكوى أكيدة للحكومة البريطانية ضدي، إلا أنني قمت بالتعامل معه بمنتهى الدبلوماسية وذلك لحين تسليم هذا الموضوع للجهات المختصة، وقتها كان المطار قد امتلأ بالقنابل القابلة للانفجار

التي ألقتها طائراتنا المقاتلة فجر يوم الهجوم على جميع المطارات الكويتية لتحييدها. وبعد ذلك أكّدت على آمر الجحفل ضرورة حماية الأجانب والممتلكات الثمينة في المطار؛ ومنها قاعة الاستقبال الكبرى (شرف)، ومعرض السوق الحرة. والحمد لله كان جنودنا منضبطين جداً. ثم تناولت الغداء مع ضباط الجحفل الذي كان مقره في قسم إطفاء المطار، وكان هناك في قسم الأغذية طعام آيل إلى التلف فوزّع على مراتب الجحفل بعد إلحاح من قبل أحد مسؤولي المطار وهو عراقي الأصل من أهل الموصل يدعى فيصل كان يعمل في الكويت منذ ثلاثين عاماً. وكانت الحماية تقتصر على النطاق الخارجي بشكل عام. وخلال خروجي من المطار وعند تقاطع الطريق الدائري السابع، أحبطت محاولة سرقة سيارة نوع مرسيدس من قبل أحد الأغراب، وهذا ما بدأنا نتوجّس منه.

في اليوم الثالث من عمليات آب/أغسطس أعلن عن قيام حكومة وطنية كويتية مصطنعة، وهي حكومة موالية للعراق 100% يرأسها العقيد الركن علاء حسين وعدد من الضباط الشباب حيث وزّعت الحقائب الوزارية عليهم (بعد فشل كل محاولات إقناع كبار الضباط الكويتيين ومنهم من كان من أصول عراقية، وكذلك من كان يُحسب ولائه للعراق كالبعثيين أو المتأثرين بشخصية الرئيس صدام حسين، ومنهم بعثيون من الشخصيات المدنية..كلهم رفضوا العمل لصالح العراق؛ والكويت في وضع الاحتلال)، أعقب ذلك قرار بتوحيد قيمة النقد العراقي والكويتي، وكانت قيمة الدينار الكويتي تساوي 12 ضعفاً نتيجة الحرب مع إيران. لقد أثار هذا القرار دهشة الجميع ونحن أولهم فما هذا الهراء؟ وبدأ الإعلام الخارجي، وكأنه ضمن خطة معدة سلفاً ومحددة بدقة، بشنّ سلسلة من الهجمات الإعلامية ضدنا. وبدأت تصريحات الرئيس الأميركي جورج بوش تدعو إلى رفض الوضع الجديد وإلى تجميد فوري للأرصدة العراقية في الخارج، وإلى حصار العراق، ثم شنّ حرب كبرى ضده. وبدأت سلسلة غريبة وسريعة من قرارات مجلس الأمن تصدر بشكل يومي تقريباً، ولا تعطي مجالاً لأية حلول منطقية لحلّ هذه الأزمة الكبيرة مع عدم نكراننا لشدة حماقة سياستنا الرسمية.

ومـــن خلال مشاهداتي الشخصية للجماهير الكويتية في الأيام الأولى، يمكنني القول إنها لم تكن مكترثة بما يجري، وقد يكون سبب ذلك صدمة الحدث، أو أنهم مثلنا لم يتوقعوا بقاءنا كثيراً بحيث يكون هناك تسويات تتناسب وحجم انسحاب قواتـــنا المـــتدرج من الكويت بناءً لتدخل متوقع من الجامعة العربية لحل الموضوع العراقـــي الكـــويتي. وكان الكويتيون والمقيمون يقدمون لجنودنا الطعام بسخاء في الأيـــام الثلاثة الأولى، وحين وقفت أمام صورة للأمير أتأملها وبقربها لوحة مرورية تحمل حكمة تقول "توقّع ما ليس متوقعاً" علّقت عليها في حوارٍ مع أحد المواطنين بأنـــه كـــان يجب وضع هذه العبارة أمام دوائر المسؤولين السياسيين والعسكريين الكويتـــيين. وكانـــت مدينة الكويت رائعة الجمال، وكانت حدائقها وشوارعها مـــنظمة بـــشكل جيد، وكانت هناك منظومة آلية لري تلك الحدائق، كما كانت منظومـــتا المـــاء والكهرباء تعملان بشكل آلي أيضاً، واستمرتا بذلك حتى تاريخ انسحابنا من المدينة بعد أسابيع.

في 90/8/7 أعلن عن طلب الحكومة الوطنية الكويتية المصطنعة - وكان ادعاءً يفتقـــر إلى الموضوعية - بضم الكويت إلى العراق ضمن مشروع وحدوي أساسه عودة الفرع إلى الأصل وصدر قرار رسمي بذلك، إلا أن قرار دمج الكويت بالعراق خلّـــف مخاوفاً عديدة شملت الشعب الكويتي بالكامل والمقيمين أيضاً، واعتبر ضرباً للمـــصالح الخارجـــية لأن هذا الدمج سيجعل العراق دولة ذات قدرات اقتصادية كـــبيرة ستتحكم في سياسات المنطقة مما سيؤدي إلى تهديد مباشر لمصالح الولايات المتحدة والغرب بشكل عام، وسيؤدي إلى تغيير حاد في الجغرافيّة السياسية للمنطقة وإلى ظهور تيار ثوري في الأمة العربية، سيقلب الأوضاع العامة رأساً على عقب، مما شكل بالتالي تهديداً مباشراً لإسرائيل.

في الـــساعة 8:00 يـــوم 1990/8/8 نقلـــت مقـــرّي إلى (كلية الدراسات التكنولوجـــية) قـــرب جامعـــة الكـــويت لتجنب ردّ الفعل المتوقع تجاه المشروع الوحدوي القسري، وقد أخذنا في الحسبان التأثير الإعلامي الخارجي على الداخل. فـــبدأت ظاهـــرة الهروب الجماعي نحو السعودية عبر كل الطرق وبمعدلات مخيفة جـــداً. وكم أنقذتْ قطعاتنا القريبة من الحدود عوائل كادت تموت عطشاً عندما

تغـــرز عجلاتهم في رمال الصحراء، ولكن للأسف سمعنا بحالات موت كثيرة جراء هـــذا الأمر يندى لها جبين الإنسانية، فلم أعد أحتمل ما أراه من صور إنسانية تهد الجبال. ومما زاد من سوء الوضع عدم التمكن من ضبط تصرّف بعض العسكريين والأجهـــزة الأمنـــية والحـــزبية والمدنيين العراقيين الذين بدأوا بالتوافد السريع إلى الكويت دون أدنى سيطرة، بالإضافة إلى الأفعال غير المنضبطة التي قام بها القاطنون الأغـــراب في الكـــويت، فـــرجوت قائد الحرس الجمهوري بأن يخرج لوائي من العاصمة إلى الصحراء فوافق بعد إلحاح مني. وأكثر شيء أثارني كان حين علمت مـــن آمر سرية التموين والنقل المنتسب للوائي من الواجب الخاص الذي كلفت به هـــذه السرية أنه يتمّ نقل غنائم ثمينة لشخص سياسي قيادي كبير (ع ح)، وقبلها تصرّف عدد من الكبار في موجودات ميناء الشويخ وبشكل رخيص، بالإضافة إلى مـــا أخبرني به آمر جحفل المطار المقدم الركن عبد الغني عن سرقة السوق الحرة في المطار من قبل جماعة (ع)، وغير ذلك من الأخبار المحزنة عن تجاوزات تزداد يومياً بـــدأها بعض المسؤولين الكبار المقربين من الرئيس وحاشياتهم ونزولاً إلى الأدنى في بلـــد غني جداً بدأ يفرغ من سكانه يوماً بعد يوم فيصبح مالاً سائباً يغري ضعاف النفوس والجياع.

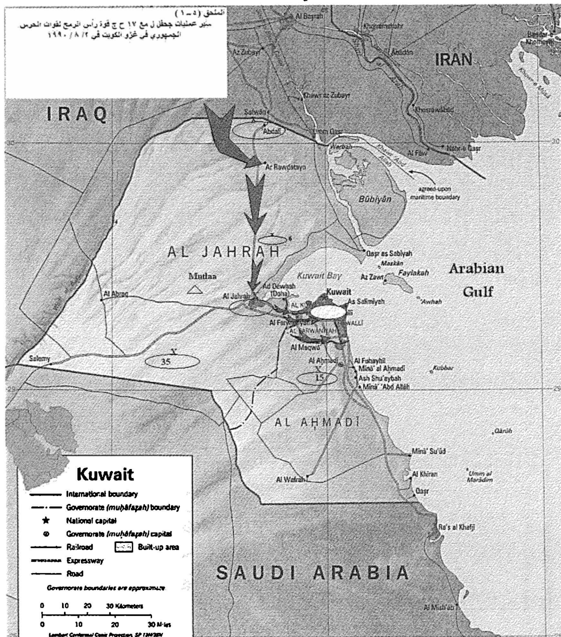
في الـــساعة 8:00 يـــوم 1990/8/11 شـــرعنا بالتحرك إلى جنوب العاصمة الكـــويت وانفتحنا قرب إذاعة كبد، وشمال قاعدة أحمد الجابر الجوية وهي منطقة صـــحراوية تكتـــنفها الكثبان الرملية الكبيرة، فخرجت بصحبة آمري الوحدات لاستطلاع القاطع الجنوبي والتي تشكّل آبار البرقان الأجزاء الأساسية منه، نـــزولاً إلى حقـــول أم المناقـــيش وهي منطقة كثبان رمليـــة واسعة. وبالصدفة تمكّنا من إنقـــاذ عائلة كويتية كانت تستقل عجلة (GMC) كبيرة كانت عالقة في الرمل، حـــيث تمّ سحبها بعجلتي، فنصحت سائقها بالعودة إلى العاصمة ثم سلوك الطريق الموصل إلى العراق (الطريق الوحيد المفتوح)، وبعدها إلى السعودية وبحمايتي إلا أنه توســـلني مساعدته في الاستمرار في طريقه من هنا. وكان شديد الهلع خائفاً على عائلته المكوّنة منه ومن زوجته وبناتهما الثلاث ووالد زوجته الذي يبدو بملامح أهل الشام، لكنه يرتدي الملابس الكويتية. لقد أصرّ هذا الرجل على مواصلة هروبه إلى

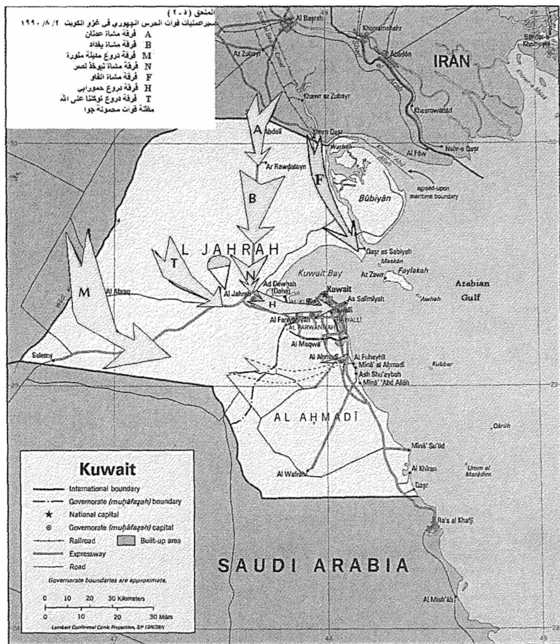
السعودية وهو يبعد عن الحدود أكثر من 10 كم، فضبطت له الاتجاه نحو نقطة بارزة في الساتر الترابي الحدودي السعودي من خلال المنظار، وقد حاول إهدائي شيئاً ثميناً تعبيراً عن شكره لي فرفضت، إلا أنني طلبت منه إذا ما وصل بالسلامة، أن يدعو الله لي بأن لا يكون مصير عائلتي كمصير عائلته، لما توقعته من أهوال تنتظرنا بما فعل السفهاء والأشرار منا، فانتظرت في مكاني إلى أن غاب عن نظري مع حلول الظلام.

في اليوم التالي، استطعت الحصول على موافقة بتغيير قاطع اللواء إلى الشمال من تلك المنطقة للتخلص من كثبان الرمل التي كانت تؤثّر على كفاءة دروعنا بامتداد خط الضغط العالي، واتخذت من إحدى دوائر شركة النفط مقراً لي، حيث بدأت فرق الجيش العراقي تدخل الكويت وتنتشر فيه لأغراض الدفاع. وكان متوقعاً انسحاب قوات الحرس الجمهوري إلى شمال الكويت لإعادة التنظيم والانفتاح. وما لبثنا أن غادرنا أماكننا إلى مناطق انفتاحنا الجديدة شمالي الكويت في 27 أيلول/سبتمبر 1990 كاحتياط استراتيجي. وللحقيقة أقول لقد ارتكبت القيادة العراقية أكبر الأخطاء الاستراتيجية باحتلالها للكويت، وللحقيقة أيضاً أقول إنه لم تتوفّر الحكمة الكافية لدى القيادة الكويتية للمساعدة على تجنّب ما حدث. فلن يغفر لنا التاريخ أبداً. وإن معظم المظاهر المشينة التي حدثت هناك من الاحتلال وما ترتّب بعده يتحمّلها بالتأكيد صانع هذا القرار الكارثي ومن شاركه فيه أو شجعه عليه وهم قليلون (يقال إن حسين كامل قد تلاعب في مشاعر الرئيس فوسّع هدفه من المطلاع إلى الكويت بكاملها) كما يتحمّلها بعض كبار المسؤولين السياسيين، والأمنيين، وقلة من المسؤولين العسكريين وقد يكون أحد قادة فرق الحرس الجمهوري من ضمنهم. وعلى الرغم من كثرة الأخيار والأشراف في جيشنا قيادة، وتشكيلات، وفي الحرس الجمهوري وعلى رأسهم قائد الحرس الجمهوري الفريق الركن أياد أفتيح الراوي إلا أن سمعتنا كحرس جمهوري وجيش عراقي قد لوثتها تلك القلة المجرمة التي لم تراعِ حقوق الله، والعباد، وشرف المسؤولية، والشرف العسكري وستظل صفحة سوداء في تاريخنا يصعب على أي منا تبرئة نفسه منها.

أخيراً، سيظل موضوع الأسرى الكويتيين غامضاً، إلا أن ما سمعناه ولا نعرف مـــدى مـــصداقيته أن حـــسين كامـــل كان في بداية الأمر يحاول إقناع عدد من الشخـــصيات السياسية والعسكرية بالعمل لخدمة مشروع الحاق الكويت بالعراق وكانـــوا قـــد وضعوا كل اثنين في عجلة نوع لاندكروز من عجلات مقر الحرس الجمهـــوري إلا أنه فشل في اقناعهم... فأثار ذلك الفشل غضبه الشديد فتوعّدهم بالـــويل والثبور... ومؤخراً انتشرت العديد من الروايات... وخاصة بعد سقوط بغداد بأن مدير المخابرات آنذاك وحاكم الكويت العراقي وحسين كامل قد اتهموا بجرائم قتل في الكويت؟ والله أعلم.

خريطتي غزو الكويت




الملحق (د - ٢)
سير عمليات قوات الحرس الجمهوري في غزو الكويت ٢/ ٨/ ١٩٩٠
A فرقة مشاة عدنان
B فرقة مشاة بغداد
M فرقة دروع مدينة منورة
N فرقة مشاة نبوخذ نصر
F فرقة مشاة الفاو
H فرقة دروع حمورابي
T فرقة دروع توكلنا على الله
مظلة قوات محمولة جوا
IRAN
Al Başrah
Khorramshahr
Ābādān
Az Zubayr
Khawr az Zubayr
Khosrowābād
Abdali
Umm Qaşr
Warbah
Al Fāw
Nahr-e Qasr
Ar Rawdatayn
Būbiyān
agreed-upon maritime boundary
AL JAHRAH
Qaşr as Sabiyah
Maskān
Kuwait Bay
Az Zawr
Faylakah
Arabian Gulf
Al Abraq
Al Jahrah
Ad Dawhah (Doha)
Kuwait
As Salimiyah
'Awhah
Al Farwaniyah
HAWALLI
AL FARWANIYAH
Al Maqwa'
Al Ahmadi
Al Fuhayhil
Mīnā' al Ahmadi
Ash Shu'aybah
Mīnā' 'Abd Allāh
Kubbar
Salemy
AL AHMADĪ
Qārūh
Mīnā' Su'ūd
Al Khīrān
Umm al Marādim
Al Wafrah
Qaşr
Ra's al Khafji
SAUDI ARABIA
Al Mish'āb
Kuwait
International boundary
Governorate (muḩāfaẓah) boundary
National capital
Governorate (muḩāfaẓah) capital
Railroad
Built-up area
Expressway
Road
Governorate boundaries are approximate.
0 10 20 30 Kilometers
0 10 20 30 Miles
Lambert Conformal Conic Projection, SP 12N/38N
Base 802527 (R01015) 9-96

الفصل السادس

حرب الخليج الثانية (أم المعارك)

على حافة الحرب (التسارع الرهيب للأحداث)

مما لا شك فيه أن احتلال العراق للكويت كان أمراً مرفوضاً على كل المستويات الدولية، والإقليمية، والمحلية والأخلاقية، والقانونية. وعلى الرغم أنه من الثابت تاريخياً أن الكويت كانت جزءاً من ولاية البصرة العراقية في العهد العثماني، إلاّ أن التاريخ نفسه يثبت أيضاً أن العراق كان جزءاً من الإمبراطورية العثمانية حتى 1917/3/11 عندما دخل الجنرال مود بغداد محتلاً على رأس جيوشه البريطانية والهندية.

الكويت دولة مستقلة معترف بها عربياً وإقليمياً ودولياً منذ العام 1962 على إثر مطالبة رئيس الوزراء العراقي آنذاك عبد الكريم قاسم بضمها إلى لواء البصرة. في ذلك الوقت كانت هذه الدولة مشيخة خليجية محمية من قبل بريطانيا. وكان الملك غازي قد سبق عبد الكريم قاسم في ثلاثينيات القرن الماضي بالمطالبة بضم الكويت، وربما يتساءل بعض المراقبين ما هي أسباب الأزمات المتكررة بين العراق والكويت منذ بداية التكوين السياسي الحديث للعراق في العام 1920؟ في الحقيقة، لقد شكّلت الكويت عائقاً أمام العراق نحو المياه العميقة في الخليج، وخاصة أن نسبة جزيرتي وربة وبوبيان للكويت قد خنقت المجال الطبيعي للعراق نحو المياه العميقة، فحدّت كثيراً من حركة التجارة البحرية العراقية، لأن الجغرافية الطبيعية للعراق تستوجب تلك الإطلالة. وفي رأيي أنه من الحكمة إيجاد حلّ يرضي الطرفين لهذا الاختناق الطبيعي لنزع الفتيل الرئيسي للأزمات المتكررة ما بين الجارين الشقيقين.

مما لا شك فيه أن قرار احتلال العراق للكويت كان خطأً استراتيجياً 100% ارتكبه الرئيس صدام حسين، مما أثار حفيظة وشكوك الكثير من المختصين في العلوم السياسية والاستراتيجية حول كفاءته الفكرية والعملية في مجال العلاقات الدولية والاستراتيجية (بغض النظر عن شجاعته في اتخاذ هذا القرار الخطير). من ناحية أخرى رأى بعض المتخصصين أعلاه أن الكويت كانت تحتاج إلى مزيد من الحكمة السياسية لتجنّب كارثة الغزو، وإفشال خطط التحريض، والاستدراج وفق بيئة الصراع التي خلقتها الدوائر المعادية الخفية ما بين الدولتين الشقيقتين. صحيح أنه كان لغرور وطموح الرئيس العراقي وإحساسه باستحقاق الزعامة على الأمة العربية، وهيمنة أوهام القوة الخادعة على وعيه، وافتقاره للإحساس الحقيقي بحركة الزمن جعله يستخف بالمواثيق العربية والدولية لتحقيق تلك الرغبات، فما كان يصبو إليه يتجاوزه العصر كثيراً، إلا أن الجامعة العربية المتمثلة بالدول العربية الأساسية تتحمّل جزءاً كبيراً من مسؤولية هذا الغزو، فقد كان بالإمكان تحجيم تلك الأزمة الخطيرة كثيراً، وإبقائها في مجال الحل العربي، وعدم تركها لمنظمة الأمم المتحدة والدول العظمى والكبرى لتدخلها ضمن ما تتطلّبه مصالحها وفق ما رآه الكثير من المختصين بالعلوم السياسية، سيما وأن بعض الدول العربية، أسرعت بإعطاء موافقتها على إرسال قواتها تحت راية الأمم المتحدة، في الوقت الذي أعلن فيه عن نشاطات عسكرية دولية كبيرة لحشد سريع لقوات دولية في المملكة العربية السعودية، فتحرّكت على الفور أربع حاملات طائرات أميركية، واثنتان بريطانيتان، وواحدة فرنسية باتجاه الخليج العربي، علاوة عن الطيران المباشر لعدة أسراب من القوات الجوية التعبوية والاستراتيجية الأميركية للتحشد في المنطقة بشكل عام، وفي المملكة العربية السعودية بشكل خاص، وذلك بهدف تشكيل قوات فاعلة للدفاع عنها ضدّ أي هجوم عراقي وشيك الوقوع. والحق يقال، لم تكن هناك أية إجراءات عسكرية أو نوايا عراقية ضد المملكة العربية السعودية ... إلا أن ذلك كان مسوغاً ضرورياً للأميركيين للبدء بتحشد سريع هناك، كما صدرت سلسلة من القرارات الدولية عن مجلس الأمن الخاضع للهيمنة الأميركية وذلك لتشديد الحظر الاقتصادي وتطويره إلى حصار اقتصادي شامل. فأغلقت

الطرق البرية والجوية والبحرية نحو العراق، باستثناء الطريق الموصل إلى الأردن. وقد حـــاول الأردن، والجزائر، وليبيا، واليمن، ومنظمة التحرير الفلسطينية، والسودان الركون إلى الحل العربي، إلا أن زخم وقوة حركة الأحداث حالا دون ذلك.

في الساعة 19:30 يوم 90/8/12 أعلن الرئيس صدام حسين مبادرته للانسحاب مـــن الكويت مقابل انسحابات متعددة في المنطقة العربية أهمها انسحاب القوات الإسرائيلية من الأرض العربية المحتلة، وانسحاب القوات السورية من لبنان. وكانت المبادرة غير عملية وغير صادقة، وقد أريد بها إحراج الأخوة والأعداء.

في الساعة 19:00 يوم 90/8/16 أعلن الرئيس صدام حسين في رسالة متلفزة مفتوحة أن قدرة العراق على الصمود والمنازلة العسكرية غير محدودة، وأن العراق شـــجاع ولا يأبـــه للتهديدات السافرة للولايات المتحدة ومن سار في ركبها، ولا ترهبه حركة الأساطيل البحرية والجوية. وشملت الرسالة الكثير من العبارات القاسية الـــتي وجهت إلى الزعامة الأميركية والصهيونية، وقد جاءت هذه الرسالة رداً على التصريحات العنيفة للرئيس الأميركي جورج بوش وكيل شركات النفط الأميركية كما سماه الخطاب السياسي العراقي.

من جهة أخرى قام الملك الأردني الحسين بزيارة طارئة إلى الولايات المتحدة الأميركـــية لاحـــتواء الأزمة والمساعدة في حلها، وكان استقباله من قبل الرئيس الأميركـــي فاتراً وقليل الاحترام. وصدر بيان صحفي عن البيت الأبيض، أعلن عن فشل المسعى الأردني.

يـــوم 90/8/17 صـــدرت الأوامـــر لنا بالقيام باستطلاعات مكثفة للحدود السعودية – الكويتية تحسباً لقيام الأميركيين بتنفيذ وعودهم بالاعتداء على العراق. وقد رصدت شخصياً العديد من زمر الاستطلاع في المخافر السعودية وهم يرتدون ملابـــس عسكرية مختلفة الأشكال، والعديد منهم ذوو ملامح أوروبية وأميركية، وقد يكون من بينهم أعضاء في البعثات العسكرية الأوروبية والأميركية المعتمدة في السعودية. في ذلك الوقت استمر صدور قرارات مجلس الأمن المتشددة تجاه العراق وبأســـلوب مـــستفزّ، ممـــا دفع قيادتنا إلى إصدار قرارات تتحدّى تلك القرارات المـــستفزة والجائرة. آنذاك كان في العراق والكويت الكثير من رعايا الدول المهددة

للعراق بالعدوان الشامل، وكانوا من جنسيات أميركية وأوروبية مما اضطر العراق - وكعرف سارت عليه جميع الدول في حالة الحرب - للتحفظ على رعايا الدول المعادية. ففي الحرب العالمية الثانية تحفّظت الولايات المتحدة على مواطنيها من أصول يابانية بعد حادثة بيرل هاربر، لذا قامت الحكومة العراقية بالتحفظ على رعايا تلك الدول واعتبارهم ضيوفاً على العراق كتعبير مخفّف عن الاحتجاز القسري. وتمّ توزيع هؤلاء المحتجزين على جميع المرافق الحيوية الاستراتيجية المتوقع قيام الولايات المتحدة الأميركية بضربها، وكان ذلك يوم 90/8/18، إلا أن الإعلام المعادي الذي يمتلك سطوة كبيرة استخدم تلك الإجراءات في حملة دعائية قاسية مستفزّة، ومنها التعليقات العنيفة لرئيسة وزراء بريطانية السيدة تاتشر على الزيارة الودية للرئيس العراقي لبعض الرعايا البريطانيين المحتجزين في إحدى الأماكن في بغداد.

خلال هذه الفترة، وجّه الرئيس صدام حسين رسالة إلى الرئيس الإيراني رفسنجاني وهي مبادرة (مبادرة الضرورة التكتيكية) للسلام وتوحيد الصف تجاه العدو الأميركي الصهيوني، وترافقت تلك الرسالة مع إطلاق غير مشروط للأسرى الإيرانيين كي يتسنّى للعراق سحب جميع قواته إلى ساحات العمليات الجنوبية. أنهت هذه المبادرة من طرف واحد كل المتعلقات السياسية ومسببات الخلاف ما بين البلدين الجارين بجرة قلم من طرف واحد. وظلّ العراق ينتظر ردود الفعل الإيرانية دون نتيجة تستحق الاهتمام. وهنا برز الدهاء السياسي الإيراني في الاستغلال الأمثل لمشاكل العراق مع الولايات المتحدة والعالم الغربي لصالحه في حين كانت الزعامة الإيرانية تصف أميركا بالشيطان الأكبر. فلقد كانت هذه بداية الفرصة الذهبية لإيران لتصفية حساباتها مع العراق من خلال الآخرين، وهنا طلبت دول الخليج العربي من العراق الاعتراف بخطأ احتلاله الكويت، والانسحاب الفوري. وكان هذا أهون على العراق من عداء وحرب مع إيران داما عشر سنوات طوال وانتهيا بجرة قلم، وهذا بالتأكيد طلب منطقي، إلا أن حماقة السياسة العراقية، رفضت ذلك بشدة.

لقد تصاعدت وتيرة حركة القوات الأميركية، والبريطانية، والفرنسية، والمصرية مع إعلان شبه يومي عن مشاركة دول أخرى لتشكيل قوات تحالف

دولـــية بقيادة أميركا لإخراج العراق من الكويت، بعد تكامل المرحلة الأولى من القوات الجوية والبحرية بحجة الدفاع عن السعودية. وكان وزير الخارجية الأميركي جـــيمس بيكر ناشطاً جداً في إقناع دول العالم بالمشاركة في الحرب ضد العراق، ولعـــبت بـــريطانيا مـــن خـــلال رئيسة وزرائها تاتشر دوراً رئيسياً في التخطيط والتحـــريض معبّرة عن عقدة التعامل البريطاني القديم مع العراق، مع إعلان الرئيس الفرنسي فرانسوا ميتران يوم 90/8/21 عن إرسال قوات فرنسية برية، علاوة على القـــوات الجوية والبحرية بالرغم من ضغوط رجال المعارضة الفرنسية الذين يمثلون الاتجـــاه الديغولي، والذين يحاولون التوصل إلى حلول سلمية مع العراق، والمحافظة علـــى اســـتقلالية القـــرار الفرنسي، والحفاظ على المصالح الاقتصادية العميقة مع العراق. ترافقت هذه الأحداث مع رسالة من الرئيس المصري حسني مبارك (حليف الأمس) إلى الرئيس صدام حسين يدعوه فيها إلى الانسحاب الفوري من الكويت. وردّ عليه الأخير برسالة مفتوحة للعالم العربي أسهب فيها كثيراً منبهاً للدور الأناني للكـــويت والـــسعودية في امـــتلاك الثروة العربية والتآمر على القضية الفلسطينية. وأعقـــبها الإعـــلام العراقي بإذاعة شريط مسجل لمكالمة هاتفية بين ملك السعودية (الملـــك فهد بن عبد العزيز) وأحد الأمراء الخليجيين - قد يكون أمير قطر - كان فحواها التذمّر من الزعامة الفلسطينية.

لقـــد أنـــذر العـــراق الدول التي لها سفارات في الكويت بسحبها والاكتفاء بـــسفاراتها في العراق بعدما أصبحت الكويت المحافظة رقم 19، وكانت في القرن التاســـع عـــشر قـــضاءً تابعاً لولاية البصرة. وكان دور الاتحاد السوفياتي بزعامة غورباتـــشوف إيجابياً نوعاً ما في الوقت الذي كان هذا الكيان السياسي العظيم في مرحلة الاضمحلال.

كـــان معدل تبادل الأسرى بين العراق وإيران ألف أسير من كل جهة في كل مرحلة تبادل، بعدما وافق العراق على إعادة اعترافه بمعاهدة الجزائر لعام 1975 في 17 أيلـــول/سبتمبر 1990 والتي تقضي بترسيم الحدود بين العراق وإيران، وتنازل العراق فيها عن الجزء الشرقي لشط العرب الذي يتكون من التقاء نهري دجلة والفرات شمال مدينة البصرة والذي تصب مياهه في الخليج العربي بمسافة تزيد عن مائة كيلومتر.

في المقابل بلغ تعداد القوات الدولية تحت القيادة الأميركية في نهاية أيلول/سبتمبر أكثر من ربع مليون مقاتل بما فيها عدد من الأساطيل الجوية والبحرية، مع استمرار وصول قوافل نقل تموين القتال إلى الأراضي السعودية، وتخلّل ذلك سلسلة زيارات ميدانية للقيادات السياسية والعسكرية الأميركية بدأت منذ بداية آب/أغسطس. وأهم زيارة هي زيارة وزير الدفاع الأميركي ديك تشيني، ورئيس الأركان العامة الأميركية الجنرال كولن باول اللذين أقنعا الملك فهد بفتح الأراضي والمياه والأجواء السعودية للقوات الأميركية، وقد استندا إلى حجج ملفقة عن تهديد عراقي محتمل، ظهرت دلائله من خلال صورة جوية لعدد من الدروع العراقية المتجهة صوب الحدود السعودية، مما قد يشير إلى بداية هجوم عراقي قريب لاحتلال السعودية، وكان ذلك في الأسبوع الثاني من آب/أغسطس المنصرم (وحقيقة الأمر أن الصور كانت تعود إلى ثماني دبابات كويتية من اللواء 35 المدرع كانت سُرّفها (جنازيرها) قد غرزت في أرض رملية رخوة جداً خلال هروبها من معركة احتلال الكويت. وقد دفع ضابطان من خيرة ضباط الجيش العراقي هما العميد الركن بشار محمود أيوب قائد الفرقة 5، وآمر اللواء 26 المدرع العقيد الركن سامي أحمد ثمن غضب الرئيس صدام حسين لتأخر إخلاء تلك الدبابات الكويتية، حيث أحيلا على التقاعد لعدم الكفاءة لأن تلك الدبابات كانت ضمن قاطع الفرقة أعلاه. واستمرّ الموقف العام سوءاً والرئيس صدام يزداد عناداً، فقد عرفوا كيف يستفزّونه ثم يستدرجونه إلى سلسلة الأفخاخ المعدّة بكفاءة.

صباح 90/8/23 تمّ استدعاؤنا إلى البصرة. وفي مقر قوات الحرس الجمهوري السابق في البرجسية أجرينا تحليلاً لمعركة غزو (استعادة) الكويت. والحمد لله كان موقف جحفل لوائي ممتازاً، فلقد حقّق أهدافه المحدّدة بالخطة كاملةً، وبكفاءة كقوة واجب رقم واحد، وتعرّفت على المشكلات التي واجهت بعض التشكيلات، ثم عدنا سريعاً إلى تشكيلاتنا القتالية في الكويت. وفي 90/8/25 أصدر مجلس الأمن الدولي قراراً يسمح باستخدام القوة في تنفيذ الحصار الشامل ضد العراق بالوقت الذي أمّت فيه بغداد العديد من الوفود التي تمثّل شخصيات دولية غير رسمية كالأمين السابق للأمم المتحدة كولد فولداهيم،

ومرشح الرئاسة الأميركية الأسود القس جاكسون، ورئيس وزراء بريطانيا الأسبق أدوارد هيث. وكانوا يتوسّطون مع الرئيس لإطلاق سراح عدد من الضيوف المحتجزين، فاستجاب لهم.

كما جرى لقاء جمع وزير خارجيتنا طارق عزيز والأمين العام للأمم المتحدة خافير ديكولار في الأول من أيلول/سبتمبر 1990. وفي اليوم التالي، أعلن عن فشل ذلك اللقاء في التوصل إلى نتيجة إيجابية... في هذه الأثناء تمتّعت بإجازة قصيرة لمدة 48 ساعة، ولقد استغربت من إطلاق إشاعات كثيرة منها إشاعة عن مقتلي خلال دخول الكويت، وهناك من اتصل بزوجتي هاتفياً وأكّد لها هذا الخبر.

يوم 90/9/5 زادت الأزمة حدة، وردّ الرئيس برسالة شديدة اللهجة إلى الإدارة الأميركية، ثم أوفد السيد طارق عزيز للقاء الرئيس غورباتشوف في موسكو قبيل لقاء الأخير باجتماع قمة مع نظيره الأميركي جورج بوش في هلسنكي. كانت النتائج غير مشجعة نظراً للظروف الصعبة التي يمرّ بها الاتحاد السوفياتي. وكانت وجهة نظرهم أن القيادة العراقية تجازف كثيراً في موقفها المتصلب الرافض للانسحاب الفوري من الكويت.

وكان الرئيس الفرنسي ميتران قد أعلن في السابع من أيلول/سبتمبر أن فرنسا لا تؤيّد الهجوم على العراق إلا بقرار بالإجماع من مجلس الأمن الدولي وتحت راية الأمم المتحدة، وكان ذلك تحت ضغوط المعارضة الفرنسية.

في الأسبوع الأول من أيلول/سبتمبر تدارس الرئيس العراقي صدام حسين مع القيادة العسكرية العليا وبشكل تفصيلي تقديراً للموقف الدفاعي الاستراتيجي في ساحة العمليات الكويتية، حيث لم يكن يوماً موضوع احتلال الكويت مشروعاً استراتيجياً أو عملياتياً أعدّ له مسبقاً، ولم تكن هنالك دراسات معمقة حول هذا الموضوع. وعندما نفّذ الحرس الجمهوري قرار الرئيس بغزو الكويت واحتلالها، كانت القيادة العسكرية العراقية العليا بعيدة عن هذا العمل الخطير، بل تفاجأت به سواء على مستوى وزارة الدفاع وكان على رأسها الفريق الأول الركن عبد الجبار شنشل، أو على مستوى رئاسة أركان الجيش ممثلة برئيسها الفريق الأول الركن

نزار الخزرجي ومعاونيه. وعليه جرت هذه الدراسات بشكل مفصّل ومطوّل، ولقد أحاطني الدكتور عبد الوهاب القصاب - كان يعمل ضابط ركن في رئاسة أركان الجيش آنذاك - علماً فيما بعد أن الرئيس استدعى رئيس أركان الجيش بعد الغزو لاستطلاع رأيه باستراتيجية الدفاع عن الكويت، فأجابه مقترحاً ومؤشراً على الخريطة بأن خط الدفاع ينبغي أن يبدأ من عارضة المطلاع (سلسلة التلال شمال الجهراء)، وبأنه من الحكمة استثمار ذلك سياسياً والانسحاب إلى الأراضي العراقية، فبان عدم الارتياح على وجه الرئيس، وبعدها أحاله على التقاعد، وعيّن الفريق الركن حسين رشيد بدلاً منه.

اعتبرت ساحة العمليات الكويتية جزءاً أساسياً من الوطن العراقي، وفق التوجيه الرئاسي، الذي طلب إعداد خطة دفاع استراتيجية عنها تجاه حرب محتملة قد تشنّها قوات تحالف دولية بقيادة الولايات المتحدة الأميركية.

هذه الساحة من الناحية الطوبغرافية تعتبر ساحة عمليات صحراوية، يشكّل الخليج العربي حدودها الشرقية، ويتوفّر فيها عدد من الموانئ البحرية والخلجان، أهمها خليج الكويت حيث ميناء الكويت وميناء الشويخ ثم ميناءي الأحمدي والشعيبة في جنوب العاصمة الكويت، وقبالة تلك السواحل وفي القسم الشمالي منها ثلاث جزر (وربة، بوبيان، فيلكة)... تعتبر عارضة (المطلاع) وهي سلسلة من التلول (التلال) الكلسية، العارضة الأساسية التي تؤمّن الدفاع الموضعي شمال مدينة الجهراء وشمال غرب العاصمة الكويت. من خلالها يمرّ الطريق الرئيسي الذي يربط الكويت بالعراق، أما المناطق الحضرية المتمثلة في العاصمة بشكل خاص وبقية المدن فتمثّل موانع صناعية تجاه تقدم القوات المدرعة، وتؤمّن مناطق مهمة للدفاع، أما بقية الساحة الكويتية فهي عبارة عن صحراء واسعة تكثر فيها الكثبان الرملية - وخاصةً في الجزء المركزي منها - وهي تسمح بعمل القوات المدرعة بشكل واسع وخاصة في موسم الشتاء، حين تسقط الأمطار وتصلّب الرمال. أما المنشآت النفطية المنتشرة في الساحة الكويتية فتشكّل نوعاً من الموانع الصناعية. أما المطارات والقواعد الجوية الرئيسية الثلاث وهي مطار الكويت الدولي، وقاعدة أحمد الجابر العسكرية، وقاعدة علي السالم العسكرية والطرق الموصولة لها فتؤمّن تسهيلات

كبيرة لعمليات الصولة الجوية المعادية، وعليه ستكون هنالك معضلة مهمة في تأمين سلسلة من الدفاعات الموضعية التي يفترض بالجيش العراقي القيام بإعدادها لعدم تيسّر العوارض المسيطرة ومناطق الأستار التي تستفيد منها القوات في الدفاع الموضعي. وخاصة أن قدرات الجيش العراقي الأساسية ستتحدّد بالدفاع الموضعي لتفوّقه بالمشاة. أما في نهاية القسم الغربي من هذه الساحة، فيشكّل وادي حفر الباطن العارضة الأساسية فيه، ويؤمّن تسهيلات كبيرة لتسلّل القوات المعادية المدرعة أو المحمولة جواً، ومن خلال تقدير موقف الاستخبارات يعتبر الشهر الأخير من هذه السنة (1990) الوقت المحتمل للتعرض المعادي.

خلاصة تقدير الموقف الاستراتيجي العراقي في الدفاع

يتلخّص تقدير الموقف الاستراتيجي العراقي في الدفاع عن ساحة العمليات الجنوبية بما فيها الكويت بما يلي:

- تنقسم ساحة العمليات الجنوبية (الكويتية) إلى أنواع غير متجانسة (بحرية، صحراوية، مناطق حضرية، الخ..) مما يتطلّب إعطاء كل مكوّن من العوارض الأرضية إلى فيلق كقاطع عمليات، كما يتطلّب تقدير الواجبات والمهام انفتاح كامل القوات البرية العراقية عدا قوات الحرس الجمهوري التي ستشكّل الاحتياط الاستراتيجي.
- يتطلّب تعزيز الدفاعات الساحلية بقدرات القوة البحرية العراقية، ومنها ضرورة إنشاء حقول ألغام بحرية ثابتة وحرة قدر الإمكان لإبقاء القسم الأعظم من سفن العدو بعيدة عن أهدافها.
- يتطلّب الانفتاح أقصى ما يتيسّر من إمكانيات الدفاع الجوي والقوه الجوية في هذه الساحة، لأنها ساحة مفتوحة، وللعدو إمكانية تأمين موقف جوي بأعلى درجات التفوق.
- تدعو الحاجة إلى تقليص الجبهات، وزيادة شدة التوقيف للموانع المختلطة من الألغام المختلفة، وحقول النار، والأسلاك، والمعرقلات السلكية.
- تدعو الحاجة إلى تشكيل احتياط كبير في ساحة العمليات العراقية.

- ستكون القواعد الجوية العراقية والمطارات أهدافاً أولية للقوات الجوية المعادية.
- تستطلّب المنشآت النفطية في الكويت والعراق قوات لحمايتها أو قوات تمتلك قرار تدميرها أو المحافظة عليها عند الضرورة، وتملك اتصالاً بالقيادة السياسية.
- إن إعداد ساحة العمليات الكويتية سيستنزف كل طاقات وزارة الدفاع، كما أن استخدام جهد الدولة خاصة وزارات (النقل، الري، النفط، الزراعة)، ضرورة لا غنى عنها.
- إن الاقتراح الأولي للانفتاح العام للقوات العراقية في ساحة العمليات الكويتية هو كالآتي:

أولاً: الفيلق الثالث: قاطع عملياته (الحدود الكويتية - السعودية - الساحل (القسم الجنوبي منه) - الوفرة - الأحمدي - العاصمه الكويت - المنيفيس).

ثانياً: الفيلق الرابع: قاطع عملياته (هضبة المطلاع - السالمي).

ثالثاً: الفيلق الثاني: قاطع عملياته (القسم الشمالي - العبدلي - الروضتين - أم العيش).

رابعاً: الفيلق السادس والقوة البحرية: قاطع عملياهما (الجزر - فيلكا - وربه بوبيان - الموانئ العراقية - البكر - الفاو - البصره - أم قصر - القسم الشمالي من الساحل الكويتي).

خامساً: الفيلق السابع: قاطع عملياته القسم الشمالي الغربي من ساحة العمليات.

سادساً: الحرس الجمهوري، وفقاً لأمر القائد العام للقوات المسلحة هو احتياط استراتيجي في القسم الشمالي من ساحة العمليات، ولا يستخدم إلا بأمر من القائد العام.

سابعاً: الفيلق الأول والفيلق الخامس، احتياط عام ضمن قواطع عملياهما في العراق.

مرتكزات الاستراتيجية الدفاعية العراقية
في ساحة العمليات الجنوبية:

أصدرت القيادة العامة للقوات المسلحة العراقية سلسلة من التوجيهات خلال اجتماعاتها المستمرة منذ بداية شهر أيلول/سبتمبر، فأقرّت فيها خطة الانفتاح الأولية، وأصدرت الأوامر بتبديل قوات الحرس الجمهوري بقوات الجيش، وكان ذلك يوم السابع من أيلول/سبتمبر 1990 على أن تنجز عمليات التبديل والانفتاح في مدة أقصاها الأول من تشرين الأول/أكتوبر 1990.

لقد كانت مرتكزات الاستراتيجية العسكرية العراقية قد تحدّدت بما يلي:

- القبول بخوض الحرب مع الولايات المتحدة وحلفائها دفاعاً عن حق العراق المشروع بالدفاع عن أراضيه وشرفه في ساحة العمليات الكويتية كجزء لا يتجزّأ من الأرض العراقية وإلى أي مكان تمتدّ إليه الحرب.
- التركيز في الخطة الدفاعية على المعركة البرية التي يخشاها العدو كثيراً، والعمل على إطالة مدة الحرب إلى أقصى فترة ممكنة.
- تفادي تأثير الضربات الجوية والصاروخية إلى أدنى حدّ، وتأمين أقصى حماية ممكنة للقوات المدافعة من وسائل الدفاع الجوي الإيجابي (مختلف الأسلحة المتيسرة) والسلبي (حفر المواضع، وأعمال التمويه).
- تشكيل قوة ردع قوية قوامها سلاح صواريخ أرض أرض، وعدد من الطائرات المقاتلة يقودها طيارون انتحاريون لضرب حاملات الطائرات الأميركية إذا عجزت الوسائط البحرية عن التعرّض لها. ومن الأهداف المحتملة أهداف منتخبة في إسرائيل المستفيدة الأولى من الحرب على العراق، مع تهيئة عدد من الصواريخ والطائرات لاستخدام الأسلحة الكيماوية عند الضرورة.

في السابع والعشرين من أيلول/سبتمبر 1990 تكامل انفتاح 75% من قوات الجيش العراقي في ساحة العمليات الكويتية مما سمح لقوات الحرس الجمهوري بالتحرّك إلى شمال ساحة العمليات كاحتياط استراتيجي. ثم وبوقت قصير بدأت أكبر عمليات شهدها الجيش العراقي لإعداد ساحة عمليات كبيرة لأغراض المعركة

الدفاعية تجاه تعرّض معادي يشترك فيه أعظم جيوش العالم. فاستخدم كل جهد الدولة الهندسي والإداري لهذا الغرض، وقد خصّصت مساحة 120 كم مربع كأصغر منطقة انفتاح لمستوى لواء مدرع لتقليل تأثير الضربات الجوية مع إخفاء كامل للأسلحة والدروع تحت مستوى سطح الأرض (مواضع الإخفاء)، فعملية إعادة انتشار جيش تعداده يصل إلى 750 ألف مقاتل في جميع فروع القوات المسلحة العراقية مع آلاف الدروع، والمدافع، وأسلحة الدفاع الجوي، والصنوف الساندة، والقوات الجوية والبحرية عملية شاقة ومكلفة جداً. والكل كان بين مصدق أو مكذب لفرضية الحرب. لقد قامت القيادة السياسية من خلال القيادات الحزبية بأقصى ضغط فكري لغرس فكرة الحرب مع الإشارة للمنافع الاقتصادية الكبيرة التي سيحصل عليها الشعب العراقي في حال كسب الحرب. وقد لعب السياسيون، وبعض القادة العسكريين دوراً كبيراً من خلال وسائل الإعلام الخارجية والداخلية للتقليل من قدرة الأعداء على خوض حرب ناجحة، وقرعت طبول الحرب عالياً، وكانت بعض التسريبات لبعض أعضاء القيادة السياسية تشير إلى أن الحرب لن تقع، وخاصة من قبل عناصر قيادية مقربة من الرئيس (كحسين كامل، وعلي حسن المجيد، وغيرهما) مع الإيحاء بأننا نمتلك أسلحة ردع، وظنّ الكثيرون من الشعب والمقاتلين بأننا نمتلك سلاحاً ذرياً أو ما شابه ذلك.

في الحادي والعشرين من تشرين الأول/أكتوبر 1991 أعلن التلفزيون العراقي عن عقد اجتماعين للقيادة العامة، طلب على أثرهما من الوحدات إجراء سلسلة من الاستطلاعات الميدانية المفصّلة على جميع المقتربات المحتملة لتقرب العدو، حيث توفّرت معلومات دقيقة عن العدو من خلال استنطاق ثلاثة أسرى من المقاتلين الفرنسيين أحدهم برتبة نقيب عندما وقعوا أسرى في إحدى الكمائن العراقية المتقدمة، حينها علم بأن الخط الأمامي للقوات المتحشدة يبعد عن الحدود الدولية مسافة لا تقل عن 40 كم، وأن عدد القوات المعادية التي أكملت تحشدها في السعودية بلغ 350 ألف مقاتل، و1200 دبابة ومدرعة. وما يزيد عن ألف طائرة مقاتلة، عدا طائرات النقل، ومئات من طائرات الهليكوبتر المسلحة والمعدّة للنقل، وأن أكثر من 70 طائرة قصف استراتيجي استقرّت في قواعد (دي غارسية، وجبل

طارق، وبعض القواعد الأميركية المتقدمة) مما دفع للاعتقاد بأن العدو قد يقوم بالتعرّض خلال فترة زمنية لم تعد بعيدة.

ولقد سبق وأن شعرت القيادة السياسية العراقية بإحباط شديد لنتائج مؤتمر باريس الذي حضرته 34 دولة، وكان من بينها الاتحاد السوفياتي ودول الكتلة الاشتراكية حيث أعلنت فيه نهاية الحرب الباردة، لقد عنى هذا أن مزيداً من الأخبار السيئة تنتظر العراق في مرحلة هو في أشد الحاجة فيها إلى أصدقاء، وخاصة من يقوى منهم على تفتيت التحالف السياسي والعسكري بقيادة الولايات المتحدة، مما حدا بالقيادة العسكرية العليا إلى سحب سبع فرق قتالية من شمال وشرقي العراق، وقبول المجازفة بزجّها في ساحة العمليات الجنوبية لإجبار العدو على تأخير هجومه لحاجته لرفع نسبة التفوق الميداني. ونتج عن ذلك إعادة انفتاح فيالق الجيش العراقي ومنها الفيلق الأول والفيلق الخامس، كما تمّ تشكيل قيادتين ميدانيتين هما قيادة الدفاع عن العاصمة الكويت بقيادة الفريق الركن كامل ساجت وبمساعدة الفريق الركن بارق الحاج حنطة (بعد انتهاء الحرب وحال القضاء على الانتفاضة أعدم الأخير مع اللواء الركن عصمت بتحريض من علي حسن المجيد لمجاهرتهما بالتذمّر من القيادة، ثم أعدم الأول فيما بعد – وكان قد شغل منصب محافظ ميسان – لعدم إبلاغه القيادة عن استلامه رسالة تحريضية ضد النظام مع مبلغ من المال من الفريق الأول الركن نزار الخزرجي الذي التحق بالمعارضة السياسية خارج البلاد، وكان كل هؤلاء من صنف القوات الخاصة)، وقيادة الخليج بقيادة اللواء الركن محمود فيزي الهزاع ليرتفع تعداد القوات المدافعة إلى 850 ألف مقاتل بما فيها الحرس الجمهوري.

يوم الثالث والعشرون من تشرين الثاني/نوفمبر 1990 عُرضت الخطة الاستراتيجية للدفاع عن ساحة العمليات الكويتية تجاه تعرض محتمل لقوات التحالف الدولي بقيادة الولايات المتحدة الأميركية على قيادات الحرس الجمهوري (الاحتياط الاستراتيجي)، وكانت هناك مناقشة مفتوحة حول الخطة، وعندما جاء دوري بالمناقشة، تجرأت، ونقدت الخطة العامة وفق السلبيات الآتية:

- إن الاعتماد على استراتيجية الحرب البرية تجاه استراتيجية الحرب الجوية البرية التي تعتمدها الولايات المتحدة وحلفاؤها يعني أن ذروة الهجوم المعادي

ستكون خارج ذروة الدفاع (عمق الدفاعات) لاعتماد العدو على إنهاك القوات المدافعة بسلسلة طويلة من عمليات القصف الاستراتيجي والتكتيكي (تعبوي)، للحدّ من حرية حركتها، وإطلاق حرية العمل له لما يمتلكه من قابلية عالية للتحرّك في محيط دفاعاتنا، وبإسناد جوي كبير تشكّل الهليكوبترات المقاتلة (الأباتشي) وطائرات (A10) المحدثة جزءاً مهمّاً منه يجمع ما بين قابلية الحركة والقوة النارية.

- استشهدت بمقولة المارشال الألماني رومل عندما كان قائداً للجبهة الغربية (ب) عام 1944: "إن من امتلك التفوّق الجوي جعل أسلحة خصمه كالسيف والقوس لا تجدي نفعاً"، وعليه ينبغي الطلب من القيادة العليا إعادة تقييم أهدافها العملياتية، والتنازل عن هذه الصحراء المترامية الأطراف، والتركيز على حرمان العدو من قدرته على إحاطة ساحة العمليات من الجانب الغربي نحو جنوب العراق، وهذه مناورة أكيدة لا محالة. وعليه وجب التركيز على جزيرتي وربة وبوبيان، والقسم الشمالي (حقول النفط)، واعتماد عارضة المطلاع كمركز متقدّم لدفاعاتنا.
- إجبار العدو على خوض سلسلة من معارك المدن في العاصمة الكويت والجهراء على سبيل المثال، بالإضافة إلى تدمير كافة المطارات والقواعد الجوية، والاعتماد على القوات الخاصة والمشاة لمثل هذه المعارك. أما القطعات المدرعة فينبغي أن تدافع في العمق، وبمجموعات صغيرة، للحيلولة دون تشكيل أهداف ملائمة للضربات الجوية، مع ضرورة تأمين دفاعات بالعمق العراقي على مستوى جحافل ألوية تنفتح في مفاصل مهمة ما بين شط العرب شرقاً حتى قاعدة علي بن أبي طالب في جنوب غرب الناصرية لإحباط أية إحاطات معادية مدرعة بالتعاون مع القوات المحمولة جواً للفيلق 18 الأميركي. وأخيراً، لقد استبعدت الخطة الضربات الجوية الاستراتيجية في العمق العراقي وهذا خطأ، وأنا لا أتفق معها بأن القصف التمهيدي (التجريد الجوي) سيكون لمدة لا تزيد عن 72 ساعة، بل أتوقع استمراره لأسابيع.

- إن المـــشكلة الأساســـية في هذه الخطة تكمن هيمنة تجربة الحرب مع إيران على حساباتها، فهذه الخطة معدّة لمواجهة جيوش في أعلى المستويات التي عرفها تاريخ الحروب في بيئة حرب حديثة جداً، وإن دورة العمليات الدفاعية ستكون عاجزة عن التنفيذ نتيجة للتفوّق الجوي الساحق للعدو، مما سيقيّد حركتنا، مقابل حرية مطلقـــة له بالمناورة. إن الاقتراب غير المباشر هو جزء أساسي من عقيدة الجيش الأميركي، كما أن تفتيت منظومتنا الدفاعية له أسبقية استراتيجية في قواعد العمل المعتمدة لديهم، وعليه فالخطة برمتها تحتاج إلى الكثير من المراجعة.

وفقاً لطبائع السلوك العسكري العراقي، اعتبرت هذه الملاحظات غير مقبولة، وأخذت طابعاً سياسياً، ونالت منها عبارات الاستهجان والسخرية، ووقف ضابط أمـــن قـــوات الحرس الجمهوري (طارق) ليقول بالحرف الواحد "إنه كلام خطير يخالـــف توجيهات السيد الرئيس بصراحة، ويهبط المعنويات، لا بد من أنه العميل الأميركـــي الـــذي بيننا"، بعد ذلك، رفعت شكوى ضدي للرئيس صدام حسين تطلـــب إحـــالتي لمحكمة عسكرية، وشكل على الفور مجلس تحقيق حربي لمعرفة ما قـــصدته، وهـــل هو تشكيك بتوجيهات الرئيس، وتقرر تجميد عملي لحين إنهاء التحقيق، ولولا قصي ابن الرئيس صدام حسين الذي دافع عني أمام والده، لكانت الإجراءات السيئة قد استمرت بحقي ظلماً. ثم عدت إلى عملي بحرية يشوبها الحذر.

لـــيلة 29-30 تـــشرين الثاني/نوفمبر 1990 أصدر مجلس الأمن الدولي قراراً بتوجـــيه إنذار نهائي للعراق للاستجابة لكل القرارات السابقة الصادرة عن الأمم المتحدة، وخاصة القرار الخاص بالانسحاب الفوري من الكويت، ومَنح العراق مدة 45 يـــوماً كحدٍّ أقصى للتنفيذ، وصادف انتهاء المدة في الخامس عشر من كانون الثاني/يناير 1991 حسب التوقيت المحلي للمنطقة، وعليه إذا لم ينصاع العراق للقرار تخـــوّل قوات التحالف الدولي بشنّ الحرب لتنفيذ القرار. وفي الثاني والعشرين من كانـــون الأول/ديـــسمبر 1990 بلغت الحشود المعادية معدلات كبيرة تؤهّلها شنّ الحـــرب، بحـــيث وصلت إلى 400 ألف مقاتل، و4000 دبابة وعجلة قتال، و600 هليكوبتر مسلحة وللنقل، و2000 طائرة مقاتلة وإسناد، و400 قطعة بحرية بما فيها سبع حاملات طائرات مع احتمال واقعي لاشتراك القوة الجوية الإسرائيلية بالقتال.

لقــد ضمّ التحالف العسكري الدولي وحدات وقوات تعود لثمانية وعشرين جيشاً. عند ذلك رأى القائد العام العراقي الرئيس ضرورة تعيين وزير دفاع جديد يتمــتّع بخــبرة عسكرية أكاديمية وعملية جيدة، بدلاً من الوزير السابق الذي عيّن مؤقتاً (الجنرال عبد الجبار شنشل) بعد وفاة وزير الدفاع الأسبق الجنرال عدنان خير الله الــذي قُــتل في حادث طائرة في الرابع من مايس عام 1989. لقد كان سبب التبديل المعلن هو كبر السن. ووقع اختيار الرئيس على الفريق أول (جنرال) سعدي طعمــة الجبوري، وصدر مرسوم جمهوري بذلك بتاريخ 22 كانون الأول/ديسمبر 1990. وكان هذا الرجل يشغل منصب المفتش العام للقوات المسلحة، إلا أن فرص استثمار كفاءاته محدودة لعدة أسباب. أوّلها أنه غير قادر على تبديل أوضاع ميدانية وصــلت إلى ذروتها ولا يفصلها عن نهاية الإنذار بشنّ الحرب سوى ثلاثة أسابيع تقــريباً، وثانيها أن هذا الرجل شديد الانضباط، ولاعتبارات إنسانية يصعب عليه إبــداء وجهات نظر لتعديل خطط نــزلت عميقاً في الميدان وهو في صدمة حدث تعيينه بشكل مفاجئ لهذا المنصب الكبير، وقد يكون في قرارة نفسه يعلم أنه كبش الفداء العظيم للخسارة المضمونة التي لاحت في الأفق القريب. وإذا كان هناك نصر فهــو ليس له. ومن شاهده في تلك الأيام شعر بقلقه البادي للآخرين، فلقد كان يشعر آنذاك بمنافس شديد وقوي جداً نظراً لصلة قرابته مع الرئيس ألا وهو حسين كامل.

الغــريب أن صلابة التعنّت للقرار السياسي العراقي بلغت ذروتها عندما فشل لقاء طارق عزيز وجيمس بيكر وزير خارجية أميركا في درء الحرب في التاسع من كانــون الثاني/يناير 1991 في جنيف. كما فشلت كل المساعي السوفياتية، وقبل نهايــة الإنــذار بثلاثة أيام، منح الكونغرس الأميركي بأغلبية ستة أصوات الضوء الأخضر للحرب وبدعم كامل للرئيس جورج بوش الذي أرسل الأمين العام للأمم المــتحدة إلى بغــداد في الربع الساعة الأخيرة ليوحي للعالم أنه حريص جداً على تفادي الحرب. في الوقت نفسه، خرجت مئات الآلاف بل الملايين من الناس ومن مخــتلف أنحاء العالم ومنها العاصمة الأميركية واشنطن يناشدون الإدارة الأميركية بالعدول عن قرار الحرب.

اندلاع الحرب وخسارتها في الكويت

يـوم 15 كانـون الثاني/يناير 1991 - وهو اليوم الأخير من الإنذار - زار الـرئيس صدام حسين القوات العراقية في ساحة العمليات الكويتية وهو بمعنويات عالـية، وعـند الساعة 18:00 نظر إلى ساعته وهو يتفقّد بعض الدفاعات العراقية الساحلية، ثم رفع رأسه مبتسماً وقال كلمة واحدة: "أين هم؟". وحين زار إحدى المقرات الميدانية للحرس الجمهوري وجّه سؤالاً إلى الفريق الركن أياد الراوي قائد الحـرس الجمهوري عن نسبة توقّعه للهجوم الذي انتهت مدة إنذاره اليوم. فأجابه بـأن الهجـوم المعـادي يقع باحتمالية لا تزيد عن واحد بالألف، وبالتأكيد هذا الاسـتبعاد غير المنطقي للحرب ناتج عن الملاحظات الخاطئة التي استمع إليها هذا القائد من بعض القيادات السياسية كحسين كامل، وعلي حسن المجيد اللذين كرّرا كثيراً عبارة "إن الحرب لن تقوم". ولا يختلف اثنان حول شجاعة وكفاءة ونـزاهة وعدالـة هـذا القائـد، إلا أنـه كمعظم القادة العراقيين كان يفتقر إلى الثقافة الاستراتيجية المستقلة، ويسلم بالرأي السياسي بشكل مطلق.

إلا أن الـوقت الحقيقـي للإنـذار انتهى عند الساعة 8:30 يوم 16 كانون الثاني/يناير 1991 بالتوقيت الأميركي. ولم تنتظر قوات التحالف كثيراً، ففي الساعة 2:30 يوم 17 كانون الثاني/يناير 1991 بالتوقيت المحلي للخليج العربي سقطت أولى مقذوفات طائرات الشبح والصواريخ الجوّالة على أهداف مختلفة في بغداد، عندها أيقظـني جـندي الحراسـة المـناوب مـرتبكاً وقائلاً: "سيدي انهض الجو مليء بالطائـرات!". عندها هرولت مسرعاً إلى خارج الملجأ، وإذا بأزيز الطائرات يملأ الـسماء، ومعظـم أسلحة الدفاع الجوي تطلق قذائفها نحوها دون جدوى فهي بارتفاعات عالية. وبشق الأنفس استطعنا إيقاف هذا الرمي غير المجدي. وبالتأكيد كمـا في بدايـة أي معركة أو حرب، تلعب العاطفة دورها على حساب العقل. عـدت بعـد ذلك إلى جهاز المذياع لألتقط أول تأكيد على نشوب الحرب من إحدى الإذاعات الخليجية. إذاً بدأت عاصفة الصحراء بمرحلتها الأولى من الحرب وهـي سلسلة طويلة من القصف الاستراتيجي والتكتيكي (الميداني) الذي دام 39 يـوماً، بلياليـها، وشمـل ساحة الحرب برمّتها (العراق - الكويت)، حيث ألقت

طائـــرات القـــصف الاستراتيجي والتعبوي B1 - B2 - B52 - F117 والتورنيدو والجاكـــور والميراج وF111 - 16 F أكثر من مئة ألف طن من القنابل، وأكثر من 400 صـــاروخ جوال بعيد المدى فوق العراق. أما قوات الميدان، فقد نالتها مئات الآلاف مـــن المقذوفات المسيرة والاعتيادية (قسم كبير منها مصنوع من اليورانيوم المنضب)، ومقذوفات المدافع البرية، ومدافع البوارج البحرية ذات العيارات الكبيرة (420 ملـــم). ولعبت الطائرة القديمة المحدثة (A 10) والهليكوبتر المسلحة الأباتشي دوراً رئيسياً في تدمير دروعنا، ومنظومات وأسلحة دفاعنا الجوي، ومدافعنا الثقيلة. وأدّت هـــذه السلسلة الطويلة من الهجمات الجوية والصاروخية إلى تفتيت صلابة مقاتلينا. وكان معدل خسائرنا الإجمالي بالقصف الجوي والصاروخي قد وصل إلى 25% للاحتياطات الرئيسية، و10% للوحدات العامة. أما الإصابات المعنوية فكانت أكثـــر مـــن ذلك بالطبـــع، مقابل إسقاط 134 طائرة، سقط منها على القطعات المدافعـــة 86 طائرة مع عشرات من الصواريخ الجوّالة معظمها أسقطتها بطاريات الـــدفاع الجـــوي الموجّهة، أما ما تبقى فقد أسقطته أسلحة الدفاع الجوي الحرة، وثـــلاث طائرات أسقطت بالقتال الجوي. لقد تحمّل معظم جنودنا وضباطنا هول ذلـــك القـــصف بكـــل ثبات رغم التضحيات الجسيمة، وخلال هذه المرحلة من القـــصف الجوي الذي أحال منطقة انفتاح قطعاتي إلى منطقة سوداء محفورة بمئات الـــصواريخ والمقذوفات المعادية وأكبرها تلك الناتجة عن قنابل القاصفات العملاقة (B52)، ولم يكـــن أمامـــي عمل لرفع المعنويات غير تفقّد جنودنا خلال القصف الجـــوي، ومشاركتهم في فعالياتهم المختلفة، والعمل المستمر لتغيير المواضع الرئيسية إلى المواضـــع الـــبديلة، وتحسين إرزاقهم، حيث كنا ننقع الخبز بالماء لساعات كي يتسنّى لنا أكله. وفي أحد الأيام تذكّرت أنني شاهدت في أحد الإسطبلات الكويتية مـــئات الأكياس من الحنطة كعلف للخيول، فأرسلت عدداً من الشاحنات لجلبها. وكانـــت أفضل بكثير من أشباه الحنطة التي كنا نأكلها بسبب عمليات التقنين التي فرضها الحصار. وبنفس الفترة، ألقت الطائرات المعادية على معظم القوات المدافعة الملايـــين من منشورات الحرب النفسية تدعو جنودنا إلى الهرب من ساحة الحرب، بالإضـــافة إلى العـــبارات ذات الكلمات النابية المكتوبة على حاويات القنابر. وفي

منتصف شهر شباط/فبراير لوحظ تزايد نسبة الهروب نتيجة القصف الجوي المعادي المستمر ليلاً نهاراً حيث وصل معدل الهاربين في كل فرقة حرس جمهوري إلى أكثر من ألف مقاتل، وكان لشدّة تدمير دباباتنا بواسطة الصواريخ الموجهة (هل فاير - المافريك) تأثيره المعنوي السيئ على جنودنا، حيث تناثرت هذه الدبابات الثقيلة إلى أجـزاء ولمـسافات واسـعة. إلا أنـنا نجحـنا لأكثر من مرة في إسقاط الطائرة (الخنـزيـرة) التي تهاجمنا ليلاً فقط لبطئها، بالرغم من تدمير 90 بالمائة من أسلحة دفاعنا الجوي أو تحييدها بالإضافة إلى طائرات الاستطلاع الصغيرة المسيرة.

أمـا الضربات الصاروخية لصواريخ الحسين العراقية أرض أرض ذات المدى المتوسـط (650 كـم) فقد أصابت عدة أهداف حيوية في إسرائيل، والسعودية، وبعـض أقطار الخليج دون تمكّن الطيران المعادي وقوات الخدمة السرية المعادية من كشفها أو تدمير قواعد إطلاقها، وكانت إحدى الإصابات مؤلمة للجانب الأميركي عندما قتل وجرح أحد تلك الصواريخ أكثر من مائة أميركي من ضمنهم 29 طيّاراً في قاعدة الظهران الجوية. وأصل هذا الصاروخ (الحسين) هو الصاروخ السوفياتي (سكود ب) ذو المدى (280 كم) الذي طوّرته مصانع التصنيع العسكري العراقية في حين فشلت البطاريات الصاروخية المضادة (باتريوت) في التصدّي الفعّال له.

حاولـت القيادة العراقية استدراج قوات التحالف للمعركة البرية بأسرع ما يمكـن حين طال انتظار تلك المعركة، مع زيادة خسائرنا بالضربات الجوية سواء المادية أو المعنوية، مما دعا القائد العام (الرئيس) إلى زيارة الفيلق الثالث بقيادة اللواء الركن صلاح عبود، وطلب منه شنّ هجوم بمستوى فرقة لاحتلال مدينة الخفجي السعودية ومينائها بهدف إغراء العدو وجرّه إلى الحرب البرية، ووقع الاختيار على الفـرقة الآلـية الخامسة بقيادة العميد الركن ياسين المعيني، وبإسناد الفرقتين الثالثة المدرعـة والأولى الآلـية بقيادة العميد الركن حسن زيدان والعميد الركن حسين حـسن، وكـان ذلـك يوم الثلاثين من كانون الثاني/يناير 1991. نجحت الفرقة الخامـسة في الاحتلال المؤقت للهدف (ساعدها على هذا النجاح تخصيص 2000 طلعة جوية يومياً خلال هذا الوقت من طائرات التحالف للبحث عن قواعد إطلاق الصواريخ العراقية التي تدكّ يومياً أهدافاً في إسرائيل للحيلولة دون اشتراك الأخيرة

بالحرب بشكل مباشر للحفاظ على سلامة التحالف). ونتيجة للقصف الجوي والمدفعي الشديد انسحبت هذه الفرقة في يوم الثالث من شباط/فبراير 1991 دون تحقيق هدف جرّ العدو لمعركة بريّة. وكانت خسائرها 650 مقاتلاً وقع ما يقارب الخمسمائة منهم أسرى بيد العدو، مقابل أسيرين أميركيين أحدهما مجندة. وبعد عشرة أيام، ارتأت القيادة العراقية تكرار العمل لاستدراج العدو إلى معركة بريّة. وكانت الخطة تقضي بقيام قوات الحرس الجمهوري (ثمانية فرق) بالتعرض نحو العمق السعودي لمهاجمة العدو في قاطع (المشعاب والخفجي)، إلا أن معضلة حركة قوات كبيرة في ميدان صحراوي مكشوف تحت تفوّق جوي معادي لمسافة تزيد عن 200 كم تعني عملية انتحار جماعي لأفضل القوات المدافعة. وبعد مداولة دامت يومين نقل قائد الحرس الجمهوري رأي القادة الميدانيين ضرورة صرف النظر عن هذه الخطة المضمون فشلها، وأخذت القيادة العليا بهذا الرأي، وكانت هذه أول مرة يحدث فيها مثل هكذا نقض لخطة عامة منذ عام 1980. وفي 13 شباط/فبراير ارتكبت طائرتان أميركيتان نوع أف 111 جريمة نكراء، عندما قصفتا ملجأ العامرية بناءً على معلومات غير مؤكدة بوجود الرئيس العراقي فيه، فذهب ضحية ذلك 405 امرأة وطفل ومسن.

بعد 39 يوماً من القصف الجوي والمدفعي والبحري أي ليلة 24 شباط/فبراير 1991(*)، شنّت قوات التحالف هجومها البري الواسع. وكان أساس هذا الهجوم قوة المناورة الواسعة الفيلق الأميركي 18 (الفرقتان المحمولتان جواً 101 و82، والفرقة المدرعة الخفيفة 24) من الغرب (على شكل خطاف كبير) حيث وصلت قطعات فرقه الأمامية نهر الفرات، وتمّ احتلال قاعدة علي بن أبي طالب الجوية، ومنطقة أور الأثرية حتى منطقة تل لحم، وهوجمت فرقة القوات الخاصة حرس جمهوري فيها مع مناورة متوسطة المدى (الجهد الثقيل) من قبل الفيلق السابع المؤلّف من فرق أميركية وبريطانية، والفرقة الفرنسية 24 المدرعة الخفيفة المكلفة بحماية الجناح الأيسر للفيلق دون التوغل العميق في الأراضي العراقية وفقاً

(*) في هذه الليلة أصيب كاتب المذكرات بجروح وحروق عديدة نتيجة صاروخ أطلقته طائرة أميركية من نوع (A10).

للتحديد السياسي لها. كان هدَف هذه المناورة استهداف الاحتياطات العراقية المركزية، أي قاطع الفيلق الرابع العراقي بقيادة الفريق الركن أياد خليل زكي من وادي حفر الباطن ثم الاندفاع شمالاً لمهاجمة قوات الحرس الجمهوري التي كانت تدافع على شكل قوس كبير عن جنوب وجنوب غرب البصرة مع هجوم بامتداد ساحل الخليج باتجاه مباشر نحو المدن الرئيسية نفذّه الفيلق العربي.

إلا أن القيادة العراقية استشعرت بخطر عزل وتطويق القوات الرئيسية في ساحة العمليات الكويتية، فأصدرت أمراً سريعاً وحاسماً وغير متوقع بالانسحاب الفوري نحو الأراضي العراقية ضمن قاطع البصرة، والدفاع هناك. نفذ الانسحاب بشكل مرتبك جداً وعلى عجل (كيف ينسحب جيش كبير حرم بالأساس من مجرد التفكير بالانسحاب، ومن سلسلة طويلة من استحضارات الانسحاب التي تحتاج القوات إليها كتهيئة مواضع الإعاقة، ومواضع الدفاع بالعمق، وفتح الطرق الخاصة للانسحاب)، لأن مناورة كهذه تعدّ أعقد وأصعب العمليات الحربية التي تمارسها الجيوش في الميدان، وعليه كان الانسحاب أشبه ما يكون بالهزيمة الكبرى. فتركت القطعات المقاتلة أثقالها ومواد تموين قتالها (التي تحتاج إلى عدة ليال بل أسابيع لترقيقها إلى الخلف)، ولم يكن أمام هذه القطعات إلا ساعات، فشكّلت هذه (أي القطعات) أهدافاً كبيرة سهلة المنال للقوة الجوية للتحالف - فأصبح الطريق المركزي (الجهراء - العبدلي) يدعى بطريق الموت - وقد طاردها القوات المعادية، ولكن بحذر، وكانت هناك قوات عراقية أجبرت على القتال بمطار الكويت، وبعض أجزاء من العاصمة، لأنها لم تتمكّن من الانسحاب أو لم يصلها الأمر بذلك. إلا أن 70% من القوات المنسحبة من ساحة العمليات الكويتية نجت من الموت أو الأسر حين عبرت الحدود نحو العراق، ولكن 50% من هؤلاء فقدوا إرادتهم على القتال نتيجة أسباب عديدة منها صدمة المعركة، والإعياء، ونسبة الإصابات العالية. إلا أن قوات الحرس الجمهوري كانت بقدرات قتالية ومعنوية جيدة، فتصدّت للقوات المطاردة بقوة، فدارت معارك شديدة يومي 26-27 شباط/فبراير. ولكنها (قوات الحرس الجمهوري) تكبّدت خسائر كبيرة جراء القصف الجوي، وضربات طائرات مقاومة الدروع الأباتشي ذات التأثير الفعّال

جداً على دروعنا (على سبيل المثال دمّرت هذه الطائرات اللواء المدرع 2 من فرقة المدينة المنورة حرس جمهوري خلال 20 دقيقة فقط) إلا أن اللواء المدرع 17 من فرقة حمورابي حرس جمهوري تمكّن من إيقاف تقدّم فرقة مدرعة أميركية بمساعدة اللواء 23 من فرقة عدنان حرس جمهوري، ومدفعية الحرس الجمهوري. وعند الساعة 8:00 يوم الثامن والعشرين من شباط/فبراير أعلن الرئيس الأميركي جورج بوش وقفاً للعمليات الحربية، كما أعلن انتهاء الحرب في الميدان بعد 43 يوماً بلياليها، تكبّد الجانب العراقي فيها خسائر فادحة في أسلحته ومعداته، وما يزيد عن مائتي ألف إصابة مختلفة، وما يزيد عن 63 ألف أسير... ثم أعقب ذلك مفاوضات ميدانية في منطقة سفوان قرب جبل سنام جنوب البصرة (مثل العراق فيها الفريق الركن سلطان هاشم أحمد معاون رئيس أركان الجيش للعمليات، والفريق الركن صلاح عبود قائد الفيلق الثالث. وكان من المقرّر أن يكون الفريق أول نزار الخزرجي هو الذي يمثّل الجانب العراقي، إلا أنه جرح في اشتباك مسلح تورّط به مع المنتفضين في الناصرية، وقد أنقذته قوات من الحرس الجمهوري في اللحظة الأخيرة. أما عن جانب الحلفاء فكان القائد العام الجنرال شوارتسكوف ونائبه الأمير السعودي الفريق خالد وبعض الممثلين عن الجيوش الرئيسية المشتركة في التحالف) وفقاً لطلب الأميركيين عن طريق السفارة السوفيتية. (بذل السوفيات جهوداً كبيرة كوسيط ما بين الطرفين في كل الأزمات، وكذلك لتفادي الحرب أو تقليص نطاقها. ولعب الدور الرئيسي في هذه المحاولات السيد بريماكوف من خلال جولاته المكوكية. وقد صدر له بعد الحرب كتاب بعنوان - **الحرب التي كان ينبغي أن لا تقع**)، يقال إن المفاوضات الميدانية انتهت باتفاقية وفيها بنود سرية جرى الاتفاق عليها خلال لقاء خاص بدون المترجم العراقي المرافق للوفد، وقد أوحى الجنرال شوارتسكوف للمفاوضين العراقيين بدعم التحالف لأية محاولة للانقلاب على الرئيس العراقي التي رفضها الرجلان بشدة. غير أن الجانب العراقي تمكّن من الحصول على موافقة على طيران حر للطائرات المروحية - الهليكوبترات - بحجة ضرورة إعادة التنظيم والسيطرة بسبب تعرّض معظم الجسور للتدمير. وعندما انصرفت قوات التحالف لمرحلة إعادة التنظيم، واجهت القوات العراقية

ستة أسابيع أخرى قبل أن تعيد تنظيمها لقمع الانتفاضة الجماهيرية في الداخل، والمدعومة بشكل مباشر من قبل العدو القديم إيران، لأنها الفرصة المناسبة للثأر من الجيش العراقي ونظامه السياسي. وللأمانة كان توقيت هذه الانتفاضة سيئاً، لأنها قد اعتبرت طعنة في ظهر جيش لاذ بوطنه، وهو يلعق جراحه من حرب خسرها لتوّه، وخسر فيها الكثير من طاقاته البشرية والمادية والمعنوية نتيجة لسياسة كارثية حمقاء لقيادته السياسية. وقد أطلق عنان تلك الانتفاضة الرئيس جورج بوش من خلال خطابه الموجّه للشعب العراقي حينما دعاه للانتفاض على قيادته ورئيسه صدام حسين، فخرجت مجاميع عديدة معظمها معدّ سلفاً من 14 محافظة عراقية من أصل 18 محافظة يتكوّن منها العراق إدارياً، وخاصة محافظات الجنوب والشمال التي تهيمن عليها أحزاب وحركات سياسية مناهضة لحكم صدام حسين. كحزب الدعوة والحزبين الكرديين الرئيسين الديمقراطي الكردستاني والاتحاد الكردستاني. للأسف الشديد، استخدمت القوة المفرطة من قبل الطرفين المنتفض والقامع وفقاً لشهادات كثير من الثقات، ومن حسن حظي أنني لم أشارك فيها نتيجة إصابتي في الحرب، وقد نجّاني الله الرحيم من مواقف يعلم هو سبحانه أنها ستوقعني باتهامات ظالمة من قبل قيادتنا أو من قبل القيادات المناهضة للنظام، لأنني ما كنتُ لأتمكّن من تنفيذ أوامر تتنافى والقيم العسكرية والإنسانية وفقاً لخصائصي الذاتية. وأظنّ أنه لو تأخّرت هذه الانتفاضة لشهر أو شهرين لتغيّر الوضع السياسي إيجابياً نتيجة التذمر الذي ساد لدى الكثيرين من العناصر القيادية، ومنها في قوات الحرس الجمهوري بسبب القرار الكارثي باحتلال الكويت، وقبول الحرب ضد التحالف الدولي الأمر الذي كان خارج القدرة المتاحة. ولقد استجاب الجيش العراقي لمهمة إعادة حفظ الأمن الداخلي، لأنه جيش وطني، رأى أن نتائج هذه الانتفاضة ستكون لصالح إيران أو استجابة للإدارة الأميركية المؤيدة لإسرائيل، وجرى ما جرى من وقائع مؤلمة، ثم بأن فشل الانتفاضة حينما وقف الرئيس الأميركي مكتوف اليدين تجاه عمليات قمع الانتفاضة، لا يقدر على شيء، مع عدم السماح لإيران بالمضي قدماً في استثمارها، وللحقيقة لم تستخدم الغازات السامة في عمليات القمع بل قذفت بعض طائرات الهليكوبتر الطحين الأبيض للإيهام باستخدام الغازات السامة فوق

بعض المناطق الكردية. لقد التحقت بمنصبي الجديد كرئيس أركان فرقة حمورابي حرس جمهوري حال أن إلتأمت جروحي في 16 نيسان/أبريل 1991. وعيّن قائد الفرقة بمنصب قائد الفيلق الثاني لما أبلاه من قدرة وكفاءة خلال الحرب، وعيّن قائد الحرس الجمهوري بعد ترقيته إلى رتبة فريق أول (جنرال) أياد أفتيح الراوي بمنصب رئيس أركان الجيش لكفاءته في الحرب، وأصبح اللواء الركن ابراهيم عبد الستار التكريتي قائد الفيلق الثاني بدلاً عنه.

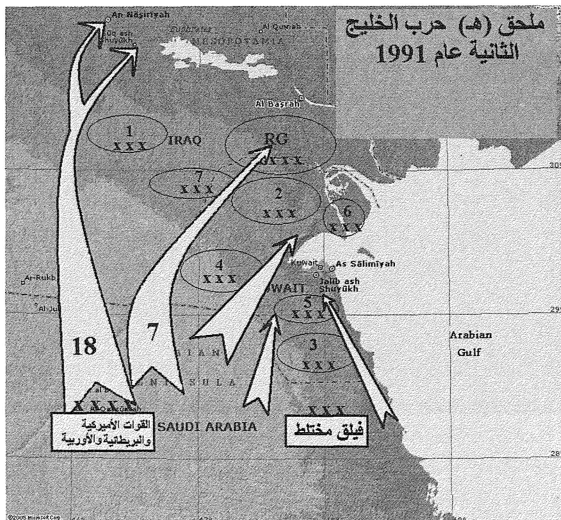
إن خير من وصف مأزق الاستراتيجية العسكرية العراقية في حرب الخليج الثانية عام 1991 هو رئيس أركان الجيش العراقي الفريق أول (جنرال) حسين رشيد التكريتي (*) حين سأله أحد الأصدقاء (حازم عبد القهار) عن وصفه لما حدث؟ فأجابه: "كأننا وسط دوامة بحرية هائلة أخذتنا عميقاً حتى لامست أقدامنا قاع البحر. إلا أن الحظ الحسن أدركنا أخيراً حين وجدنا أنفسنا نصف غرقى، متشبثين بقطع خشب طافية". إلا أنه يمكن إجمال عناصر ذلك المأزق بما يلي:

- إن القيادة السياسية (الاستراتيجية العليا) العراقية حدّدت أهدافاً كبيرة جداً فاقت قدرة القوات المسلحة العراقية على تحقيقها، أي عدم مطابقة الإمكانيات مع الأهداف.
- مركزية القائد السياسي امتدت إلى آلية صنع القرار العسكري الاستراتيجي كونه قائداً عاماً للقوات المسلحة، بينما لم يكن يمتلك الثقافة العسكرية الكافية لهذا المستوى الرفيع. وغالباً ما أفصح أمام القادة والمخططين عن مسلك العمل الذي يرتئيه للوصول إلى الهدف المراد، مما صعّب على هؤلاء البحث عن البدائل الأنسب لأسباب إنسانية محضة كالخوف من سطوة القائد السياسي أو سعياً لإرضائه، وما يتبع ذلك من فوائد شخصية محتملة. وكان القليلون منهم من يجازفون بحكم الضرورات الوطنية.
- لقد كانت دورة السياسة والحرب شبه متعذرة عراقياً لعدم وضوح المدى الحقيقي للدور السياسي في قرار الحرب وإدارتها.

(*) عيّن الفريق أول (جنرال) حسين رشيد رئيساً لأركان الجيش بدلاً من (الجنرال) نزار الخزرجي في 13 أيلول/سبتمبر 1990 الذي أبدى تحفظات كثيرة على قبول الحرب مع أميركا.

- التحديد والتقليص المستمر لصلاحيات القيادة العسكرية نزولاً إلى صلاحيات القادة الميدانيين (الخوف من التآمر السياسي).
- انهيار قيمة الردع للأسلحة العراقية ذات التدمير الشامل (استخدام الأسلحة الكيماوية وبوسيلة إيصال الصواريخ/الطائرات) عندما أعلن الخصم أنه سيستخدم السلاح النووي، إذا ما ثبت له استخدام السلاح الكيماوي من قبلنا وخاصة إسرائيل التي حيّدت بصعوبة من قبل الإدارة الأميركية للحفاظ على سلامة التحالف الدولي.
- قصور عام في التثقيف العالي للمستويات المسؤولة عن التخطيط الاستراتيجي، أدّى إلى قبول المجازفة بأدنى التحفظات، وفهم خاطئ لعقل الخصم، ومما زاد في ذلك افتقار القيادة العسكرية العليا إلى مراكز بحوث استراتيجية تغذّيها بالكثير من المعلومات والاستنتاجات الضرورية ومنها البدائل.
- كان السعي لتوظيف خبرتنا الكبيرة المحصلة من الحرب الطويلة مع إيران ضد عدو يختلف اختلافاً جوهرياً، وضمن بيئة صراع ذات معايير تقنية عالية يكاد أن يكون عقيماً، فلم يثمر إلا في نتائج محدودة.
- إن القرار السياسي العراقي حرم نفسه من الفسحة الضرورية للمناورة على المستوى الاستراتيجي، وبذلك حرم الاستراتيجية العسكرية العراقية من البحث عن بدائل معقولة، بل جعلها في الاتجاه الخاطئ المؤدي إلى الهاوية.
- إن الاتصال بالقائد العام شابَته الكثير من الصعوبات والمعوقات المعنوية والمادية التي حالت دون استيفاء العديد من المعضلات للمناقشة الضرورية، مما أدّى إلى إصدار قرارات ذات نهايات سائبة، أدّت بدورها إلى ثغرات ميدانية لصالح العدو. ناهيك عن بعض الملاحظات الشخصية للقائد العام حول بعض القضايا تمتاز بالكثير من القدسية غير المبررة وفقاً لطبائع سلوك المحيطين به يصعب على المخططين الفكاك منها.
- الفجوة الواسعة بالإمكانيات ما بين الطرف العراقي والطرف المقابل، حرمت المخططين الاستراتيجيين والميدانيين العراقيين من المعلومات الضرورية للتخطيط، وعليه كان الاعتماد على الافتراضات لإملاء ساحة المجهول الواسعة.

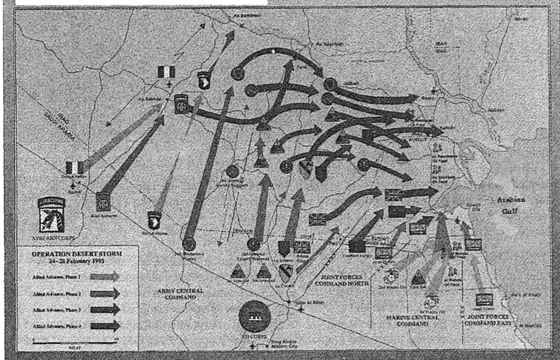
- افتقار الجانب العراقي إلى منظومة القيادة والسيطرة الحديثة جعل من موضوع تعديل الخطط شبه متعذراً. وعلى سبيل المثال، سارت بعض الدروع الأميركية فـــوق مقر ميداني عراقي يوم 27 شباط/فبراير كان يعقد فيه اجتماع ميداني لـــتدارس موقف على ضوء أوامر ذات معطيات قديمة، ونجا هؤلاء من الأسر بأعجوبة.
- إن أســـوأ مـــا في الأمر هو التقييم العام السياسي بعدم قبول الولايات المتحدة الأميركـــية فرضية الحرب المباشرة على ضوء تجربتها الفاشلة في فيتنام، وأن ما يحدث لن يعدو عن كونه عمليات حشد عسكرية تصبّ في موضوع سياسة حافـــة الحـــرب للضغط على القرار السياسي العراقي مع اعتماد ملاحظات مخطـــوءة أو مقصودة لغرض التوريط من قبل بعض الوفود الدولية غير الرسمية الـــتي زارت العـــراق خـــلال تطوّر الأزمة (بأن الحرب لن تقع والبديل هو الرضوخ الأميركي لإغراءات النفط العراقية - الكويتية).


ملحق (هـ) حرب الخليج
الثانية عام 1991
An Nāşirīyah
Sūq ash Shuyūkh
Euphrates
Al Qurnah
MESOPOTAMIA
Al Başrah
IRAQ
1
XXX
RG
XXX
7
XXX
2
XXX
6
XXX
4
XXX
Kuwait
As Sālimīyah
Jalib ash Shuyūkh
KUWAIT
5
XXX
3
XXX
Ar-Rukb
Al-Jul
18
7
Arabian
Gulf
XXX
XXX
القوات الأميركية والبريطانية والأوروبية
SAUDI ARABIA
فيلق مختلط
30°
29°
28°
46°
47°

الملحق (هـ)١

سير العمليات لقوات التحالف للمعركة البرية

من ٢٤ ــ ٢٨ شباط عام ١٩٩١



الفصل السابع

ما بين حربي عام 1991 وعام 2003

الفتـــرة الفاصـــلة ما بين حربي 1991 و2003، هي مدة الحصار الاقتصادي الطـــويل والقاسي الذي فرضته الولايات المتحدة بحكم هيمنتها على الأمم المتحدة بحـــق الشعب العراقي (لإضعاف نظامه السياسي). لقد كان قدر هذا الشعب أن يحكـــم منذ عام 1958، بأقل قدر من الحكمة، بسياسات ضيقة الأفق، وخاصة في المـــرحلة الأخـــيرة، وفـــق بيئة سياسية معقّدة في تداخل هائل من المصالح الذاتية والإقليمـــية والدولية، لعبت السياسات الدولية والإقليمية فيها الدور الأساسي، في اســـتراتيجية ذكـــية بعـــيدة المدى لإضعاف العراق (بسلسلة طويلة من الأزمات، والمعـــارك، والحـــروب)، وذلـــك للوصول إلى هدفها النهائي الذي قد يؤدّي إلى تقـــسيمه، مع مشروع طموح لتغيير الجغرافية السياسية لمنطقة الشرق الأوسط، بما يخدم مشروع (الشرق الأوسط الكبير) الذي وضّحه القيادي الإسرائيلي المخضرم شمعون بيريز في كتابه الموسوم بالعنوان أعلاه. ومما ساعد على تفشّي هذه السياسة الـــضارة هو تغلّب العاطفة الدينية والعشائرية وهيمنة ثقافات مختلفة ومنها ما هو مـــتخلف عـــصرياً على الوعي السياسي لمعظم الشعب العراقي، وكان بعض هذا الـــتخلّف نتيجة لترسبات التاريخ المشترك الكبير مع شعوب الإقليم، بالإضافة إلى تأثير الموقع الجيوستراتيجي للمنطقة مما أخضع لرحمة تلك السياسات.

لقـــد تعاظمـــت هيمنة الولايات المتحدة الأميركية على السياسة الدولية بعد انهيار الاتحاد السوفياتي والكتلة الشيوعية، فاستمر مشروع إضعاف العراق بإحكام الحـــصار الاقتصادي عليه، بالرغم من انتهاء حرب الخليج الثانية، وإخراج الجيش العراقـــي مـــن الكـــويت بالقوة بعد احتلال دام أكثر من 6 أشهر، وذلك بفرض منطقتي حظر على الطيران العراقي شمال خط العرض 36، وجنوب خط العرض 32

ثم مــدّد إلى الخــط 33، وجعل المنطقة الشمالية خارج سيطرة الحكومة المركزية، وتحت حماية أميركية. خلال تلك الفترة تعرضت أسلحة الدفاع الجوي إلى سلسلة طــويلة من التدمير، بالإضافة إلى عدة ضربات قوية شملت مناطق وأهدافاً متنوعة وأهمها قوات الحرس الجمهوري ومقر المخابرات العراقية، لقد تخلل هذه الضربات فــشل عدّة مؤامرات سياسية ضد النظام السياسي العراقي، منها ما استهدف حياة الــرئيس صــدام حسين، كالمحاولة الفاشلة لضباط من عشيرة الجبور قاموا بها في الذكــرى الأولى لتحرير الفاو 1989، ثم تلتها مؤامرة بعض الضباط من المتقاعدين لقلــب نظام الحكم منهم مشتاق طالب، وراجي التكريتي، وسالم البصو، ومظهر أبو جيشي، ومحمد بلال، وعبد الكريم الحمداني ثم تلتها مؤامرة الطيار محمد مظلوم الدليمي وهؤلاء كلهم من العرب السنة، وفي هذا السياق لا ننسى مشاركة الكثير مــن الضباط العسكريين من الشيعة في انتفاضة المحافظات الجنوبية في آذار 1991 كجــزء مــن مشروع الإنقلاب السياسي منهم توفيق الياسري، ومحمد عبد الله، وحسين خادم، ومحمد ياسر ولي، ورضا هاشم، وحسين زاهي.

في 1991/6/1 الــتحقت بكلــية الحرب لإكمال الدراسات العسكرية العليا، وبعد فترة وجيزة، فاجئني قائد الحرس الجمهوري الجديد اللواء الركن ابراهيم عبد الــستار بتــصرف غريب وهو سحب العجلة العسكرية الخاصة بي بأسلوب فظ للغايــة، اعتبرت ذلك في حينه رسالة منه لقطع صلاتي بقوات الحرس الجمهوري، والغــريب في الأمــر أنــه رفيق السلاح القديم، ومن دفعتي في الكلية العسكرية، وكذلك في كلية الأركان، فلم أتوقع ذلك منه، لقد كان المشرف على رسالتي في الكلــية أعلاه الفريق الركن المتقاعد طارق محمود شكري وهو من خيرة كفاءات الجيش العراقي، وقد استفدت منه كثيراً، وحالي تخرجي من كلية الحرب في 4/30/ 1992، بعث في طلبي ابن الرئيس قصي صدام حسين ليخبرني لأجهز نفسي لمنصب قائــد فرقة مدرعة في الحرس الجمهوري، ولحين صدور المرسوم الجمهوري طلب مني مساعدة عميد معهد التدريب النموذجي للحرس الجمهوري، إلا أن الأوضاع الميدانــية سائت في جنوبي العراق بتهديدات قد تؤدي إلى خروج هذه المنطقة عن الــسلطة المركــزية، كما حدث قبل شهور في شمالي العراق، حين اضطرت قواتنا

للانسحاب من عدد من المناطق الساخنة فيه، فخسرنا وضعاً استراتيجياً، ندمت القيادة عليه كثيراً، وكان لسوء التقدير لوزير الدفاع حسين كامل، وبعض من دوائر الوزارة سبباً في تلك الخسارة. صدر المرسوم الجمهوري بتعييني بمنصب قائد الفرقة المدرعة السادسة من الفيلق الثالث المنفتحة في قاطع البصرة بدلاً من اللواء الركن نوفل إسماعيل التكريتي، الذي بدا عليه التذمر مع قائد الفيلق السابع السابق الفريق الركن ماهر عبد الرشيد منذ عام 1988، لقد شعر هذان القائدين بالغبن لعدم مساواتهما مع قائد الحرس الجمهوري الفريق أياد الراوي في مستوى التكريم الخاص في معركة تحرير الفاو، حيث منحا 3 أنواط شجاعة فقط مقابل 15 نوطاً لقائد الحرس. إضافة لملاحظات عديدة أخرى يستدّل منها على أنه لا زال يحمل ضغينة تجاه الرئيس مما يصعّب عليه مواجهة مواقف معقدة ومتوقعة في القاطع الجنوبي، (الرجل معروف بدماثة الخلق والشجاعة وسبق أن عمل بمنصب معاون رئيس جهاز المخابرات، وله سجل نظيف من الجرائم السياسية). وبعد التحاقي بالمنصب أعلاه بقليل تعرّضت الفرقة وأسلحة قاطع الدفاع الجوي الثالث إلى سلسلة من الهجمات الجوية الأميركية والبريطانية، تكبّدنا فيها خسائر مختلفة مع تدمير كامل لمقر قاطع الدفاع الجوي. وأدّى ذلك إلى استشهاد آمر القاطع العميد الركن الطيار حازم، و32 ضابطاً وضابط صف. بعد ذلك أجريت تغييراً لمعظم أماكن انفتاح الفرقة، مع سلسلة طويلة من الإجراءات الفنية مستفيداً من مخلفات الحرب الأخيرة من الدروع والآليات المدولبة المعطوبة. وبذل منتسبو الفرقة جهوداً جبارة لإعادة القدرة القتالية لهذه الفرقة العريقة ذات الخبرات الفنية والقتالية الكبيرة، حتى تمكّنا من إكمال معظم نواقص الفرقة الأساسية. ووجدت من قائد الفيلق الثالث الفريق الركن صباح نوري علوان كل العون بالرغم من أن الموارد كانت شحيحة. وفي بداية عام 1993 حضّر وزير الدفاع الجديد علي حسن المجيد، الذي عيّن بدلاً من حسين كامل مشروعاً تدريبياً للفرقة (مناورة بالذخيرة الحية لجميع أسلحة الفرقة) حاز على إعجاب الحضور بمن فيهم رئيس أركان الجيش الفريق أول أياد الراوي، ومعاونيه الفريقين سلطان هاشم ومحمد عبد القادر، وكانت هذه المناورة قد نفّذت في منطقة شرق البصرة، فعادت الفرقة والحمد لله

إلى سابق عهدها، ثم أرسل الرئيس صدام حسين فريقاً من الخبراء (الفرقاء شوكت أحمد العطا، وصبيح عمران طرفة، ويالجين عمر) لتقييم الفرقة من جميع النواحي الفنية والإدارية والقتالية والمعنوية، فكانت النتيجة مطابقة للنتائج السابقة. وفي أحد الأيام، بينما كنت مع قائد الفيلق نتفقّد بعض كتائب الفرقة في قاطع الشلاجحة، أخبرت بضرورة حضوري إلى بغداد لمقابلة الرئيس. فقال لي قائد الفيلق: "لقد خسرناك، هذا يعني أنك قد نقلت منا يا عميد ركن رعد". وتحقّق تخمين قائدي حيث صدر المرسوم الجمهوري بتعييني قائداً لفرقة المدينة المنورة المدرعة حرس جمهوري. وهكذا عدت إلى الحرس الجمهوري مرة ثانية في 23 آذار/مارس 1993، وقد خوّلت باختيار القائد الذي يحلّ محلي بالفرقة السادسة فكان العميد الركن محمد صالح العكيدي. كان مقرّ هذه الفرقة آنذاك والتشكيلات الساندة كالمدفعية وغيرها في شمالي بغداد بمعسكر التاجي، وألويتها اللواء المدرع 10 في معسكر الراشدية شرقي بغداد، واللواء المدرع 2 في معسكر الحصوة غربي بغداد، ولواء المشاة الآلي 14 في معسكر التاجي الذي حوّل إلى معسكر المسيب جنوب غرب بغداد لعدم وجود فسحة كافية للتدريب في المعسكر الأول. وكانت هذه الفرقة من أفضل الفرق المدرعة تسليحاً وتجهيزاً (دبابات T72m)، وكانت مسؤولة عن أمن العاصمة بالتعاون مع قوات الحرس الخاص (حماية المواقع الرئاسية وجانب الكرخ) بقيادة العميد الركن كمال مصطفى عبد الله. وبعد مدة وجيزة تعرّضنا لسلسلة من الضربات الجوية والصاروخية الأميركية بحجة تجاوز العراق شروط وقف إطلاق النار. وفي وقت مبكر من استلامي مسؤوليتي الجديدة، قرّرت تقديم دراسة معمقة عن الدروس المستنبطة من حرب الخليج الثانية أم المعارك، والتي هي في الأصل جوهر رسالتي الأصلية لكلية الحرب التي رفضها وزير الدفاع السابق بحجة أن الوقت مبكر لدارسة موضوع حرب انتهت لتوّها. وكانت دراسة صريحة جداً، فعرضتها أولاً على العميد الركن كمال قائد الحرس الخاص كونه أفضل شخص من أقرباء الرئيس، ويمتاز بالمنطق السليم فأشاد بها، إلا أنه نصحني برفع ثلاثة مواضيع منها لأنها تمسّ الرئيس، كما نصحني بتخفيف بعض العبارات كي يسهل تمريرها كأول محاولة جدّية للاستفادة من دروس تلك الحرب. ثم قدّمتها إلى

المشرف على الحرس الجمهوري قصي صدام حسين، وبالرغم من صعوبة تعميمها سمح لي بإلقاء سلسلة من المحاضرات على دورات معهد التدريب النموذجي لقوات الحرس الجمهوري، وبمساعدة عميد المعهد العميد الركن حقي شفيق وهو من الضباط العلميين، مع كتابة عدة مقالات في المجلة العسكرية للجيش حول الموضوع ذاته.

في منتصف أيلول/سبتمبر عام 1994، دعي قادة فرق الحرس الجمهوري لعرض القدرة القتالية لفرقهم أمام المشرف على قوات الحرس الجمهوري قصي صدام حسين، وذلك في ظلّ احتمال استعادة الكويت مرة أخرى. وكنت آنذاك أقدم القادة، فكنت أول من تكلّم، فعرضت القدرة الحقيقية وفق جداول من الأرقام والمعادلات الرياضية. ولأول مرة استخدم الحاسوب في عرض مثل هكذا عروض في الحرس الجمهوري، وبصراحة تامة أكّدت عدم جدوى مثل هكذا عمليات قتالية بسبب اختلال ميزان القوى ما بين البلدين نتيجة للدعم المباشر من قبل القوات الأميركية المتواجدة في الكويت وفي المنطقة، علاوة عن التورط بموضوع لا زلنا نقاسي من عواقبه، والله وحده يعلم ما سيحل بالعراق من كوارث إذا قمنا بالعمليات القتالية. كنت ألاحظ تجهّم قائد الحرس وحرج القادة الآخرين، إلا أن المشرف كان في انتباه شديد لكل كلمة أقولها، ثم جاء دور الآخرين فتباينت عروضهم ما بين المبالغة وشيء فوق الحقيقة، وما كنت ألومهم في قرارة نفسي لصعوبة عرض الحقائق آنذاك وما يترتّب عليها من سوء.

بعد يومين وصادف يوم سبت، دعيت إلى مقابلة الرئيس صدام حسين على عجل، وكان ذلك في الساعة 22:30 ليلاً. حين دخلت غرفة السكرتير عبد حمود سألته عن سبب استدعائي، حيث كنت متوقعاً أمراً جللاً، فأجابني بهدوء أنه لا يعلم السبب إلا أنه استدرك قائلاً بأن الرئيس غير مرتاح، وطلب مني الدخول، ففعلت. إلا أنني لم أجده في قاعة الاستقبال الصغيرة فعدت إلى السكرتير فبادرني: "ادخل عليه في مكتبه الخاص". فاجتزت القاعة إلى نهايتها ثم طرقت الباب، فأذن لي بالدخول. ووفقاً للسياق العسكري، قدّمت نفسي بصوت مرتفع، فكانت ملامح الغضب بادية على وجهه، ومن السؤال الأول علمت أن سبب الاستدعاء

له علاقة بما عرضته قبل يومين. وبهدوء وباطمئنان وخلال أكثر من ساعة عرضت عليه كل ما اعتقدت أنه أخطاء ومعضلات ينبغي عرضها على رئيس البلاد والقائد العـــام للقوات المسلحة، كأجوبة على كل ما سألني. وفي نهاية اللقاء قال لي "ماذا تـــريد مـــن صــــدام حسين". بعدما بأن عليه رضاه على ما عرضته أخيراً فأجبته: "الحمـــد لله لا أحتاج لأي شيء". وعندما كرّر سؤاله خشيت من الفهم الخاطئ لإجابتي (فما عُرِفَ عنه أن الذين يقابلونه يعرضون عليه احتياجاتهم فيلبيها لهم على الأغلــب بسخاء عظيم). فقلت له ولا زالت يدي بيده مصافحاً: "متى ما خرجت مـــن الخدمة العسكرية اسمح لي بأن أطرق بابك". فرد بعبارة الله محيك، فعدت إلى مقري فرحاً جذلاً، وكأنني قد تحرّرت من قيد ثقيل عندما برّأت ذمتي بقول الحقيقة دون خوف أو وجل أو نفاق، وكان هذا آنذاك أمراً ليس هيناً. إن تربيتي الخاصة وشرفي العسكري، نأيا بي عن أي طلب خاص، وبالرغم من حق أي قائد أن يقابل الرئيس مرة كل ثلاثة أشهر، ويطلب منه ما يطلب، فالحمد لله لم أفعل ذلك طيلة مدة القيادة الطويلة التي عملت بها، و لم آخذ إلا ما كان استحقاقاً رسمياً.

كانت المفاجأة عظيمة عندما صدر الأمر لقوات الحرس الجمهوري بالتحشد في قاطع البصرة، وعلى مقربة من الحدود الكويتية مرة أخرى. والمفاجأة الأكبر هي اســـتثناء فـــرقتي من هذا الأمر! لكن من يجرؤ منا على الاستفهام؟ وقد خمّنت أن سبب هذه العمليات هو استفزاز الأميركيين والدول الكبرى. فلشدّة وطأة الحصار جاع شعبنا، وأضرّ السوء به بما لم يمرّ به من قبل في تاريخه الحديث. وحين تجرّأت علـــى الاستفسار عن عدم شمول فرقتي بهذه العملية، أجبت بأن السيد الرئيس قال حرفياً: "فرقة المدينة وقائدها احتياط لي!".

وما هي إلا أيام معدودات حتى قامت الدنيا على العراق، وفرض عليه توقيت يعـــد بالساعات لإخلاء قوات الحرس الجمهوري مناطق التحشد والانسحاب إلى شمـــال خط العرض 33. وتدخّلت روسيا والصين (كانتا تعملان كوسيطين ما بين العـــراق وأميركا خلال الأزمات) بقوة من أجل إضافة ساعات أخرى، لعدم توفّر قـــدرة ذاتـــية لرفع هذا العدد الكبير من القوات، قبل توجيه سلسلة من الضربات الجوية والصاروخية الأميركية والبريطانية ضدها. وهكذا خسرنا موقفاً استراتيجياً

مـــركّباً، حيث لم يعد بإمكان الحرس الجمهوري العمل في المنطقة الجنوبية. وهذا مـــثال على القرارات الاستراتيجية التي يتّخذها الرئيس باستعجال ودون الاعتماد على المشورة المطلوبة.

علـــى كـــل حال جاءت النتيجة تصديقاً لما عرضته من حقائق. وفي الشهر الأخير من تلك السنة، وفي جوٍّ صحراوي شديد البرودة حيث بلغت درجة الحرارة ســـبع درجات تحت الصفر ليلاً، حصلت الموافقة على طلبي لتنفيذ مشروع تدريبي بمستوى فرقة مدرعة زائد لواءي قوات خاصة (فرقة المدينة المنورة واللواءان 3 و26 قـــوات خاصة) على ضوء الدروس المستنبطة من الحرب السابقة وفق الدراسة التي قدمتها سابقاً، ونفّذ المشروع التدريبي بنجاح كبير في منطقة النخيب غربي العراق بالقرب من الحدود السعودية على افتراض صدّ هجوم أميركي محتمل. وكان جوهر تلـــك الدروس تجنّب العمل بكتل قتالية كبيرة، لتجنّب التأثير القاتل للتفوق الجوي المعـــادي، بالإضافة إلى أهمية استخدام القوات الخاصة في شنّ سلسلة من الغارات القتالية بمجموعات صغيرة. مع جهد الاستطلاع الميداني الواسع كأهم جهد لجمع المعلومات في ظلّ التفوق الجوي والإلكتروني المعادي.

في الساعة 2000 يوم 1995/5/17 كان يفترض لقاء الرئيس صدام بقادة الحـــرس الجمهوري في مقر القيادة العامة لمناقشة القدرة القتالية للحرس الجمهوري إلا أن أمـــراً مـــا تطلب مغادرة الرئيس فتم اللقاء مع نجله قصي وأمين السر العام الفريق أول حسين رشيد وكنت أول المتكلمين حسب قدم قادة الفرق فاشتكيت من التحديد الصارم على صرف الأعتدة الحية وخاصة عتاد مدافع الدبابات حيث أصـــبح عندي ثلاثة دفعات من رماة الدروع والضباط الأحداث لم يمارسوا الرمي بالعـــتاد الحـــي وهذا يحدد جداً من كفاءة الفرقة، فقاطعني رئيس أركان الحرس الجمهوري الفريق إبراهيم عبد الستار واتهمني بعدم تقديري لظروف الحصار فعقبه جـــدلاً قـــوياً لقوة المبررات التي عرضها فأنهي الاجتماع على الفور بعد استراحة قصيرة ثم غادرنا القيادة العامة دون نتيجة.

كان أهم أحداث عام 1995، هروب حسين كامل الذي كان أقرب المقرّبين من الرئيس وأخطرهم في آلية صنع القرار العراقي. ففي يوم من منتصف هذا العام

اتـــصل بي هاتفياً رئيس أركاني العميد الركن مظهر حسين ورجا حضوري على خـــط هاتف القصر الجمهوري، وإذا بقصي صدام حسين يصرخ: "الوالد يبلغك أنـــك الوحيد في هذه الساعة الذي نثق به! هذا الكلب الحقير حسين كامل هرب إلى الأردن؟! من تعتقد أعوانه في الحرس الجمهوري؟" فطمأنته ألا أعوان له عندنا، لأنـــه لم يترك أثراً طيّباً في أحد منا. فقال: "أمر السيد الرئيس، بإطلاق النار على كـــل من يحاول دخول وحدات الحرس من أعوان هذا الخائن - الكل في إنذار - وعدم استلام أي أمر من قائد الفيلق، الأوامر فقط من السيد الرئيس أو مني؟".

المـــشكلة أن قائد الفيلق اللواء الركن كمال مصطفى عبد الله كان من أقرب المقـــرّبين إلى حسين كامل، فحامت حولهُ الشبهات بعدم الولاء، وقد أصبح قائداً لفيلق الله أكبر حرس جمهوري الذي يتألّف من ثلاث فرق إحداها فرقتي من خلال إعـــادة تنظـــيم الحرس الجمهوري كجيش يتألّف من فيلقين قبل أربعة أشهر. بعد أسبوعين من هذه الحادثة زارني قصي صدام حسين في مقري بمعسكر التاجي، وقد سرّبت لقائد الفيلق خبر الزيارة للاعتبارات الأدبية العسكرية فوصلنا بعد أكثر من ســـاعة حـــيث كـــان مقرّه في تكريت. وكان استقباله فاتراً من قبل قصي صدام حـــسين. وفي لحظـــة إنسانية حرجة بدأ اللواء كمال بتبرئة نفسه من تهمة الولاء للهارب حسين كامل، وأعلن أن لا علاقة له بموضوع هروبه. وفي الشهر الأول من الـــسنة اللاحقـــة عـــام 1996، استدرج حسين كامل وأخاه مع زوجتيهما (ابنتا الـــرئيس) إلى بغداد، وتمّ قتل حسين كامل وأخيه صدام كامل، ووالديهما وعدد آخـــر مـــن أفراد العائلة بعد حصار بيتيهما في منطقة السيدية في بغداد، في معركة اســـتمرت 13 ساعة قادها علي حسن المجيد وهو أكبر أقربائهما. وقد حضر هذه المعركة معظم أفراد عائلة الرئيس ومن ضمنهم نجلي الرئيس عدي وقصي.

في نهايـــة شـــهر آب/أغسطس من هذا العام استجار مسعود البرزاني زعيم الحزب الديمقراطي الكردستاني بالرئيس صدام حسين ضد خصمه التقليدي جلال الطالـــباني رئيس حزب الاتحاد الوطني الكردستاني، بعدما تمكّن الأخير من احتلال مديـــنة أربيل مع مجموعة كبيرة من عناصر المعارضة السياسية، وعلى رأسهم أحمد الجلبي وعملاء المخابرات الأميركية والبريطانية الذين زاد عددهم عن الثلاثة آلاف

عنصر. وقد سبق ذلك سلسلة طويلة من المعارك ما بين الطرفين. وفي 31 آب/أغسطس شنّت فرقتان من الحرس الجمهوري (فرقة عدنان وفرقة بغداد زائد لواء القوات الخاصة 3) - وكانت فرقتي احتياطاً بالإضافة إلى فرقة من الفيلق الخامس وفرقة من الفيلق الأول (جيش) - هجوماً سريعاً وكاسحاً تمّ خلاله طرد الجلاليين، وعناصر المعارضة العراقية من أربيل والسليمانية وسلمتا إلى البرزانيين. إلا أن إنذاراً أميركياً شديداً أجبر القوات الحكومية على الانسحاب الفوري من المناطق أعلاه. وتمّ ذلك يوم الثاني من أيلول/سبتمبر، إلا أن الجلاليين استردوا قاطع السليمانية من البرزانيين. ومن الملاحظ أن المقاتلين الأكراد من الطرفين لم يبدو القدر الكافي من الشجاعة عكس ما ألفناه عنهم في قتال السنين الماضية؟

بعد شهرين من هذا التاريخ، عيّنت بمنصب رئيس أركان فيلق الله أكبر حرس جمهوري أي الفيلق الأول حرس جمهوري مما تطلّب نقل عائلتي إلى معسكر القوة الجوية المجاور لمقر الفيلق أعلاه لتوفر سكن لعوائل الضباط.. فبذلت قصارى جهدي لرفع المستوى القتالي لهذا الفيلق.. وفي الثاني عشر من كانون الأول/ديسمبر من تلك السنة، عندما كنت في زيارة تفقّدية لفرقة عدنان في قاطع الموصل، علمنا بتعرّض النجل الأكبر للرئيس صدام حسين لمحاولة اغتيال في حي المنصور ببغداد أصيب على أثرها بإصابات بالغة جداً، وحامت الشكوك أولاً على أبناء عمه وطبان الذي أصابه عدي في يوم من الأيام بعدة طلقات حينما أراد قتله، ثم حامت الشكوك على مجموعة تنتمي إلى حزب الدعوة التي نفّذت هذه المحاولة على ضوء إعلان مجموعة سياسية عن ذلك. وبعد يومين من الحادث اتصل بي قصي صدام حسين لمعالجة موقف خطير في منطقة بحيرة الثرثار، وأخبرني أن التفاصيل ستسلّم لي من قبل مدير دائرة أمن الحرس الجمهوري خالد كليب، وأن فرقة الحرس الخاص بقيادة العميد الركن وليد توفيق التكريتي، ولواء الواجبات الخاصة 26 أصبحا بإمرتي لتنفيذ هذا الواجب، فأسرعت إلى منطقة بحيرة الثرثار أعلاه وقد خمّنت بأن هذا الموضوع له علاقة بمحاولة اغتيال عدي. حال وصولي كان الجميع بانتظاري حيث استلمت رسالة معنونة باسمي من قصي صدام حسين تنص على: (لواء ركن رعد الحمداني عليك تأديب من تطاول على السيد الرئيس

وبكـــل قـــوة). وعند استفساري من المسؤول عن القاطع وهو آمر الفوج السابع حـــرس خاص الرائد ركن محمد فيصل، عرفت بأن الموضوع ينحصر بإصابة يخت الرئيس صدام حسين بطلقة من سلاح رشاش متوسط من قبل أحد زوارق الصيد الأهلية التي تجوب بحيرة الثرثار وتقترب أحياناً من الساحل الرئاسي (قصر الرئاسة المـــشيد على البحيرة) لتوفّر الأسماك الكبيرة في هذه المنطقة، وعلى أثر مشاجرة مع إحدى نقاط الحراسة المتقدمة، تمّ إطلاق نار متبادل لفترة محدودة، فأصابت إحدى الطلقـــات بغـــير قصد يخت الرئيس، فكان تقديري للموقف بأن هذا الحادث لا يـــستحق مثل هكذا إجراء، وليس من الحكمة إثارة المستفيدين من عمليات الصيد أعـــلاه الذين ينتمون إلى بطون متعددة من قبيلة الدليم، فاتخذت إجراءات بسيطة لمعالجة هذا الموقف بمضاعفة مسافة التقرب المحرمة لتفادي احتمال تكرار ذلك مع حرمان الصيادين لمدة أسبوعين من الصيد في البحيرة. وكتبت تفاصيل ذلك وبعثتها إلى ابـــن الرئيس، ثم عدت إلى مقري وأخبرت قائد الفيلق بذلك – الذي كان قد تـــضايق لعـــدم إعلامه بالموضوع – مع سخط رئيس أركان الحرس الفريق الركن ابـــراهيم عبد الستار، وأمين السر العام اللواء الركن نامق اللذين انتقداني بشدة من خلال اتصال هاتفي لعدم استخدامي القوة في الموضوع أعلاه. فقلت لهما بأن هذا هـــو قـــراري وأنا المسؤول عنه، فلاذا بالسكوت حينما أيّد قصي صدام حسين إجرائـــي هـــذا. مع الأسف الشديد عالج رئيس أركان الحرس الجمهوري موقف لاحـــق بـــنفس المنطقة بناءً على معلومات غير دقيقة ضد جماعات صيد الأسماك باســـتخدام القوة المفرطة تجاههم، فذهب ضحية ذلك عدد من القتلى والغرقى من الطـــرفين، بينهم رائد يدعى جاسم حين غرقت مدرعته في البحيرة. وتأزّم الموقف مع أهل المنطقة لمدة طويلة، ولو اتخذ هذا الموقف بروية مع تجنّب المنافع الشخصية لمـــا حصل ذلك. وقد بذلنا جهوداً كبيرة حتى تمّ استخراج المدرعات الأربع التي غرقت بمن فيها.

في نهايـــة العـــام 1998، وعلى أثر سحب زمر التفتيش العائدة للأمم المتحدة بـــضغط مـــن الـــولايات المـــتحدة الأميركـــية، نفّذت القوات الأميركية الجوية والصاروخية بالتعاون مع القوات الجوية البريطانية سلسلة من الضربات الصاروخية

والجـوية تحت اسم عمليات ثعلب الصحراء، ضد قوات الحرس الجمهوري وبعض الأهـداف الحـيوية الأخرى، فدمّر مقرنا في تكريت بما فيه غرفتي بأربع صواريخ جوالة نوع (كروز). وكانت أكثر الخسائر جسامة في فرقة بغداد العائدة إلى الفيلق الثاني حرس جمهوري في مدينة الكوت، فكان عدد الشهداء فيها 79 شهيداً.

في شـهر تـشرين الـثاني/نوفمبر من العام 1999 صدر المرسوم الجمهوري القاضـي بتعييني قائداً للفيلق الثاني حرس جمهوري الفتح المبين، وكان مقره آنذاك في مدينة المدائن (سلمان باك) جنوب بغداد بحوالى 52 كم. ورُقّيت إلى رتبة فريق ركـن، وكـان هذا الفيلق يتألّف من الفرق الآتية: المدينة المنورة المدرعة، والنداء المدرعـة، وبغـداد مـشاة، مع اللواء الثالث قوات خاصة مع الصنوف الساندة والخدمية وكتيبة استطلاع مدرعة. وكان قاطع المسؤولية يمتد من محافظة ديالى إلى محافظـة واسط، إلى محافظتي كربلاء والنجف الأشرف، ومحافظة بابل، علاوة على الجـزء الجـنوبي من بغداد العاصمة. وفي شهر كانون الأول/ديسمبر عام 2000 اسـتلمت أمراً مبهماً بانفتاح فيلقي باستثناء فرقة المدينة المنورة في قاطع غرب نهر الفرات (مدينة هيت شمالاً حتى مدينة كربلاء جنوباً). وحاولت كثيراً معرفة المهمة إلا أنـني لم أحصل على المفيد. ولغرض إعداد القوات من الناحية المعنوية والقتالية اسـتنتجت أن المهمـة هـي التهيؤ لدعم الفلسطينيين في انتفاضتهم الجديدة ضد الاحـتلال الإسرائيلي، عندما استفزّهم زعيم كتلة الليكود أريل شارون في زيارة غير مبررة لمسجد قبة الصخرة. وبعد شهر واحد صدر الأمر لي بإعادة القوات إلى قواطعها الأصلية، ومثل هكذا عمليات كبيرة لا يمكن أن تحدث في جيش آخر في العالم دون مهمة واضحة أو تبرير. إلا أنني لم أفصح عن هذا العمل المبهم للآخرين حفاظاً على الاعتبارات الأدبية. ولكنني استفدت من ذلك في فهم أكثر لتعاملي مع المقر الأعلى.

في العـام 2001 كـان هناك حدثان مهمان. الأول ذكرى زيارة الأربعين لضريح الحسين بن علي رضي الله عنهما، حيث توقّعت دوائر استخباراتنا أن إيران سـتستغلّ هـذه المناسبة لإحداث فتنة سياسية كبيرة لإثارة المسلمين الشيعة ضد الـنظام الـسياسي، فكلّفـت بفتح قوات مناسبة عند المقتربات المؤدية إلى مدينة

كـــربلاء. والحمد لله لم يحدث شيء يعرقل مراسم تلك الزيارة. أما الحدث الثاني فهو أحداث أيلول/سبتمبر الدامية في نيويورك الأميركية، وقد صرّحت للعديد من كـــبار ضباط الفيلق بخطورة احتمال استغلال هذا الحدث الخطير من قبل الإدارة الأميركـــية الجديدة بدفع من قبل الصهيونية السياسية للحرب على العراق، وكان ذلـــك خلال فعالية تدريبية يوم 12 أيلول/سبتمبر من ذلك العام، وقد تأكّد ذلك فيما بعد.

أما عام 2002، فكان عام تفادي الاصطدام مع مفتشي الأمم المتحدة خشية تقديم أية ذريعة للإدارة الأميركية لشنّ الحرب على العراق بعد تصنيفه كبداية لمحور الـــشر مع إيران وكوريا الشمالية، وفقاً لتوصيف الرئيس جورج بوش حيث زارتنا فرق التفتيش مرات عديدة. وحسب التعليمات كنت أتفادى مواجهتهم شخصياً، وكـــنا نخفي مواقف العمليات والخطط والخرائط المؤشرة لأننا على يقين أن فيهم عمـــلاء للمخابرات الأميركية والبريطانية. وفي هذه السنة، تحسّنت إمكانياتنا من تحديث وسد نواقص 75% من العجلات العسكرية، و20% من الأسلحة والمدفعية والـــدروع. وخصّـــصت مبالغ جيدة لسد نقصنا من التجهيزات الإدارية والفنية، وارتفعـــت نسبة الرواتب والمخصّصات لتحسّن واردات وزارة الدفاع من الآليات والتجهيـــزات بعـــدما تمّ سدّ نقص معظم الوزارات، وبدأ تحويل الفائض للجيش وللحرس الجمهوري وفق سياقات اتفاقية النفط مقابل الغذاء والدواء.

الفصل الثامن

الحرب الأميركية البريطانية على العراق عام 2003

الموقف السياسي العام للحرب

بعـــد أن وضعت الحرب السابقة (حرب الخليج الثانية) أوزارها في 1991/2/28 اتّـــضح سريعاً أن نتائجها السياسية غير مكتملة، لبقاء النظام والكيان السياسي العراقي مستمراً في الحياة بقوة، وقادراً على التواصل والعمل بمحيطه الإقليمي، وقـــد اكتـــسب قـــدرة معنوية عالية واحتراماً كبيراً لصموده أمام أكبر قدرة عـــسكرية عالمـــية بعد الحرب الكورية. وفي ظلّ الإحباط النفسي للأمة العربية بـــضياع الأمل في قدرتها على تحرير فلسطين من الاحتلال الإسرائيلي الصهيوني المدعـــوم بقوة من قبل القوى الغربية. ونجاح الخطاب السياسي العراقي في ربط موضـــوع الحرب بالقضية الفلسطينية، فأضحى العراق وقيادته السياسية المتمثلة بالرئيس (صدام حسين) يشكلان القوة العملية والموثوق بها في عموم الرأي العام العـــربي لاستمرارية الصراع العربي الصهيوني، ومحوره القضية الفلسطينية التي لا زالـــت دون حلّ مرضي... فانطلقت عاصفة العواطف العربية مؤيدة للعراق، وحاجـــبة الكثير من الحقائق الموضوعية للقدرة العراقية، مما دفع بالقيادة العراقية قـــدماً بالاتجـــاه الخاطـــئ، ولم يعـــد لها أي فسحة كافية للمناورة في قراراتها الاستراتيجية اللاحقة.

إن الحـــريق السياسي والأمني الذي نشب في أربع عشرة محافظة من مجموع الثماني عشرة محافظة التي يتكوّن منها العراق الإداري في اليوم التالي لوقف إطلاق

الـــنار أي في 1991/3/1 والـــذي اســتخدمت فيه القوة المفرطة من قبل الثائرين والقامعين على حدّ سواء اطفئ سريعاً، وخلال ستة أسابيع ابتداءً من جنوبي العراق (البــصرة) حـــتى شماله (المنطقة الكردية)... إن استعادة النظام العراقي لسيطرته وســطوته قــد خيّبت ظنّ الدوائر الأميركية والإسرائيلية والإيرانية على حدٍّ سواء حين توقّعت سقوط ذلك النظام كسقوط الثمرة الناضجة من غصنها... إن سوء التقدير والحسابات الخاطئة قد حمّلا الرئيس الأميركي جورج بوش الأب مسؤولية أخلاقــية وسياســية، لأنــه قد حرّض الشعب العراقي بخطاب سياسي موجّه عبر وسائل الإعلام للانتفاض على قيادته السياسية، ضامناً له كل المؤازرة التي عجز عن تحقــيقها حــين قمعــت تلك الانتفاضة بسهولة، وقد وظّف خصوم الرئيس من ديمقــراطيين وغيرهــم هــذا الموضوع سياسياً وإعلامياً ومنهم الكاتب الصحفي الأميركـــي الــصهيوني الــشهير جوناثان راندل بكتابه **مفترق أمة**. لهذا السبب ولأســباب أخــرى خسر الرئيس جورج بوش، والجمهوريون فرصة الفوز بولاية ثانية، وحلّ محله مرشح الحزب الديمقراطي بيل كلينتون.

كان الطرف الآخر صدام حسين قد وقع في فخ أوهام القوة التي بدت له بعد اســتعادة تــوازنه، فجلس على كرسي الحكم مطمئناً لقدرته. فجيشه من الناحية العدديـــة لم يخــسر سوى ربع مليون إصابة مختلفة. ولقد ظنّ أن بإمكانه تعويض خسائره من الطائرات والأسلحة الأخرى والدروع بإغراءات خزين البترول العراقي الذي لا ينضب قبل نهاية القرن الحادي والعشرون، ولأن شعبه يقف خلفه مسانداً له بالمحبة أو نتيجة للخوف، مع مؤازرة مئات الملايين من الأمة العربية والإسلامية، فلقد أصبح رمزاً عالمياً لمجابهة الإمبريالية الأميركية في أرجاء المعمورة... لقد اعتقد أن حسن الحظ لم يفارقه وقدره الإلهي لا زال عظيماً. لقد أكّد هذا الزعيم العربي أن النصر السياسي على أعدائه قد لا تحدّده نتائج المعارك العسكرية وإن خسرها؟ وبدا (كمسيح مسلح) ليخلّص الناس من شرور الشيطان الأميركي. وقد سوّغ هذا المفهــوم مـــن خـــلال سلسلة من الخطابات واللقاءات السياسية، وركّز الخطاب الــسياسي العراقـــي على هذا الموضع، بل شمل النواحي الموضوعية في الحسابات العــسكرية الاستراتيجية. وفي إحدى الندوات العلمية العسكرية بنهاية عام 1995،

علّــق الرئيس صدام حسين على بحث مشترك لعدد من القادة وكنت أحدهم "أنا مــستغرب جداً من هؤلاء القادة الأكفّاء الذي يبحثون في نتائج العدوان الثلاثيني عام 1991 في حين يردّدون ما يطرحه الإعلام المعادي من إحصائيات غير حقيقية، فلو كانت تلك الأرقام صحيحة أو كان لها قيمة في حسابات الصراع لما كنا جميعاً هــنا في هــذه القاعة الكبيرة... أنتم المنتصرون فركّزوا على الجوانب المشرقة من أعمالكم. وهذا توجيه إلى وزير الدفاع ولكل دوائر الوزارة والوزارات المعنية...".

لقد فعل هذا التوجيه فعله السلبي في طمس الحقائق الموضوعية التي تبنى عليها تقارير الموقف السياسي والعسكري، فعدّلت الدوائر المعنية وخاصة العسكرية منها إحــصائياتها، وبناءً عليه، سحبت القوة الجوية العراقية في اليوم التالي تقرير قدرتها القتالية الذي كان يشير بالأرقام بأن تلك القدرة ستكون صفراً في نهاية شتاء العام القــادم، واستبدل ذلك التقرير الذي قدّمه فريق بحث للقوة الجوية بتقرير يشير إلى أرقــام وهمية غير موضوعية على الرغم من أن سلاح الطيران هو أكثر الأسلحــة تأثّـــراً بالحصار الاقتصادي والتسليحي المفروض على العــراق منذ العام 1991. وكمــا ذكــرنا آنفاً، كانت الولايات المتحدة الأميركية وبريطانيا قد فرضتا على العراق خارج قرارات مجلس الأمن حظراً على الطيران في المنطقتين الشمالية (خط عــرض 36) والجنوبية (خط عرض 32 ثم مدّد الحظر إلى خط 33)، بل أصبحت المــنطقة الــشمالية خارج السلطة المركزية العراقية نتيجة الضغط الأميركي المباشر كتصحيح لخطأ سياسي أو استدراكاً له. وبأسلوب أشبه بالمؤامرة سحبت الحكومة العــراقية قواتها وموظفيها الإداريين من تلك المنطقة وتقاسم النفوذ فيها الفصيلان الكــرديان الحزب الديمقراطي الكردستاني بزعامة مسعود البرزاني، وحزب الاتحاد الوطني الكردستاني بزعامة العلماني جلال الطالباني. ويتّهم الحزب الأخير البرزانيين بالعــشائرية، والــرجعية الفكــرية والدينية، والعمالة المباشرة لإسرائيل مستشهداً بالعديــد مــن الوثائــق الإسرائيلية التي نشرت في حينها. أما البرزانيون فيتّهمون الجلاليين بالنفاق السياسي، وتبنّي الأفكار الماركسية الشيوعية، والعمالة لإيران.

لقــد سعى النظام العراقي للعمل في كافة الاتجاهات لاستعادة سيادته الكاملة الــتي فقد الكثير منها بفعل سلسلة من قرارات مجلس الأمن الدولي في عامي 1990

و1991، مع محاولة توظيف قدراته الاقتصادية لفتح نوافذ واسعة بجدار الحصار الاقتصادي الذي أحال المجتمع العراقي إلى أدنى مستوياته المعيشية منذ الحرب العالمية الثانية، وأفقر الحكومة العراقية إلى حدود الإفلاس. وعليه كان سعيه في المجالات الآتية:

- **المجال السياسي الدبلوماسي:** لقد عملت السياسة العراقية في كل الفضاءات الإقليمية والدولية لتلافي التأثيرات السلبية للخطأ الاستراتيجي لاحتلال الكويت. فحاولت التقليل من هذا الخطأ، بخلط الموضوع العراقي الكويتي بالموضوع الفلسطيني الإسرائيلي. كذلك سعت هذه السياسة إلى تفكيك أو تصديع التحالف الدولي الذي أقامته أميركا ضد العراق بالتركيز على الدور الروسي والفرنسي بشكل خاص، مع كسب المزيد من الأصدقاء وخاصة الأعضاء في مجلس الأمن الدولي بالإضافة إلى الدول العربية، مع إظهار العقوبات الاقتصادية كجرائم حرب ضد الإنسانية.
- **المجال الاقتصادي:** لقد سعى العراق لتقليص مساحة وعمق الحصار الاقتصادي بكل قوة لجعله بمرور الزمن حصاراً غير مُجدٍ بعروض مغرية بالنفط، سواء بالسياقات المشروعة والمباشرة أو بالتهريب. وأصبحت اتفاقية النفط مقابل الغذاء والدواء؛ وهي بالأصل مقترحات فرنسية قبلة الحياة للاقتصاد وللمجتمع العراقي الذي واجه أقسى مرحلة من مراحل الحصار عامي 1994 و1995، فخففت الكثير من معاناة العراقيين وخاصة الطبقات المتوسطة والفقيرة منهم.
- **المجال العسكري:** لقد بذلت جهود كبيرة وحثيثة في تقليص التأثير السلبي المباشر وغير المباشر للحصار التسليحي والعلمي الضار بالقوات المسلحة عموماً، وأسلحة الدفاع الجوي والطيران والصواريخ خصوصاً التي استمرت بالقتال طيلة المدة الطويلة ما بين الحربين. ولعبت دوائر التصنيع العسكري دوراً مهماً في توفير الحدود الدنيا من الاحتياجات لمعظم الأسلحة والصنوف، ولاقت هذه الدوائر أكبر قدر من التشجيع المعنوي والمادي، مع زيادة ضغوط القيادة عليها بمرور الزمن لتزايد الاحتياجات. لقد خصّص الرئيس صدام

حسين موارد كبيرة لهذه الدوائر خارج السياقات المالية للدولة. فأدّى ذلك فيما بعد وبشكل مطّرد إلى تفشي الفساد الإداري في دوائر التصنيع العسكري والجهات ذات العلاقة من القوات المسلحة، في ظلّ انخفاض حاد بالرواتب والمستويات المعيشية. إلا أن النتائج العملية ظلّت محدودة جداً في الوقت الذي كان فيه العقد الأخير من القرن العشرين عقد القفزات التقنية والتطويرية، وبالأخص المنظومات التسليحية التي استثمرت معظم تلك التقنيات، فجعلت فجوة التفوق المعادي أكثر اتساعاً.

- **المجال الثقافي**: سعى العراق لتعميم فلسفة خاطئة، من خلال تعظيم المعنويات على حساب الحقائق وخاصة في المجالين الثقافي والإعلامي. وبالرغم من صحة بعض الطروحات الموضوعية والمعقولة، إلا إن هذه الفلسفة حرمت المثقفين والمبدعين والفنانين من تناول موضوعاتهم بالواقعية المطلوبة، ودفعت بهم إلى مساحة واسعة من النفاق السياسي والاجتماعي، مما غلّف الواقع العراقي بكل معاناته بقشور ذهبية مزيفة، ورسّخ ازدواجية الشخصية في المثقف والسياسي العراقي، وحرمه وهو في طليعة مجتمعه من لعب دوره الأخلاقي، وتوسّعت باطنية مخيفة وكأنها سرطان في مراحله الحرجة.
- كانت مدّة الولاية الطويلة للرئيس الديمقراطي الأميركي بيل كلينتون رحمة من السماء للنظام العراقي للاستمرار بالحياة السياسية والعملية. بالوقت نفسه، لقد ضيّع هذا النظام الفرصة الذهبية للخروج بأنصاف حلول مفيدة لحالة مماثلة لحالة القيادة الفلسطينية التي ظنّت خطأً كما ظنّ النظام العراقي خطأً بأن التساهل والمشاطرة الأميركية هما دليل الضعف، وخوار الهمة في التصدي للمشروع العراقي أو الفلسطيني. وبدأت وسائل الإعلام العراقي والخطاب السياسي بوصف ذلك الرئيس بالمتذبذب الذي كان نعتاً صهيونياً لتقليل شأن الرئيس كلينتون لأنه لم يحقّق مطالب الصهيونية السياسية إلا بالحدود الدنيا... لقد كشف السياسي الأميركي الصهيوني هنري كيسنجر بكتابه **هل تحتاج أميركا إلى سياسة خارجية جديدة؟** أن الرئيس كلينتون قد قدّم مشروعاً للصلح المشرّف مع صدام حسين وقد لامه على ذلك كثيراً.

وهـــذا الكـــتاب عبارة عن تحليل ونصائح للرئيس الأميركي الجديد جورج بـــوش الابـــن، هذا الرئيس الذي جاء على رأس الإدارة الأميركية في مطلع العـــام 2000 بفـــارق ضئيل جداً من الأصوات، وبسابقة خطيرة في مفهوم الـــنظام الديمقراطي الدستوري الأميركي الذي وضع أسسه الآباء المؤسسون لأميركـــا (كجورج واشنطن، وتوماس جيفرستون وغيرهما). الجمهوريون علـــى عكـــس الديمقـــراطيين يهتمّون بالسياسة والمشكلات الخارجية على حـــساب السياسة والمشكلات الداخلية التي تهمّ المواطن الأميركي؛ كالنظام الضرائبي، ومعالجة البطالة، والضمان الاجتماعي وغيرها من المشاكل. وظلّ الوضـــع العـــام لهذا الرئيس الجديد قلقاً وخاضعاً للاختبارات لحين جاءت الأحـــداث المدويـــة للحادي عشر من أيلول/سبتمبر عام 2001 وكأنها هبة الـــسماء الهابطـــة من أجل الرئيس جورج بوش الابن، فانضمّ الجميع تحت جناحـــيه بـــل اصطفّ العالم المتحضّر خلف الولايات المتحدة الأميركية في مجابهة مخاطر الإرهاب الإسلامي، ومارست أميركا دكتاتورية عالمية وشمولية، حين أعلن الرئيس الأميركي مقولته الشهيرة: "من لم يكن معنا فهو ضدنا". فكانت قميص القيد الذهبي الذي لبسته معظم تلك الدول. فأعلنت الحرب علـــى الإرهاب، وتحدّدت أولويات أهداف تلك الحرب، فكانت أفغانستان بنظام طالبان الهدف الأول الذي أنجز في نهاية ذلك العام. وأصبح أسامة بن لادن رمزاً لذلك الهدف المتحقّق. وكان لتنظيم القاعدة العائد لذلك الرجل التهمة الجاهزة التي يسهل إلصاقها بأي جهة كتهمة انتهاك حقوق الإنسان بـــل أشد منها بكثير، وكان العراق بنظام الرئيس صدام حسين هو الهدف الـــثاني الذي تحدّد بكل سهولة، ولكن الاستخبارات الأميركية أخفقت في إثـــبات الـــدلائل على ارتباطه بذلك التنظيم الإرهابي. إلا أن حجة سعيه لامتلاك أسلحة دمار شامل قد جعلته بداية محور الشر الذي حدّدته أميركا ليشمل كلاً من إيران وكوريا الشمالية.

إن صدور قرارين عن مجلس الأمـــن في نهايـــة العـــام 2002 يحملان الرقمين 1248 و1441، أجـــبرا العراق على قبول عودة المفتشين الدوليين برئاسة الدكتور

هانــز بليكس، والدكتور محمد البرادعي للبحث عن أسلحة الدمار الشامل بدعوة أميركــية أن العــراق استأنف نشاطه في هذا المجال بعد سحب المفتشين إثر عملية ثعلــب الصحراء ضد العراق نهاية عام (1998). لكن نتائج شهرين من التفتيش لم تعطِ أميركا الذرائع الكافية لشنّ الحرب على العراق، إلا أن موقف أوروبا وخاصة موقــف كل من ألمانيا وفرنسا وتوافق الموقف الروسي معهما وبدرجة أقل حماسة الموقف الصيني قيّد يد أميركا في سعيها للحرب على العراق. وفي الوقت ذاته أصبح الموقف الأوروبي بشكل عام خارج السيطرة الأميركية، فلقد كان الموقف الفرنسي يــزداد قــوة وخاصة عندما هدّد وزير الخارجية الفرنسي باستخدام حق النقض (الفيــتو) إذا تمكّنت أميركا من الحصول على تسعة أصوات من أصل خمسة عشر صوتاً في مجلس الأمن لإقرار الحرب على العراق، وهذا ما فشلت به أيضاً. بشكل عام، تحتاج الحرب إلى مقومات أساسية ينبغي تأمينها وهي:

- بيئة سياسية ملائمة لشنّ الحرب تؤمّن احتمالية بناء تحالف دولي سياسي ينتج عنه تحالف عسكري لتحقيق الهدف السياسي للحرب.
- توفّر شرعية للحرب من خلال توافق القانون الدولي مع الغرض السياسي من تلك الحرب.
- توفّر القدرة العسكرية الكافية لتحقيق الانتصار في الحرب بأقل كلفة.

لقد كان خصوم أميركا عنيدين، وفي بعض الأحيان غير مؤدبين. وقد وصف فــاروق الشرع وزير خارجية سوريا الحرب على العراق بدون تفويض من الأمم المــتحدة بالــسطو المسلح. وبالنظر لضعف وهشاشة القوانين الجرمية المقامة ضد العراق من قبل أميركا التي لم تحصل من المنظمة الدولية على أي تفويض بالحرب. أدارت أميركا ظهرها لمجلس الأمن الدولي، وبالتعاون مع بريطانيا وإسبانيا وبلغاريا. وكـــان لرئيس وزراء بريطانيا توني بلير، والإسباني خوسيه أثنار دور مهم وكأنهما أعــضاء ضمن فريق الإدارة الأميركي المحيط بالرئيس الأميركي. فأنذرت كل من أميركـــا وبريطانيا الرئيس العراقي ونجليه بمغادرة العراق خلال 48 ساعة فقط مع التــصريح الإعلامـــي لعدد من المسؤولين الأميركيين بأن الحرب قائمة سواء غادر صدام حسين العراق أم لم يغادر.

رفض العراق هذا الإنذار غير القانوني، وأعلن استعداده للدفاع عن نفسه، وهكذا فشلت المساعي السياسية الدولية كافة في تجنّب الحرب.

أما على الصعيد الإقليمي السياسي، فكان هناك دور محدود جداً لمنظمة المؤتمر الإسلامي وللجامعة العربية في محاولات تجنّب الحرب. بالرغم من الضغوط المباشرة وغير المباشرة التي مارستها أميركا وبريطانيا على الدول العربية لإقناعها بالمشاركة في الحرب على العراق، ولكنّها رفضت جميعها. إلا أن الكويت بلا شك كانت المسرح الرئيسي للحشد الكبير للقوات الأميركية والبريطانية، وكذلك كانت بعض القواعد الجوية في قطر كقاعدتي السيلية والعديد من أكبر قواعد التحشد للطائرات المختلفة الأنواع، ومركزاً للقيادة المركزية، علاوة على جميع مياه الخليج العربي والبحر الأحمر وبحر العرب وهي فضاءات مفتوحة لعمل الأساطيل البحرية الأميركية. حاولت كل من السعودية والإمارات إقناع العراق بمبادرة الشيخ زايد آل نهيان بتنازل الرئيس العراقي عن الحكم كآخر فرصة لتجنّب العراق الحرب. ولكنها رفضت بقوة، ولعب نائب الرئيس عزة الدوري دوراً سلبياً في مؤتمر القمة الذي عرضت فيه المبادرة أعلاه كما أنه لعب ذات الدور في المؤتمر الإسلامي. قبل أسبوعين من الحرب ألحّ مدير جهاز المخابرات العراقي طاهر جليل الحبوش على لقاء الرئيس لأمر خاص ومهم جداً. فالتقى به في قصره القريب من المطار الدولي، وكان جالساً على حافة بحيرة القصر الصغيرة يصطاد السمك، فأخبره برسالة شفوية من الرئيس الفرنسي جاك شيراك وصلت إليه من السفارة الفرنسية مفادها: "كن على يقين أيها الرئيس أن الأميركيين سيهاجمون وهدفهم الأول أنت فاحذر". ودون اكتراث، استمع الرئيس صدام لمضمون الرسالة فأومأ برأسه قائلاً لمدير المخابرات الذي لم يأذن له بالجلوس: "ألهذا جئت؟ اذهب". وعلى المستوى الداخلي للعراق كرّس الرئيس العراقي في الشهر الأخير قبل الحرب جهوده في إقناع الرأي العام العراقي بقبول المنازلة المفروضة عليه من أجل الشرف الوطني، فالأمم تذهب إلى الحرب وكما قال المؤرخ الإغريقي (ثيوسيديدس): "لسبب من ثلاثة أسباب هي: الخوف، المصلحة، الشرف".

وقــد التقــى الــرئيس صدام حسين بمستويات مختلفة من القادة، والآمرين، وهيــئات الــركن، وحتى مستوى آمري الأفواج، وقد خصّص التلفزيون العراقي أوقاتــاً طويلة لعرض هذه اللقاءات كاملة كجزء من الاستعداد النفسي للحرب، وكجزء من مظاهر الردع للخصوم.

الموقف العسكري العراقي العام للحرب

كــان مــن نتائج حرب عام 1991 والتي استمرت 43 يوماً أن فقدت قواتنا العــسكرية الكثير من مقوماها وعناصرها في مسرحي العمليات العراقي والكويتي ناهــيك عــن ذلك الدمار الذي أحدثه القصف الجوي الاستراتيجي للحلفاء للبنى التحتية بالاقتصاد العراقي، ومنه الجهد الحربي الاستراتيجي. وكمحصلة عامة لتلك النــتائج اخــتفاء القدرة البحرية العراقية المدنية والعسكرية مادياً كسفن وأسلحة ومعــدات ومنــشآت، ولم يتبقَ منها سوى قوّة برية لحماية الساحل النهري لشط العرب، وبعض الزوارق الخفيفة، وأجزاء من موانئ، ومنشآت جرت عملية إعادة بناء لقسم منها.

أمــا القدرة الجوية العراقية المدنية والعسكرية، فقد أشرنا آنفاً أن تقريراً سرّياً قــد سحب ومزق لاحتوائه على حقائق موضوعية تحدّد نهاية القوة الجوية العراقية كقــدرة فاعلة في نهاية شتاء العام 1996، نتيجة لعامل التدمير المباشر وغير المباشر في الحــرب، وتقادم الزمن، وانتهاء أعمار الطائرات ومنظوماتها الفنية والتسليحية، مع خسارة (135) طائرة مختلفة عندما رفضت إيران إعادتها للعراق، وكانت تلك الطائــرات قــد أرسلت إليها باتفاق شرف بين القيادتين العراقية والإيرانية خلال زيــارة نائــب الرئيس العراقي عزة ابراهيم لإيران لتجنيبها التدمير المحتمل في تلك الحرب، حيث اعتبرتها إيران جزءاً من تعويضات الحرب العراقية الإيرانية (1980-1988). وكان تدني مستويات تدريب الطيارين لأسباب فنية ومادية واقتصادية من أخطــر أســباب اضمحلال هذا السلاح المهم، مع حرمان الطيران خارج المنطقة المركزية. أما سلاح الدفاع الجوي العراقي فهو السلاح الوحيد الذي ظلّ مستمراً في الحــرب مــنذ عــام 1991 وحتى الحرب الأخيرة عام 2003، نتيجة لاستمرار

الـضربات الجوية الأميركية والبريطانية طيلة الثلاث عشرة سنة الماضية في منطقتي الحظر الجوي المذكورتين آنفاً، والتي كانت تستهدف أولاً هذا السلاح وتجهيزاته ومنظوماته، كالرادارات ومحطات الاتصال والإنذار المبكر وغيرها. ناهيك عن الهجمات التي شملت العراق برمته في الأعوام 1992 و1993 و1996 و1998 حيث استخدم الأميركيون قواهم الصاروخية الجوّالة، مع القوة الجوية الأميركية والبريطانية المشتركة. وبالرغم من كل الجهود الكبيرة التي بذلتها القيادة العراقية من أموال وجهود تصنيعية ذاتية إلا أن الفجوة العلمية والعملية ما بين هذا السلاح وخصمه الطيران المعادي ظلّت في اتساع مستمر.

أما القوات البرية العراقية وهي أهم وأكبر أسلحة القوات العراقية فقد تقلّصت إمكانياتها وقدراتها كثيراً من الناحيتين الكمية والنوعية، لما أصابها من تدمير مادي ومعنوي في الحرب السابقة، وما أضافته نتائج الحصار الاقتصادي والحظر التسليحي من تخلّف في مستويات إعداد القدرة العسكرية لمواجهة حرب أحدث بعد ثلاثة عشر عاماً. وقد لعبت عوامل أخرى منها تدني المستويات المعيشية دوراً في انهيار كبير بأخلاقيات الجندية وشرف المهنة وانصراف الكثيرين للبحث عن وسائل عيش أخرى إلى جانب مهنة الجندية لتأمين الحدّ الأدنى من مستويات المعيشة السابقة لمعظم الضباط ومراتب المتطوعين، إضافة إلى تفشّي الكثير من ظواهر الفساد الإداري في أعماق مختلفة من المؤسسة العسكرية العراقية. وعلى الرغم من كل المحاولات التي بذلت في عمليات إعادة الإعمار والتصليح والتصنيع الذاتي للأسلحة والمعدات والتجهيزات العسكرية المعطوبة أو المتخلفة تقنياً، إلا أن الملاكات البشرية وقياسات التسليح والتجهيز قد خضعتا لتقليص كبير خفّض كثيراً من قدرة التشكيلات والوحدات المقاتلة والساندة والخدمية بالرغم من بقاء ملاكات وزارة الدفاع ورئاسة أركان الجيش بأحجام مساوية لما كانت عليه عام 1991.

أعيد تشكيل الجيش العراقي بعد الحرب السابقة عام 1991 بخمسة فيالق بثماني عشرة فرقة، منها ثلاث مدرعة وثلاث أخرى آلية (ميكانيكية) والباقي فرق مشاة، مع إلغاء سلاح القوات الخاصة، وانتظم الصنف المدرع (سلاح الدروع) بوحدات دبابات يتراوح عدد دباباتها وهي من الأنواع القديمة (تي 55 تي 62) ما

بين 15 و20 دبابة للكتيبة الواحدة بدلاً من 44 دبابة في الملاك الأصلي، وكذلك الحال في الأفواج الآلية (الميكانيكية). أما نسبة الأشخاص إلى الملاكات المعدلة فكانت تتراوح ما بين 60% إلى 70%. أما قوات الحرس الجمهوري، فأعيد تنظيمها بمستوى جيش يتألّف من فيلقين. كل فيلق حرس جمهوري يتكوّن من ثلاث فرق، إضافة إلى لواء قوات خاصة، بالإضافة إلى التشكيلات الساندة والخدمية كالمدفعية، والدفاع الجوي، والهندسة العسكرية، والوقاية الكيماوية، ووحدات النقل والتصليح والمخابرة والطبابة وغيرها. إلا أن نسبة تكامل الأشخاص إلى الملاكات المعدلة ضباط ومراتب كانت بمعدل 90% وفي بعض التشكيلات 100%، أما قياس الدروع في كتائب الدبابات فكانت من 30-31 دبابة نوع تي 72 أم من أصل 44 دبابة للكتيبة الواحدة، أما الأفواج الآلية فكانت تتراوح ما بين 32 و35 عجلة قتال نوع (بي أم بي 1 أو 2) من أصل 48 عجلة.

القدرات العسكرية الإضافية للقوات المسلحة العراقية

لقد عمل النظام السياسي العراقي وبتخطيط مباشر من قبل الرئيس صدام حسين على تعويض النقص العددي والنوعي للقوات المسلحة الفاعلة، بإيجاد وتوسيع قاعدة شعبية عسكرية للإيفاء بالاحتياجات الدفاعية عن الوطن ونظامه فكان توسعاً أفقياً (عددي) على حساب التوسع العمودي (نوعي). إنّ القدرات العسكرية الإضافية هي:

- **قوات الحدود**: وبالرغم من قدم هذه القوات إلا أنه أعيد بناؤها لمراقبة الحدود الدولية مع دول الجوار الست، وتأرجح موضوع ارتباطها ما بين وزارة الداخلية ووزارة الدفاع. وهذه القوات مسلحة بأسلحة خفيفة ومتوسطة لتأمين المخافر والمراصد الحدودية للأغراض الأمنية والاقتصادية والعسكرية.
- **جيش القدس**: أُنشئ هذا الجيش في الأساس لدعم الانتفاضة الفلسطينية الأخيرة عام 2000 معنوياً وسياسياً. ويتألّف من 21 فرقة، تقلّصت إلى 17 فرقة قبيل الحرب الأخيرة. وتنتظم هذه الفرق من خلال رئاسة أركان جيش القدس وعلى رأسها الفريق أول أياد أفتيح الراوي، ويعاونه عدد من القادة

القدماء. تكوّنت معظم المقرّات من ضباط دائمي الخدمة، ومن فائض الجيش والحرس الجمهوري. أما الجنود فهم من المتطوعين الوقتيين. ولما طال الأمد في بقاء هذا الجيش دون أن يحقّق غاية وجوده أُجبر المواطنون من خلال المنظمات الحزبية في كل المحافظات والأقضية والنواحي على الخدمة في هذا الجيش لمدة شهرين أو أكثر وبالتتابع، واحتوى هذا الجيش على العنصر النسائي ولو بنسبة ضئيلة وفقط للمتطوعات... لقد صرفت مبالغ كبيرة لإعداد هذا الجيش بلغت أكثر من 60 مليار دينار عراقي عدا الأسلحة، والغريب في نظام قيادة هذا الجيش أنه لكل فرقة قائدان أحدهما من الحزب والآخر من ضباط الركن العاملين في الجيش النظامي أو الحرس الجمهوري، على أن يكون الأول هو القائد الأصيل والآخر رديفاً له. لقد أحدث ذلك ارتباكاً كبيراً، وكانت رتب الضباط الأحداث في بداية الأمر تمنح فخرياً لعدد من الشباب المدنيين ذوي الدرجات الحزبية المختلفة، ثم ألغي العمل بهذا المبدأ لما سبّبه من سلبيات كثيرة، فاستعيض عنه بدورات خاصة للشباب في الكلية العسكرية الثانية ولمدة تسعة أشهر.

- **فدائيو صدام**: هو تنظيم شبه عسكري يعتمد على المتطوعين وبقيادة ضباط من ذوي الخدمة الدائمة، من فائض الجيش والحرس الجمهوري... أساس فكرة هذا التنظيم رسالة من الفريق الركن المتقاعد هشام صباح الفخري من القادة الكبار في حربنا مع إيران معنونة إلى عدي صدام حسين نجل الرئيس يشرح له فيها مقترحه لإنشاء جهاز عسكري خاص لتأمين حماية انتحارية لرئيس الدولة ذي طاعة عمياء على تنفيذ أصعب المهام وبدون تردّد. ويكلّف هذا التنظيم بالمهام بشكل مباشر من قبل الرئيس صدام حسين... من غريب الصدف أن كلّفت أنا وأحد الزملاء في دراسة مضمون هذه الفكرة بطلب من النجل الثاني للرئيس قصي. وكان خلاصة ما خرجنا به نبذ هذه الفكرة تجنّباً لمشاكل التداخل ما بين مسؤوليات الأجهزة الأمنية العديدة الأخرى وهي كثيرة. ولأن خصوصيّة هذا التنظيم الذي تدعو الفكرة لإنشائه لها احتمالات سلبية كثيرة تعطي نتائج عكسية...

بعد عامين من ذلك التاريخ أي عام 1995، أصبح هذا التنظيم معمولاً به تحت قيادة عدي صدام حسين، وعلى شكل آمريات ووحدات في عموم العراق نمت تدريجياً من بغداد إلى المحافظات الأخرى، ومن خلال مقر أعلى يدعى رئاسة أركان فدائيو صدام مع أمانة سر خاصة بها. وقد عيّن الفريق الركن قيس الأعظمي رئيساً لأركان هذا التنظيم، وشغل المناصب القيادية ضباط دائمو الخدمة من فائض الحرس الجمهوري والجيش. أما العناصر المقاتلة فمن المتطوعين ومن مشارب مختلفة، ففيهم بعثيون ومستقلون، وفيهم نسبة من ذوي السمعة السيئة يصعب تحديدها بدقة، وتميزت قيافتهم باللون الأسود (تشبهاً بذوي القمصان السوداء من النازيين)؛ لقد خضع أفراد هذا التنظيم لتدريبات قاسية، ولكن لمدة محدودة، وكان منهم صفوة قادرة على تنفيذ عمليات عنيفة أو إرهابية. وظلّت مهام هذا التنظيم شبه العسكري غامضة ومتداخلة مع مهام الأجهزة الأمنية الأخرى، من مطاردة المهرّبين داخل المدن وعلى الحدود الدولية، وإلقاء القبض على بعض المعارضين السياسيين، ومتابعة الهاربين من الخدمة العسكرية، إلى القضاء على شبكات الدعارة وإعدام بعض عناصرها بأسلوب إرهابي مقزّز كقطع الرؤوس بالسيوف وتعليقها على الجدران، وكذلك كان حال بعض الذين يصدر الحكم بإعدامهم بإشراف عدي لأسباب سياسية كالذين شاركوا في محاولة اغتياله وغير ذلك.

- **جيش الشعب**: وهو جيش الحزب أو التنظيمات الحزبية المسلحة بأسلحة خفيفة، ومعظمه من كبار السن، وأشخاص من خارج الخدمة العسكرية. وأكبر تنظيم عسكري فيه بمستوى فوج مشاة خفيف. ومهام هذا الجيش حماية المرافق الحيوية في داخل المدن والقصبات. وآمرو تلك التنظيمات المسلحة هم المسؤولون الحزبيون، ولا يعوّل كثيراً على هذه التنظيمات. وهناك فترة محدودة في السنة لإجراء التدريب، ويبدأ موسم التدريب بأعضاء القيادة السياسية (بصورة مهينة لتلك المستويات الرفيعة، حين يظهرون على وسائل الإعلام المرئية في أرهاط تدريب يحملون البنادق على أكتافهم أو يهرولون كجنود احتياط من كبار السن) ومنه تشكّل أفواج طوارئ تعمل بإمرة أعضاء القيادة القطرية في بعض المحافظات.

تــؤمّن القوات المسلحة الأميركية بشكل عام الدفاع عن البلاد الأميركية مع حمايــة المصالح القومية في أرجاء العالم، وعليه تمتلك عشر قيادات رئيسية، ومنها القــيادة المركــزية المــسؤولة عن إدارة العمليات الحربية الكبيرة خارج الولايات المتحدة، وخاصة في الشرق الأوسط وجنوبي شرقي آسيا، حيث كانت هذه القيادة مــسؤولة عــن إدارة حرب عام 1991 ضد العراق، وكان قائدها آنذاك الجنرال نــورمان شوارسكوف. وكانت مسؤولة عن إدارة حرب أفغانستان في نهاية عام 2001 وكــان قائدها آنذاك الجنرال تومي فرانكس وهي نفس القيادة وقائدها التي أدارت الحرب على العراق عام 2003.

أعــدّت القوات المسلحة الأميركية كأعظم قدرات عسكرية لأعظم دولة في العالم لإحكام السيطرة على جميع المنازعات التي تهدّد المصالح القومية لأميركا سواءً بالــتلويح باستخدامها أو باستخدامها بشكل مباشر أو غير مباشر. وهذه القدرات متــنوعة وعلــى مــستويات مختلفة، منها القدرات الفضائية (منظومات الأقمار الــصناعية مشروع حرب النجوم)، والقدرة الجوية التي تتألّف من أساطيل جوية للــنقل (الاستراتيجي والتعبوي) والاستطلاع والاستخبارات والارتباط والقصف الاســتراتيجي والتعبوي (التكتيكي)، والقدرة البحرية المؤلّفة من القدرات البحرية التجارية والأساطيل الحربية السبعة، ومنها ما يحتوي على سفن حاملات الطائرات المــزوّدة بمحركات نووية، أما القدرة البرية عدا قوات الحرس الوطني فهي صغيرة نسبياً حيث تتكوّن من عشر فرق قتالية فقط (اثنتان منها محمولتان جواً وأربع منها فرق مدرعة، واثنتان آليتان أي ميكانيكيتان واثنتان مشاة). أما قوات مشاة البحرية (المارينــــز) فهــي قوات نخبة شبه مستقلة محمولة بالسفن البحرية ذات تجهيزات وتــسليح قتالي عالي المستوى وبنظام معركة يفوق مستوى الفيلق متكامل الاسناد الناري والاداري ومع كل من القدرات الجوية والبحرية قدرة صاروخية استراتيجية (كــروز/بيرشنغ 2) وتكتيكية تعمل ضمن تنظيماتها. ويعتبر الفيلق المحمول جواً، وقوات مشاة البحرية المارينــز بمستوى قوات الانتشار (الانفتاح) السريعة في إدارة الأزمات التي تهدّد الأمن والمصالح الأميركية.

أما القوات البريطانية فذات خبرة كبيرة تعود إلى 500 عام في التاريخ، إلا أن هذه القوات قد تقلّصت كثيراً منذ العام 1970 نظراً للتقلّص الكبير في دائرة المصالح القومــية في أنحـــاء العالم، وانحسرت القوات البريطانية في مكانيين رئيسيين هما في بريطانيا وضمن الحلف الأطلسي؛ وخاصة في منطقة (الراين) الألمانية. كما ضعفت إمكانـــياها لـــصالح الـــصنوف الفنية، وبدأ إهمال واضح لهذه القوات البرية حتى أصـــبحت كلـــية سانت هيرست العسكرية العريقة تعيش على الملتحقين إليها من الطلاب العسكريين الأجانب، وبدا عليها الاضمحلال بعكس كلية ويست بوينت العـــسكرية الأميركية، وتراجعت قواها البحرية إلى المستوى الرابع بينما كانت في بداية القرن الماضي تشكّل المستوى الأول في العالم البحري. وخلال مشاركتها في الحـــرب ضـــد العراق في العام 1991، كشفت قواها الجوية عن مشكلات تقنية عديدة تمّ تجاوزها من خلال التعاون المباشر والسريع مع القوات الجوية والقدرات الأميركـــية. أمـــا القدرة البرية، فأمست محدودة لا تتعدّى فيلقين أحدهما مدرع، وعلـــيه لم نتمكّن من حشد سوى قوة تزيد عن فرقة قتالية في الحرب الأخيرة على العراق وقياس دروعها من النوع الثقيل مثل الدبابتين (فيكرس - تشالنجر) مشابه تقريباً لقياسات الدبابة الأميركية نوع أبرامز. وتمتاز قواها الجوية التكتيكية بالطائرة المقاتلـــة التورنيدو، وطائرة الإقلاع العمود الهارير، ويعمل نوع منها مع حاملات الطائرات الصغيرة كجزء من الأسطول البحري.

تمكّنت كل من أميركا وبريطانيا بعد الفشل في بناء التحالف ضد العراق من حشد قوات تعدادها أقل من 300 ألف مقاتل، وعنصر بشري، يشكّل البريطانيون فيها نسبة 6/1 مع أكثر من ألف دبابة وعجلة قتال مدرعة، وأكثر من ثلاثة آلاف آلـــية عسكرية مختلفة كقدمات قتال، مع ما يقرب من 1200 طائرة قتال وإسناد، وعشرات السفن الحربية، ومئات من سفن الإسناد والنقل. وكانت آخر معضلة في عملـــية الحشد الكبير لتلك القوات إعادة نقل وانفتاح الفرقة الرابعة الأميركية من الأراضي التركية إلى الأراضي الكويتية في غضون الساعات 72 الأخيرة قبل الحرب حـــين رفض البرلمان التركي السماح للقوات الأميركية استخدام الأراضي التركية للهجوم على العراق.

التخطيط والخيارات الاستراتيجية الأميركية للحرب

إن معظم معلوماتي عن مسار التخطيط العام والخيارات الاستراتيجية الأميركية للحرب على العراق اعتمدت في الأساس على المعلومات المستقاة من وسائل الإعلام العالمية وبمساعدة الإنترنت، إضافة إلى متابعتي الشخصية لتطور الفكر العسكري الغربي الأميركي، ودراسة الاستراتيجية الأميركية، وكافة المقالات والدراسات ذات العلاقة المتوفرة لدينا في العراق.

كان العراق قبل العام 1990 من الأهداف الثانوية على لائحة الأهداف الاستراتيجية الأميركية، إلا أنه بعد غزو العراق للكويت، وخاصة بعد أحداث 11 أيلول/سبتمبر 2001، ومن خلال إعادة ترتيب الأولويات للاستراتيجية الأميركية كان العراق على رأس تلك القائمة من الأهداف، بل أصبح هدفاً شفافاً جداً نظراً لحجم المعلومات المحصّلة عنه، وبالوسائط المختلفة، وخاصة من خلال العنصر البشري الذي كان مهملاً في الحرب السابقة عام 1991.

كان للتطور السريع للأحداث بعد الحادي عشر من أيلول/سبتمبر لعام 2001 أثره في تسريع عمليات التخطيط، ووفق الاحتمالات السياسية للحرب على الإرهاب لاستعادة هيبة الولايات المتحدة المنهارة معنوياً، واستغلالاً للتعاطف العالمي معها على أثر تلك الأحداث الدامية التي لعبت دوراً في تسريع تحقيق الأهداف السياسية القصوى للسياسة الخارجية الأميركية، فكان قرار الحرب على العراق قد اتخذ خلال 72 ساعة التالية لتلك الأحداث، فسيناريوهات (الخيارات الاستراتيجية) الحرب على العراق كانت جاهزة، إلا أن القرار على أي الخيارات (المسالك) سيُعتَمَد ستحدّده كفاءة وظروف السياسة الخارجية، ومقدرتها على تأمين بيئة سياسية ملائمة لشنّ الحرب... لقد كانت هناك خمس خطط جاهزة (معلبة) ومفحوصة للحرب على العراق.

إذاً كان الهدف الاستراتيجي الخطير للحرب، والأهداف الاستراتيجية الرئيسية والثانوية مرسومة بدقة. إلا أن موضوع تقدير حجم القوات لتحقيق تلك المهام ظل مشكلة غير محسومة تنتظر نتائج الحرب الدبلوماسية، والتي ينتج عنها حجم التحالف العسكري، لأن حجم الخطط الخمس المعلبة اعتمد على احتمالية

أكيدة لإنشاء التحالف العسكري لتأمين القوات الكافية ولكل اختيار استراتيجي. إذاً، كانت الكرة في ملعب وزارة الخارجية ووزيرها الجنرال كولن باول المعروف كجنــرال أكثر من كونه سياسياً. إلا أنه لم يحسن اللعب بتلك الكرة، ولم تتطوّر الحــرب الــسياسية الدبلوماســية لصالح أميركا، فآلت النتائج دون تشكيل ذلك الــتحالف، واقتــصرت علــى القدرات العسكرية البريطانية علاوة على القوات الأميركية. في حين ظلّ موضوع استبعاد القدرة الإسرائيلية محسوماً لعواقبه الوخيمة علــى المستوى الإقليمي. وظهر رأي لسياسيي وزارة الدفاع وعلى رأسهم الوزير رامــسفيلد، بــأن العــراق قد بلغ حالة من الوهن بحيث لا يحتاج إلى الحسابات القياسية لرئاسة الأركان المشتركة لاحتلاله.

وفق ذلك تحدّدت الاستراتيجية العسكرية الأميركية للحرب على العراق كما يلي:

- إســقاط الــنظام الــسياسي العراقــي بزعامة صدام حسين كهدف سياسي استراتيجي للحرب.
- إن مدة الحرب يجب أن تكون قصيرة لا تتعدّى 6-8 أسابيع.
- اســتخدام أقــصى قدرة نارية ممكنة لتحطيم القدرة المعنوية والمادية للقوات العراقية.
- إجراء تداخل مباشر ما بين عمليات القصف الجوي والعمليات البرية.
- إعطــاء دور مهــم للقوات الخاصة (الدلتا - سيليز - أس أي أس البريطانية) لتنفيذ الواجبات الخاصة لأغراض عسكرية وسياسية.
- استثمار كبير للقوات المحمولة جواً وقوات المارينــز ضمن صفحات القتال مع القطعات المدرعة ومساعدات العمل عبر الموانع الطبيعية والصناعية.
- تفعــيل دور الجبهة الداخلية المساندة لتسهيل مهام القوات المهاجمة من خلال المتعاونين (الطابور الخامس) وبالتنسيق مع المعارضة العراقية.
- المحافظة على آبار النفط العراقية سالمة قدر الإمكان.
- الحــيلولة دون تمكّــن القوات العراقية من استخدام أسلحة الدمار الشامل، أو استخدام صواريخ أرض - أرض بعيدة المدى، إن وجدت.

- تجنّب وقوع خسائر كبيرة في الأرواح لأدنى حدٍّ ممكن.

كانـــت الخـــيارات الاستراتيجية العسكرية الأميركية عديدة، ووفقاً لمساعدة العوامل السياسية، وتلخّصت بما يلي:

- **الخيار الاستراتيجي الأول**: حشد القوات الرئيسية المخصصة للعمليات البرية في مـــسرح العمليات التركي وضمن المنطقة المسيطر عليها في شمالي العراق، والاعـــتماد علـــى أقصى تعاون من أكراد العراق للمرحلة الأولى من الحرب (احـــتلال المحافظـــات العراقية الشمالية)، مع الإسراع في احتلال مرتكزات المناورة بالعمق كاحتلال قاعدة صدام الجوية في منطقة القيارة، والسيطرة على القصر الرئاسي في جبل مكحول شمال بغداد 200 كم، مع السيطرة على جميع المطـــارات بالمنطقة بسلسلة من الإنـــزالات التعبوية للقوات المحمولة جواً، ثم الانتقال إلى المرحلة الثانية بالاندفاع بجهدين - رئيسي غرب نهر دجلة، وجهد ثانوي شرق نهر دجلة باتجاه الجنوب - لاحتلال العاصمة بغداد بعد السيطرة على سامراء والثرثار، وعزل منطقة جنوب بغداد. يرافق ذلك هجوم القوات الحلـــيفة والمارينـــز الأميركية المنطلق من الكويت لاحتلال آبار نفط الرميلة جنوبي العراق، مع تثبيت وعزل القوات العراقية المدافعة هناك.
- **الخـــيار الاســـتراتيجي الـــثاني**: حشد القوات الرئيسية في مسرح العمليات الكـــويتي، والانـــدفاع كمرحلة أولى من الاحتلال، أو عزل مدينتي البصرة والناصرية مع احتلال آبار النفط الجنوبية (الرميلة) سالمة، ثم الاندفاع الرئيسي للقـــوات الأميركـــية علـــى محور الفرات وبثلاثة أرتال تعبر نهر الفرات لتطويق العاصـــمة بغـــداد مـــن جنوبها الغربي وجنوبها الشرقي، مع سلسلة من عمليات الإنـــزال التعبوية للقوات المحمولة جواً في المفاصل العملياتية، وتعتبر منطقة المطار الـــدولي والقـــصور الرئيـــسية الأهداف الجوهرية الواجب تحقيقها، يرافق ذلك عملـــيات مخادعة، وتثبيت القطعات شمالي العاصمة مع قيام القوات المحمولة جواً وبالتعاون مع الأكراد بالإنـــزال لاحتلال مدينة كركوك النفطية والموصل.
- **الخيار الاستراتيجي الثالث**: حشد القوات الرئيسية في مسرح العمليات الأردني، والانـــدفاع بجهدين لعزل وتطويق العاصمة بغداد، والتعويل على القوات الخاصة

والقوات المحمولة جواً لاحتلال الأهداف الرئيسية وإلقاء القبض على الشخصيات السياسية الرئيسية بالاستفادة من المتعاونين بالداخل، مع ضرورة السيطرة على المنطقتين النفطيتين المهمتين الرميلة وكركوك باستخدام القوات البريطانية والأكراد، مع إشراك قوات غير نظامية، أي عشائر أردنية وعراقية.

خيارات استراتيجية أخرى

هذه الخيارات ناتجة عن دمج أكثر من خيار من الخيارات الثلاثة أعلاه.

التخطيط والخيارات الاستراتيجية العراقية للحرب

بعد انتهاء الحرب السابقة عام 1991، أدرك العراق أن الحرب السياسية والاقتصادية مستمرة، مما يتطلّب بذل الجهود في المجالين السياسي والاقتصادي، لشقّ وإضعاف التحالف السياسي، وفتح ثغرات كبيرة في جدار الحصار الاقتصادي، وفي حال الفشل في تحقيق ذلك، فإن الحرب العسكرية ستكون حتمية وحاسمة. لذا أعدّ العراق الكثير من الخطط وفق تحليل التهديدات المعادية ودرجة خطورتها سواء الإقليمية أو الدولية، مع حساب انفلات الجانب الأمني في الداخل، وضرورة تقليص الفجوة التقنية المتسعة باطراد وخاصة في مجال الدفاع الجوي لصالح العدو. بعد انتهاء الحرب الأميركية على أفغانستان، أدركت السياسة العراقية العليا أن طبيعة المعركة القادمة مع الأميركيين ستكون مشابهة لتلك الحرب، بعدما أفصحت أميركا عن هدفها الثاني - وهو العراق - وسارعت في تهيئة البيئة السياسية الموافقة للحرب عليه، فنشطت الدوائر المعنية في التخطيط لمواجهة الغزو المحتمل بأقصى قدرة دفاعية تتمحور على مركز العراق.

لقد حدّدت الاستراتيجية العراقية العليا، أي الرئيس صدام حسين أهم الاختلافات الاستراتيجية ما بين حالة أفغانستان بنظام طالبان، وحالة العراق بنظام البعث فكانت المدن الرئيسية هي نقطة ضعف النظام الأفغاني وعلى العكس هي نقطة قوة للنظام العراقي... ناهيك عن رسوخ مؤسسات النظام العراقي كدولة وحزب وقوات مسلحة والتي لا تقارن بما يمتلكه نظام طالبان هناك في أفغانستان، بالرغم من التشابه في موضوع تواجد المعارضة في شمال كلا البلدين.

إن ظواهـــر الولاء السياسي للشعب العراقي لقيادة الرئيس صدام حسين، كانـــت جوهر الاستراتيجية العراقية العليا، مما يؤسّس قدرة على الدفاع تتعدّى القـــدرة المعـــروفة للقوات المسلحة العراقية. ولأسباب يصعب تحديدها بدقة، جعلت سياق التخطيط لمواجهة غزو تقوم به أكبر قوة عسكرية في العالم ناهيك عن من يساندها ليس بالمستوى المطلوب، بل إن تلك الأسباب خلقت نوعاً من التشويش والضبابية والارتباك لا يتناسب وعمق تلك الخبرة العسكرية العراقية. وبالرغم من أن المستويات العليا في وزارة الدفاع، ورئاسة أركان الجيش، والمقر العـــام للحرس الجمهوري تتحمّل مسؤولية ذلك عملياً وأخلاقياً وتاريخياً، فإن الاســـتراتيجية العليا (السياسية) في نمط تفكيرها وعملها هي أهم تلك الأسباب المـــبهمة. وبالـــرغم مـــن امـــتلاك العـــراق لعدد لا يستهان به من المفكرين والاستراتيجيين، إلا أن هؤلاء لم يكونوا بالمواقع التي ينبغي أن يكونوا فيها، و لم يخـــصّوا بالاحتـــرام الكافي، ووفقاً لمشاهداتي واحتكاكي بالمسؤولين عن ذلك التخطيط الاستراتيجي، وجدت معظمهم بوضع ونمط وسلوك يثير الشفقة على مـــصير العراق والعراقيين، لأن نمط التفكير والسلوك السياسي هو الذي فرض نفـــسه علـــى معظم مستويات المسؤولية، فأصبح هؤلاء المسؤولون أشكالاً لا يملكـــون جوهـــراً ولا دوراً صميميّاً ليؤدّوه. فتنازلوا عن الكثير من المقومات الأدبية والأخلاقية والوظيفية قسراً، أو لضمان استمرارهم بالمواقع التي هم فيها، بالرغم من أن سفينة العراق أوشكت على الغرق.

علـــى كـــل حال، كان جوهر ذلك التخطيط يعتمد على إدارة سلسلة من المعـــارك الدفاعية، وعلى عدد من المحاور المحتمل سلوكها من قبل العدو أو الأعداء (التهديدات المركبة إقليمية ودولية وأمنية) واعتبار نهر الفرات وبشكل مجرد الحدود الغربية لعمل قواتنا المدافعة، وهو صحيح في أساسه. إلا أن مجرى نهر الفرات ليس مـــستقيماً، فهـــناك مدن مهمة كمدينتي كربلاء والنجف، تقع غرب ذلك النهر، حيث يمكن فيها استنـــزاف العدو كلما تقدّم نحو مركز القطر حيث تجري المعركة الحاسمة في العاصمة بغداد. كان مسرح العمليات الأردني أكثر ترشيحاً لاستخدامه من قبل القوات الغازية لقربه من مركز العراق، ومعظمه مسرح عمليات صحراوي

يتجنّب العراقيون الدفاع فيه، وهم يفتقرون إلى دفاع جوي ملائم. يمكن تحديد جوهر الاستراتيجية العسكرية وخياراتها للدفاع عن العراق بما يلي:

- قبول الحرب إذا كان الهدف السياسي للعدو هو إسقاط النظام السياسي العراقي.
- الإعداد للدفاع الشامل تشارك فيه كل طاقات الدولة والشعب.
- استنزاف العدو على محاور تقرّبه، وقبول المعركة الحاسمة في العاصمة بغداد.
- يؤسّس الجيش العراقي الإطار العام للدفاع على جميع المحاور التقريبية للعدو، وتكون مسؤولية قوات الحرس الجمهوري الدفاع عن مركز العراق ومن ضمنه العاصمة بغداد. أمّا بقية الطاقات الشعبية، والحزبية، والحكومية في الدفاع فتكون ضمن ذلك الإطار العام.
- اتخاذ أكبر الإجراءات لاستثمار كافة الطاقات للاستعداد الأمثل للحرب وتهيئة مستلزمات القتال (مواد تموين القتال عتاد - وقود أرزاق إدامة فنية نقل وغيرها) لفترات طويلة، وبأعداد كبيرة تؤمّن إدارة دفاع طويل لا يقلّ عن ستة أشهر.
- الإعداد الفكري والنفسي (المعنوي) للشعب والقوات المسلحة لقبول معركة طويلة الأمد والإصرار على تكبيد العدو أكبر ما يمكن من الخسائر، وكان التقدير الأدنى لتلك الخسائر أن لا تقل عن 3000 إصابة.
- المحافظة على الموارد النفطية العراقية، وعدم تدميرها إلا في الضرورات القصوى.
- معالجة معضلة القيادة والسيطرة بتقسيم العراق إلى أربع مناطق (شمالية، مركزية، الفرات الأوسط، الجنوبية).

نقاط الضعف في التخطيط الاستراتيجي والقدرة العسكرية العراقية

يمكن إجمال أهم نقاط الضعف في التخطيط الاستراتيجي والقدرة العسكرية العراقية بما يلي:

- عدم إحكام النهايات السائبة في جوهر التخطيط العام للحرب الدفاعية، وإبقاء العديـــد من النقاط الجدلية التي تثير التكهن والتقدير غير السليم سائبة لشدة الـــتدخل المباشـــر للقيادة السياسية في الموضوعات الاستراتيجية العسكرية، ولكثرة انشغال القائد العام، أي الرئيس في موضوع إدارة الأزمة السياسية إلى وقت قريب جداً من اندلاع الحرب.
- عزل القيادة العسكرية العليا الممثلة في وزارة الدفاع ورئاسة أركان الجيش عن دورهـــا في إدارة الحـــرب مع المقرات الميدانية (الفيالق والفرق) وذلك نظراً لتعـــيين قـــيادات سياسية للمناطق الأربع الرئيسية التي قسّم العراق بموجبها لأغراض القيادة والسيطرة.
- فـــرض آلـــية العمل السياسي على آلية العمل العسكري في مرحلتي التخطيط وإدارة الحرب مع الإبقاء على هامش كبير في المسؤوليات غير المحددة أدّى إلى تداخل وضياع المسؤولية المباشرة في المواقف الحرجة فيما بعد.
- الخليط غير المتجانس من القوات المتوفرة للدفاع في القواطع الدفاعية المختلفة، وضعف التفاهم والتنسيق فيما بينها، مع ضياع القدرة على تحديد المسؤوليات الميدانـــية، حيث حرص القائد العام، (أي الرئيس) على الفصل ما بين قيادات هـــذه القـــوات المختلفة من ناحية التخطيط وإدارة المعارك إلى حين نشوب الحرب لأسباب غير مبرّرة.
- تحكّم المؤسسة الأمنية الرئيسية، وتسويغ أية رغبات من وجهة نظر خاصة بها كـــتأثير حـــقّ الـــنقض (الفيتو) على أي قرار، مما أوجد ثغرات خطيرة في التخطـــيط والممارسات على الخطط الدفاعية كخطة الدفاع عن المطار الدولي في بغداد وبعض المواقع الاستراتيجية الخاصة.
- تقـــادم الـــزمن على جميع الأسلحة الرئيسية، والمعدات الحربية، وانتهاء معظم أعمارهـــا واستهلاكها في الحروب السابقة كالحرب مع إيران التي دامت ثماني سنوات متواصلة.
- تفاقم البيروقراطية العسكرية العراقية إلى درجة التورم، مع تقليص مستمر وحاد في الصلاحيات لأغراض أمنية، وذلك لتحجيم الشخصيات القيادة وإضعاف أثرها المعنوي على المرؤوسين.

- تفشّي الفساد الإداري كالرشوة وخاصة في السنوات الأخيرة قبل الحرب لتدني مستويات المعيشة للضباط والمتطوعين، وظهور أشباه المافيا وأخطرها تلك التي لـــديها علاقـــة بالقوى البشرية، وهيئات ودوائر التصنيع العسكري، وبعض الشخصيات المقرّبة من الرئيس.
- تـــدنٍّ خطـــير في مستويات التدريب كبرامج وقواعد مادية، وتحديد صرف الأمـــوال والأعـــتدة، وتقنين المشاريع التدريبية كثيراً حتى اعتمد أخيراً على المشاريع التدريبية بدون استخدام القطعات (المقرات فقط).
- التـــنافس غير الشريف لبعض المستويات القيادية للتقرب من رأس القيادة على حساب حقائق الأمور، وتعميق أوهام القوة في فكر الرئيس.

الجهود الشخصية في تطوير مفاهيم وأساليب القتال

بعـــدما تأكّد لي في حرب عام 1991 صحة ما طرحته على القيادة العليا من إعادة النظر في مفاهيم القتال، وأخذ حقائق التفوق النوعي والتقني للقوات المسلحة الأميركـــية بعين الاعتبار، والتخلي عن ظواهر المكابرة الفارغة والبعيدة عن الواقع فعلياً، حاولت أن تكون رسالتي لنيل أعلى شهادة عسكرية معادلة بالدكتوراه حول هـــذا الموضوع، بعدما أجريت دراسة تحليلية وواقعية عن فارق القدرات الفكرية والماديـــة والمعنوية، وأسلوب وطبيعة تلك الحروب، وما ينبغي تطويره وتعديله لأن الصراع السياسي استمرّ ولا بد أن ينتهي ذلك الصراع إلى حلول عسكرية، ولأن الأزمة السياسية المستحكمة ليس لها غير حلّ واحد، ألا وهو المواجهة العسكرية ما بين العراق وأميركا نظراً للتقاطع الحاد ما بين استراتيجية الطرفين.

بعدما رفضت رئاسة أركان الجيش ذلك الموضوع بحجة أن الوقت مبكر جداً لبحث نتائج تلك الحرب، وبعد إجباري على تغيير الموضوع لنيل تلك الشهادة... ففـــي عام 1993 وحال نقلي من منصب قائد الفرقة المدرعة السادسة إلى منصب قائـــد فرقة المدينة المنورة حرس جمهوري - وكما ذكرت آنفاً - قدّمت ملخصاً بـــتلك الدراســـة إلى نجل الرئيس العراقي قصي صدام حسين المشرف على الحرس الجمهوري، فأعطاني الضوء الأخضر في التثقيف على نتائج تلك الدراسة (الدروس

المستنبطة من تلك الحرب)، وما ينبغي الخروج به لتقليل فارق التفوّق الجوي والتقني للعدو الأميركي، وبالرغم من معارضة قيادة الحرس الجمهوري لطروحاتي، إلا أنني مضيت قدماً في هذا الموضوع.

إن ملخص المفاهيم والأساليب التي دعوت إلى اعتمادها هي:

- نبذ المفاهيم القديمة في اعتماد نظام الكتلة في إدارة المعارك، واعتماد مفهوم الاستخدام الجزئي للقوة بشكل متتابع، وذلك لتجنّب تدمير قواتنا بعد كشفها بالقوة الجوية المعادية.
- هذا المفهوم هو مشابه لعقيدة وأساليب عمل حرب العصابات، ولكن ينفّذ بقوات نظامية.
- ينبغي التعويل في المعارك المستقبلية مع القوات الأميركية ومن سيحالفها على القوات الخاصة والمشاة أكثر من التعويل على القطعات المدرعة.
- الحاجة إلى تخويل الصلاحيات إلى أقصى الدرجات لأن القيادة والسيطرة ستكونان صعبتين للغاية لضرورات الانفتاح الواسع، ولتجنّب الضربات الجوية والصاروخية.
- نبذ مفهوم إدارة المعارك على قوات العمق والاحتياطات لاستحالة أو تعذّر حركتها لمسافات كبيرة بينما يملك العدو سيادة جوية على ساحة الحرب.
- إدارة المعارك على مستوى الوحدات الصغيرة (سرايا وأفواج)، وبإشراف عام للمستويات الأعلى من خلال الوصايا، والاستخدام الجزئي والمتدرج للقطعات (حضيرة، فصيل، وسرية كأكبر حجم قتالي) وكذلك ستكون أكبر وحدة مساندة مدفعية تستخدم في القتال فصيل مدفعية، أما في أسلحة الدفاع الجوي فيعتمد على الكمائن فقط.
- نظراً لحرماننا من الوسائط الاستراتيجية والتقنية ومنها الاستطلاع الجوي بأنواعه لجمع المعلومات، يجب التركيز على الجهد الميداني لأغراض الاستطلاع والاستخبارات.
- يؤسّس كل لواء في قاطع مسؤوليته منطقة لجمع المعلومات – ومنطقة للتعويق المبكر، وقبول العزل – ومنطقة الدفاع الرئيسية على شكل قواعد أمينة في

حافات المدن والبساتين والمناطق المستورة، لتنطلق منها دوريات القتال ومناوشة العدو بالنيران واستمرار إزعاجه والتأثير على خطوط إمداده.

- إعطاء أكبر حرية عمل متاحة للآمرين الصغار، وآمري التشكيلات في إدارة معاركهم وتحمّل مسؤولية إخفاقاهم إن حدثت.
- الكرّ والفرّ والاختفاء وسرعة الظهور والنار المصوبة على العدو دون الحاجة للتعديلات الكثيرة، وجمع المعلومات وتمريرها للخلف والاكتفاء الذاتي بالمتطلبات الإدارية ومواد تموين القتال هي أساسيات هذا المفهوم وأسلوبه.

لقد استثمرت جميع الفرص المتاحة لي لتدريب القوات المسؤول عنها على هذه الأساليب منذ العام 1993، وبكل مستويات وأشكال التدريب. وفي نهاية العام 1994 تمكّنت من تخطيط وتنفيذ مشروع تدريبي بمستوى فرقة مدرعة زائد القوات الخاصة (فرقة المدينة المنورة ولواءا قوات خاصة)، وفي السنوات الثلاث قبل الحرب على العراق أوصلت وحدات الفيلق إلى قناعة بالأساليب القتالية التي عمّمتها عليها وأجادت معظمها في الصنوف المقاتلة من قوات خاصة ومشاة ودروع، والساندة كالمدفعية والدفاع الجوي.

- لقد حاولت تطوير المستويات القيادية الدنيا إلى مستوى تتمكّن فيه من إدارة معارك تعبوية صغيرة لفترات طويلة دون الحاجة للرجوع إلى المستوى الأعلى في القيادة. وذلك عن طريق صقل شخصياهم القيادية بالحصول على الثقة الكافية لإدارة تلك المعارك.
- لقد كان ذلك المشروع معاكساً بشكل تام لما فرضته المدرسة العسكرية الأمنية الجديدة منذ الحرب الماضية، ومنها سحب الصلاحيات لتحجيم الشخصيات القيادية لأغراض أمنية، وسلب شخصياهم وترهيبهم. إن هذا الأسلوب الذي اعتمدته في القيادة سبّب لي بعض المشاكل مع المقر العام للحرس الجمهوري، وكانت لي مبررات قوية في الدفاع عنه، مع سعيي الدؤوب إلى تخفيض الحمايات الخاصة للمناصب القيادية العليا. (لقد منعت أية مرافقة لي في كل تنقلاتي إلى الفرق والوحدات في زمن السلم والحرب) وتقليص الحلقات الواسعة للتقرّب من المرؤوسين وإشعارهم بإسناد آمريهم الأعلى، وتحمّل

مسؤولية أخطائهم، واستبدال خوفهم منهم إلى الثقة العالية بهم وزيادة احترامهم، فإذا تحقّق ذلك نضمن إدارة المعارك بأفضل أداء وبأطول مدة ممكنة.

خطة الدفاع عن بغداد

لقد كثر الحديث الشعبي والإعلامي عن أسباب سقوط بغداد، وعن ماهية الخطة المعدّة للدفاع عن العاصمة، وقد ترافق ذلك مع إشاعات عن خيانات لعدد من كبار قادة الجيش والحرس الجمهوري التي ساهمت بشكل مباشر وغير مباشر في ذلك السقوط المدوي للعاصمة العراقية التي ظنّ العراقيون والأميركيون على حدّ سواء أن أشرس وأطول معارك الحرب على العراق ستجري فيها، وذلك بالاستناد إلى تصريح الرئيس صدام حسين في خطابه الرسمي، حيث قال إن الأميركيين مغول العصر سينتحرون على أسوارها. وفي ذلك إشارة إلى حصانة وكفاءة الدفاع العراقي في بغداد فما حقيقة ذلك الأمر؟ إذن فلنبدأ بخطة الدفاع عن بغداد، وأنا أحد المعنيين فيها كقائد فيلق حرس جمهوري.

كانت هناك خطط خاصّة على مدى السنين بعد العام 1991 للدفاع عن بغداد، أساسها الخطط الأمنية والتي يشترك في تنفيذها الحرس الجمهوري الخاص، وفرقة أو أكثر من قوات الحرس الجمهوري، وجهاز الأمن الخاص، وبعض الأجهزة الأمنية الأخرى وكذلك هناك خطط للدفاع عنها تجاه عمليات المحمولين جواً، التي من المحتمل أن تشنّها القوات الأميركية والبريطانية والإسرائيلية، وكانت أخطر التهديدات المحتملة هي العمليات التآمرية من الداخل، والأعمال المهدّدة للأمن الداخلي من بعض الأوساط الشعبية المحيطة بالعاصمة. كانت تلك الخطط سرية للغاية، وكان هناك غرفة عمليات خاصة (غرفة عمليات بغداد) تدير تلك العمليات في حال حدوثها، وعندما كنت قائداً لفرقة المدينة المنورة حرس جمهوري كنت مسؤولاً عن تنفيذ جزء من تلك الخطط، وبما يخصّ الجانب الشرقي من بغداد.

عندما تعاظمت التطورات السياسية المنذرة بالحرب على العراق، بعد أحداث 2001/9/11. كانت هناك مناقشات غير محسومة حول أسس الدفاع عن بغداد،

وكانت إحدى فرق فيلقي بالإضافة إلى لواء القوات الخاصة (فرقة النداء حرس جمهوري، ولواء قوات خاصة 3 حرس جمهوري) مشاركيْن في الأساس في خطة الدفاع عن العاصمة. وبحكم الضرورات الأمنية، لم أكن معنياً بتلك الخطة، و لم أسأل يوماً قائد الفرقة أو آمر لواء القوات الخاصة أي شيء عن ذلك. وهكذا هي طبيعة الأمور في قوات الحرس الجمهوري حيث يمنع علينا الزيارات المتبادلة خارج الواجبات الرسمية، أو الاتصال بمقرات الجيش والقادة الآخرين، أو الاستفسار عن خطط خارج مسؤولياتنا فتلك من المحرمات.

في 2002/12/18 حضرت مع قادة فرق النداء، حمورابي، المدينة المنورة وآمري مدفعية ودفاع جوي، وآمر الحرس الجمهوري الخاص، ومدير الأركان العامة، وضابط الركن الشخصي لرئيس الأركان مؤتمراً لا نعرف جدول أعماله في رئاسة أركان الحرس الجمهوري في المقر العام غربي بغداد، وبعد أن اكتمل عددنا حضر رئيس أركان الحرس الجمهوري الفريق أول سيف الراوي يحمل خريطة مؤشر عليها خطة دعيت باسم خطة الدفاع عن بغداد، وبعدما علّقها ضابط الركن المختص، وقف رئيس الأركان قرب الخريطة المؤشرة ليشرح لنا تلك الخطة، وهي عبارة عن أربع دوائر ذات ألوان مختلفة تحيط ببغداد، وتشير كل دائرة إلى خط دفاعي دائري تشترك فيه الفرق الثلاث المدرعة بالتساوي، وبحسب مواقع انفتاحها (النداء من الشرق، المدينة المنورة من الجنوب والجنوب الغربي، حمورابي من الشمال والشمال الغربي)، وكانت فحوى تلك الخطة أنه كلما حقّق العدو تماسه بقواتنا في أي من تلك الدوائر وبعد قتال معين، يصدر الإيعاز لتلك الفرق بالانسحاب بالقتال التراجعي إلى الدائرة الأخرى نحو العمق، وبهذه البساطة لحين قبول القتال النهائي داخل محيط العاصمة. وكان نصف القطر في تلك الدفاعات الخطية الدائرية ولجميع الاتجاهات يبلغ 60/50 كم عدا خط المراصد ودوريات الاستطلاع وهي تخرج أمام تلك الخطوط الدفاعية. وهكذا، وبكل بساطة، وخلال سبع دقائق عرضت علينا خطة الدفاع عن بغداد. وحين استأذنت بهدف النقاش امتعض رئيس الأركان، وقال: "إن هذه الخطة مصادق عليها من قبل المقر الأعلى وعليكم الاستعداد لتنفيذها".

وفي تلك اللحظة، اتصل به سكرتير المشرف العميد الركن عبد السلام ياسين، طالباً حضورنا جميعاً مع الخطة إلى الطابق الأرضي لعرضها أمام السيد المشرف قصي صدام حسين. وبعد أن اكتمل عددنا هناك في غرفة الاجتماعات، وبعدما أكمل رئيس الأركان عرضه للمرة الثانية التفت إلينا قصي صدام حسين قائلاً: "ابذلوا أقصى الجهود في تهيئة مستلزمات تنفيذ هذه الخطة". وعندها طلبت منه السماح لي بالاعتراض على هذه الخطة جملة وتفصيلاً، ورغم استغراب المشرف وامتعاض رئيس الأركان، وقفت بجانب الخريطة مركّزاً على أمرين؛ الأول، أن الخطة ساذجة جداً وسطحية وغير عملية على الإطلاق. والأمر الثاني، أن سياق التخطيط لعمليات كبيرة يجب أن يأخذ سياقه الصحيح وفق مراحل عديدة تتلاشى فيها الأخطاء بسلسلة طويلة من النقاشات والدراسات. ورجوت المشرف أن يمنحنا المجال الكافي لإعداد خطة بديلة وفق السياقات الصحيحة، بحيث يساهم فيها كل المعنيين دون التمسك بوجهات نظر تطرح مبكراً... وكنت آمل أن يوافقني قصي صدام حسين على هذا القدر، ويترك المجال للمختصين بإعادة بناء هذه الخطة بشكل أكثر واقعية. إلا أنه وقف بجانبي، ووقف الجميع من حولنا، واستعجل الرأي برأي توفيقي أكثر مما هو واقعي. وبسبب احترامي الشديد له، ما تمنّيت أن أحرجه لأي سبب كان، لأن الموضوع أكبر من هذه الأمنيات ومن مشاعرنا، وعندها أحسست بأن واضع الخطة هو رئيس الأركان ناسباً أفكارها للرئيس صدام حسين وإلى نجله قصي. إذاً هذا الاعتراض يمسّ الجانب الأدبي لهذا القائد السياسي الشاب الذي له أكثر من دالة عليّ حين أنقذني من حكم بالسجن لمدة طويلة عندما اعترضت على خطة الدفاع عن الكويت في نهاية العام 1990، ووافق على الكثير من آرائي التي كان يعتبرها أقراني كرئيس الأركان السابق والحالي منافسة مباشرة وغير مباشرة لهما. وأنا أشهد الله السميع العليم ما قصدت في ذلك إلا المصلحة العامة، وكاستحقاقات لشرف المهنة، وضروراتها الأخلاقية. مع احترامي الكبير لهما لفارق الرتبة والمنصب بالرغم من أننا من دورة واحدة في الكلية العسكرية وفي كلية الأركان، لقد انفضّ هذا الاجتماع سريعاً وكل في حلقه غصة.

في صباح اليوم التالي، وكان يوم خميس، استدعاني رئيس الأركان لمناقشة موضوع معين، وأنا بالتأكيد حمنت ذلك الموضوع بشكلٍ صحيح لمعرفتي بطباع صاحبي. وكان خلاصة ما قاله: "إن السيد المشرف قد أخبرني بأنه لم يفهم أي شيء مما طرحته أمس، وهو يشك في قواك الذهنية، أو من أنك تعاني علة ما، أو من مشاكل عائلية، أو غير ذلك". فرفضت هذه الإهانة، بغضّ النظر عن مصدرها، ونزلت غاضباً إلى مكتب سكرتير المشرف، وأصرّيت على مواجهة قصي صدام حسين، وإن كان هذا اليوم عطلة له. وبعد أكثر من ساعة ونصف حضر الرجل وكان يرتدي معطفاً أسود سميكاً لشدّة البرد في ذلك اليوم. وبعد استقباله لي باحترام كعادته، وبالرغم من محاولته الكلام في موضوع قديم ومكرّر حول نمطي في القيادة والذي يختلف عن النمط السائد عندنا في القوات المسلحة العراقية، إلا أنني رجوته بالكلام عن موضوعنا الذي تكلّف هو شخصياً مشكوراً من أجله بترك عائلته في هذا اليوم، ولقائه إياي، بعدما وضعت رتبتي بعد نزعها من كتفي على المنضدة التي أمامي، فأثارته هذه الحركة كثيراً. سحب نفساً عميقاً من سيكاره الطويل ثم قال: "مقامك محفوظ ارتدي رتبتك". فارتديتها بصعوبة بسبب حالتي العصبية، فما كنت أحسب يوماً أن رجالاً بهذه المسؤولية الكبيرة وفي هذه المواقف العصيبة تحرّكهم دوافع شخصية بحتة.

كانت خلاصة ما طرحته على قصي صدام حسين هو خطورة الموضوع الذي جرى عليه الاختلاف بالرأي. وأن مناقشة مثل هكذا مواضيع كبيرة يجب أن لا تحدّدها العواطف، وأنا هنا مستعد لقبول إعفائي من منصبي وسحب رتبتي، إلا أنني لن أتنازل عن حقي كجندي أرى المخاطر تحيق ببلدي، فأوافق على أي رأي يطرح بسبب المجاملة. كذلك ركّزت على ضرورة بناء هذه الخطة وفق السياقات الأكاديمية الصحيحة لبناء الخطط في المستويات العليا، ثم شرحت له بإسهاب مراحل هذا السياق، كذلك أوضحت له بكل صراحة وإخلاص الحدود الفاصلة ما بين المستوى السياسي والمستويات المهنية العسكرية في هذا السياق بشكل خاص، وإدارة الحرب بشكل عام. ولكي لا يتحمّل القادة السياسيون أخطاء القادة العسكريين، ينبغي أن يتمسّكوا بتلك الحدود الفاصلة بينهما.

وشـــرحت له وجهة نظري بأنه من الخطأ الجسيم أن نقبل القتال في بغداد، ونحـــددها كهـــدف رئيسي ونهائي ضمن سلسلة أهداف لعدو قادر أن يحيلها إلى ركـــام محروق، والصحيح أن يكون الدفاع بعيداً عنها وليس فيها، وأنه ليس من الحكمة أن تكون بغداد مقراً للقيادة السياسية والمركزية، بل يجب أن نجعل العراق كلـــه أهـــدافاً متساوية، بحيث لا يكون فيه مكان محدد للقيادة، وأن نعتمد حرباً مـــشابهة لحرب العصابات، كما هو حال تدريبنا في فيلقي طيلة السنوات الأخيرة. فمـــا دام الـــتفوّق الجـــوي الساحق لصالح العدو، فليس لنا القدرة على المناورة بالاحتـــياط أو القـــتال بكتل الدروع وغيرها، كذلك إن ثقافة ضباطنا وجنودنا المحدودة لا تؤهلهم فهم المواقف القتالية الصعبة تحت رحمة القصف الجوي الرهيب، فأي حركة من هذا القبيل تشعرهم بالأخطار المحدقة فتنهار معنوياتهم، إضافة إلى أن مواطنينا لن يقبلوا القتال في مدنهم وبين بيوتهم لأسباب عديدة، وسوف يساهمون في إقناع الجنود بترك مواقعهم خوفاً على عوائلهم ومنازلهم من التدمير، وبأنه يجب أن نعتمد مبدأ المدينة المفتوحة للمدن الرئيسية.

لقـــد أصـــغى المشرف إليّ جيداً، وفهم مقاصدي التي طرحتها، وخاصة في جوهـــر بناء الخطط بالتحليل الدقيق للتهديدات المعادية، وتحليل المسالك والمحاور التقـــريبية للعـــدو، وأسلوب مواجهة كل احتمال حسب نسبة تحقيقه في الميدان، ووعدني بإعادة المؤتمر مساء يوم السبت القادم، وترك الموضوع له بالكامل.

لقد صدق بوعده، واجتمعنا مساء السبت 2002/12/21، وكنت الوحيد بين الحضور الذي يعرف ما سيجري في هذا اللقاء. وبعد عرض دقيق للمشرف، وضّح للحـــضور ضرورة إعادة النظر بالخطة السابقة، واعتماد السياق الصحيح، وركّز علـــى جوهر الدفاع عن بغداد وأن يكون ذلك بمسافات بعيدة عنها، ووفق محاور الاقتراب الرئيسية والثانوية للعدو، وذلك اقتصاداً للجهد والإمكانيات وغير ذلك. كان رئيس الأركان والعزة بالنفس تأخذه يحاول إفراغ ما طرحه المشرف بعبارتين متكـــرّرتين كل حين "لكن توجيه السيد الرئيس القائد لا يتّفق مع هذا"، "هذا ما قصدناه في خطتنا" وبعد حوار قصير مع الحضور التفت المشرف نحوي قائلاً: "هل لديك شيء توضّحه؟" فأجبته بأن لقاءنا هذا سيكون مباركاً عندما نعود من الخطأ

إلى الصواب، وأن مسؤوليتنا تجاه الوطن والشعب أكبر مما تأخذنا إليه العزة بالخطأ أو بالنفس، راجياً من السيد رئيس الأركان أن لا يأخذ هذا الأمر كموضوع شخصي، لأننا نكنّ له كل احترام وتقدير، وأن العودة عن الخطأ فضيلة. ورجوت أن يتشكّل فريق تخطيط من المؤهلين جيداً لوضع خطة الدفاع عن مركز العراق، وفق السياقات الصحيحة.

وهكذا انفض هذا الاجتماع على أمل أن يكون هناك جدول عملي من التخطيط المشترك بحيث نشارك فيه نحن القادة المنفذون، بعد أن رجوت من المشرف مطالبة القيادة السياسية (الرئيس) تزويده بوثيقة تسمى (توجيه الخطط) التي يحدد فيها الهدف السياسي بالدفاع عن مركز العراق كونه مخول بصلاحيات وزير دفاع، وسيكون هذا التوجيه بمثابة الخطوة الأولى الضرورية لسياق طويل من أعمال التخطيط والدراسات الخاصة والتفصيلية المطلوبة لانتاج عدد من الخيارات أو مسالك العمل المتاحة، ترفع إلى القيادة العامة لدراستها والقرار على أي خيار أو مسلك يرتأيه القائد العام، ثم ترسل القيادة أعلاه لنا القرار المتخذ بوثيقة تسمى (وثيقة القرار)، للبدء بإعداد تفاصيل الخطة الرئيسية، والخطط التكميلية اللازمة لها.

لكن هذا مع الأسف لم يحصل. إنما ازدادت حساسية فريق أول سيف الدين تجاهي، وكان المأمول منه غير ذلك، نظراً لما يتمتّع به هذا الرجل من ذكاء حاد، وخبرة كبيرة، وقابلية بدنية جيدة، إلا أن نقطة ضعفه - وكلّنا لنا نقاط ضعف - كانت الأنانية المفرطة، والحساسية الشديدة، وطموحه الذي لا حدود له حيث كان يأمل أن يكون وزيراً للدفاع قبل وقوع الحرب...

في 2002/12/30 دعينا إلى لقاء الرئيس صدام حسين بقصره (بالرضوانية) غربي بغداد بجوار المطار الدولي، إلا أن اللقاء تمّ في قاعة كبيرة ملحقة بذلك القصر. لقد خاب ظني عندما شاهدت الكثير من ضباط الحرس الجمهوري والذين ناهز عددهم الثلاثين من كبار الضباط منهم بمناصب إدارية وفنية، كان اعتقادي الأول أن سبب هذا الاجتماع هو مناقشة خطة الدفاع عن بغداد. وبما أن مستوى الحضور بهذا الاتساع فسيكون اللقاء عادياً. وقبيل وصول الرئيس إلى القاعة استدعي رئيس أركان الحرس الجمهوري مع المشرف وانزويا مع الرئيس في

غـــرفة جانبـــية لمدة عشر دقائق تقريباً، بعدها دخل علينا الرئيس مبتسماً ومرحباً بنا... وما إن استوى على مقعــده حتى قــال: "كيف حالكم يا شباب ... لقد اطلعــت علـــى خطتكم فعلى بركة الله..." ثم طلب من الحاضرين أن يتكلموا، فتقاطــر على منصة الخطابة عدد منا بدءاً برئيس الأركان، وكانت طبيعة الخطاب حـــول الـــولاء، والإخلاص، والاستعداد للقتال. وكان ذلك وفق توجيه سكرتير الــرئيس عبد حمود حين وقف أمامنا حال تكاملنا في القاعة قائلاً: "إخوان، السيد الــرئيس متعب ومرهق بالموقف العام، لا تذكروا أية مشاكل، ركّزوا على الجانب المعنوي". وبناءً عليه قرّرت أن لا أتكلم...

بعـــدما أكمل عدد من الحضور خطاباتهم الحماسية... شكرهم الرئيس على هـــذه المشاعر، ثم أسهب في الكلام عن الموقف العام للأزمة مع أميركا، وأكّد أن العـــراق خـــالٍ تمامـــاً من أي سلاح محظور، وطلب منّا فتح معسكراتنا وثكناتنا للمفتـــشين، وكان يأمل في السابع والعشرين من الشهر القادم أن يقدّم المفتشون الدولـــيون تقريراً إيجابياً يكون حائلاً دون اندلاع الحرب، وقال: "إننا لا نريد هذه الحرب، ولكن إذا فرضت فإننا سنركّع أميركا، وندمّر جيوشها على حافة الصحراء - وإن إرادة الله في ذلـــك بأن تخذل القوى الشريرة العظمى أمام قوة الحق، وإن كانـــت صغيرة - فلو أن أميركا انهارت أمام الاتحاد السوفياتي السابق لقال الناس قـــوة عظمى غلبت قوة عظمى ولا غرابة في ذلك. وأنا متأكد من انتصارنا ومن تركيع أميركا إذا جاءت بجيوشها لأنه لم يبقَ لله جيش يقاتل في سبيله سوى جيش العراق".

بعـــد انـــتهاء اللقاء أخذنا صوراً تذكارية بشكل جماعي مع الرئيس، وغادر الجمـــيع وهم في ارتياح كبير، فالرئيس راضٍ عن قوات الحرس الجمهوري. ولكن ظلّ يؤرقني موضوع الخطة التي عرضت على الرئيس وباركها. ما هي؟ ومتى نطلع عليها؟ ولماذا لم يؤخذ سياق التخطيط الصحيح؟ ومن هم واضعو تلك الخطة؟... ظلّت أسئلة بلا أجوبة، و لم يتطرّق أحد إلى تلك الخطة...

بعـــد أسبوعين التقينا باللواء المهندس حسام محمد أمين مدير الرقابة الوطنية، وشـــرح لنا أسلوب التعامل مع المفتشين. ثم جاء المفتشون إلى مقراتنا، ووحداتنا،

ولم يعثروا على شيء مع التأكيد بعدم الانفراد بهم. ومما هو جدير بالذكر أن القيادة العامة ووزارة الدفاع نفّذتا عدداً من التمارين الداخلية في نادي ضباط القادة في منطقة الكسرة ببغداد لمجموع القيادات العسكرية التابعة للمقر العام، والسياسية، والحزبية للمنطقة المركزية وخاصة بغداد، وأعضاء القيادة العامة للقوات المسلحة. وكان يحضرها المشرف على الحرس الجمهوري قصي صدام حسين، وكنت أرافقه لتزويده بالملاحظات المهمة، ثم كنت أقدّم له تقرير تقييم عام عن تلك التمارين والمعضلات فيها وأسلوب حلها، وكان يتمّ عرض صورة الموقف العام، وشرح الخطط الأمنية للمحافظات في ذلك التقرير. وكانت تلك التمارين على الدوام بإشراف عزة الدوري نائب الرئيس، وكان يحضرها معظم أعضاء القيادة السياسية، وبعض الوزراء المعنيين، وكان لكل المناطق الدفاعية تمارين مشابهة وقد حضرت بعضها. فلقد كلّفت بزيارة كل فيالق الجيش للاطلاع على خطط دفاعها قبيل الحرب، وقدّمت الكثير من الملاحظات في التقارير التي كنت أرفعها لقصي صدام حسين، وكانت معظم تلك الملاحظات سلبية لحجم المشكلات التعبوية والعملياتية التي تعاني منها تلك الفيالق.

تسارع الأحداث والاقتراب من الحرب

لقد تصاعدت الأحداث السياسية وخاصة في أروقة الأمم المتحدة حول موضوع الاتهامات الموجهة للعراق وللنظام السياسي العراقي. وترافق ذلك مع تأكيد المقر العام بعدم الاحتفاظ بأية وثيقة تشير إلى الخطط ذات العلاقة بالحرب، أو بيانات تعرض القدرة القتالية. وقد قامت الأجهزة الأمنية بالتدقيق في هذا الموضوع مع استمرار عمليات التفتيش خلال شهري شباط/فبراير وآذار/مارس، واتضح من اجتماع مجلس الأمن الدولي أن الموقف السياسي ليس في صالح أميركا، ولكن كان إصرارها على الحرب يزداد باطراد مع حركة القوات الجوية، والبحرية، والبرية في المنطقة المجاورة للعراق. إلا أن هذه القوات اقتصرت على القوات الأميركية والبريطانية فقط حيث فشلت أميركا في إنشاء تحالف عسكري يؤمّن لها القوات الكافية للغزو.

لقد شنّ الإعلام الأميركي حرباً نفسية على مدار الساعة ضد السياسة العراقية بهدف تفتيت الجبهة الداخلية وإضعافها، وقد قوبلت هذه الحرب بنداءات سلمية عديدة انطلقت من مختلف أرجاء العالم، بالإضافة إلى المظاهرات الاحتجاجية ضد دعوة الحرب ومن أهم هذه المظاهرات تلك التي جرت في العاصمة البريطانية، والتي وصل عدد المشاركين فيها إلى المليون. كذلك خرجت مظاهرات كبيرة في المدن الأميركية الرئيسية ومنها واشنطن، وكانت لرسائل البابا يوحنا الثاني في روما أصداء جيدة. وكنتيجة مترافقة لذلك، بدأت أعداد كبيرة من الشخصيات المتنوعة تصل إلى العراق (مثقفون، فنانون، سياسيون... الخ) من مختلف أنحاء العالم لتشكيل دروع بشرية للحيلولة دون اندلاع الحرب. إلا أن الإعلام الأميركي المعروف بوحشيته استمر في قرع طبول الحرب، وإيجاد مسوغاتها، مركّزاً على خطورة بقاء الرئيس العراقي ونظامه، لأنه نظام دكتاتوري وحشي سبّب الويلات لشعبه ولشعوب المنطقة، وحمّله مسؤولية الحرب مع إيران، واحتلال الكويت، واعتبره مسبّباً المجاعة لشعبه خلال أكثر من عقد من الزمن. إلا أن المثقفين والسياسيين المعارضين للسياسة الأميركية، أدركوا مدى المبالغة في هذا الموضوع، وموضوع امتلاك العراق لأسلحة دمار شامل. وظلّ هذان السببان - الدكتاتورية المستبدة، وامتلاك أسلحة الدمار الشامل - الذريعتين اللتين وظّفهما ذلك الإعلام السياسي الأميركي لإقناع الرأي العام بالحرب على العراق.

كانت نتيجة الاستفتاء الذي جرى في العراق بتاريخ 2002/10/15 حول الولاء للرئيس وإعادة انتخابه لسبع سنوات أخرى مئة بالمئة، ويبدو أن الرئيس صدّق نتيجة الاستفتاء، لأن ذلك يتوافق مع داء خداع الحواس المصاب به، ومع ظاهرة الصنمية التي تطغى على جميع الممارسات الحزبية والجماهيرية مما دعاه إلى إطلاق سراح جميع السجناء؛ ومن ضمنهم المجرمين العتاد، وكبار السارقين، والمزوّرين، وغير ذلك. وكان ذلك تهديداً لأمن المواطنين كمن يطلق الذئاب في حظائر الأغنام، والمعهود في مثل هذه المناسبات إطلاق سراح السجناء السياسيين وتخفيض بعض الأحكام، أما المجرمون القتلة فلم يجازف يوماً أي مسؤول في إعفائهم بهذا الشكل من أحكامهم لأن ذلك يتعارض مع الحكم الإلهي، والحق العام للمواطنين.

لقد أراد الرئيس في هذا القرار الخطأ أن يعبّر عن شكره للشعب الذي آزره بهذه الانتخابات، فحمّله مسؤولية إصلاح هؤلاء المجرمين المطلق سراحهم بهذه البساطة بدون أي قيد أو شرط.

إن طبيعة الأمور في عالمنا الشرقي، والعالم الثالث المتنقل من البداوة إلى الحضارة حيث المستوى العلمي والثقافي المتدني لشعوبنا، والتمسك المقدس بالموروثات من غير تمحيص، والضعف العام في وسائل الاتصال بالمجتمعات المتحضرة، جعلت مجتمعاتنا بيئة صالحة لنشوء الزعامات الدكتاتورية، ونظمها السياسية المستبدة؛ ولا يقتصر هذا على الزعامات السياسية... بل إن لمعظم الطوائف الدينية والمذهبية زعامات دكتاتورية؟ كذلك تعتبر الزعامات القبلية والعشائرية زعامات قد تكون عند البعض زعامة دكتاتورية؟ فالدكتاتورية والتسلطية سمة بارزة في مجتمعاتنا الشرقية.

إن المشكلة تكمن في المجتمعات قبل أن تكون في الأشخاص والزعامات. فهل الصنمية السياسية تنتج من فراغ؟ من كان يجبر مئات الآلاف على التعبير الهستيري عن حبهم لزعاماتهم؟ من كان يجبر عشرات بل مئات من القادة وكبار الضباط ليتنازلوا عن مقوّمات شخصياتهم، ومناصبهم، للزعامات السياسية بالرغم من وجود العديد من المبررات؟ من منا كان مجبراً على النفاق في أقصى حدوده. فلا نميّز في هذا بين المصلحة الشخصية والمصلحة العامة، ومدى ضرر نفاقنا على سلامة بلدنا وشعبنا بالرغم من وجود بعض المبررات؟ كلنا مسؤولون أشخاص وحركات سياسية أو دينية عن أخطائنا، فمعظمنا متعسّف بآرائه، ومعظمنا إذا امتلك السلطة كان دكتاتوراً بغيضاً. ﴿إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم﴾ [سورة الروم].

هكذا كان العراق هشاً في حقيقته، فالباطن عكس الظاهر، فالظاهر أن العراق كان قوياً، متماسكاً، قادراً على التحدي والصمود وعلى هذه الظواهر أعدّت جداول حسابات القدرة السياسية، والعسكرية، والاقتصادية، وغيرها. والكل في مزاد كبير لعرض القوة ولا أبرّئ نفسي من هذا... وفي بعض الأحيان أشعر بالضغوط المضادة المتعارضة فالتيار العام يجبرنا على الكلام الكبير في

استعراض القوة كي ندفع عنا تهمة الجبن والتخاذل، بينما حقائق الأمور تجبرنا على المجازفة لعرض الحقائق تلك، ولكن بأشكال مخفّفة، وعليه بذلت ما بوسعي في مجال رفع القدرة المعنوية والمادية لقوات فيلقي.

كانت ثقتي عالية بكل من يحيط بي من ضباط ركن، وقادة، وآمرين، وجنود وحاولـــنا أن نسبق الزمن في تصوّر الحرب، وطبيعتها، وتشخيص أساليبها فوضعنا مـــناهج تدريبـــية واقعـــية وجـــداول عمـــل واســـعة في ضبط الاستحضارات والاستعدادات. وقد حدّدت 2003/2/15 الموعد الأخير لإكمال تلك الإجراءات، وتمّ انفتاح جميع قوات الفيلق ابتداءً من ذلك التاريخ وعلى مسؤوليتي الشخصية... وتـــساءل الكـــثيرون وخاصة المسؤول السياسي والمسؤول الأمني عن مصدر هذا الإجـــراء (إن حركة دبابة واحدة خارج ثكنتها تعتبر جريمة في الحرس الجمهوري) فنـــسبته لي على ضوء تحليلنا للموقف السياسي والعسكري، والغريب أنه لم تعقد اجـــتماعات خطط، ولا اجتماعات تدقيق بالمواقف السياسية والعسكرية وتحليلها وكـــأن الحرب لن تقع قريباً... أين دوائر المعلومات التي تزوّدنا بما نحتاج إليه من معلـــومات وبيانات عن تطور الموقف في البلد؟ باستثناء تعميمات لبعض معلومات الاستخبارات العامة بيد ضباط الارتباط. ومعظمها سطحية.

بالـــرغم مـــن أن كـــل طروحاتي مع القادة، والآمرين، والجنود في لقاءاتي بالقطعات لا تبتعد عن فحوى الخطاب السياسي والإعلامي للدولة، لكنني حاولت تقـــريب صور الواقع بشكل أو بآخر لأصغر المقاتلين. وعليه كانت الأولويات التي حدّدتها في توجيه العمليات في نهاية شباط/فبراير كالآتي:

- إكمـــال مـــستلزمات الاستعداد القتالي وتدقيقها جيداً إلى مستوى الجندي، والاهـــتمام بأعمـــال الـــتمويه والاختفاء باستمرار، والتأكّد من فهم المهام والواجبات وأسلوب تنفيذها لكل المستويات.
- عـــدم إشغال المواضع البديلة إلا بعد تعرّض المواضع الرئيسية للقصف الجوي المعادي.
- بـــثّ دوريـــات الاستطلاع، وفتح المراصد والكمائن الخاصة بأسلحة الدفاع الجوي.

- اعتماد الاتصالات السلكية والشخصية (الارتباط الشخصي)، وتحريم استخدام الاتصالات اللاسلكية إلا في المعارك.
- تدقيق أعمال المساحة للمدفعية، وتدقيق مواضع المدفعية الجوالة.
- التصرف الفوري ومعالجة المواقف الطارئة إذا ما فاجأنا العدو بأعمال الدوريات العميقة، وإعلام المقرات الأعلى بأية تطورات للموقف.

الانفتاح العام للقوات العراقية عشية الحرب

كان الانفتاح العام للقوات العراقية مبنيّاً أساساً على خطط الدفاع الرئيسية عن العراق تجاه عدد من التهديدات التي قد تحدث في آن واحد أو بشكل متعاقب (التهديدات المركبة)، سواء ما يتوقّع من تهديدات إيرانية مباشرة أو غير مباشرة (كاستخدام المتعاونين معها من ميليشيات (بدر) المسلحة ومن الميليشيات المسلحة لحزبي الاتحاد الوطني والديمقراطي الكردستاني البيش مركة)، أو تجاه أعمال الأمن الداخلي في مراكز المحافظات الطرفية، أو تجاه حرب شاملة مع القوات الأميركية والمتحالفة معها.

بالنظر لاحتمالات العزل، والتطويق، وضرب مواقع القيادة والسيطرة المركزية وشلها عمد العراق إلى تقسيم الدفاع العام إلى أربع مناطق رئيسية هي:

- المنطقة الشمالية: وتشمل محافظتي نينوى (الموصل)، والتأميم (كركوك)، وجزء من محافظتي ديالى وصلاح الدين (شمال بيجي). وتتوفّر فيها القوات التالية بقيادة عزت ابراهيم الدوري نائب رئيس مجلس قيادة الثورة...
  - أولاً: الفيلق الأول بقيادة الفريق الركن حميد رمضان التكريتي بثلاث فرق بالإضافة إلى فرقة جيش القدس لمدينة كركوك (شمال بغداد 340 كم).
  - ثانياً: الفيلق الخامس بقيادة الفريق الركن سالم حافظ التكريتي بثلاث فرق بالإضافة إلى فرقة جيش القدس لمدينة الموصل (شمال بغداد 400كم).
- المنطقة المركزية (الوسطى): وتشمل محافظات بغداد، الأنبار (الرمادي)، صلاح الدين تكريت، ديالى (بعقوبة)، وجزء من محافظتي واسط وكربلاء. وتتوفّر فيها القوات الآتية بقيادة قصي صدام حسين نجل الرئيس العراقي صدام حسين.

- أولاً: فيلق الله أكبر حرس جمهوري بقيادة الفريق الركن مجيد حسين الدليمي بثلاث فرق هي: فرقة حمورابي حرس جمهوري (مدرعة) بقيادة اللواء الركن نجم عبد الله العجيلي. فرقة عدنان حرس جمهوري (آلية) بقيادة اللواء الركن سفيان ماهر التكريتي. فرقة نبوخذ نصر حرس جمهوري (مشاة) بقيادة العميد الـــركن محمود خضير الجحيشي. لواء قوات خاصة حرس جمهوري بقيادة العقيد الركن عاصي العبيدي. هذه الفرق مفتوحة للدفاع شمال بغداد.
- ثانـــياً: فـــيلق الفـــتح المبين حرس جمهوري بقيادة الفريق الركن رعد مجيد الحمـــداني بثلاث فرق مفتوحة للدفاع جنوب وجنوب غرب بغداد وشرقها (وجزء من ديالى) والكوت (جنوبي شرق بغداد 170 كم) وهي فرقة المدينة المنورة حرس جمهوري (مدرعة) بقيادة اللواء الركن رياض حسين الناصري. فـــرقة الـــنداء حـــرس جمهوري (مدرعة) بقيادة العميد الركن كريم جاسم الناصـــري. فـــرقة بغداد حرس جمهوري (مشاة) بقيادة اللواء الركن صالح ابراهيم السلماني. لواء قوات خاصة بقيادة العميد الركن أحمد كامل التكريتي. فرقة المعهد التدريبي حرس جمهوري بقيادة اللواء الركن ضاري الحديثي.
- ثالـــثاً: الفـــيلق الثاني (جيش) بقيادة الفريق الركن فوزي ابراهيم اللهيبي بفـــرقتين مفتوحتين للدفاع عن جزء من الحدود الشرقية مع إيران جنوب خـــانقين (180 كـــم شمـــال شرق بغداد) وجزء من حدود التماس مع الميليشيات الكردية المسلحة شمالي خانقين (قضاء كلار).
- رابعاً: جميع مؤسسات وزارة الدفاع وفرق جيش القدس في المحافظات أعلاه.
- خامساً: لواء الحرس الجمهوري الخاص، ووحدات جهاز الأمن الخاص.

- مـــنطقة الفرات الأوسط: وتشمل محافظات بابل (الحلة 90 كم جنوب بغداد)، كربلاء (140 كم جنوب غرب بغداد)، النجف (180 كم جنوب غرب بغداد)، القادســـية (الديوانـــية 110 كم جنوب بغداد)، المثنى (السماوة 340 كم جنوب غرب بغداد)، ولا تتوفّر فيها غير فرق جيش القدس والتنظيمات المسلحة للحزب بقـــيادة عضو القيادة السياسية (مزبان خضر هادي ويعاونه محمود غريب عضو القيادة السياسية).

- المنطقة الجنوبية: وتشمل محافظات البصرة (540 كم جنوب بغداد)، ميسان (العمارة 360 كم جنوب بغداد)، ذي قار (الناصرية 440 كم جنوب غرب بغداد) وتتوفّر فيها القوات التالية بقيادة عضو القيادة السياسية (علي حسن المجيد) ابن عم الرئيس صدام حسين. وهي:
  - أولاً: الفيلق الرابع بقيادة الفريق الركن حكمت كاظم الجحيشي بفرقتين إحداهما مدرعة بالإضافة إلى فرقة جيش القدس بالعمارة.
  - ثانياً: الفيلق الثالث بقيادة الفريق الركن نوري داوود العبيدي بأربع فرق إحداها مدرعة، والأخرى آلية (ميكانيكية)، واثنتان مشاة، بالإضافة إلى فرق جيش القدس في المحافظات أعلاه.
  - ثالثاً: القوة البحرية (قوامها فرقة مشاة).

الانفتاح العام لفيلق الفتح المبين حرس جمهوري

انفتاح المقرات:

- المقر الرئيس في منطقة (الدرعية قضاء المدائن جنوب بغداد 52 كم) بإشراف رئيس أركان الفيلق اللواء الركن فائق عبد الله العبيدي، ويعاونه عدد من ضباط الركن وعناصر المخابرة والحماية مع مقرات الصنوف الرئيسية:
  - أولاً: صنف المدفعية بإمرة اللواء الركن أركان ياسين التكريتي.
  - ثانياً: صنف الهندسة العسكرية بإمرة العميد الركن جاسم محمد المهداوي.
  - ثالثاً: صنف الوقاية الكيماوية بإمرة العميد فيصل سعيد شيت.
  - رابعاً: صنف الحرب الإلكترونية بإمرة العميد حسن الفلاحي.
- المقر الإداري في منطقة سلمان باك الأثرية جنوب بغداد 50 كم، بإشراف مدير الإدارة اللواء نبيل عبد المنعم علي، ويعاونه عدد من الضباط الإداريين، وعناصر من الحماية وعدد المقرات الخدمية.

- أولاً: صنف التموين والنقل (الإمدادات) بإمرة العميد الركن إسكندر التكريتي.
- ثانياً: صنف الإدامة والتصليح (التصليح والإنقاذ) بإمرة العميد هشام الموصلي.
- ثالثاً: صنف الطبابة بإمرة العقيد الطبيب سعد عبد الهادي.

- المقرات التعبوية البديلة بإمرة عدد من ضباط الركن. العميد سامي أحمد شهاب، العميد الركن فلاح حسن، العميد الركن طيار سامي الهيتي، العميد الركن عوف عبد الرحمن، العقيد الركن مزهر وغيرهم، مما لا يسع المجال لذكرهم والمدان لهم بالإخلاص وبالتعاون الكبير الذي لمسته منهم جميعاً وكانت المقرات هذه في الصويرة، النهروان، المسيب، ناحية الرشيد، المدائن.
- انفتاح الفرق وتشكيلاتها والتشكيلات الساندة:

فرقة المدينة المنورة حرس جمهوري – المقر في الصويرة مع المدفعية وعناصر الإسناد الأخرى اللواء المدرع العاشر حرس جمهوري – الصويرة/ناحية الرشيد – اللواء المدرع الثاني حرس جمهوري تقاطع الطريق السريع مع تقاطع المسيب – لواء المشاة الآلي الميكانيكي (14 حرس جمهوري) في المسيب كربلاء – سرية الاستطلاع ضمن القاطع.

- فرقة النداء حرس جمهوري – المقر في (هرز) من أقضية ديالى – اللواء المدرع (41 حرس جمهوري) في بعقوبة – اللواء المدرع (42 حرس جمهوري) في النهروان – لواء المشاة الآلي (43 حرس جمهوري) في منطقة شرق ديالى. سرية الاستطلاع ضمن القاطع.

فرقة بغداد حرس جمهوري المقر مدخل مدينة الكوت – اللواء الرابع حرس جمهوري في غرب نهر دجلة – اللواء الخامس حرس جمهوري جنوب مدينة الكوت على محور الغراف – اللواء السادس حرس جمهوري شرق نهر دجلة. سرية الاستطلاع ضمن القاطع.

- فرقة معهد التدريب حرس جمهوري. المقر والوحدات شرق نهر دجلة (منطقة الحفرية – العزيزية 70 كم جنوب شرق بغداد).

- فــرقة نــبوخذ نصر حرس جمهوري. دخلت بإمرة الفيلق في بداية الحرب في محافظــة (بابل) وكتيبة استطلاع الفيلق بإمرة العقيد الركن روكان العجيلي تدافع عن جسر القائد الاستراتيجي على نهر الفرات في اليوسفية.
- مدفعية الفيلق في قاطع الصويرة - الكوت.
- لواء القوات الخاصة الثالث حرس جمهوري احتياط في بغداد.

الفصل التاسع

طبيعة القيادة العسكرية العراقية
وأسلوب إدارتها للحرب الدفاعية

كانــــت أهم صفات القيادة العسكرية العراقية شدّة خضوعها لإثبات الولاء السياسي لرئيس الدولة، وهو القائد العام للقوات المسلحة. وهي معذورة في ذلك، لأنــــه انعكـــاس وتطبــيق عملي للنهج المعروف للرئيس في التعامل مع القيادات الــسياسية والعــسكرية وغيرها، وبمرور الوقت انسحب هذا الخضوع إلى طبيعة التفكير، وأسلوب عرض الآراء بتحفظ شديد مع مراقبة دقيقة لملامح وجه الرئيس عــندما يكون الطرح مباشراً، أو من خلال الاستقراء الدقيق لما يميل إليه أو يُحجم عــنه، إذا كـــان ذلك الطرح بشكل غير مباشر (دراسات موجزة تحريرية)، ومن خلال التوجيهات الصارمة لإيجاد الحلول الميسورة التحقيق. كل ذلك جعل من آلية صــنع القـــرار الاستراتيجي آلية محدودة النطاق، وبمساحة نقاشية ضيقة جداً، ولا يتعدى ذلك المسلك الذي أوصت القيادة السياسية به (الاستراتيجية العليا) مسبقاً.

كـــان وزير الدفاع الفريق أول (جنرال) سلطان هاشم أحمد من قادة الجيش المتمرســين جداً، وهو المعروف بدماثة خلقه، وطيبته، وخبرته الميدانية الممتازة، إلا أنــه كـــان يعــرف حدوده جيداً (لا يتجاوز حدوده في الاعتراض المباشر على التوجــيهات الــسياسية في الــشؤون الاستراتيجية للمحافظة على مساحة الأمان الشخــصية) ولا ينقــصه شــيء سوى الرؤى الاستراتيجية المعمقة وقلة نشاطاته الأكاديمية. أما رئيس أركان الجيش الفريق أول جنرال ابراهيم عبد الستار التكريتي، فله خبرة ميدانية ممتازة جداً، ويمتلك ديناميكية وظيفية عالية، إلا أنه يفتخر بمركزيته المطلقـــة، وبعدم احترامه للمستويات الأدنى، ويعتقد أن الكفاءة في المناصب العليا

هي الغرق في التفاصيل الصغيرة، إلا أنه يفتقر إلى الثقافة والرؤية الاستراتيجية، وهو في حــذر دائـــم من مكائد رئيس أركان الحرس الجمهوري الفريق أول (جنرال) ســيف الراوي الذي يتّصف بالذكاء الحاد في منافساته غير الشريفة ضد الرجلين أعـــلاه. وكـــان هذا الأخير لبقاً جداً مما قرّبه من الرئيس كثيراً، أما خبرته الميدانية فجيدة، وكذلك تحليلاته النفسية لمن يحيط به، وهو متابع دقيق وقارئ جيد لأفكار الـــرئيس ونجلـــه قـــصي، إلا أنه لا يؤمن بأفكار وبطروحات الآخرين من معيته، وهيئات ركنه، والقادة المرتبطين به، ودائماً ما يحاول الاستخفاف بهم حارماً نفسه من المشورة الكافية (قيادة استبدادية).

كـــان هناك تضارب بالآراء ما بين مجموعة وزارة الدفاع والمقر العام للحرس الجمهوري مما حدا بالطرفين للخوض في مساجلات نقاشية غير بناءة، حيث كان وزير الدفاع يتجنّب الفهم السيئ الذي قد يتبلور ضد شخص المشرف على الحرس الجمهـــوري الـــذي يخضع لآراء رئيس أركانه كونه رجلاً سياسياً، وليس رجلاً عسكرياً عالي المستوى. والأخطر من ذلك أن الرئيس (القائد العام) كان في كثير مـــن الأحـــيان يترك الأمور غير محسوسة لأخذه الموضوعات العسكرية غالباً من منظور سياسي، لأنه غير ملمّ بالأمور الاستراتيجية العسكرية، أضف إلى ذلك عدم اعـــتماده على مراكز بحوث ودراسات استراتيجية متخصّصة لإشراكها في عملية صـــنع القرار بشكل أو بآخر للاستفادة منها حول إيجاد البدائل وتوسيع الخيارات المـــتاحة، وعليه غالباً ما كان السبّاق بين الطرفين حول من يدرك أولاً فحوى ما أوصـــى به القائد العام الرئيس من توجيه استراتيجي على المستوى العسكري، وإن كان ما أوصى به يحتاج إلى كثير من المناقشة والتعديل وفق الحقائق العلمية والعملية لضمان تحقيق ذلك التوجيه على المستوى العملي.

في الـــثلاثين من حزيران/يونيو عام 2002 التقى الرئيس صدام حسين بقادة فـــيالق وفـــرق الحـــرس الجمهوري بحضور نجله الثاني قصي المشرف على الحرس الجمهوري، ورئيس أركان الحرس الجمهوري الفريق أول (الجنرال) سيف الراوي، والأمـــين العام الفريق كمال مصطفى عبد الله، وسكرتير الرئيس عبد حمود، لقد أراد الـــرئيس أن يستمع من القادة عن استعداداتهم لاحتمالات حرب قد تقع في

المستقبل القريب مع أميركا. وفقاً لطبيعة هكذا لقاءات، كان من المعتاد طمأنة الرئيس لما هو مُعدّ، وكان دوري وحسب القِدَم العسكري بعد المشرف ورئيس الأركان فطرحت رأياً يدعو إلى السرعة بإجراء تغيير في أنماط التفكير والسلوك القتالي قد يكون باتجاه (180°) لما هو عليه الآن، أي العمل بعقيدة واستراتيجية عسكرية تتلاءمان وفارق القوى المتعاظم لصالح العدو. وقد استعرضت للرئيس المرتكزات الأساسية التي ستستخدمها القوات الأميركية في الحرب وهي الاعتماد على التفوق التقني، واستخدام الخريطة الرقمية لساحة الحرب، وتحقيق السيادة الجوية، والاستخدام المكثف للقوات الجوية، واستثمار القدرات المعلوماتية الهائلة، والاستخدام المكثف للأسلحة الذكية بالإضافة إلى اعتمادها الكبير على القوات الخاصة وعملاء المخابرات كما رأينا هذا في الحرب على أفغانستان، ناهيك عن قدراتها المعروفة في مجال الحرب النفسية، مما يتطلّب إلغاء العمل وفق نظام الكتل الكبيرة (لواء/فرقة) لأنها أهداف ملائمة جداً للتدمير، والعمل وفق الاستخدام المتدرج والجزئي للقوة (فصيل سرية) ضمن قواطع عمل محدّدة لكل تشكيل قتالي لإدارة حرب عصابات بالقوات النظامية، وأن وحدات الدروع الثقيلة ستكون عديمة الجدوى، وكوني قائداً لفيلق مدرع ثقيل أؤكد حقيقة ذلك، فضلاً عن أنني اعتمدت منذ سنتين مضتا استراتيجية في التدريب على تكتيكات عملية بالوحدات القتالية الصغيرة، فحقّقت نتائج طيبة في تقليل الخسائر المتوقعة للضربات الجوية للمقاتلات والهليكوبترات المسلحة، إلا أن فيلقي سيكون ملزماً باتباع الاستراتيجية العامة لقواتنا البرية، وعليه طرحت هذا المقترح. وقد تكون المدة القليلة القادمة الفرصة الأخيرة المتاحة لإعداد قواتنا بشكل يؤمّن منازلة العدو الأميركي ومن سيحالفه مستقبلاً لأطول مدة ممكنة، مع قبول التنازل المؤقت عن الأرض وبعض الأماكن الحيوية. استمع الرئيس بإمعان لما عرضته لمدة 45 دقيقة، ثم طلب مناقشة هذا المقترح من قبل الحاضرين ومن قبل القيادة العليا للجيش (وزارة الدفاع، رئاسة أركان الجيش) وكانت النتيجة الإبقاء على ما هو عليه من عقيدة واستراتيجية مع إعطائي حرية محدودة في استمرار التدريب لبعض المستويات، وإلزامي بالاستراتيجية العامة المعتمدة للجيش العراقي.

في الحـــادي والعشرين من آب/أغسطس عام 2002 وبوقت مبكر زارني نجل الـــرئيس قصي في مقري في جنوب بغداد بحوالى 50 كم، وكان بوضع نفسي غير مريح على غير عادته، وبعد تبادل التحية طلب الاجتماع بي على انفراد، مشيراً إلى عدم الحاجة للقاء عناصر المقر وفقاً للسياق العام للزيارات، وأخبرني أن لديه بضعة أسئلة ينتظر الإجابة عليها وبالصراحة التامة التي يعهدها بي... فكان السؤال الأول: "هل الحرب مع الولايات المتحدة الأميركية أمر محتمل؟" فأجبته: "بلا شك إنها أمر واقـــع وقريب وبالرغم من أنني بعيد عن دوائر المعلومات اللازمة لمعرفة ذلك، إلا أنـــني مـــن خـــلال منظور استراتيجي أؤكد ذلك، للتقاطع الحاد ما بين أهداف ومرتكـــزات الاســـتراتيجية الأميركـــية الجديـــدة في المنطقة وهي (النفط، الأمن الإسرائيلي، محاربة الإرهاب، فرض الديمقراطية وفق المعايير الأميركية) وهذا متقاطع بالكامـــل مـــع أهداف ومرتكزات الاستراتيجية العراقية، ويؤكد هذا الرأي طبيعة الخطـــاب السياسي الأميركي حالياً، يقابله محافظة الخطاب السياسي العراقي على ثوابـــته المعـــروفة"، ثم كـــان الـــسؤال الثاني: "ما هو توقّعك كنسبة عامة للذين سيـــصمدون من قوات الحرس الجمهوري في الحرب القادمة حتى نهايتها؟" فأجبته: "إذا حافظنا على استراتيجيتنا هذه؛ وقد أثبتت فشلها في حرب العام 1991 بالرغم من أن قدراتنا آنذاك كانت أضعاف قوتنا اليوم، ستصاب قواتنا بالهلع لشدة التدمير المتوقع بفعل الضربات الجوية والصاروخية المعادية، فأفضل نسبة أتوقّعها هي صمود 50% مـــن الـــضباط، و25% مـــن الجنود. وإذا ما عدّلنا عن تلك الاستراتيجية، واعـــتمدنا اســـتراتيجية مشابهة لحرب العصابات أي عدم استخدام قواتنا ككتل كبيرة، أتوقّع أن نسبة الصامدين في الحرب ستكون معقولة ومؤثرة".

أما السؤال الثالث فكان: "ما مدة الحرب المتوقعة حسب تقديرك؟" أجبته: "أعيد القـــول إذا كـــنا على ما نحن عليه اليوم فالحرب ستكون قصيرة تتراوح ما بين 6-8 أســـابيع لـــشدّة التدمير وفقدان حرية الحركة لقواتنا، أما إذا عدّلنا إلى الاستراتيجية الأخـــرى فإن الحرب قد تطول لفترة تتراوح ما بين 6-8 أشهر". فردّ عليّ مباشرة: "وما الفائدة إذاً وأنت ترى النتيجة ذاتها أي خسارتنا للحرب؟" أجبته: "الفرق في ذلك أن اســـتمرار الحـــرب لمـــدة طويلة يجعلها من الناحية السياسية والمعنوية متعذرة على

الجانب الأميركي، وبالتأكيد إن تصاعد أرقام خسائرهم بالأرواح يؤثّر على الرأي العام لديهم". وكان هناك عدد من الأسئلة حول تقييم اثنين من القادة الذين يعملون بإمرتي وهما من أقربائه؛ وهما اللواء الركن رياض حسين الناصري قائد فرقة المدينة المنورة، والعميد الركن كريم جاسم الناصري حيث تقرّر استبدالهما بقائد الفرقة المدرعة السادسة العميد الركن عجمي برع الناصري، واللواء الركن خالد الهاشمي لعدم التزامهما وقلة مثابرتهما، وفي سيارته الاضبارة التي تحتوي على المسوّدة الرئاسية لإصدار مراسيم النقل الجديدة لتوقيعها من قبل الرئيس ظهر هذا اليوم، فأجبته: "إن تقييمي لهما يتناقض والمعلومات التي وصلتكم، والحق يقال إنهما حريصان جداً على تنفيذ كل التوجيهات والوصايا الصادرة من المقر العام، ومن الفيلق، كما أنهما ملتزمان جداً بمناهج الإعداد القتالي من كل النواحي، وهذا لا يعني التقليل من كفاءة البديلين المرشحين، فقد عملا بإمرتي سابقاً لفترات طويلة. فاقتنع وعدل عن نقلهما، إلا أنه شكا لي في نهاية اللقاء وهو يهمّ بالمغادرة من بعض مظاهر الفساد الإداري لبعض الأسماء المعروفة وهو غير قادر من الناحية الأخلاقية على مجابهتهم بآلتهم هذه. (هناك موضوع مهم يجب أن تعرفه وتتصرف بشأنه بدقة ألا وهو فريق كمال مصطفى (أمين السر العام للحرس الجمهوري) نحن نشك في ولائه).

بعد ذلك تصاعدت الأزمة السياسية مع العراق بادعاء الأميركيين أن العراق يخفي أسلحة دمار شامل. وبقوة الفعل السياسي الأميركي في المحافل الدولية والإقليمية اقتربنا كثيراً من الحرب، فماذا كانت خيارات القيادة العراقية؟

لقد جرت عدة مشاريع تدريبية (بدون قطعات) على مستوى القوات المسلحة، والحرس الجمهوري، والقيادات العسكرية الأخرى، والقيادات الحزبية. ومع الأسف كانت الافتراضات غير واقعية لشدة ولقوة الإحياءات السياسية، ونوقش الكثير من العوامل المؤثرة على الخطط الدفاعية بسطحية مخيفة، وكان للحماسة البلهاء غير المبررة فعلها السحري بإقرار خيار الدفاع الموضعي ضمن قواطع الدفاع الأربعة الرئيسية، ووفق الحرب النظامية باعتماد مبدأ الصمود تجاه الضربات الجوية والصاروخية، والحيلولة دون إحداث ثغرات مهمة في الدفاعات العراقية يستثمرها مشاة الجيش المعادي أو دروعه لعدم قدرة العدو على تحقيق

تفـــوّق بالقـــوات البرية. وكان الافتراض العام أن كل الطاقات العراقية المسلحة ســتخوض غمـــار الحـــرب بقدرة معقولة، وأن التوازن في القواطع الدفاعية كان متـــساوياً تقـــريباً وفقاً لاحتمالات وخيارات العدو في التعرّض سواء من المنطقة الـــشمالية أو من المنطقة الغربية أو المنطقة الجنوبية، والغريب أن خطة الدفاع عن بغـــداد ظلّـــت غـــير محسومة لحين اندلاع الحرب. والأغرب من ذلك، هو ذلك الإصـــرار على خوض المعركة الحاسمة في بغداد. وقد أعلن مبكراً عن نوايا القيادة العـــراقية العلـــيا بانتظار العدو فيها، إلا أن الاحتمال الأكثر ترجيحاً لدى القيادة العراقية كان قيام العدو بالتعرض من جهة الغرب.

أين تكمن محنة الاستراتيجية العليا العراقية في حرب العام 2003؟

يمكن إجمال محنة الاستراتيجية العليا العراقية في العام 2003 بما يلي:

- إن الاستراتيجية العليا العراقية كانت في وضع نفسي وأخلاقي ومادي غير قادر علـــى تجـــنّب الحرب بالرغم من عدم وجود مسوغ قانوني للولايات المتحدة بشنّها، فرأت أنه من الأنسب الذهاب للحرب بشجاعة إذا كان ذلك قدرها.
- حـــرية محـــدودة جداً في العمل السياسي، نتيجة الضغوط السياسية الهائلة التي مارستها الولايات المتحدة وبريطانيا في المحيطين الإقليمي والدولي.
- القوة الخادعة للكتلة الأوروبية (فرنسا، ألمانيا) وروسيا في مجلس الأمن الدولي للحيلولـــة دون نشوب الحرب، والتعويل على الطرق السلمية (دور المفتشين الدولـــيين) لحل الأزمة، مما دفع القيادة العراقية للاعتقاد بأن الحرب قد لا تقع أو أنها ستتأخر كثيراً.
- رفـــض الرأي العام الدولي لنظرية الحرب، وخاصة في الدول الداعية للحرب، فأكـــبر المـــسيرات الـــشعبية الرافضة للحرب والتي قاربت مليون إنسان من المحتجين جرت في لندن، وواشنطن، ومدريد وغيرها في مدن العالم الكثيرة، مما زاد من اطمئنان القيادة العراقية، وزاد من ثبات موقفها.
- المـــوازنة الـــصعبة للقرار السياسي العراقي عندما أفصحت الولايات المتحدة وبريطانيا عن الهدف الاستراتيجي الخطير من الحرب المتوقعة، ألا وهو إسقاط

النظام السياسي العراقي الحالي، وعليه كان قبول المخاطرة المهلكة محسوباً من قبل القيادة العراقية والاعتماد على الحظ كما في السابق.

- تدنٍّ حاد في الولاء السياسي الحقيقي للقيادة العراقية على المستوى العام للشعب والقوات المسلحة بالرغم من أن نتائج آخر استفتاء حول زعامة الرئيس صدام حسين قد جاءت بنسبة 100%!؟ مما يؤكّد هبوط احتمالية القتال الجدي للقوات المسلحة والحزب.
- إن الانشغال الدائم بتطوّر الموقف السياسي (إدارة الأزمة) من قبل رأس النظام السياسي في الأشهر الثلاثة الأخيرة قبل الحرب، شلّ القيادة في موضوع مراجعة الخطط الاستراتيجية بصورة دقيقة، وكان هناك عدد من التوجيهات في حاجة إلى تعديل أو إقرار على بعض المقترحات غير المحسوسة ومنها خطة الدفاع عن بغداد مما أدّى إلى تنفيذ خطط غير ناضجة أو محسوسة.

عناصر مأزق الاستراتيجية العسكرية العراقية

في حرب العام 2003

إن وضع الاستراتيجية العليا العراقية السيئ في حرب العام 2003، انعكس بالطبع على الاستراتيجية العسكرية العراقية، فجعلها استراتيجية عاجزة عن مواجهة ما ينتظرها في الحرب عملياً. وأيقن الجميع أنها ستكون الحرب الأخيرة، وسميت عراقياً بالحرب الحاسمة (أم الحواسم) ويمكن توضيح أهم عناصر ذلك المأزق بما يلي:

- حجوم وأبعاد الأهداف الاستراتيجية التي يتوخّاها العدو، والتي أُعلن عنها صراحةً، والتي تعني احتلال العراق لإسقاط النظام السياسي بزعامة الرئيس صدام حسين، وقد أشير إلى أنها ستكون حرب شاملة وحاسمة.
- الموازنة شبه المستحيلة في ميزان القوى بين الطرفين، لانهيار قدرات الطيران والدفاع الجوي العراقي مع تدنٍّ خطير في مستويات الكفاءة لدى المقاتلين والمنظومات التسليحية والمعدات القتالية العراقية بشكل عام.

- الاختيار الصعب ما بين التنازل المؤقت عن الأرض، ومتطلبات إيقاف أو إبطاء تقـــدّم العدو في المسالك المحتملة للتقرّب، والذي يمتلك قابلية عالية على حرية العمل وتغيير الاتجاهات مع الافتقار إلى حرية الحركة لقواتنا إلا في حدود ضيقة جداً، أي أن المناورة بالقوات ستكون شبه متعذرة على المستويات الاستراتيجية والعملياتية لتوفّر النسبة العالية لاحتمالية تدميرها بالقوات الجوية المعادية.
- الافتقار إلى أسلحة الردع الاستراتيجية وحتى العملياتية، وذلك بعدما أُجبرت القـــيادة العراقية كاستجابة للكتلة الأوروبية المناهضة للحرب في مجلس الأمن علـــى المـــوافقة على تدمير صواريخ أرض أرض محدودة المدى (150 كم) نوع صمود 2.
- الانخفـــاض الحـــاد بالمعـــنويات العامة لدى المقاتلين العراقيين نتيجة للحرب الإعلامـــية الـــشرسة للإعـــلام المعادي، علاوة على نشاط الطابور الخامس، وخاصـــة الموالين لإيران في المناطق الجنوبية والفرات الأوسط من العراق دون القدرة على التصريح بذلك لأسباب سياسية.
- إن إعلان القيادة السياسية المباشر بقبول المعركة الحاسمة في العاصمة بغداد، جعلـــها تـــتحمّل، الثقل الأكبر من القصف الاستراتيجي المعادي، وسمح للعـــدو بالتخطي العملياتي للكثير من الأهداف لصالح حشد القوة الملائمة نحـــو بغداد، بالوقت الذي كانت خطة الدفاع عن بغداد يشوبها الكثير من الغمـــوض مـــن حيث جوهر العمل ومسؤولية القيادة والسيطرة المتداخلة أساساً.
- الحسابات الخاطئة بالمقارنة مع حرب العام 1991 لتقدير حجم القوات الكافية للهجـــوم علـــى العراق، بالإضافة إلى وضع الفرقة المدرعة الرابعة الأميركية المـــتأرجح مـــا بين ساحتي العمليات التركية والكويتية عند نشوب الحرب، فكانـــت القـــيادة العسكرية العراقية تتوقّع تأخير التعرض المعادي لحين حشد قوات لا تقل عن 400 ألف مقاتل.
- الإبقاء على الكثير من القوات العراقية خارج أهداف الأرتال المعادية التي غزت العراق من الجنوب، وهدر كبير للوقت في الاستفادة من تلك القوات المجمدة

خارج منطقة التأثير نظراً لتمسّك القيادة بتقسيم العراق إلى أربع مناطق دون وضـــع آلية مناسبة لحساب المناورة بالقوات قبل التعرض المعادي، الأمر الذي نتج عنه فيما بعد تكبّد تلك القوات خسائر جسيمة خلال تنقّلها تحت رحمة القصف الجوي المعادي.

اندلاع الحرب وسير العمليات

كان هناك العديد من الدلائل على الاندلاع القريب للحرب أهمها:

- التصريحات السياسية لأقطاب السياسة الأميركية والبريطانية ومن ساندهم من أقطـــاب السياسة الإسبانية والأسترالية، وكانت تلك التصريحات تشير بشكل مباشر إلى توقيت وطبيعة الحرب مع وضوح أهدافها الظاهرية والحقيقية.
- عملـــيات تهيئة مسارح العمليات المحيطة بمسرح العمليات العراقي من النواحي الفنـــية والتقنية والإدارية، بحيث جرى التركيز على الموانئ والمطارات التركية والكويتية والخليجية وخاصة قاعدتي العديد والسيلية القطريتين.
- عملـــيات الحشد الاستراتيجي للقوات الجوية والبحرية والبرية وتكاملها وفق نـــسب تؤهّلها لبدء التعرض العام، وكان الاعتقاد السائد لدينا أن العمليات الجـــوية للطائـــرات والصواريخ الجوالة تسبق العمليات البرية بمدة لا تقل عن أسبوعين يلي ذلك استهداف الأهداف السياسية من خلال المعلومات الدقيقة المحصلة من قبل القوات الخاصة (الدلتا السيلز أس أي أس).
- الـــتأكد من دخول مجموعات من عناصر الاستطلاع الأميركية والبريطانية في الأسبوع الأول من شهر شباط/فبراير 2003 بحثاً عن صواريخ أرض - أرض بعـــيدة المدى يتوقّعون وجودها غرب نهر الفرات لضرب إسرائيل، وكان لي رأي في معالجتها، ولا أعرف الإجراءات التي اتخذت بهذا الصدد.
- تحديـــد مـــناطق عازلـــة في شمالي الكويت وفي غربها لعمل القوات الأميركية والبريطانية.
- فـــتح عدد كبير من المنافذ، وأعمال ردم الخندق، والجدار العازل الكويتي مع الحدود العراقية.

- الإنـــذار الأميركي البريطاني للعراق والذي ينصّ على ضرورة مغادرة الرئيس العراقـــي ونجليه العراق خلال 48 ساعة، مع تعليقات سياسية تنصّ على أن الحرب قائمة لا محال حتى لو استجاب الرئيس العراقي للإنذار.
- كثافة وسائل الاستطلاع المعادية في الأجواء العراقية.
- انفتاح مراكز القيادة والسيطرة الأساسية للعدو لإدارة الحرب، فالمركز الرئيسي في إمارة قطر بقاعدة السيلية للقيادة العامة تحت قيادة الجنرال تومي فرانكس، والمركز الجنوبي في الكويت قرب قاعدة علي السالم الجوية، ومركز قيادة سيار انفـــتح قرب الروضتين شمالاً، أما مركز القيادة الجوية فكان في قاعدة العديد القطـــرية، ومركـــز القـــيادة البحري كان في قاعدة أرمادا البحرية في مملكة البحـــرين تتـــبعها 154 قطعة بحرية أكملت انفتاحها القتالي، منها 99 قطعة أميركية من ضمنها خمس حاملات طائرات هي ترومان، روزفلت، لنكولن، كونستلاش،كيتي هوك مع حاملتي طائرات بريطانيتين هما أوشن وأرك رويال تحمـــلان طائـــرات نوع هارير ذات الإقلاع العمودي، بالإضافة إلى حاملة طائـــرات إيطالـــية، وكانت الطرادات تحمل 2028 صاروخاً جوّالاً من نوع توماكات 600 صاروخ هاربون ضد الدفاعات الجوية، أما مجموع الطائرات المقاتلة مع الطائرات المحمولة على حاملات الطائرات فقد بلغ 994 طائرة من أحدث الطائرات الحربية (بي 1، بي 2، بي 52، أف 117، أف 14، أف 15، أف 16، أف 18، التورنـــيدو، الهاريـــر، أي 10) عـــدا المئات من طائرات الهليكوبتـــر المسلحة والنقل كالأباتشي، وبلاك هوك، وشينوك، وأكستابل، وسيكورســـكي بالإضـــافة إلى عـــدد من طائرات التحسس كالبلاك بيرد، وطائرات الأواكس، والان تو سي، عدا طائرات بدون طيار وهي بالعشرات.

في لـــيلة 18-2003/3/19 أنذرتـــنا وســـائل الإنذار لأسلحة الدفاع الجوي باقتـــراب أكثر من عشرين هدفاً جوياً حربياً من جنوب بغداد، إلا أنها بعد دقائق غادرت الأجواء العراقية.

وفي الساعة 05:45 يوم العشرين من آذار/مارس شنّت طائرتا شبح أميركيتين نـــوع أف 117 غارة جديدة على مزرعة رغد صدام حسين في منطقة الدورة على

نهـــر دجلة ببغداد، حين تصوّرتها وكالة الاستخبارات الأميركية بأنها تضمّ هدف الفرصـــة الذهبـــية؛ أي تواجد رئيس الدولة وأركانه الأساسيين في هذا المكان. ثم أعقـــب هذه الغارة توجيه أول موجة من الصواريخ الأميركية الجوالة ضد عدد من الأهـــداف في بغـــداد، فـــبدأت الحرب بصورة باهتة وبمجموع الصواريخ الجوالة والمقـــذوفات الموجهة لليوم الأول لم يتجاوز 40 صاروخاً ومقذوفة، وكان هناك إعـــلان مـــن قبل العدو باحتمال قتل أو إصابة الرئيس العراقي في تلك الضربات الـــصاروخية، في حـــين كان الرئيس في أحد المنازل المتواضعة بحي التشريع ببغداد قـــرب القـــصر الجمهـــوري رقم واحد. وبعد فترة تقارب الساعتين ظهر الرئيس العراقـــي بملابـــسه العسكرية، وهو يذيع نداءً بالتصدي للغزو الأميركي البريطاني للعراق، ولكن بحماسة ضعيفة.

في التوقـــيت نفسه، وخارج توقعاتنا، بدأت العمليات البرية من قبل الجيش البريطاني بهجوم مباشر على الشطر العراقي من مدينة أم قصر (أخذ نصفها إجحافاً بعد العام 1991، وأعطي إلى الكويت) التي كان يدافع عنها لواء المشاة 45 العراقي والـــتي دخلها قبل 72 ساعة فقط من بدء الحرب، حيث كانت الفكرة الأساسية بعدم جدوى القتال في هذه المدينة، إلا أن رأياً طارئاً استدعى الدفاع فيها، وكانت معركة أم قصر أطول معارك الحرب، ودامت حوالى 17 يوماً. هذا الهجوم الجبهوي نفّذتـــه، وساندته القوات الآتية: الجهد الرئيسي لمهاجمة منطقة البصرة الفرقة الثانية مـــن مـــشاة البحـــرية الأميركية، وقوة واجب بريطانية، واللواء المدرع البريطاني الـــسابع، واللـــواء المظلي البريطاني 16، وفوج قوات خاصة بريطاني، وفوج مشاة بحـــري بريطاني مع عملية إنـــزال بحري للقوات البريطانية على ميناء تلك المدينة، فجـــرى القتال العنيف فيها. كانت المقاومة العنيدة التي أبداها هذا اللواء العراقي خارج تصوّر كلا الطرفين العراقي والبريطاني... في الوقت الذي اندفعت فيه طلائع القـــوات المدرعـــة الأميركـــية بدخـــول الصحراء العراقية جنوب غرب البصرة بتـــشكيلات جحافـــل معـــركة من الدبابات، وعجلات القتال المدرعة، وعناصر الاســـتطلاع، والطائرات المروحية المسلحة، والقوات المحمولة جواً وبأقصى إسناد ناري وتحت غطاء جوي كثيف، في تلك الأثناء كانت القوات الجوية الاستراتيجية

الأميركية تقوم بقصف سلسلة من الأهداف الثابتة في عموم العراق، إلا أن 90% من ذلك القصف الاستراتيجي استهدف العاصمة بغداد. وكانت الليلة التالية فيها ليلة ليلاء أسماها العدو ليلة الرعب والصدمة حين أصابت الصواريخ الجوّالة (كروز) وعددها ألف صاروخ وخمسمائة وخمسون مقذوفة موجّهة بالليزر أطلقتها الطائرات الأميركية المختلفة بأوزان من 1-2-3-7 طن معظم المباني الحكومية والعسكرية والرئاسية، وبعض الجسور. إلا أن محطات توليد الطاقة الكهربائية، ومصافي الوقود، ومحطات الإذاعة والتلفزيون لم ينالها هذا القصف العنيف مثلما تناولتها الضربات الجوية عام 1991.

كانت الأهداف الأولى للقوات الأميركية السيطرة على آبار نفط الرميلة الضخمة والتي تقدّر بحوالى 600 بئر. ولم يكن دفاعنا يشمل هذه الأهداف باستثناء آبار النفط القريبة من المواضع الدفاعية الرئيسية. وكان الرئيس العراقي قد وعد خلال لقاء صحافي أميركي قبيل الحرب بعدم تدميرها، لأنها قوت الشعب العراقي - وقد صدق بوعده - فلم يدمّر منها سوى تسعة آبار فقط نتيجة أخطاء فنية. وفي الوقت الذي حقّقت فيه القوات البريطانية التماس بمواضع الفرقة الآلية 51 في قضاء الزبير جنوب غرب البصرة، كانت الأرتال المدرعة الأميركية تغذّي السير حذرة من أية مقاومة غير محسوبة، فيما مئات الطائرات من مختلف الأنواع (بي 1، بي 2، بي 52، أف 117، أف 15، أف 16، أف 18 - التورنيدو البريطانية) تقصف على مدار الساعة مئات الأهداف، علاوة على عشرات الصواريخ الجوّالة، إلا أن معنويات العراقيين في معظم الأماكن التي كان ينالها القصف الجوي والصاروخي وفي جبهات القتال كانت عالية؛ وقد فاجأت القوات الغازية. وكانت أسلحة الدفاع الجوي ومنظوماتها تتحمّل الضغط الكبير من تلك الهجمات النهارية والليلية. وقد استدعى انتباهي طائرات التفوق الجوي الأميركية نوع أف 15 وهي تشاغل بعض الأهداف الأرضية.

كان صمود اللواء 45 مشاة في أم قصر مدعاة لزعزعة الثقة بالقوات الغازية، وظهر ذلك جلياً في وسائل الإعلام الغربية والأميركية. كما أن تأخّر عمليات الجيش البريطانية في احتلال مدينة الزبير نتيجة للمقاومة الشديدة التي أبدتها قطعات

الفيلق الثالث العراقي كالفرقة المدرعة السادسة والفرقة الآلية 51 ثم تأخّرها في تطويق مدينة البصرة قد أثّرا على سرعة تقدم القوات الأميركية على محور الفرات، حيث كانت القوات الأميركية قد حقّقت التماس بالقوات المدافعة عن مدينة الناصرية (جنوب غرب بغداد 440 وشمال غرب البصرة 100 كم) خلال الساعات 72 الأولى من بدء الحرب. لقد كانت الفرقة العراقية الحادية عشرة، وفرقة جيش القدس تدافعان عن تلك المدينة التي يشطرها نهر الفرات إلى شطرين. وكانت قيادة خاصة تدير القتال هناك متمثلة بأحد أعضاء القيادة السياسية عادل الدوري ويعاونه الفريق الركن رعد عبد المجيد التكريتي. لقد كانت الخطة الأميركية تهدف إلى تطويق هذه المدينة من اتجاهين الجنوبي مفرق سوق الشيوخ، والشمالي وذلك بواسطة قطع طريق الناصرية الشطرة 45 كم شمال الناصرية بعد عبور نهر الفرات على جسر عسكري شمال الناصرية، إلا أن عملية التطويق من الجنوب، صادفت مقاومة شديدة، حيث وقعت أولى الخسائر الأميركية في مفرق سوق الشيوخ من قتلى وجرحى وأسرى، وكان لهذه النتيجة السلبية صدمة قوية على الشعب الأميركي والسياسة الأميركية التي قادت الحرب، وخاصة حين عرض التلفزيون العراقي صوراً لتلك الخسائر البشرية. عندها جنّ جنون الإعلام الأميركي، واتّهمت القيادة العراقية بانتهاك اتفاقية جنيف حول الأسرى (لقد ناقضت أميركا نفسها بعد الحرب حين عرضت جثتي نجلي الرئيس العراقي صدام حسين وقالت إن هذا لا ينتهك اتفاقية جنيف).

إن العبور السريع شمال مدينة الناصرية لنهر الفرات وقطع طريق الناصرية - الشطرة قد أحدثا ضجة كبيرة في صفوف المواطنين والمقاتلين المدافعين عن تلك المدينة. كانت الطائرات المقاتلة والمروحيات المسلحة تساهمان في إنقاص مستويات الروح المعنوية علاوة على دور الطابور الخامس والقادم قسم منه مع القوات الأميركية. وعلى ما يبدو، ارتأت القيادة الأميركية الميدانية تطوير هجومها وفق مساعدات محلية للاندفاع على محور الغراف (نهر يتفرّع من دجلة من الكوت إلى نهر الفرات شمال الناصرية) فاندفع جحفل لواء أميركي من المارينز مسند بالطائرات المقاتلة ومروحيات الأباتشي على هذا المحور المحدود الانفتاح خارج

الطـــريق العام الضيق محقّقاً نجاحاً مهماً من الشطرة الفجر الرفاعي قلعة سكر الحي (50 كـــم جنوب الكوت). لقد فاجأ هذا النجاح الأميركي القيادة العراقية، وأدّى إلى انهـــيار الفـــيلق الـــرابع في قاطع العمارة الذي هاجمته الطائرات المقاتلة فقط. وتكلّـــف بالعمليات الأرضية عناصر (قوة بدر) الموالية لإيران وهي بالأساس من العراقيين الذين وقعوا بالأسر الإيراني، وانقلبوا على النظام السياسي العراقي.

إن نجـــاح القوات الأميركية بالاندفاع على محور الغراف صعوداً باتجاه مدينة الكـــوت (شمـــال شـــرقي بغداد 170 كم) عزل القاطع الجنوبي. فكانت مناورة اســـتراتيجية ناجحة، مما حكم على عمليات الدفاع في البصرة والناصرية بالفشل، وإذا مـــا نظـــرنا إلى الجهـــد الأميركي الرئيسي الذي استمرّ بالاندفاع على محور الفرات، بعد الناصرية سنشعر بخطورته وبسرعة اندفاعه بالإضافة لدخول قسم من قطعاتـــه مديـــنة السماوة (340 م جنوب غرب بغداد) ثم الاندفاع لرتل آخر من المارينـــز من السماوة باتجاه الديوانية 140 كم جنوب بغداد بعد عبوره نهر الفرات علـــى جـــسر عسكري أقاموه شمال المدينة، في ذات الوقت سقطت مدينة الزبير ومطار البصرة الدولي بيد القوات البريطانية مع نجاح قوة بريطانية أخرى بالاندفاع مـــن ميـــناء الفـــاو إلى منطقة أبو الخصيب لتحقّق التماس بقطعات القوة البحرية المدافعـــة على ذلك المقترب المؤدي إلى البصرة فتخلخلت دفاعات هذا الفيلق تحت وطـــأة الـــضربات الجوية المستمرة ليل نهار مما أدّى إلى سقوط البصرة بيد القوات البريطانية...

كانت قيادة الفرات الأوسط في وضع مرتبك بعد نجاح القوات الأميركية في تخطي مدينة السماوة بعد السيطرة على مداخلها ومخارجها، فأعفى الرئيس العراقي قائد هذه المنطقة مزبان خضر هادي عضو مجلس قيادة الثورة. و لم يكن في السماوة قوات جيش، وإنما فقط جيش القدس، وبعض التنظيمات المسلحة للحزب، وفدائيو صـــدام، وبالـــرغم مـــن عدم وجود مقاومات شديدة إلا أن الرتل المندفع باتجاه الديوانـــية كـــان يتقدّم بحذر شديد. وإذا ذهبنا إلى الجانب الغربي لوجدنا الجيش الأميركي قد حقّق التماس بالقوات المدافعة عن مدينة النجف، وبسرعة عالية دخل الجنود المحمولون جواً من الفرقة 101 بقيادة الميجر جنرال ديفيد بتراوس إلى داخل

هذه المدينة المقدسة عند الشيعة، إلا أنهم منعوا سلمياً من قبل الجماهير التي حالت دون الاستمرار بالتوغل كثيراً. فبالرغم من انتفاضتها على السلطات الحكومية هناك مؤيدة لدخول القوات الغازية، إلا أن هؤلاء الجنود الأميركيين قد فاجأتهم مظاهرات لأهل النجف ترفض بقاء القوات الغازية قريباً من ضريح الإمام علي كرّم الله وجهه، فاضطروا إلى الخروج سريعاً. وكان الذي يقود معركة الدفاع عن النجف الفريق الركن المتقاعد صلاح عبود قد طلب - وفي هذا الموقف الصعب - إسناداً نارياً من قوات الحرس الجمهوري، فخصّصت لهُ عدداً من مدافع فرقة المدينة المنورة حرس جمهوري ذات المدى البعيد لتلبية ذلك الطلب، حيث كانت طوائف المدافع ترمي الأهداف الأميركية على الإحداثيات المعطاة من مقر ذلك القائد وتعبر هذه المعلومات بالوسائل المحورية واللاسلكية. وقبل نهاية الأسبوع الأول للحرب استطاع الأميركيون الاستيلاء على جسر الكفل الاستراتيجي، واحتلوا مدينة الكفل (يعتقد فيها قبر النبي ذي الكفل وهو من أنبياء بني إسرائيل خلال الأسر البابلي). وقد نسبت إحدى الصحف الغربية حينها إلى قائد الفرقة المحمولة جواً (101) الأميركية قوله: "وصلنا إلى حدود إسرائيل الشرقية؟" وكان هذا الجسر مهيئاً للتخريب، ونتيجة لأخطاء آمر حرس التخريب والآمر المخول لم ينسف ذلك الجسر. ورافق ذلك في ليلة 3/26 إنزال اللواء 173 من الفرقة الأميركية 101 المحمولة جواً في المنطقة الكردية شمالي العراق للتعرّض مع الأكراد للفيلقين الأول والخامس، حيث كان مقرراً اندفاع الفرقة المدرعة الأميركية الرابعة وفرقة المشاة الأميركية العاشرة من الأراضي التركية نحو شمالي العراق، إلا أن القيادة السياسية والبرلمان التركي رفضا ذلك كما أسلفنا. من ناحية أخرى، ومن الاتجاه الغربي للعراق قامت قوة من الفرقة المحمولة جواً 82 الأميركية قوامها خمسة آلاف رجل انطلاقاً من منطقة قريبة من الحدود الأردنية بالإنزال على منطقة سد حديثة الكائنة شمال مدينة الرمادي 140 كم واحتلالها، وهي أيضاً مفرق طرق استراتيجي. وقد سبقتها مجاميع من القوات الخاصة بقيادة ضابط عراقي سابق يدعى محمد عبدالله الشهواني توغّلت عميقاً بالهليكوبترات نحو مواقع مفترضة لانطلاق صواريخ أرض - أرض في الأسبوع الأول من شهر شباط/فبراير، واندفعت

مجموعات منها بواسطة عجلات عسكرية نوع (تويوتا) محورة للعمل في الصحراء لمدة طويلة إلى منطقة جنوب بحيرة الحبانية تدعى قناة المجرة التي تنقل المياه إلى بحيرة الرزازة جنوباً نحو كربلاء. في ذات الوقت فتح عدد من الضباط العراقيين الهاربين إلى الغرب سابقاً وعلى رأسهم سليم شاكر الامام مقراً لإدارة العمليات للمعارضة في منطقة الكيلو 160 على الطريق الموصل ما بين الأنبار والحدود الغربية من العراق.

بالتأكيد، كنت أتابع الموقف الحربي العام منذ اللحظة الأولى على خريطتي الخاصة بقياس كبير 1/مليون وكل خطوة كنت أحاول تحليلها جيداً. وحتى اليوم السادس للحرب كان تماسنا مع القوات الأميركية من خلال التراشق بالنيران على جبهة النجف، ومع القوة الجوية والصاروخية بأسلحة دفاعاتنا الجوية، وفي بداية العاصفة الرملية القياسية التي هبّت على العراق يوم 3/25، والتي كانت الأولى في عنفها وكثافتها منذ خمسين عاماً، والتي استمرت لمدة ثلاثة أيام، كان أول اشتباكاتنا وقتالاتنا مع الأميركيين في معركة الكفل. وقبل التطرق إلى هذا الموضوع أودّ أن أعطي صورة لانفتاح قوات فيلقي قبل نهاية الأسبوع الأول من الحرب وكالآتي:

- فرقة المدينة حرس جمهوري تدافع عن خط الصويرة مفرق الطريق السريع مع طريق المسيب المحاويل المسيب كربلاء.
- فرقة بغداد حرس جمهوري تدافع عن قاطع الكوت، ودفعت باللواء الرابع منها بالإضافة إلى سرية مقاومة دروع من الفيلق إلى قاطع النعمانية الشوملي، حيث توقّعت، ومنذ أشهر قبل الحرب اندفاع العدو من الديوانية إلى النعمانية، وسحبت بطارية مدفعية دفعها قائد الفرقة على ضوء تدخل من رئيس أركان الحرس الجمهوري من شمال الحي إلى داخل مدينة الكوت، وعزّزت قاطع الفرقة ببطاريتين إسناد عام من الفيلق للتأثير على العدو في قاطع الشوملي النعمانية إذا حقّق التماس بها.
- فرقة النداء حرس جمهوري. لا تبدل. (قاطع جنوب وشرق بغداد وبعقوبة).
- فرقة معهد التدريب حرس جمهوري. لا تبدل. (قاطع شرق الصويرة).

- فرقة نبوخذ نصر حرس جمهوري التي وصلتني من الفيلق الأول حرس جمهوري في بداية الحرب تدافع في قاطع الحلة (90كم جنوب بغداد) من ناحية الإمام القاسم - مفرق الطريق السريع ديوانية/بغداد وفي الهاشمية والحلة إلى الهندية لستر المقترب الوسطي لمدينة بغداد.
- كتيبة استطلاع الفيلق ناقص سرية الاستطلاع العميق والفوج الثاني من اللواء المدرع 10، لحراسة الجسر الاستراتيجي غرب اليوسفية جرف الصخر، وكان الجسر مهيئاً للتخريب، وقد سلّمت آمر الكتيبة آمراً تحريرياً بنسف الجسر حال الإحساس باقتراب العدو منه.
- سرية الاستطلاع العميق على خط النفط الاستراتيجي ما بين كربلاء والنجف وبإسنادها بطارية بعيدة المدى للتأثير على القطعات الأميركية المتقدمة من الحيدرية (جنوب كربلاء 40 كم) باتجاه كربلاء.
- فوج مقاتلة الدروع. سرية منه مع قوة حماية جسر جرف الصخر الاستراتيجي، وسرية أخرى في قاطع النعمانية، وسرية مع اللواء المدرع الثاني في مفرق الطريق السريع مع طريق المسيب الصويرة.
- لواء القوات الخاصة ناقص فوج في جنوب بغداد (فوج منه يقوم بأعمال دوريات القتال في قاطع الديوانية عفك، وبإسناد مدفعية بعيدة المدى من الفيلق).

جرى هذا الانفتاح لقواتنا منذ منتصف شهر شباط/فبراير قبل الحرب بإلحاح شديد من قبلي، بعدما اتضح جلياً اتجاه التعرّض المعادي المحتمل أي من اتجاه الجنوب وانطلاقاً من الكويت. وقد نفّذت قواتنا جدولاً طويلاً من الإجراءات الدفاعية منها سبعة آلاف موضع قتال للدروع وللمدفعية وللعجلات الكبيرة، وأكثر من ألفين موضع عجلات مختلفة، و1864 كدس مواد تموين قتال من الأعتدة المختلفة، حيث جرى تفريغ المستودعات الرئيسية خشية تدميرها بالقصف الجوي، وجرى توزيعها على التشكيلات القتالية، وأكثر من أربعين ألف موضع قتال مزدوج للأشخاص مع كافة إجراءات التمويه الميداني، وغيرها من الأعمال الميدانية من إعداد مقرات، ومواقع سيطرة، وإخلاء، وتصليح، وغير ذلك.

في الساعة 12:00 يوم السادس والعشرين من آذار/مارس، حيث صادف هبوب أعنف عاصفة ترابية يشهدها العراق منذ خمسين عاماً مضت كما ذكرنا، أرسل المشرف على الحرس الجمهوري قصي صدام حسين في طلبي للقائه في بغداد لأمر هام، وحسب السياق، وعن طريق استعلامات الحرس الجمهوري، كان ينتظرني المرافق الأقدم له المقدم علي حسين رشيد بملابس وعجلة مدنية، حيث ذهبنا إلى دار مدنية في طرف حي المنصور ببداية شارع 14 رمضان، وبعد تبادل التحية واستفساره عن الموقف، وقفنا بجانب خريطة معلقة على الحائط، وكان كل شيء يهتزّ في هذه القاعة لشدّة القصف الجوي والصاروخي على أهداف قريبة من مكاننا بتلك الساعة، وطلب مني حسب رأي الرئيس صدام حسين معالجة الموقف في قضاء الكفل بعد نجاح العدو في عبور جسر الكفل الاستراتيجي دون التمكّن من تفجيره، كما طلب مني عدم الدخول بمعركة حاسمة وذلك للاحتفاظ بقدرات الحرس الجمهوري لمعركة بغداد، فطمأنته بأن المهمة ستنجز إن شاء الله بأفضل أداء وأقل الخسائر، لأن طيران العدو ومروحياته قد حيّدهما هذه العاصفة. وهنا صارحته بعدد من إجراءاتي من دفع عدد من الوحدات والدوريات القتالية، ومشاغلة العدو بالمدفعية، وتحريك عدد من الوحدات خارج قيود المقر الأعلى للضرورات الميدانية، فبارك تلك الإجراءات، وأشاد بقيادتي وبقواتي، ونظر إلى الفريق أول سيف الراوي الواقف بجانبي قائلاً: "إن ثقتي بفريق رعد الحمداني كبيرة رغم من يريد أن يزعزعها"، فعرفت مقصده (علمت فيما بعد أن المومأ إليه اشتكى مني حول عدد من إجراءاتي في إدارة معركة الفيلق خارج تحديدات المقر الأعلى ومنها عبور نهر الفرات، ومهاجمة القوات الأميركية في بعض الأماكن، علاوة على إشرافي الشخصي خلال تنفيذ المهام أعلاه) وهنا طلبت منه كسبق للنظر، وكي لا يتكرّر موضوع جسر الكفل مع جسر جرف الصخر لأهميته، ضرورة نسفه مبكراً، ووعدني بأن يأخذ موافقة الرئيس على الموضوع. ومع الأسف لم أحصل على الموافقة بالرغم من عدم وجود قطعات عراقية آنذاك في جرف الصخر وهي منطقة صحراوية فيها العديد من منشآت التصنيع العسكري. ومن مكتبه اتصلت برئيس

أركان فيلقي اللواء الركن فايق عبد الله، وطلبت إنذار قوة واجب من لواء القوات الخاصــة، وأن تتحشد هذه القوة في قضاء المحاويل (شمال الكفل 28 كم)، وطلبت أن يكــون آمر اللواء وآمر الفوج المظلي المقدم الركن جيحان بانتظاري في نفس المكــان قــبل الــساعة 16:00 من ذلك اليوم، وكذلك طلبت آمر مدفعية الفيلق واســتغلالاً لظروف العاصفة الترابية الشديدة لدفع عدد من بطاريات المدفعية من فرقة المدينة المنورة ومدفعية الفيلق لإسناد العملية.

لقــد التقــيت بالمعنيين بالتوقيت والمكان المتفق عليه، وكنّا نستخدم المصباح الــيدوي لــرؤية ساعاتنا اليدوية لشدة الظلام الناتج عن هذه العاصفة التي أحالت الــنهار إلى ليل برتقالي داكن، وبعد جهد جهيد عثرت على المكان السري لقيادة المنطقة في مدرسة للبنات تجنّباً للغارات الجوية التي لا تخطئ هدفاً. وكان على رأس هــذه القــيادة عــضو القيادة السياسية محمود غريب مع محافظ بابل، وعدد من المــسؤولين الحــزبيين، والمستــشار العسكري اللواء الركن المتقاعد جواد كاظم. وهالتني حالة هؤلاء الناس الذين لا يعرفون الموقف، ولو بشكل معقول بالرغم من أن عــضو القــيادة تطــوع للذهاب معي، وهذا ما رفضته. فأنا بحاجة ماسة إلى المعلومات الدقيقة عن الموقف لبناء خطة الهجوم، وبعد معاناة كبيرة عثرنا على قائد فــرقة جيش القدس التي خسرت معركة الكفل والذي أثار أعصابي والوقت ينفد بــسرعة عالية لشدّة برودة أعصابه، وقلّة اكتراثه بالموقف السيئ، وجهله بالموقف الخــاص بــه. ولكــنني تركته، وأنا ألعن من كان صاحب القرار بوضع سياسيين بمناصب قيادة عسكرية بعد أن ضيّع علينا ثلاث ساعات من الوقت الثمين. وعند توقّفنا بإحدى الثكنات العسكرية شمال الكفل، التقيت بأحد الأصدقاء اللواء الركن المــتقاعد مؤيد المهدي الذي عمل كمستشار مع الحزبيين وهو من سكان المنطقة، فــشرح لي، ولمن معي تفاصيل جيدة عن الموقف وطبيعة الأرض، وقدّم لنا نصيحة جــيدة، فــشكرته واعتــبرته هــبة لنا من السماء، في وقت حرج جداً، أجرينا الاســتطلاعات الضرورية بصعوبة بالغة لانعدام درجات الرؤية، وكاد آمر اللواء وآمــر الفــوج المرافقان لي لواجب الاستطلاع أن يصطدما بإحدى دروع العدو الواقفة عند مدخل المدينة المحتلة.

إن الوقت المهدور في ظروف انعدام الرؤية أخّرنا والقطعات كثيراً مما اضطرني إلى تأجـيل تنفـيذ هذه الغارة من الساعة 24:00 إلى الساعة 05:00 (فجر اليوم الـتالي) وكانـت العاصفة الرملية تزداد عنفاً. ورغم كل التحديدات التي فرضتها مـشاغلة الأهـداف من مسافات لا تقلّ عن 300 متر، إلا أن سوء الرؤية جعل المـسافات تصل إلى بضعة أمتار أحياناً. وبإسناد ناري كثيف (على منطقة خلف الجـسر لـتفادي الوقـوع بتأثير النار الصديقة لسوء الرؤية) شنّت الغارة العنيفة بأسلحة القوات الخاصة الخفيفة والمتوسطة بنجاح كبير، وبدأت انفجارات الدروع المـصابة واضحة جداً. ثم انسحبت القوة المهاجمة حاملة تسعة جرحى وتركت في أرض المعـركة ثلاثة شهداء بعدما تعذرت كل محاولات سحب جثثهم لشدّة ردّ الفعل المعادي بالنيران المختلفة.

استمرار المعارك

كـان توجيهي لقادة الفرق أن لا يقتصدوا بصرف عتاد المدفعية في أية فرصة تـسنح لهم لتكبيد العدو أقصى ما يمكن من الخسائر عن بُعد، وإن لم يكن إيقاع تلـك الخـسائر مضموناً، فإزعاج العدو الأميركي يعادل بنتائجه ما تمّ تدميره في معاركـنا مـع الإيرانيين في السابق. وكان السبب الآخر لهذا التوجّه أن تفويت الفرصـة في إيقـاع الخسائر أو في إبطاء تقدّم العدو كان يتيح الوقت والإمكانية للقوات الجوية لتدمير ما كدّسناه من أعتدة لضعف دفاعاتنا الجوية. فأبلت وحدات المدفعـية وحـسب السياق الذي درّبتهم عليه بلاءً حسناً بقلب القواعد القياسية باسـتخدام المدفعـية بالاعتماد على أساليب الطوارئ كأساس في استخدامنا لهذا الـسلاح المهم، فمعظم البطاريات في وضع الاختفاء العام، لقد جعل التعويل على المواضـع الجوالة والوقتية في تلبية النيران مدفعية الإسناد العام تنفّذ هذه الواجبات بدلاً من مدفعية الإسناد المباشر للاستفادة من مداها البعيد (من 27–43 كم). كما كـنا نرسـل دوريات استطلاع بالملابس المدنية لتحديد الأهداف المعادية، وكان بعض من هذه الدوريات يستخدم أجهزة ملاحة صغيرة محمولة نوع (جي بي أس) فيـبعث للمقرات الميدانية بالإحداثيات لتلك الأهداف، فتنفّذها أقرب المدافع من

مواقع وقتية وجوّالة والمعدّة مسبقاً، والقياس الثابت بالرمي هو عشر إطلاقات دون الحاجــة للتــصحيح ثم ترك موضع الرمي على الفور، والدخول في أقرب موضع اختفاء لتجنّب صيدها بالطائرات نتيجة قدرة العدو على الاستمكان والردّ السريع.

كان لاستخدام أسلحة الدفاع الجوي المحدودة لنا بأسلوب الكمائن المختلطة في أقصى الأمام (الكمين المختلط عبارة عن عجلة مدرعة تحمل سلاحاً مضاداً عيار 23 ملم مزدوج السبطانة، تسحب خلفها مدفعاً عيار 57 ملم) وتحمل على ظهرها مفرزة صواريخ ضد الجو نوع خفيف (سترلا أو أوكلا)، لقد أثرت هذه الكمائن كـثيراً علـى مروحيات العدو المسلحة (الأباتشي) وغير المسلحة (البلاك هوك، شـينوك) وحيّدت الكثير منها في تلك الأوقات في الأماكن المستورة (البساتين)، فكانت صدمة للعدو، ثم شعرت أن العدو قد غيّر من أسلوب استخدامها لاحقاً. وكانـت الـضفة الـشرقية لنهر الفرات ومنطقة كربلاء ساحة عمل جيدة لهذه الكمائن، فقد كان لها تأثير واضح حيث خوّلت آمري الكمائن صلاحيات كاملة للتـصرف الـذاتي بالكشف والتمييز والمشاغلة للأهداف الجوية دون الرجوع إلى عمـل منظومة الدفاع الجوي القياسية، وكان أفضل تأثير لهذا الأسلوب القتالي هو إجـبار تشكيل كبير من طائرات العدو بلغ العشرات من طائرات الأباتشي على تغـيير اتجاهه، وترك ساحة المعركة قرب مدينة كربلاء ليلة 1-2 نيسان/أبريل على مـا أذكـر. وأكّد لي آمر مجموعة الكمائن أعلاه فيما بعد إيقاع خسائر مؤكدة بذلك التشكيل القتالي.

لقـد عـوّلت كـثيراً علـى استخدام القوات الخاصة وكتائب وسرايا الاستطلاع في جمع المعلومات ومهاجمة أرتال العدو المتقدمة على جبهة عرضها يـزيد عن 100 كم ما بين نهري دجلة والفرات، وكان رجال القوات الخاصة عـند حـسن الظـن، وشهدت منهم مشاهد لم أرها في الحروب الخمسة التي شـاركت بها قبل هذه الحرب، وكذلك تحمل رجال المدفعية ثقلاً كبيراً. وكان لاسـتخدام أسلحة مقاومة الدروع المسيرة بأساليب جديدة دور مهم أيضاً في القـتال (يـرجع الفضل في هذا، لدور الفريق الأول سيف الراوي لتطوير هذا السلاح وأساليب قتاله).

إن اندفاع العدو على شكل عدة أرتال مسندة بالقوة الجوية والمروحيات المسلحة، أربك الكثير من قواتنا، حين شعر قسم منها بأنه قد عزل ورغم كل التثقيف على مستوى المقر العام والقادة، إلا أن معظم مقاتلينا والذين لا حظ لهم من التعليم الجيد، كانوا أوهن أولئك الجنود في تحمّل أوضاع كهذه.

بعدما فشلت فرقة جيش القدس بقيادة اللواء الركن عزيز الحيالي في الديوانية من إيقاف العدو ومنعه من دخول الديوانية مفرق الطريق السريع رغم بسالتها وتأخير العدو عدة أيام، أصبح للعدو حرية العمل شرقاً للوصول إلى نهر دجلة من اتجاه (الشوملي، النعمانية)، ولتطويق مدينة الكوت من شمالها. وهذا ما كنت أتحسّبه كثيراً قبل أكثر من أربعة أشهر من الحرب، حين أجريت مشروعاً تدريبياً مع جميع القوات المدافعة عن مدينة الكوت، وبحضور عضو القيادة المسؤول عن هذه المحافظة غازي العبيدي ومحافظها الفريق الركن المتقاعد أحمد حسن عبيد وقد أقنعتهم بتغيير الاتجاه من الشرق إلى الغرب. وعندما كانت طلائع العدو المدرعة في ذلك المفرق (الديوانية - عفك، الطريق السريع) شنّت قوة واجب من لواء القوات الخاصة التابعة للفيلق بقيادة مقدم اللواء العقيد الركن باسم سلسلة من الغارات، ونصب الكمائن، وزرع الألغام وبإسناد مدفعي من مدافع مفردة وحسب السياق، ومن موارد الفيلق وبقيادة آمر مدفعية الفيلق اللواء الركن أركان ياسين، تكبّد العدو فيها بعض الخسائر في الأرواح والآليات المدرعة حيث أشرفت شخصياً على هذه العملية من مرصد قرية الصالحية المشرفة على مفرق الطريق السريع.

كانت فرقة بغداد حرس جمهوري بقيادة اللواء الركن صالح ابراهيم مهيأة جيداً للدفاع عن مدينة الكوت، وعندما احتلّ العدو مدينة الحيّ جنوب الكوت (50 كم) وناحية الشوملي على اتجاه النعمانية - الكوت صدر أمر مباشر من قِبَل المقر الأعلى ليلة 3/29 بسحب تلك الفرقة في هذا الوقت الحرج، وتبديلها بفرقة المشاة 34 بقيادة اللواء الركن عبد الكريم حميدي - الذي اغتيل فيما بعد من قبل زمر القتل المجهولة التي صفّت المئات من كبار ضباط الجيش العراقي - وهي فرقة تابعة للفيلق الثاني كانت تدافع في قاطع خانقين شمال شرق بغداد (180 كم). وعندما علمت بهذا الأمر وأنا في منطقة الهاشمية، حيث كنت أتفقّد اللواء 23 من

فرقة نبوخذ نصر حرس جمهوري بقيادة العميد الركن محمود الجحيشي، بعدما أنجزنا واجب الغارات على مفرق طريق عفك، وأجبرنا العدو على الانسحاب إلى منطقة حقول الدواجن، أسرعت بالعودة إلى المقر لأعرف تفاصيل هذا الأمر. وكان الأمر يشير إلى سحب فرقة بغداد حرس جمهوري للدفاع في منطقة أبو غريب غربي بغداد، وهذا الأمر لو كان قبيل الحرب لكان صحيحاً لا غبار عليه، ولكن انسحاب فرقة تحت تفوّق جوي معادي ساحق لمسافة أكثر من 200 كم، وتحريك فرقة جيش أخرى لمسافة 300 كم وتحت رحمة القصف الجوي المعادي قرارٌ خطأ 100%. علاوة على ذلك، كانت قوات المارينز (رتل دجلة) قد حقّقت التماس بأطراف مدينة الكوت، وكنت قد صمّمت لهذه الفرقة خطاً دفاعياً في حالة انسحابها على نهر دجلة في منطقة الزبيدية 100 كم جنوب بغداد بأسلوب دباخي.

ليلة الثامن والعشرين من آذار/مارس اندفع العدو لمواجهة مواضع فرقة نبوخذ نصر حرس جمهوري في قاطع الحلة وعلى محورين؛ المحور الأول النجف - الحلة (بعدما أكمل العدو احتلال النجف واستعادة الكفل)، والمحور الثاني النجف - الحيدرية قضاء الهندية أي من الجنوب ومن الغرب، فدارت معارك شديدة تمّ فيها إيقاف العدو على بعد 7 كم جنوب الحلة، ودفع العدو خارج مدينة الهندية التي كان يدافع عنها لواء المشاة 22 حرس جمهوري. وقد عزّزت هذا اللواء بفوج من القوات الخاصة (الفوج 3) بإمرة المقدم الركن ثائر، وجرى تعزيز الفيلق بفوج قوات خاصة من لواء القوات الخاصة 26 العائد لفيلق الله أكبر حرس جمهوري مع آمر اللواء وبعض العناصر من مقره. وقد تمّ إعداد سلسلة من الهجمات على شكل غارات بمستويات صغيرة، لضرب العدو على طريق النجف الحلة، بالوقت الذي كانت فيه مدفعية فرقة المدينة تدكّ ليلاً نهاراً الطريق الاستراتيجي الموصل ما بين محافظة النجف ومحافظة كربلاء غربي نهر الفرات.

كانت سرية الاستطلاع العميق بقيادة النقيب معد الجحيشي تديم التماس بالعدو الأميركي (الفيلق الخامس) جنوب غرب كربلاء، والتي أفادتني بمعلومات قبل أيام استنتجت منها بأن القوات الأميركية كانت قد توقّفت غرب النجف لإعادة التنظيم.

كانت ليلة 1-2 نيسان/أبريل محرجة جداً، وبالرغم من المعنويات العالية لقواتي وقتالها ببسالة، إلا أن القوة الجوية المعادية، كانت قد أنهكت هذه القوات بسلسلة طويلة من القصف الجوي الذي استهدف المقرات، والقطعات، ومناطق الإدامة وطرقها، فنجح العدو بالتقدّم على محور دجلة إلى منطقة مفرق (النعمانية) قاطعاً طريق إدامة (الفرقة 34) التي استبدلت فرقة بغداد حرس جمهوري في قاطع الكوت الذي أصبح محاصراً من الجنوب والجنوب الغربي ومن شمالها قاطعاً الطريق الذي يوصلها ببغداد، والذي تدافع عنه قوات المعهد بالإضافة إلى قوات مقر الفيلق، واللواء السادس من فرقة بغداد، واللواء 43 من فرقة النداء في مقر 7 نيسان/أبريل (جنوب جسر ديالى الجديد 20 كم).

نجحت القوات الأميركية في قاطع الفرات بالإحاطة من الشمال الغربي لمدينة كربلاء ما بين هذه المدينة وجنوب بحيرة الرزازة مع ضغط شديد على المحور الوسطي النجف - الحلة والديوانية - ناحية قاسم على الطريق السريع. عند اطّلاعي على الموقف في الجانب الشرقي محور دجلة، أمرت قائد فرقة المعهد بتقليص دفاعاته إلى العزيزية 70 كم جنوب بغداد الحفرية، وسحب فوج الكلية العسكرية من الدبوني إلى الحفرية (45 كم) (فخسائر هذا الفوج المحتملة يصعب تعويضها) وذلك بهدف تعزيز وتقوية الدفاعات في مناطق تكثر فيها البساتين على جانبي الطريق العام الكوت - بغداد. وعند لقائي بقائد فرقة المدينة المنورة حرس جمهوري بقيادة اللواء الركن رياض حسين مساءً في مقره الجوال في اللطيفية وجدته قلقاً على وضع قطاعاته في كربلاء وتدارسنا الموقف، وكان في رأيي أن كربلاء تمثّل عنق الزجاجة، ويفترض الدفاع فيها بقوة لا تقلّ عن فرقة، لكن تحديدات المقر الأعلى كانت بعدم دفع أية قطعات غرب نهر الفرات، وكربلاء تبعد عن حافة النهر الغربية (37 كم). لقد دفعت جحفل اللواء 14 الآلي حرس جمهوري مع بعض الوحدات المساندة له على مسؤوليتي الشخصية. وقبل ليلتين عند لقائي برئيس أركان الحرس الجمهوري، الذي زار قاطع فرقة نبوخذ نصر حرس جمهوري كان يؤكّد عليّ لسحب تلك القطعات غرب نهر الفرات، بالوقت الذي لم أصارحه بحجم القوات في كربلاء، فلم أذكر له سوى فوج واحد، لأنني

كـــنت أخـــشى كيده، بحيث يقنع قصي صدام حسين بسحب تلك القطعات من كربلاء، فينفتح المجال واسعاً للعدو للاندفاع إلى المسيب أو إلى اليوسفية عبر جسر القائد في جرف الصخر الاستراتيجي الذي يربط منطقة جرف الصخر باليوسفية ثم الدورة بغداد، علاوة على الطريق الموازي للضفة الشرقية للفرات الذي يوصل إلى ناحية القصر - الرضوانية - المطار الدولي، القصور الرئاسية.

فجـــر اليوم الثاني لشهر نيسان/أبريل نجح العدو في تطوير هجومه على محور الفرات، وبدأ في تطويق مدينة كربلاء من الشمال، حيث احتل مفرق الحر - أمام عـــون. أمـــا على محور دجلة، فتمكّن من تحقيق التماس بموضع العزيزية (70 كم جـــنوب بغـــداد) مـــع استمرار الضغط على محور الطريق السريع في ناحية الإمام القاســـم (90 كم جنوب بغداد). في بنفس الوقت، علمت بوصول فرقة المشاة 16 بقـــيادة اللواء الركن مؤيد الضامن لتصبح بإمرة فيلقي وهي قادمة توّاً من الموصل، وقـــد أطلعـــت رئيس أركان الحرس الجمهوري حين التقيته على هذا المحور على الموقف، وكان رأيي أن محور الفرات لا زال هو الأخطر، وعندها اتفقنا على بعض الإجـــراءات، ثم غادرنـــا عائداً إلى بغداد. وخلال تدارسي الموقف مع قائد فرقة المعهد، طلبت منه أقصى صمود، حيث دفعت لواء المشاة الآلي 43 حرس جمهوري من فرقة النداء لمسك موضع دفاعي على مفرق بسماية جنوب بغداد 30 كم، وقد طلـــبت موافقة المقر الأعلى بدفاع كامل تلك الفرقة المدرعة على نهر ديالى جنوبي بغداد، إلا أن طلبي لم ينل الموافقة. وكانت طائرات العدو قد دمّرت جسر الصويرة الاستراتيجي قبل ليلة لتضييق حرية عمل قواتي بين ضفتي نهر دجلة، مما اضطرني إلى دفـــع فـــوج قوات خاصة عبر حافة ذلك الجسر (ذات المتر الواحد) المدمر لتعزيز موضـــع الحفرية (شرق نهر دجلة). وعند عودتي إلى بغداد ومنها إلى كربلاء حيث أصـــبح طريقـــي طويلاً جداً بسبب تدمير ذلك الجسر، أنـــزلت مساعد السائق، وكتـــبت رسالة صغيرة على قصاصة ورق، وأرسلتها بيده إلى زوجتي التي انتقلت إلى منـــزل والدها في شرق بغداد بعدما أصبح البقاء في منـــزل العائلة غربي بغداد مـــتعذراً جـــداً لـــشدة القصف الجوي، وإصابة المنـــزل بأضرار متعدّدة. أفهمت زوجـــتي ومن معها في هذه الرسالة المقتضبة أن يغادروا هذه المنطقة وبأسرع وقت

إلى مكان آخر لأن رتل العدو المتقدم على محور دجلة، سيحتلّها دون شك خلال الأيام القليلة القادمة. وعند وصولي إلى مقر الجماعة الجوالة لقائد فرقة المدينة المنورة علــى طريق المسيب، كربلاء، وجدته يدير معركة أمام عون، وحال وصولي إلى أرض المعـــركة، وجدت أن الفوج الآلي الأول من اللواء الآلي 14 قد تكبّد خسائر كبيرة جداً بغارة جوية معادية. تفحّصت آثار القصف الجوي الذي نال من هذا الفــوج، فلــم أجد تقصيراً في أداء رجاله الأبطال، وقد اتخذوا كل الإجراءات الصحيحة في تفادي الغارات الجوية بل الأمر كله يعود للتقنية العالية التي يتمتع بهـــا العدو في كشف وتمييز وإصابة الأهداف، وكانت أشلاء تسع وثلاثين جثة من أولئك الرجال قد ملأت مواضعهم مع أشلاء عجلاتهم القتالية المدرعة (نوع بي أم بي أ).

اللقاء الأخير بالقيادة والقرار الغريب

في الساعة 12:35 من يوم 2003/4/2 وبينما كنت أراقب معركة اللواء أعلاه مـــن بـــناية حكومية شمال المسيب، جاءني عقيد المخابرة الشجاع جميل، ليخبرني بطلـــب القيادة حضوري فوراً إلى بغداد. فودّعت قائد الفرقة موصياً إياه بالصمود قدر الإمكان، وواعداً إياه بتعزيز قاطع كربلاء بأقصى قدرة ممكنة، وأنا متأكد من إقناعهم بذلك.

ووفقاً للسياق كان المرافق الأقدم لقصي صدام حسين ينتظرني في استعلامات الحرس الجمهوري الكائنة في إحدى الدور السكنية خلف منـــزلي تماماً، فأقلّني معه إلى المقـــر الـــسري الكائن في حي المنصور قرب سفارة الإمارات العربية، والذي أدخلـــه لأول مرة، وهو عبارة عن دار سكنية اعتيادية، فوجدت هناك مع المشرف كل من وزير الدفاع الفريق أول سلطان هاشم، ورئيس أركان الجيش الفريق أول ابـــراهيم عبد الستار التكريتي، ورئيس أركان جيش القدس الفريق أول أياد أفتيح الـــراوي، ورئـــيس أركان الحرس الجمهوري قائد فيلق الله أكبر حرس جمهوري الفـــريق مجـــيد حـــسين الدليمي. وبعد تبادل التحية قال لي المشرف قصي صدام حسين: "فريق رعد استمع إلى رسالة سيدنا". (يقصد الرئيس صدام حسين) والتي

يـنقلها الرفيق وزير الدفاع، وكان فحوى الرسالة بأن الرئيس يتصوّر أن مجريات الحرب خلال الأسبوعين الماضيين ما هي إلا مخادعة عسكرية استراتيجية أميركية، وأن الجهد الرئيسي للأميركيين سيكون في الأيام اللاحقة من اتجاه الأردن ثم شمال مدينة الرمادي، نـزولاً إلى شمال مدينة بغداد العاصمة. وعليه ينصّ توجيه الرئيس بسحب مـا يمكن من القوات من جنوب بغداد إلى شمالها، وأن ينظّم الدفاع في بغداد، ويستند على حقول ألغام عميقة يشترك فيها بجهود الدولة... فرفعت يدي استئذاناً بالكلام، فردّ عليّ وزير الدفاع أنه ينقل رسالة شفوية من الرئيس، وهذه الرسالة تحمل أوامر، وليس هناك مجال للمناقشة. فنظرت إلى نجل الرئيس، وقلت له اسمحـوا لي بـالكلام، فسمح لي، فقلت دعونا نقف بجانب الخريطة، فاستجابوا لذلك، وشرحت الموقف العام كالآتي وبشكل مختصر:

- للعدو جهد رئيسي على محور الفرات، والآن في أعلى درجات ضغطه لاحتلال مدينة كربلاء للاندفاع من الممر المحصور بين شمالها وجنوب بحيرة الرزازة وهو عنق الزجاجة الذي ينبغي علينا أن لا نسمح له بالخروج منه.
- إن العـدو قـد أدام زخم هجومه في هذا المحور لوصول الفرقة المدرعة الرابعة الأميركية قادمة من تركيا.
- إن نصائح رئيس الوزراء الإسرائيلي أرييل شارون للرئيس الأميركي بوش والتي قرأتها قبل أكثر من شهر على موقع بالإنترنت بأن أوهن نقطة في بغداد وهي أخطـرها الـزاوية الجنوبـية الغربية منها المنطقة المحصورة ما بين الرضوانية واليوسـفية، والتي تؤدّي إلى المطار الدولي، ثم إلى القصور الرئاسية. وأنه (أي شارون) مستعدّ لتهيئة القوات الكافية لتحقيق هذا الغرض. وهو يعرف مدى صعوبة اشتراك الجيش الإسرائيلي في الحرب على العراق.
- إن الجهـد الـثانوي للعدو على محور دجلة وهو يتعرّض فيه الآن لاحتلال الزاوية الجنوبية الشرقية منطقة جسر ديالى من بغداد لتطويقها من الجنوب الـشرقي إلى الشمال الشرقي، ويعتبر الطريق الجنوبي السريع طريق صدام الكبير التسهيل الهام للتعاون ما بين الجهدين، وفيه يتمكّن العدو من العبور نحـو القـصر الجمهوري رقم (1) عبر الجسر المعلق فيتمّ التعاون مع قوة

احتلال المطار والرضوانية في الغرب، وإن تحقّق هذا انتهت الحرب بسقوط بغداد.

وعليه يتطلّب لقاء السيد الرئيس فوراً للمداولة معه حول هذا الموضوع، وإلغاء نقل القطعات إلى شمال العاصمة. وإن موضوع حقول الألغام شبه مستحيل من ناحيتي الوقت والإمكانيات، وبسبب الموقف العام.

من الحكمة السماح لي بتقوية موضع كربلاء بفرقة المدينة المنورة كاملة، وانفتاح فرقة النداء حرس جمهوري للدفاع عن نهر ديالى جنوب شرقي بغداد، وإعادة فرقة بغداد حرس جمهوري للدفاع في منطقتي الحفرية العزيزية، وتكليف فرقة المشاة 16 القادمة من الموصل بالدفاع على نهر ديالى في منطقة الرستمية وبالعمق لمسك مدخل الطريق السريع من جهة الرصافة.

تحرّك نجل الرئيس من مكانه من أقصى اليسار وسار خلف الواقفين أمامي إلى يميني، واقترب وكأنه يهمس في أذني وبصوت متهدج: "يا فريق ركن رعد هل أنت متأكد مما طرحته الآن حول الموقف العام؟" فقلت له: "متأكد منه كما أنا متأكد من حديثي مع حضرتك..." فالتفت إلى الحضور ونحن لا زلنا بوضع الوقوف "ما رأيكم بكلام فريق رعد؟" قال وزير الدفاع "أنا لا أقول أن كلام فريق رعد خطأ ولكنني أوصي بالعمل وفق رأي السيد الرئيس. ولا وقت لدينا لأن الساعة 5:00 من يوم غد موعد تنفيذ قرار سيادته حيث طلبني للقائه بعد يومين" فقلت له متعجباً: "يومين؟".

ثم جاء دور رئيس أركان الجيش فقال: "رأيي من رأي السيد وزير الدفاع". ثم جاء دور رئيس أركان جيش القدس فقال: "لا رأي لي في هذا الموضوع، ولكنني أؤكد على ضرورة إيذاء القوات الأميركية وتوجيه ضربات موجعة لها". ثم جاء دور رئيس أركان الحرس الجمهوري فقال "أنا مع الرأي الذي سمعناه نقلاً عن السيد الرئيس القائد، ومتفق معه تماماً، وهذا الرأي قد طرحته سابقاً وهو الرأي السديد". أما قائد فيلق الله أكبر حرس جمهوري فلم يتكلّم.

كانت الحيرة بادية على وجه نجل الرئيس، ثم عدنا إلى مقاعد جلوسنا، فبادر رئيس أركان الحرس الجمهوري موجهاً كلامه لنجل الرئيس قائلاً: "سيدي إن

فـــريق ركن رعد ذهب بعيداً، وإنه خالف أوامر السيد الرئيس حين دفع بلواء من قـــواته ليقاتل في كربلاء، فهو يتحمّل نتيجة هذه الخسائر، وعليه يجب أن نسرع لتنفيذ أمر السيد الرئيس". فقال لي نجل الرئيس وهو في وضع المتحير: "قم يا فريق رعد وبلّغ ما يأتي:

تكون فرقة النداء حرس جمهوري وفرقة المشاة 16 بإمرة فيلق الله أكبر حرس جمهوري أي الفيلق الأول حرس جمهوري، علاوة على فرقة بغداد التي خرجت من أمرتك قبل يومين، وتخرج فرقة المشاة 34 من إمرة فيلقك بإمرة عضو القيادة غازي العبيدي". ثم تدخّل رئيس أركان الحرس الجمهوري قائلاً له: "يجب سحب اللواء 14 مـــن كربلاء إلى الضفة الشرقية لنهر الفرات". فوافق نجل الرئيس... ثم عدْت رجائـــي له أكثر من مرة في غلق ممر شمال كربلاء، دون جدوى، ثم أصريت على بقـــاء اللواء 14 في كربلاء، ولكن إصراري لم ينفع إلا في إبقاء جحفل معركة في قصبة المسيب غرب نهر الفرات لحماية جسريْ المسيب القديم والجديد، ورجوت السماح لي بنسف جسر القائد الاستراتيجي على نهر الفرات، فوافق نجل الرئيس، ولكن بعد برهة من محادثتي مع رئيس أركاني دقّ جرس الهاتف فرفعته، فكان على الطـــرف الآخر لواء يدعى مظهر لا أعرفه؟ ولا أدري من أين يخابرنا؟ لقد أفاد أن القـــوات الأميركـــية اندفعت شمال كربلاء، وأن أرتالها المدرعة تتحرّك من جرف الصخر باتجاه الجسر المؤدي إلى منطقة اليوسفية. فأبلغت الرسالة للحضور، ولكن لـــيس هـــناك من يصدق! عندها طلبت من رئيس أركان الفيلق التأكّد من سرية الاســـتطلاع العميق حول هذا الموقف، والتأكيد على أمر نسف الجسر وإعلامي فوراً. ثم انصرف الحضور في جدل أشبه بالجدل البيزنطي حول طبيعة حقول الألغام الـــتي يجـــب أن تنـــشأ حول بغداد. وكان وزير الدفاع ورئيس أركان الجيش في طرف، ورئيس أركان الحرس الجمهوري في طرف آخر يريد تسفيه آراء خصومه. فلـــم أتمكّن من البقاء لحظة واحدة أخرى، فقلت لنجل الرئيس: "سيدي إن مصير بغـــداد الكارثي سيتحقّق خلال 48 ساعة القادمة، وأرجو أن أكون مخطئاً في رأيي هذا، وأننا ذهبنا مع القرار الخطأ... أرجو السماح لي بالعودة إلى مقري".. فأطرق رأســـه لحظـــة إلى الأسفل، ثم رفعه وهو ينظر إلي بنظرة حزينة أو نظرة غريبة لم

أعهــدها فيه ثم قال: "على راحتك.. تفضّل". فأدّيت التحية له، وخرجت حزيناً وأنــا أنظــر إلى ساعتي فكانت تشير إلى الساعة 15:40، و لم أعلم أن تلك المرة ستكون الأخيرة التي أرى فيها قصي، حيث قامت القوات الأميركية بقتله مع ابنه وشقيقه يوم الثاني والعشرين من تموز/يوليو 2003 في مدينة الموصل.

ســرت في شوارع بغداد وهي تتعرّض إلى موجة من صواريخ كروز، وكلّي حــزن علــيها، وعلــى مصير العراق، لأن القرار الخطأ سيسرع في النهاية المحزنة للعــراق.. لقد كانت الجيوش الأميركية على بعد يسير من بغداد، وقد أدار قادة بغداد ظهورهم إليها. في الطريق إلى مقري في ناحية الرشيد جنوب بغداد 25 كم كــنت شارداً بأفكار حزينة وفي رؤى كارثية تتراءى لي، ومتسائلاً في نفسي من أعطــى هذه المشورة الجهنمية للرئيس صدام حسين؟... ما هذا الهذيان؟ وما هذا الجدل العقيم؟ وما هذا الأسلوب الذي دار في قمة القيادة العسكرية العراقية في قمة الــتحديات؟ هل الأقدار تعمي البصائر إلى هذه الدرجة من الغرابة؟ كأنه السحر الأسود الذي عاث بألباب هؤلاء وهم من أكثر جيوش العالم خبرة وتجربة. وعلى مــا يبدو أن ظهور عدد من دوريات العدو قرب ناظم المجرة غرب الفلوجة وشمال الــرمادي، وإنــزال قوة في منطقة سد حديثة (140 كم شمال الرمادي) قد يكونا سبباً في هذا القرار الخاطئ. وخلال ما أنا فيه تمّ إعلامي بتقرير الاستطلاع العميق الذي أكّد رصده لأكثر من 150 دبابة وعجلة قتال مدرعة أميركية اندفعت باتجاه جرف الصخر، بعدها بقليل جاءني الخبر الذي وقع عليّ كالصاعقة أن العدو هاجم الجسر، وأن هناك احتمالاً بأنه قد تمكّن من عبوره.

معركة الفيلق الأخيرة

خــلال دراستي للموقف المستجد لابقاء فرقتين فقط (المدينة المنورة – نبوخذ نصر) وقوة المعهد المرتبة من أصل ست فرق للدفاع عن قاطع عمليات فيلقنا الذي يــواجه فــيه 90% مــن القوات الأميركية الغازية لبلدنا (الفيلق الخامس – فيلق المارينــز) مع رئيس أركان الفيلق وعدد من ضباط الركن، وكيفية ترتيب دفاعاتنا هــذا من ناحية، ومن ناحية أخرى كنت أبحث حقيقة موقف منطقة الجسر وهل

فعـــلاً قد تمّ نسفه؟ في هذه اللحظات وصلتنا معلومات تفيد أن عناصر استطلاع للعـــدو شوهدت قرب منشأة القعقاع لصناعة البارود في منطقة اليوسفية، أي أن العـــدو قد خرق بعمق 15 كم من الضفة الشرقية لنهر الفرات. هناك من يصدق وهـــناك من لم يصدق. أحدهم قال إن الأميركيين قد أجروا إنزالاً هناك بواسطة مـــروحيات النقل حسب ظنه، فخرجت مسرعاً لأستطلع الموقف بنفسي حيث إن المكـــان لا يـــبعد أكثـــر من 20 كم عنا باتجاه الغرب، بعدما أصدرت أمراً بدفع كتيبـــتين مـــن اللواء المدرع العاشر حرس جمهوري من اتجاهين: الأولى من اتجاه اللطيفـــية - المنشآت الصناعية - الجسر، والثانية من مفرق اليوسفية - المنشآت - الجسر، وبدفع ما يتيسّر من القوات الخاصة من اللواء الثالث واللواء 26 بأسرع ما يمكن، واعتبار قناة اليوسفية منطقة التحشد، وإنذار اللواء 22 من فرقة نبوخذ نصر حـــرس جمهوري في قاطع الحلة للتهيؤ للحركة، مع مسك مفرق اليوسفية بكتيبة دبابـــات المنصور من اللواء العاشر بالوقت الذي يكون فيه الفوج الآلي مع كتيبة اســـتطلاع الفـــيلق يدافعان في منطقة الجسر. كما طلبت لقائي بقائد فرقة المدينة المنورة هناك.

لقـــد تأكّدت من وجود العدو فعلاً في المكان المحدد. وكان عبارة عن سرية عجـــلات مدرعة نوع برادلي تمسك عطفة الطريق المؤدي إلى المنشآت الصناعية. وبعـــد ســـاعتين تقريباً، فاجأني رئيس أركان الحرس الجمهوري، ومدير الأركان العامـــة اللواء الركن حميد إسماعيل وهما يصلان إليّ من طريق فرعي من اتجاه العدو ويـــوكّدان مـــشاهدة العـــدو فأكبرت فيهما ولهما هذا الموقف الشجاع، وعند استفساري منهما علمت أن المشرف على الحرس الجمهوري قد طلب منهما تدقيق الموقـــف، ولكن شجاعة رئيس أركان الحرس الجمهوري دفعته إلى مخاطرة كبيرة، وكاد أن يقتل هو وصاحبه. وكانت الساعة تشير إلى ما قبل منتصف الليل بساعة ونـــصف الـــساعة، ولم يصلني من القطعات سوى سرية قوات خاصة بإمرة آمر الفـــوج الثالث، وجزء من مقر اللواء قوات خاصة، وسرية استطلاع فرقة المدينة المنورة حرس جمهوري، وسرية مقاومة دبابات من الفيلق (صواريخ تاو محمولة على نـــاقلات مـــسرفة) فطلبت من تلك القوة تأمين التماس بالعدو لحين وصول القوة

الكبرى. كان الظلام دامساً، وومضات مدفعية العدو، وراجمات صواريخه واضحة خلــف النهر، وكانت مقذوفاهما تتفجّر بالقرب منا على شكل انفلاقات جوية تــشبه انفلاقــات النابالم، وكنت أؤكد على ضابط المخابرة العقيد جميل الاتصال بمقــرنا لتوجــيه ما يتيسّر من نار المدفعية. وأكّدت على حضور قائد الفرقة وآمر مدفعــية الفــيلق. وفي منتصف الليل، كان قد وصلني مقر لواء 26 مع قوة فوج نــاقص. وهــنا طلبت من رئيس أركان الحرس الجمهوري العودة من حيث أتى وليدع الأمور لي. وكنت مصمماً على حسم الموقف سريعاً. وكان رئيس الأركان محرجاً من قصي صدام حسين، وأنا أعرف أن سبب ذلك الإحراج كان الآراء التي عرضها عصر هذا اليوم.

في حــدود الساعة 02:00 يوم الثالث من نيسان/أبريل خضنا معركة الجسر، وكان قائد فرقة المدينة المنورة حرس جمهوري معي يقود جزءاً من المعركة على هذا المحــور، وآمر اللواء العاشر العميد الركن سعد الحياني يقود قوة من الاتجاه الآخر. وكــنت قــد دفعت القوات الخاصة على امتداد قناة إروائية جافة تتصل بمنطقة أو عطفة الجسر، وبعد ساعتين من القتال، خسرت مجموعة القيادة والمخابرة التابعة لي ومــن ضمنها العقيد جميل، وجزء من مقر قائد فرقة المدينة المنورة حرس جمهوري نتيجة للغارات الجوية المعادية. وقد نجوت مع قائد الفرقة من موت محقّق أكثر من ثلاث مرات، وقد غطّت وجوهنا وملابسنا طبقة من البارود والتراب بفعل عصف المقــذوفات المتفجــرة بيننا أو بالقرب منا أو فوق رؤوسنا، وقد أدهشني مراسلي الجــندي محمــود، الــذي تركته قبل ساعات في مقري، حينما رمى بجسمه فوق ظهــري لحمــايتي عند انفجار عدة مقذوفات جوية بالقرب منا، ولم أميّزه بالليل وذلــك نتــيجة الظــلام الدامس وغمامات البارود التي كانت تغطينا، ولكن من صــيحاته حــين تأكّد من سلامتي. لقد كان يتبعني عن قرب من حيث لا أعلم. كــذلك توقّــف اندفاع دروعنا وهي بدون منظومات قتال ليلي (عاطلة أو تالفة لــتقادم الزمن عليها وعلاوة على تخلفها التقني) نتيجة إصابة وتدمير أعداد كبيرة مــنها بالقوة الجوية الأميركية، وضاع أملي في دفع جماعة تدمير الجسر بقيادة آمر الهندسة العسكرية للفيلق العميد الركن جاسم محمد وبإسناد آمر الهندسة العسكرية

حرس جمهوري اللواء الركن بكر عبد الكريم، إلا أنني أصريت على مواصلة التقدم والقتال بأي ثمن كان فمصير بغداد سيتحدّد في اليوم التالي. وكان موقف آمر كتيبة دبابات الوحدة المقدم الركن قيس العداي مذهلاً حين أوجزت له مهمته ومدى خطورتها. فأدّى التحية لي قائلاً: "أنا المقدم الركن الشهيد قيس أقسم أن لا أعود إلا بتحقيق هدفي". وفعلاً بعد نصف ساعة سقط شهيداً، وحاولت جاهداً سحب جثته، إلا أن من أرسلتهم لم يستطيعوا إلا جلب رتبته لشدة نيران العدو.

ومن المشاهد التي أثّرت فيّ أن ضابطاً برتبة نقيب صنف قوات خاصة يدعى طارق وقف أمامي وكان معي قائد الفرقة حيث اقتربنا من القوات الخاصة كثيراً وهم في اشتباك شديد بالعدو. وبعدما تأكّد ممن يقف أمامه قال: "سيدي إن آمر لواء القوات الخاصة الثالث طلب مني أن أمنعك من التقدم أكثر، ولشدة احترامي لك لن أتمكّن من إيقافك إلا أنني سأضع البندقية على بطني فإن تقدّمت خطوة أخرى قتلت نفسي". فقلت له: "اسمع يا ولدي إن شرف العراق أوشك على أن يدنس إذا ما سقطت بغداد، فلم يعد هناك حدود في المستويات، و لم يتبقَ لنا سوى ساعة واحدة لشروق الشمس، إن لم ننجح فما قيمة حياتنا". وقبل انبلاج ضوء اليوم الثالث من نيسان/أبريل وصلت طلائع لواء القوات الخاصة إلى عطفة الجسر، وفي هذه اللحظات شنّت أعداد كبيرة من الطائرات المقاتلة والمروحيات المسلحة سلسلة من الهجمات الشديدة فلم يتبقَ لي أية دبابة أو ناقلة، أما عجلات القيادة العائدة لي ولقائد الفرقة فقد دُمّرت بإحدى الغارات الجوية المبكرة بعد منتصف الليل بقليل. لقد أشرقت الشمس، وطائرات العدو تمعن بقواتنا تدميراً، عندها فقدت الأمل، وأمرت بالقتال التراجعي إلى خطوط صدّ إلى الخلف. فلقد خسرنا المعركة بعدما اتضح لي بأن قوة العدو عند نهاية الجسر أكثر من جحفلي معركة فيهما من الدبابات ما يزيد عن 60 دبابة وعجلة قتال، وعشرات الطائرات المروحية المقاتلة، ناهيك عن القوة الجوية التي لم تكن تمهلنا إلا دقائق بين الغارة والأخرى وبدقة لا تصدق في إصابتها للأهداف. وفي حدود الساعة 06:30 قطعنا التماس بدروع العدو، وقد خفّت الغارات الجوية كثيراً حيث ملأت أعمدة الدخان المتصاعدة من دروعنا المحترقة سماء المنطقة، ولكن الذي آلمني كثيراً أن تلك

الطائرات قد أمعنت تدميراً أيضاً بقرى الفلاحين ضمن منطقة القتال، وقتلت الكثير منهم من نساء وأطفال وشيوخ. لقد رفعت آخر موقف لمقرنا الأعلى حول طبيعة المعركة، ونتائجها، وختمت ذلك الموقف (لم تنقصنا الشجاعة، ولن ننكر شجاعة عـدونا، ولكـن تقنـيات أسـلحتهم وتفوّقها اللذين لا يجاريان حسما المعركة لصالحهم).

في حدود الساعة التاسعة صباح اليوم الثالث من نيسان/أبريل جلست وقائد فـرقة المدينة المنورة وآمريّ الهندسة العسكرية للفيلق والمقر الأعلى قرب الشارع الرئيـسي في المـنطقة، وقد أنهكنا التعب والألم من هذه الخسارة. وصلني رئيس أركان الحرس الجمهوري ومعه رئيس أركاني (الذي أخفى إصابته بشظية في ظهره لشجاعته وإخلاصه) وقد صبّ جام غضبه على آمر اللواء العاشر الذي وصل قبله بدقائـق فقلت له: "يا سيدي لم يقصّر أحد. إن تفوّق العدو التقني وقوته الجوية لا يجاريـان، والـرجل قاتل حتى النهاية". فعاد إدراجه إلى بغداد دون أن يردّ على كلامي، وهنا رجاني قائد الفرقة دخول أحد بيوت الفلاحين المهجورة والقريبة منا بمسافة 300 م تقريباً للراحة، حيث لم نعد قادرين على رفع أقدامنا من شدة التعب والإرهـاق. وكـنت قد خمّنت بأن العدو سيستأنف هجومه بعد الساعة 12:00. وكنت آمل بسحب فرقة نبوخذ نصر حرس جمهوري بكاملها إلى مفرق اليوسفية للـدفاع عن بغداد في جنوبها الغربي، في هذا الوقت، وصلني آمر اللواء الرابع مشاة العقـيد الركن عبد السلام ابراهيم الناصري وهو من خيرة آمري الألوية بالفيلق، فكلفته بمهمة مسك موضع دفاعي على قناة اليوسفية بكامل لوائه مع ما يتيسّر من القطعـات المتبقـية من المعركة، لمنع العدو من الوصول إلى مفرق اليوسفية مهما كلف الأمر.

حال ما أوينا إلى ذلك البيت الريفي الخالي من أهله الذين شردتهم الغارات الجوية ليلة أمس على ما يبدو حيث وجدنا عشاءهم متروكاً في إحدى الغرف، ألقيـنا بجـسدينا المنهكين على أرضية إحدى الغرف. وبعد برهة من الوقت، اسـتيقظت علـى أصوات رمي عنيف. ونظرت إلى ساعتي فوجدتها تشير إلى العاشـرة والنصف صباحاً، فنظرت إلى صاحبي فوجدته وكأنه جثة هامدة من

شدة التعب. عندها خرجت طالباً من عنصري الحماية المتبقيين لدى قائد الفرقة أن يحضرا لي أية عجلة يعثرا عليها، حتى ولو كانت جراراً زراعياً. وبعد قليل جاءا لي بعجلة نوع نيسان بترول يقودها ملازم المخابرة حيدر، عرفت منه أنه المتبقي الوحيد من تلك المجموعة التي كان يرأسها العقيد جميل. وبسرعة وصلت إلى القناة التي طلبت من اللواء الرابع الدفاع عليها، وكان اتجاه المعركة في أقصى اليمين منا أي باتجاه الشمال، وبعد استفساري من أحد الفلاحين الهاربين من تلك المنطقة التي تجري فيها الاشتباكات، عرفت منه أن العدو استأنف تعرّضه في اتجاهين الأول باتجاه مفرق اليوسفية بغداد، والثاني باتجاه ناحية القره غول، الرضوانية ففزعت لهذا الأمر وخاصة أن أعداد دباباته ودروعه الأخرى حسب تقدير ذلك الفلاح كانت تقارب 200 دبابة ومدرعة... لقد ركبت بسرعة ومعي هذا الضابط الشاب الذي أخبرني بأن آخر جهاز اتصال متبقي معنا هو (الموبايل - الخلوي) الذي نجا من التدمير قد هبطت نضيدته، ولم يعد يؤمّن الاتصال، ثم ما لبثت أن توليت القيادة بدلاً عنه لضعفه فيها، وما إن وصلت إلى نقطة التقاء طريقي بالطريق القادم من ناحية القره غول باتجاه مفرق اليوسفية، حتى وجدت نفسي أمام دبابات المقدمة لذلك الرتل بمسافة لا تزيد عن 200 متر في أبعد تقدير. وكأنني دخلت إلى فوهة بركان مقذوفات المدفعية المتفجرة فوق الرؤوس، ومقذوفات الدبابات الأميركية التي كانت تدمّر أي شيء يتحرّك أمامها، وكان معظم ما يتحرك هو عجلات المدنيين الهاربين من أرض المعركة، فكانت تحيلهم إلى أشلاء مهروسة. كان منظراً لم أشهده في الحروب السابقة. وبسرعة عالية ذات مناورات حادة، تمكّنت من الاجتياز بعيداً باتجاه مفرق اليوسفية للوصول إلى مقري في ناحية الرشيد لإنقاذ ما يمكن إنقاذه. إلا أن سرعة العجلة كانت قد هبطت كثيراً وتوازنها قد اختل، ولم يعد هناك حسبما أحسست أي إطارات، بعدما فقدنا زجاج تلك العجلة الذي تحوّل إلى آلاف الشظايا. وفي اللحظة الحرجة، وجدت مرافقي الملازم الأول بلال قد أحضر لي عجلة إلا أن تلك النيران قد أوقفته على جانب من الطريق، فسررت لذلك كثيراً. ولكن الأمر الذي أحزنني هو استشهاد ذلك الضابط

الشاب الذي رافقني. وبسرعة وصلت إلى مقري لأتّخذ من القرارات والأوامر السريعة ما يساعد على درء ما يمكن من الأخطار المحدقة ببغداد. فأصدرت أمراً بحركة فرقة نبوخذ نصر حرس جمهوري بأسرع ما يمكن لمسك عقدة اليوسفية والـدفاع عنها مهما كلف الثمن، مع علمي بأننا نحتاج إلى معجزة لكي تصل بالوقت الملائم، وكذلك أصدرت أمراً إلى كتيبة دبابات المنصور المنفتحة قريباً مـنا لصدّ العدو في مفرق اليوسفية فوراً، وأصدرت أمراً آخر لتحريك ما تبقى مـن اللـواء المـدرع الثاني من فرقة المدينة المنورة المدافع على الطريق السريع للانسحاب باتجاهنا قدر الإمكان مع حساب الطيران المعادي الذي ملأ الأجواء.

ولم يمضِ وقت طويل حتى دخلت دروع العدو في ناحية الرشيد الذي كان مقرنا فيها (بناية دائرة الكهرباء)، ونشب القتال في مقري. وكانت خلفي نافذة قـد أغلقتها دبابة أميركية من نوع أبرامز، فصاح أحد ضباط الركن الواقفين أمامـي: "يا للهول". وبإصرار من المسؤول السياسي للفيلق اللواء الركن عضو المكـتب العسكري محمود رجا شلاح، وضباط الركن الثلاثة، خرجنا من المقر بإحـدى العجلات، وكان اتجاهنا تحدّده صليات رشاشات الدروع المعادية التي انتشرت بيننا بسرعة مذهلة حتى وصلنا إلى نهاية طريق ترابي عند بستان فيه دار كـبيرة، ومن غرائب الصدف أن يكون صاحب هذه الدار أحد الأقارب وهو مهـندس قد هجر بغداد إلى الريف لينشد الراحة ويسر العيش لعائلته الكبيرة. فآوانـا عنده، وكان كريماً جداً، وأثبت بعد قليل من الوقت شجاعة احترمته عليها كثيراً، عندما خرج إلى القوة المطاردة لنا لثنيها عن تفتيش داره، كنت في تلك الساعة رافضاً الخلاص بنفسي من ذلك الموقف العسير. وكنت قبل وصول تلـك القوة قد سمحت لرفاقي بالخلاص بأنفسهم باتجاه بيت الشيخ أبو ياسين الـذي يقـع على بعد بضعة كيلومترات.. كنت أحاول أن أفعل شيئاً وإن لم أقـدر، فغـرق قبطان السفينة مع سفينته عمل شريف... لم يكن يفصلني عن جـنود ذلك الفصيل الأميركي الذي ترجّل من ناقلاته سوى بضعة أمتار، وأنا خلـف جـذع إحدى أشجار النخيل الذي غطّت قاعدته مجموعة من الفسائل الناشئة حديثاً، وقد عجبت من صغر أعمار أولئك الجنود الذين يضعون مانعات

التـــراب البلاستيكية على عيونهم وبعد مداولة بين مضيفي وآمر فصيلهم (كان ضـــابط من أصول أفريقية) لم يتقدموا، بل انتشروا في المكان، وبدأوا يمشّطون حافات البستان بعدة صليات من رشاشات دروعهم البرادلي. وبعد نصف ساعة خــرجوا من البستان، إلا أنهم أحاطوا به كإحاطة السوار بالمعصم، وأنا في غم شديد وأسف على ما آلت إليه حماقة السياسة العراقية. لقد أصبح هؤلاء الغزاة على أبواب بغداد الجنوبية.

بــدأنا اشـــتباكاً محدوداً بمحدودية الأعتدة المتيسرة بالأسلحة الخفيفة فجر الـــيوم الرابع من نيسان/أبريل بعدد من جنودنا وضباطنا المتبقين في هذه المنطقة مـــع قوة أميركية منفتحة في المنطقة و لم يحدث أي شيء آخر بعدها ذو قيمة.. لقـــد حاولت الاتصال بقطعاتي وتجميع ما يمكن تجميعه إلا أنني فشلت في هذا. وكانـــت مشاهد تصاعد الحشود العسكرية الأميركية ثم حركتها باتجاه الشمال أي باتجـــاه بغداد يزداد يوماً بعد يوم، والألم يعصرني ويحزنني كثيراً، وكأن بين جانحي ناراً وقودها لا ينضب - وكان مضيفي سعيد جداً باقتراب نهاية النظام الـــسياسي العراقي، ويأمل كل الخير في الأميركيين - ولا أعرف بالضبط ما هو اتجاهـــه الـــسياسي، إلا أنني أنظر إلى الأمور نظرة مختلفة عنه، وحسب فهمي لطبـــيعة الأمـــور السياسية، والأمنية، والاجتماعية، والاقتصادية في بلادنا فإن الفـــراغ الهائل والسريع الناتج عن سقوط نظامنا السياسي، وعدم توفّر مراكز قـــوى سياســـية فاعلـــة ومكافئة لنظام الرئيس صدام حسين ومخلفات صراعنا الطـــويل مع إيران كلها ستوجد معاً مسببات إعصار قوي سيعصف في البلاد كمـــنطقة انخفـــاض الضغط المفاجئ. كنت أتضرّع إلى الله الرحمن الرحيم أن يـــرحم هـــذا الشعب الذي ابتلي بنتائج السياسات الحمقاء، فحوّلته الظروف القاسية من حروب طويلة وحصار ظالم من شعب ودود إلى شعب بالغ التعقيد، قـــريب إلى مجتمع الجريمة والعنف والذي يعاني من شح كبير في الفئات المثقفة (الأنتلجنسية) أو السياسية القادرة على إحكام السيطرة على المجتمع في مثل هذا الظـــرف العـــصيب. كان لدى مضيفي فنان نمساوي يدعى (ماريو) وهو من الرسامين النادرين الذين يرسمون الطبيعة ليلاً في العالم، وقد تطوّع مع مَن تطوّع

مـــن إنـــسانيي العـــالم كدرع بشري في محاولة لمنع الحرب من الاندلاع. وقد أدهشني بمشاعره الإنسانية العظيمة تجاه الشعب العراقي وتجاهي شخصياً حيث كـــان يـــؤمّن لي الإنذار المبكر لاقتراب أي جنود أميركيين منا. ومن غرائب الأحـــداث، وخلال تواجدي وحركتي وسط وحدات العدو أن أتفحّص طبائع وتجهيزات وأسلحة القوات الأميركية عن قرب شديد، وفي إحدى المرات كدت ألمـــس عجـــلات المروحية المسلحة الأميركية نوع أباتشي حين هبطت طائرتان منها في المكان الذي كنت مختبئاً فيه ثم أقلعتا بعد توقف قليل. كنت أتابع تطور هـــذه الأسلحة منذ سنوات عديدة بصعوبة ثم أسعفتنا الإنترنت مؤخراً بالكثير من المعلومات... لم يخطر ببالي سلوك الجنود الأميركيين الذين رصدهم. والحق يقـــال لقد احترمتهم كثيراً لشدة انضباطهم العسكري؛ فلم ينـــزع أي جندي مـــنهم أي شيء من تجهيزاته وحتى خوذة الرأس ولو لدقائق معدودة، وكذلك لكفـــاءهم الفنـــية وهذا يدل على المستوى العلمي المعروفين فيه، إلا أنه يؤخذ علـــيهم عـــدم تمييـــزهم مـــا بين الأهداف العسكرية والمدنية فكأن في الدبابة الأميركـــية إنـــسان روبـــوت وليس بشراً. لقد كنت مخطئاً حين تصوّرت أن الأميركـــيين لن يلجأوا إلى الاشتباك القريب - لقد فعلوها أكثر من مرة - في لـــيلة 6-4/7 شاهدت اندفاعات سريعة تجاه بغداد، لقد كدت أموت حزناً في تلـــك اللـــيلة. لقد انتهى كل شيء وبغداد بل العراق على شفا الهاوية ليسقط صريعاً فيها.

أما قواتي على محور دجلة فقد تقهقرت بعد سلسلة من المعارك ضد المارينـــز المـــسندين بالقـــوة الجـــوية والمروحيات المسلحة. وكانت طائرات الشينوك تقوم بسلـــسلة مـــن الإنزالات التعبوية خلف قواتنا هناك. لقد أدّى معظم رجال فيلقي دورهم بشرف والحمد لله.

الانهيار

لقـــد شـــكل وصول الأرتال الأميركية ليلة 4-5/نيسان/2003 إلى مداخل ومخـــارج العاصـــمة العـــراقية بغداد التي دمرها وأحرقتها آلاف الصواريخ الجوالة

والقنابل صدمة مادية ومعنوية للقيادتين السياسية والعسكرية بالإضافة إلى كل من كـــان في بغداد وقتها قاطناً أو مدافعاً. لقد كان للعبور السريع للقوات الأميركية للجـــسر الاستراتيجي الذي يسمى جسر القائد والذي يربط غرب الفرات بشرقه، نـــتائج مصغّرة وشبيهة لعبور القوات الأميركية لجسر ريماغن فوق نهر الراين غربي ألمانيا عام 1944، الذي أدى وقتها لاحتلال عاصمة الرايخ الثالث. وقد لعب عدم قيام آمر حرس التخريب كتيبة الاستطلاع الفتح المبين حرس جمهوري بتنفيذ أمري الصادر له (شفوياً وتحريرياً) بنسف الجسر متى شعر باقتراب العدو منه دوراً في هذا العـــبور السريع. ويقال ولا أعلم دقة ذلك، أن رئيس أركان فيلقي قال له بالحرف الـــواحد عـــندما التقاه "إياك أن تنفذ هذا الأمر لأن السيد الرئيس لم يوافق على نـــسفه، وإذا فعلـــت فستعلم ماذا سيحل بقائدنا..." وكان كلامه هذا من باب الحرص والاخلاص لي. على كل حال، حتى لو تم تدمير الجسر فما كان ذلك ليغير الكثير، نظراً للإمكانات الكبيرة التي يتمتع بها الجيش الأميركي.

لـــولا حذر القوات الأميركية الشديد، لسقطت بغداد يوم 2003/4/5 خاصة من جهة الغرب. حيث توقف الرتل الأميركي الواصل إلى منطقة أبي غريب والمطار الدولي فيما كان القصر الرئاسي في الرضوانية إلى شرقه. إضافة إلى ذلك، نجاح قوة الاســـتطلاع بالقـــوة، الـــتي نفذتها قوة مدرعة صغيرة بحماية مروحيات الأباتشي والطائـــرات الـــصائدة للدروع نوع A10 من اختراق الطريق الجنوبي من منطقة الدورة - مفرق الطريق السريع عند جامع أم الطبول - طريق المطار الدولي، وقد لعـــب الـــسياج الأمـــني للطريق دوراً في تحقيق قوة الاستطلاع لمهمتها، بحيث لم تنتظرها مقاومات كبيرة وقد نفذت هذه المهمة في اليوم التالي لليوم الذي وصلت فـــيه القوات إلى منطقة أبي غريب. ومن غريب المواقف أن الرئيس صدام حسين واجه هذا الموقف بعناصر من حمايته الشخصية، حيث دمّروا دبابتين أميركيتين من هـــذه القـــوة، وقد راقب هذا الموقف وهو جالس في مظلة انتظار الحافلات أمام الـــسياج الخارجـــي لجامـــع أم الطبول وهو في حالة أسى وذهول. وكاد الرئيس العراقـــي والقـــيادة يقـــتلون في مقر اجتماع سري في حي المنصور ببغداد بفعل المتعاونين مع القوات الأميركية. لقد بدأت معنويات فيلق الله أكبر حرس جمهوري

مــع معظم القوات المدافعة عن بغداد تنهار. ووفقاً لرواية قائد الفيلق، فإن معظم العناصــر المقاتلــة وخاصة الجنود بدأوا بترك دباباهم وأسلحتهم منذ ذلك اليوم وبــشكل تدريجــي حتى وصلت أعداد المقاتلين يوم 2003/4/9 إلى بضعة جنود وعــشرات الضباط في كل لواء قتال. وأكّد لي هذه المعلومات العميد الركن محمد سطم رئيس أركان فرقة النداء التي كانت تدافع عن القسم الشرقي من بغداد بعدما خرجت من إمرتي إلى إمرة الفيلق أعلاه يوم 3 نيسان/أبريل.

في الــسادس من نيسان/أبريل فشل الهجوم المقابل على منطقة المطار الذي شنّته عناصر مختلفة من الحرس الجمهوري الخاص بإمرة العميد الركن برزان عبد الغفــور الناصــري ابــن عم الرئيس، ومن فدائيي صدام، ومن بعض الأجهزة الأمنــية، والحماية الخاصة، وبعض الفدائيين، وبعض عناصر الحرس الجمهوري، وبإسناد مدفعية الحرس الجمهوري نتيجة استخدام القوات الأميركية كثافة نارية هائلــة فيها الكثير من الأعتدة الحارقة. وكان قد سبق ذلك دخول الأميركيين الجزء الغربي من المطار، ثم انسحابهم منه لشدة خسائرهم على ما يبدو، فقاموا إثر ذلك بقصف شديد للهدف. ويُشكّ باستخدامهم أعتدة ذات تأثير فائق، إن كــثيراً مما قيل عن تفاصيل معركة المطار يشوبه الكثير من الضباب بل المبالغات والمغالطــات أحياناً، فمعظم القوات التي كلّفت بأمر مباشر من الرئيس صدام حسين ونجله قصي بعد الهجوم المقابل أعلاه قد تحدّدت ما بين ساحة ابن فرناس ومدخل منطقة المطار. لقد شوهد الرئيس صدام حسين وهو في معنويات عالية في عــدة أمــاكن مــن بغداد، وكأنه يأمل في حلّ سياسي من خلال السفارة الروســية في بغداد. وفي ليلة 6-7 نيسان/أبريل أعفى الرئيس صدام حسين رئيس أركــان الحــرس الجمهــوري الفريق أول سيف الراوي من منصبه وقال له بالحرف الواحد: "لقد سلبت إرادة الحرس الجمهوري على القتال. لقد كنت فيك مخطئاً خطئاً كثيراً، و لم تكن تقديراتك صحيحة لكل المواقف". وأوكلت قيادة الحرس الجمهوري إلى وزير الدفاع ورئيس أركان الجيش اللذين طالما تآمر عليهما هذا الرجل من خلال شخــصيته المريضة بحب الذات. إلا أن المومأ إليه لم يترك ميدان المعركة، بالرغم من حالة الإحباط التي ظهر فيها، إلا أنه أبدى شجاعة كبيرة، وكأنه يريد الموت، و لم يبقَ

معـــه إلا ولـــده يحمـــل سلاحاً لحمايته، كما أن مقر الحرس الجمهوري كان يسعفه بالاحترام من قبل ضباط ركنه، وعلى رأسهم مدير الأركان العامة وكذلك قائد فيلق الله أكبر حرس جمهوري الذي كان مجبراً على مرافقته.

تمكّـــنت القـــوات الأميركية في 2003/4/7 من التوغل في بغداد من جنوبها الشرقي ومن شرقها النهروان - بعقوبة - الرستمية، ومن غربها مناطق الرضوانية - المطـــار الـــدولي - القصر الرئاسي الجزء الغربي منه، ومن جنوبها الغربي الدورة - الطريق السريع - مدخل الكرادة، من جهة الجسر ذي الطبقتين. وقد أمعن الطيران الأميركي الصائد للدروع تدميراً في دروع الحرس الجمهوري فرقة حمورابي حرس جمهـــوري فـــرقة عدنان حرس جمهوري فرقة النداء حرس جمهوري... وهبطت معنويات المدافعين إلى أدنى حدّ لها، وتمّ نسف جسري نهر ديالى، وجسر المثنى على نهر دجلة شمالي بغداد من قبل هندسة فرقة النداء وهندسة مقر الحرس الجمهوري. وانهار الجهاز الحزبي، فبدأت المظاهر المسلحة تختفي تدريجياً من شوارع بغداد. وفي اجـــتماع للـــرئيس صـــدام حـــسين مع بعض عناصر المقر العام للجيش والحرس الجمهـــوري ظهـــر برباطة جأش، وردّد أكثر من مرة أمام الحضور أنه يرى النصر قريباً جداً؟!

في 2003/4/8 أصدر علي حسن المجيد الذي وصل سالماً من البصرة بواسطة سيارة إسعاف أمراً لتجميع جميع ضباط المقر العام من رتبة فريق إلى ملازم في نادي الـــضباط بمـــنطقة الكـــسرة لتوزيع الأحزمة الناسفة عليهم لتدمير الدروع المعادية بأجسادهم، ولا أعرف ما درجة تنفيذ هذا الأمر الغريب؟ فقد كان كل من دوائر رئاســـة أركـــان الجيش، وكبار ضباط الجيش والقوات المسلحة يأملون بالمغادرة بأســـلوب مشرف قدر الإمكان، وكان رئيس أركان الجيش يرتدي الملابس المدنية لأســـباب أمنية بالوقت الذي تلاشت الحمايات الخاصة للمناصب العليا. وفي هذا اليوم وقبله انهارت قواتنا بالشمال تماماً، واستسلمت قيادتها (الفيلق الأول والفيلق الخـــامس/جـــيش) إلى القوات الأميركية ومعظمها من الفرقة المحمولة جواً (101) بإسناد قوات الأحزاب الكردية دون أن تفعل شيئاً يذكر يوم 4/10، وكذلك قوات الفـــيلق الثاني جيش!... في هذا اليوم أيضاً (أي 4/8) دخلت الدبابات الأميركية

بغداد ومركزها الغربي، وسيطرت على جسورها تجاه مقاومة شديدة لكنها متفرقة والتي كان معظم أبطالها المتطوّعين العرب الذين قدموا لبغداد قبل مدة وجيزة من الحرب وكان من بينهم أعداد كبيرة من السوريين.

مساء ذلك اليوم ظهر نجل الرئيس قصي صدام حسين في حالة الوهن الشديد بل الانهيار المعنوي التام بحيث لم يتمكّن في بعض الأحيان من النزول من عجلته الخاصة عكس ما ظهر عليه طيلة فترة الحرب من هدوء ورباطة جأش وشجاعة، وكانت ملامح وجهه توحي باليأس من استمرار البقاء في بغداد وكأنه يريد في قرارة نفسه أن يفهم مقر الحرس الجمهوري هذا دون اضطراره لإصدار أمر الانسحاب من بغداد نحو شمالها، ليحتفظ بماء وجهه حين يغادرها خلسة وليس أمام ضباطه من قيادة الحرس الجمهوري الذين عاش معهم بتماس مباشر لأكثر من عشر سنوات مضت كقائد لهم. لقد نجحت قوات المارينز وبعض القوات المدرعة الأميركية من اختراق بغداد من جنوبها وشرقها، فيما اخترقتها قوات الفيلق الخامس الأميركي من الجنوب والغرب.

يوم 2003/4/9 دخلت قوات الفرقة الثالثة الأميركية وقوات المارينز إلى جميع أنحاء بغداد من الغرب والشرق، وكان المشهد الدراماتيكي والمعدّ بإخراج شبه سينمائي في إسقاط التمثال الكبير للرئيس العراقي صدام حسين في ساحة الفردوس في منطقة الفنادق العالمية إيذاناً بسقوط نظام حزب البعث العربي الاشتراكي بقيادة صدام حسين بعد 35 سنة من الحكم واستكملت عملية احتلال العاصمة بغداد، وتم إشعار باقي الجهات العراقية بالتسليم مثل تكريت والرمادي وغيرهما. وقد شوهد الرئيس صدام حسين في الوقت نفسه مع زمرة من الحماية الشخصية في حي الأعظمية وقرب جامع أبي حنيفة يشقّ طريقه بصعوبة وسط مئات من المواطنين الذين كانوا يحيّونه بإخلاص، ثم غادرهم نحو شمال العاصمة وهو بحالة نفسية لا بأس بها ثم عقبه علي حسن المجيد. ويظنّ أن رئيس أركان الجيش كان يرافقه مع مجموعة من الفدائيين والمتطوّعين العرب، حيث خاضوا آخر معركة عند جسر الطارمية على نهر دجله شمال شرق بغداد ضد القوات الأميركية المعقبة واستشهد من هؤلاء أحد عشر فدائياً. وكان المومأ

إليه قبل ليلة يبحث مع قائد الفيلق الأول حرس جمهوري ورئيس أركان الحرس الجمهوري خطة مقترحة للهروب من العاصمة نحو الأنبار في الغرب، أمّا نجلا الرئيس وجزء من عوائلهم فقد سلكوا الطريق نحو الأنبار ثم قصدوا الحدود السورية، وقد تعقّبتهم الطائرات الأميركية التي قصف بعضها إحدى الدور المشتبه بإيوائهم فيها، فنتج عن ذلك مجزرة راح ضحيتها أكثر من عشرين بريء من النساء والأطفال.

لقد ذهل العالم بسرعة سقوط بغداد، وذهل أكثر عندما شاهد من خلال وسائل الإعلام البصرية انطلاق أكبر فوضى جماهيرية لشعب احتلته جيوش دولة أجنبية، وكأن صفحة من صفحات التاريخ الهمجي للبشرية قد أعيدت في بغداد. فقبل 745 سنة عندما سقطت بغداد بيد المغول سلبت، ونهبت، وأحرقت بغداد على يد فاتحيها. أما اليوم فنفس الفعل قامت به جماعات هائلة من الرعاع، والدهماء، والغوغائيين من أطراف مدينة بغداد بتشجيع أو بتساهل من الفاتحين وأمام أنظارهم وذلك بهدف الاجهاز على ما تبقى منها سالماً. ومما لا شك فيه أن القوات الأميركية تتحمل مسؤولية أخلاقية وتاريخية في هذا الموضوع لأن جيوش الدول المتحضرة تعي ما تفعل وهناك ثوابت أخلاقية وإدارية للاحتلال العسكري بإعلان تشكيل حكومة عسكرية للشؤون المدنية، مع الإعلان عن حالة الطوارئ وعدم التجوال وهذا ما لم يحدث.

عندما أيقنت بانتهاء كل شيء مررت على قريبي المهندس عبد الله الحمداني لوداعه وعائلته الكريمة وضيفه الفنان النمساوي ماريو، ولأشكره على ما قدّمه لي من عون.. بعدما سرحت نائب الضابط ابراهيم وعناصر من الحماية واستأذنته لاصطحاب ابنه ليث معي وبواسطة عجلة (بيك آب) قديمة كانت متوقفة قرب داره ليدلني على بيت شيخ عشيرة الحمدانيين (أبو ياسين) للاستعانة بحفيده بلال كدليل معي لإيصالي إلى مقري في قضاء المدائن عبر الطريق الزراعي لأجمع ما يمكن من ضباط المقر لمواجهة مصيرنا بعد خسارتنا للحرب، حيث توقّعت قيام الأميركيين بإعداد الإجراءات الرسمية للاستسلام وفقاً للسياقات الدولية. وعند دار الشيخ أبو ياسين ودّعت الجميع شاكراً لهم سماحهم لبلال المجيء معي. وعلمت

منهم أن جميع الضباط الذين سبق أن أرسلتهم إليهم قد ذهبوا إلى بغداد مع صهري الملازم أول دريد متسللين قبل 3 أيام. وخلال اجتيازنا لثلاث سيطرات أميركية على طريق الآثار رقم 37 كان بلال قلقاً عليّ جداً خشية تفتيش حقيبتي من قبل أولئك الجنود حيث بدلتي العسكرية وسلاحي الكلاشنكوف. وحال وصولنا إلى الضفة المقابلة لمقري، حيث كان الجسر العائم مقطوعاً - إلا أن المنظر الذي أمامي لا يحتاج إلى تفسير - كانت هناك بضع عجلات عسكرية أميركية قد سمحت لجمهور فوضوي بنهب المقر الرئيسي. ثم علمت التفاصيل من أحد جنود الحراسة، بعدها لجأت إلى إحدى المزارع حيث بدأت أبحث عن عائلتي من خلال بعض الأعوان، فعلمت بلجوئها إلى أقربائنا في محافظة ديالى، وأنهم بخير إلا أن ابني البكر الملازم المهندس أحمد قد فقد في الأيام الأخيرة من الحرب. وبعد حملة بحث وجد جريحاً عندما أصابته ثلاث طلقات من رشاش دبابة أميركية، ومن حسن الحظ أن أحد الجنود الأميركيين يدعى ديفيد نزل من ناقلته المدرعة - وبروح إنسانية عالية - وأسعفه على الفور ومن معه من جرحى. وبعد اجتياز القوة الأميركية، تمكّن أحد جنودنا ويدعى عمر من إخلائه إلى أقرب مركز صحي. وبذل هذا الجندي جهوداً كبيرة لإنقاذ حياته، إلا أن صديقه نائب الضابط عصام فارق الحياة متأثراً بجراحه. فحمدت الله على رعايته له، وبعد معاناة طويلة اجتمعت العائلة في بيتنا غربي بغداد، وخلال أكثر من شهر تمكّنت بوساطة أحد الأصدقاء من تسليم نفسي لإحدى الدوائر العسكرية الأميركية بأمان بعد فترة من التخفي والتنكر بملابس القرويين، والغريب أن جيشاً عظيماً كالجيش الأميركي لم يضع أو يعمل بسياق واضح للتعامل مع خصمه الجيش المهزوم من ضبط قواه العددية والتعامل الإنساني مع جرحاه وفق عمليات إخلاء منظمة، والمساعدة في عمليات دفن الشهداء والبحث عن المفقودين، كذلك إحكام السيطرة على أسلحته وأعتدته وتجهيزاته كجزء مهم من الإجراءات الأمنية الواجب اتخاذها لحفظ الأمن العام لبلد أصبح على ذمتهم من الناحية القانونية والأخلاقية! وقد تركوا حدود هذه البلاد مفتوحة على مصراعيها ليدخل من يدخل؟ إن روح الجندية العالية هي سمة الجيوش الأصيلة المتحضرة، وفوق حسابات النصر أو الهزيمة! كان أسوأ قرار اتخذته السلطات

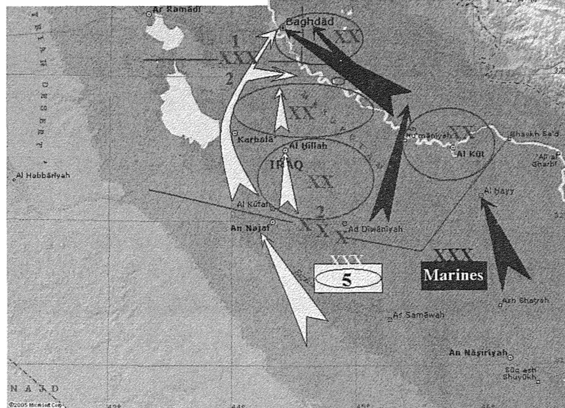
الأميركية هو قرار إلغاء وتفكيك الجيش العراقي مع باقي مؤسسات دولة العراق تنفيذاً لمشروع أعدّته الدوائر الخاضعة للصهيونية السياسية ينتهي بتقسيم العراق بل إلغاء شخصيته المعنوية بمساعدة قوى محلية وإقليمية أخذتها مصالحها الضيقة وعاطفة الانتقام من نظام صدام حسين! وما كانت مؤسسات أو جيش دولة ما ملكاً خاصاً لرئيس أو زعيم ولا ندري كيف سيواجه هؤلاء الأجيال القادمة؟ آه على بلدنا، آه على شعبنا، لقد عصفت به الأقدار، وتباً للحماقات التي أوصلتنا إلى الضياع، وتباً للأحقاد الغبية التي ستوصلنا إلى التمزّق الشنيع لشعب من أرقى وأطيب الشعوب. ربنا لا نسألك ردّ القضاء ولكنّا نسألك اللطف فيه.

"ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين".

الفريق الركن
رعد مجيد الحمداني
بغداد (2004)


الملحق (و)
الحرب على العراق
عام 2003
القوات الأميركية
القوات البريطانية
TURKEY
SYRIA
JORDAN
SAUDI
ARABIA
KUWAIT
Mosul
Arbil
Karkūk
Tigris
Sāmarrā
Euphrates
BAGHDAD
Ar Rutbah
Karbalā'
Al Kūt
An Naja
An Nāsirīyah
Al Basrah
Umm Qasr
Shatt
al
Arab
Arabian
Gulf

Habur Gate
GROUND FORCES AND SOF
SYRIA
Mosul
Dayr az Zawr
IRAN
Kirkuk
Hamadan
Al Sahra
Tikrit
Green Line
Al Qaim
Balad
H2
Baghdad
Al Taqaddum
H3
SOF
Karbala
Al Kut
Dezful
JORDAN
An Najaf
Al Amarah
An Nasiriyah
Ahvaz
SAUDI ARABIA
Ar'ar
Basrah
Umm Qasr
KUWAIT
Rafha
COALITION GROUND FORCES
3 Carriers in Arabian Gulf
Distance in Kilometers
0 75 150



ملحق (و - 3) معارك فيلق الحرس الجمهوري الثاني (الفتح المبين) للدفاع عن جنوب بغداد تجاه القوات الأميركية (الفيلق الخامس وفيلق المارينز من 26/ 3 إلى 4/4 2003